جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين

المولى محمد مهدي النراقي



الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

جامع السعادات

(الجزء الثاني)

جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين

المولى محمد مهدي النراقي (قدس سره)

(الجزء الثاني)

انتشارات اسماعيليان

نراقی، مهدی بن ابی ذر. ۱۱۲۸-۱۲۰۹ق.
جامع السعادات / مؤلف محمد مهدی النراقی.-
قم: انتشارات اسماعیلیان، ۱۳۷۹.
۲ج.
(ج.۱) ISBN 964-6397-20-4-.(دوره) ISBN 964-6397-19-0
(ج.۲) ISBN 964-6397-21-2
فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
چاپ قبلی: دارالتفسیر، ۱۳۷۵.
کتابنامه.
۱.اخلاق اسلامی. الف.عنوان.
BP۲۴۷/۷/ ۲ج۴ن ۲۹۷/۶۱
۱۳۷۹
۳۵۸۴-۷۹م
کتابخانه ملی ایران

اسم الكتاب:......... جامع السعادات (ج ٢)	عدد المطبوع : .... ١٠٠٠ مجلد
المؤلف :الشيخ الجليل محمد مهدى النراقى	القطع:...... .... وزيرى
الناشر: اسماعيليان ٧٧٤٤٢١٢-٠٢٥١	عدد الصفحات:............. ٥٦٠ صفحة
تاريخ النشر:... ١٤٢٨ هـ.ق - ١٣٨٦ هـ.ش	شابك مجلد الثاني:..... ٢-٢١-٦٣٩٧-٩٦٤
الطبعة :........... السابعة	شابك الدورة:.......... ٠-١٩-٦٣٩٧-٩٦٤
المطبعة:......... سرور	سعر المجلدين: .... ٥٥٠٠ تومان

المقام الرابع

فيما يتعلق بالقوى الثلاث من العاقلة وقوتى الغضب والشهوة،أو باثنتين منها من الرذائل والفضائل.

الحسد وذمه ـ الغبطة ـ بواعث الحسد ـ لا تحاسد بين علماء الآخرة والعارفين ـ علاج الحسد ـ القدر الواجب في نفى الحسد ـ النصيحة ـ الايذاء والاهانة ـ كف الأذى ـ ذم الظلم ـ العدل ـ اخافة المؤمن ـ ادخال السرور على المؤمن ـ ترك اعانة المسلمين ـ قضاء حوائج المسلمين ـ المداهنة في الأمر بالمعروف ـ السعى فيه ـ وجوبه وشروطه ـ لا تشترط العدالة فيه ـ مراتبه ـ ما ينبغى في الآمر والناهى ـ انواع المنكرات ـ الهجران ـ التآلف ـ قطع الرحم ـ صلة الرحم ـ المراد منه ـ عقوق الوالدين ـ برهما ـ حق الجوار ـ حدود الجوار وحقه ـ طلب العثرات ـ ستر العيوب ـ افشاء السر ـ كتمان السر ـ النميمة ـ السعاية ـ الافساد بين الناس ـ الاصلاح ـ الشماتة ـ المراء علاجه ـ طيب الكلام ـ السخرية ـ المزاح ـ المذموم منه ـ الغيبة ـ لا تنحصر الغيبة باللسان ـ بواعثها ـ ذمها ـ مسوغاتها ـ كفارتها ـ البهتان ـ المدح ـ الكذب ـ ذمه ـ مسوغاته ـ التورية ـ المبالغة ـ شهادة الزور ـ علاج الكذب ـ الصدق ومدحه ـ انواعه ـ اللسان اضر الجوارح ـ الصمت ـ حب الجاه ـ ذمه ـ الجاه احب من المال ـ لا بد للانسان من جاه ـ دفع اشكال ـ الكمال الحقيقى في العلم والقدرة والجاه والمال ـ علاج حب الجاه ـ الخمول ـ مراتب حب المدح ـ اسبابه ـ علاجه ـ ضد حب المدح ـ الرياء ـ ذمه ـ اقسامه ـ تأثير الرياء على العبادة ـ السرور باطلاع على العبادة ـ متعلقات الرياء ـ بواعثه ـ الرياء الجلى والخفى ـ كيف يفسد الرياء العمل ـ شوائب

الرياء المبطلة للعمل ـ علاجه ـ الوسوسة بالرياء ـ الاخلاص ـ مدحه ـ آفاته ـ النفاق.

فمنها:

الحسد

وهو تمنى زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح، فان لم ترد زوالها عنه ولكن تريد لنفسك مثلها فهو (غبطة) ومنافسة، فان لم يكن له فيها صلاح وأردت زوالها عنه فهو (غيرة). ثم إن كان باعث حسدك مجرد الحرص على وصول النعمة إلى نفسك، فهو من رداءة القوة الشهوية، وإن كان باعثه محض وصول المكروه إلى المحسود، فهو من رذائل القوة الغضبية، ويكون من نتائج الحقد الذي هو من نتائج الغضب، وإن كان باعثه مركباً منهما، فهو من رداءة القوتين. وضده (النصيحة)، وهى ارادة بقاء نعمة الله على أخيك المسلم مما له فيه صلاح.

ولا ريب في أنه لا يمكن الحكم على القطع بكون هذه النعمة صلاحا أو فساداً. فربما كانت وبالاً على صاحبه وفساداً له، مع كونها نعمة وصلاحا في بادى النظر. فالمناط في ذلك غلبة الظن، فما ظن كونه صلاحاً فارادة زواله حسد وارادة بقائه نصيحة، وما ظن كونه فاسداً فارادة زواله غيرة. ثم إن اشتبه عليك الصلاح والفساد، فلا ترد زوال نعمة أخيك ولا بقاءها إلا مقيداً بالتفويض وشرط الصلاح، لتخلص من حكم الحسد ويحصل لك حكم النصيحة. والمعيار في كونك ناصحاً: أن تريد لأخيك ما تريد لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. وفي كونك حاسداً: أن تريد له ما تكره لنفسك وتكره له ما تريد لنفسك.

فصل

(ذم الحسد)

الحسد أشد الأمراض واصعبها، وأسوأ الرذائل وأخبثها، ويؤدى بصاحبه إلى

عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة، لأنه في الدنيا لا يخلو لحظة عن الحزن والألم، إذ هو يتألم بكل نعمة يرى لغيره، ونعم الله تعالى غير متناهية لا تنقطع عن عباده، فيدوم حزنه وتألمه. فوبال حسده يرجع إلى نفسه، ولا يضر المحسود اصلاً، بل يوجب ازدياد حسناته ورفع درجاته من حيث أنه يعيبه، ويقول فيه ما لا يجوز في الشريعة، فيكون ظالماً عليه، فيحمل بعضاً من أوزاره وعصيانه، وتنقل صالحات أعماله إلى ديوانه، فحسده لا يؤثر فيه إلا خيراً ونفعاً، ومع ذلك يكون في مقام التعاند والتضاد مع رب الأرباب وخالق العباد، إذ هو الذي أفاض النعم والخيرات على البرايا كما شاء وأراد بمقتضى حكمته ومصلحته، فحكمته الحقة الكاملة أوجبت بقاء هذه النعمة على هذا العبد، والحاسد المسكين يريد زوالها، وهل هو إلا سخط قضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وتمنى انقطاع فيوضات الله التي صدرت عنه بحسب حكمته وارادة خلاف ما أراد الله على مقتضى مصلحته؟! بل هو يريد نقصه سبحانه، وعدم اتصافه بصفاته الكمالية. إذ إفاضة النعم منه سبحانه في أوقاتها اللائقة على محالها المستعدة من صفاته الكمالية التى عدمها نقص عليه تعالى، وإلا لم يصدر عنه، وهو يريد ثبوت هذا النقص، ثم لتمنيه زوال النعم الإلهية التي هي الوجودات ورجوع الشرور إلى الاعدام يكون طالباً للشر ومحباً له. وقد صرح الحكماء بأن من رضى بالشر، ولو بوصوله إلى العدو، فهو شرير. فالحسد أشد الرذائل، والحاسد شر الناس. وأى معصية أشد من كراهة راحة مسلم من غير أن يكون له فيها مضرة؟ ولذا ورد به الذم الشديد في الآيات والأخبار، قال الله سبحانه في معرض الانكار:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1]. وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ

(١) النساء، الآية: ٥٤.

ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ ﴾[١]. وقال: ﴿**إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا**﴾[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب». وقال ﷺ: «قال الله عز وجل لموسى بن عمران: يابن عمران، لا تحسدن الناس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدن عينيك إلى ذلك، ولا تتبعه نفسك. فان الحاسد ساخط لنعمي، صاد لقسمي الذي قسمت بين عبادي. ومن يك كذلك، فلست منه وليس مني». وقال ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله اخوانا». وقال ﷺ: «دب اليكم داء الامم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضة هي الحالقة. لا أقول حالقة الشعر، ولكن حالقة الدين. والذى نفس محمد بيده! لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا. ألا انبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ افشوا السلام بينكم!». وقال ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر». وقال ﷺ: «سيصيب أمتي داء الأمم، قالوا: وما داء الأمم؟ قال: الأشر، والبطر، والتكاثر، والتنافس في الدنيا. والتباعد والتحاسد، حتى يكون البغي ثم الهرج». وقال ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون». وقال ﷺ: «إن لنعم الله أعداء. فقيل: ومن هم؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله». وورد في بعض الأحاديث القدسية: «أن الحاسد عدولنعمتي. متسخط لقضائي. غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي». وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إن الرجل ليأتي بأدنى بادرة فيكفر[٣]، وأن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب». وقال ابو عبدالله عليه السلام: «آفة الدين. الحسد والعجب

---

(١) البقرة، الآية ١٠٩.

(٢) آل عمران، الآية ١٢٠.

(٣) في بعض نسخ (الكافي): «ليأذى» وفي نسخ (جامع السعادات): «ليأتي بأي». ورجحنا نسخة (الوسائل) و(البحار) كما في المتن.

والفخر». وقال ﷺ: «إن المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط»[١]. وقال ﷺ: «الحاسد مضر بنفسه قبل أن يضر بالمحسود، كابليس أورث بحسده لنفسه اللعنة، ولآدم الاجتباء والهدى والرفع إلى محل حقائق العهد والاصطفاء. فكن محسوداً ولا تكن حاسداً، فان ميزان الحاسد أبداً خفيف بثقل ميزان المحسود، والرزق مقسوم. فما ذا ينفع الحسد الحاسد، وماذا يضر المحسود الحسد. والحسد أصله من عمى القلب والجحود بفضل الله تعالى، وهما جناحان للكفر، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد، وهلك مهلكا لا ينجو منه أبداً، ولا توبة للحاسد، لأنه مصر عليه معتقد به مطبوع فيه، يبدوبلا معارض به ولا سبب، والطبع لا يتغير عن الأصل، وإن عولج»[٢]. وقال بعض الحكماء: «الحسد جرح لا يبرأ». وقال بعض العقلاء: «ما رأيت ظالماً اشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه». وقال بعض الأكابر: «الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلاً، ولا من الملائكة إلا لعنة وبغضاً، ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً، ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولاً، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالاً». والأخبار والآثار في ذم الحسد أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه يكفى لطالب الحق. ثم ينبغي أن يعلم أنه إذا اصاب النعمة كافر أو فاجر وهو يستعين بها على تهيج الفتنة وايذاء الخلق وافساد ذات البين، فلا مانع من كراهتها عليه وحب زوالها منه، من حيث أنها آلة للفساد، لا من حيث أنها نعمة.

---

(١) صححنا احاديث هذا الفصل على (البحار): ٣مج ١٥ / ١٣١ ـ ١٣٢، باب الحسد وعلى (الكافى): باب الحسد. وعلى (سفينة البحار): ١ / ٢٥٠ ـ ٢٥١. وعلى (احياء العلوم): ٣ / ١٦٢ ـ ١٦٤ وعلى (الوسائل): أبواب جهاد النفس، الباب ٥٤.

(٢) هذا الخبر في (مصباح الشريعة): الباب ٥١. وصححناه عليه.

فصل
(المنافسة والغبطة)

قد علمت أن المنافسة هي تمنى مثل ما للمغبوط، من غير أن يريد زواله عنه، وليست مذمومة، بل هي في الواجب واجبة، وفي المندوب مندوبة، وفي المباح مباحة. قال الله سبحانه:

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾[١].

وعليها يحمل قول النبى ﷺ: «لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على ملكه في الحق. ورجل آتاه الله علماً، فهو يعمل به ويعلمه الناس»: أي لا غبطة إلا في ذلك، سميت الغبطة حسداً كما يسمى الحسد منافسة، اتساعاً لمقارنتهما. وسبب الغبطة حب النعمة التي للمغبوط، فإن كانت أمراً دينياً فسببها حب الله وحب طاعته، وإن كان دنيوية فسببها حب مباحات الدنيا والتنعم فيها. والأول لاكراهة فيه بوجه، بل هو مندوب اليه. والثانى وان لم يكن حراماً، إلا أنه ينقص درجته في الدين، ويحجب عن المقامات الرفيعة، لمنافاته الزهد والتوكل والرضا.

ثم الغبطة لو كانت مقصورة على مجرد حب الوصول إلى مثل ما للمغبوط، لكونه من مقاصد الدين والدنيا، من دون حب مساواته له وكراهة نقصانه عنه، فلا حرج فيه بوجه، وان كان مع حب المساواة وكراهة التخلف والنقصان، فهنا موضع خطر. اذ زوال النقصان اما بوصوله إلى نعمة المغبوط أو بزوالها عنه، فإذا انسدت احدى الطريقتين تكاد النفس لا تنفك عن شهوة الطريقة الأخرى. إذ يبعد أن يكون انسان مريداً لمساواة غيره في النعمة فيعجز عنها، ثم لا ينفك عن ميل إلى زوالها، بل الأغلب ميله اليه، حتى إذا زالت النعمة عنه كان ذلك عنده أشهى من

(١) المطففين، الآية: ٢٦.

بقائها عليه، إذ بزوالها يزول نقصانه وتخلفه عنه. فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد إلى اختياره لسعى في ازالة النعمة عنه، كان حاسداً حسداً مذموماً. وإن منعه مانع العقل من ذلك السعي، ولكنه وجد من طبعه الفرح والارتياح بزوال النعمة عن المغبوط، من غير كراهة لذلك ومجاهدة لدفعه، فهو أيضاً من مذموم الحسد، وإن لم يكن في المرتبة الأولى. وإن كره ما يجد في طبعه من السرور والانبساط بزوال النعمة بقوة عقله ودينه، وكان في مقام المجاهدة لدفع ذلك عن نفسه، فمقتضى الرحمة الواسعة أن يعفى عنه، لأن دفع ذلك ليس في وسعه وقدرته إلا بمشاق الرياضات. إذ ما من انسان إلا ويرى من هو فوقه من معارفه واقاربه في بعض النعم الإلهية، فإذا لم يصل الى مقام التسليم والرضا، كان طالباً لمساواته له فيه، وكارهاً عن ظهور نقصانه عنه. فإذا لم يقدر أن يصل اليه، مال طبعه بلا اختيار إلى زوال النعمة عنه، واهتز وارتاح به حتى ينزل هو إلى مساواته. وهذا وإن كان نقصاً تنحط به النفس عن درجات المقربين، سواء كان من مقاصد الدنيا أو الدين، إلا أنه لكراهته له بقوة عقله وتقواه، وعدم العمل بمقتضاه، يعفى عنه إن شاء الله، وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له.

وقد ظهر من تضاعيف ما ذكر: أن الحسد المذموم له مراتب اربع:

الأولى ـ أن يحب زوال النعمة عن المحسود وإن لم تنتقل اليه، وهذا اخبث المراتب وأشدها ذماً.

الثانية ـ أن يحب زوالها لرغبته في عينها، كرغبته في دارحسنة معينة، أو امرأة جميلة بعينها، ويحب زوالها من حيث توقف وصوله اليها عليه، لا من حيث تنعم غيره بها. ويدل على تحريم هذه المرتبة وذمها قوله تعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(١).

---

(١) النساء، الآية: ٣٢.

الثالثة ـ ألا يشتهي عينها، بل يشتهي لنفسه مثلها، إلا أنه إن عجز عن مثلها احب زوالها عنه، كيلا يظهر التفاوت بينهما، ومع ذلك لو خلي وطبعه، اجتهد وسعى في زوالها.

الرابعة ـ كالثالثة، إلا أنه إن اقتدر على ازالتها منعه قاهر العقل أو غيره من السعي فيه، ولكنه يهتز ويرتاح به من غير كراهة من نفسه لذلك الارتياح.

والغبطة لها مرتبتان:

الأولى ـ أن يشتهي الوصول إلى مثل ما للمغبوط، من غير ميل إلى المساواة وكراهة للنقصان، فلا يحب زوالها عنه.

الثانية ـ أن يشتهي الوصول إليه مع ميله إلى المساواة وكراهته للنقصان، بحيث لو عجز عن نيله، وجد من طبعه حباً خفياً لزوالها عنه، وارتاح من ذلك ادراكاً للمساواة ودفعاً للنقصان، إلا أنه كان كارهاً من هذا الحب، ومغضباً على نفسه لذلك الارتياح، وربما سميت هذه المرتبة بـ(الحسد المعفو عنه) وكأنه المقصود من قوله ﷺ: «ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد، والظن، والطيرة... ثم قال: وله منهن مخرج، إذا حسدت فلا تبغ ـ أي إن وجدت في قلبك شيئاً فلا تعمل به، وكن كارهاً له ـ وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض».

فصل

(بواعث الحسد)

بواعث الحسد سبعة:

الأول ـ خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله. فانك تجد في زوايا العالم من يسر ويرتاح بابتلاء العباد بالبلايا والمحن، ويحزن من حسن حالهم وسعة عيشهم. فمثله إذا وصف له اضطراب امور الناس وادبارهم، وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم، يجد من طبعه الخبيث فرحاً وانبساطاً، وإن لم يكن بينه وبينهم عداوة ولا رابطة، ولم

يوجب ذلك تفاوتاً في حاله من وصوله إلى جاه أو مال أو غير ذلك. وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله وانتظام اموره، شق ذلك عليه، وإن لم يوجب ذلك نقصاً في شيء مما له. فهو يبخل بنعمة الله على عباده من دون قصد وغرض، ولا تصور انتقال النعمة اليه، فيكون ناشئاً عن خبث نفسه ورذالة طبعه. ولذا يعسر علاجه، لكونه مقتضى خباثة الجبلة، وما يقتضيه الطبع والجبلة تعسر ازالته، بخلاف ما يحدث من الأسباب العارضة.

الثاني ـ العداوة والبغضاء. وهي أشد أسبابه، إذ كل احد ـ إلا أوحدي من المجاهدين ـ إذا أصابت عدوه بلية فرح بذلك، إما لظنها مكافأة من الله لأجله، أو لحبه طبعاً ضعفه وهلاكه. ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك، لأنه ضد مراده، وربما تصور لأجله أنه لا منزلة له عند الله، حيث لم ينتقم من عدوه وأنعم عليه، فيحزن لذلك.

الثالث ـ حب الرئاسة وطلب المال والجاه. فان من غلب عليه حب التفرد والثناء، واستقره الفرح بما يمدح به من أنه وحيد الدهر وفريد العصر في فنه، من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو غير ذلك. لو سمع بنظير له في أقصى العالم ساءه ذلك، وارتاح بموته أو زوال النعمة التي يشاركه فيها، ليكون فائقاً على الكل في فنه، ومتفرداً بالمدح والثناء في صفته.

الرابع ـ الخوف من فوت المقاصد. وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فان كل واحد منهما يحسد صاحبه في وصوله هذا المقصود، طلباً للتفرد به، كتحاسد الضرات في مقاصد الزوجية، والأخوة في نيل المنزلة في قلب الابوين توصلاً إلى مالهما، والتلامذة لأستاذ واحد في نيل المنزلة في قلبه، وندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة والكرامة عنده، والوعاظ والفقهاء المتزاحمين على أهل بلدة واحدة في نيل القبول والمال عندهم، إذا كان غرضهم ذلك

الخامس ـ التعزز: وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه بعض اقرانه. ويعلم أنه لو

أصاب بعض النعم يستكبر عليه ويستصغره، وهو لا يطيق ذلك لعزة نفسه، فيحسده لو أصاب تلك النعمة تعززاً لنفسه. فليس غرضه أن يتكبر، لأنه قد رضى بمساواته، بل غرضه أن يدفع كبره.

السادس ـ التكبر: وهو أن يكون في طبعه الترفع على بعض الناس، ويتوقع منه الانقياد والمتابعة في مقاصده، فإذا نال بعض النعم خاف الا يحتمل تكبره ويترفع عن خدمته، وربما اراد مساواته أو التفوق عليه، فيعود مخدوماً بعد ان كان خادماً، فيحسده في وصول النعمة لأجل ذلك. وقد كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ من هذا القبيل، حيث قالوا: كيف يتقدم علينا غلام فقير يتيم؟

﴿لَوْ لَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(١).

السابع ـ التعجب: وهو ان يكون المحسود في نظر الحاسد حقيراً، والنعمة عظيمة، فيعجب من فوز مثله بمثلها، فيحسده ويحب زوالها عنه ومن هذا القبيل حسد الأمم لأنبيائهم، حيث قالوا:

﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾(٢). **﴿فَقَالُوا: أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا؟﴾**(٣). **﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾**(٤).

فتعجبوا من فوز من هو مثلهم برتبة الوحي والرسالة، وحسدوه بمجرد ذلك، من دون قصد تكبر أو رئاسة أو عداوة أو غيرها من أسباب الحسد.

وقد تجتمع هذه الأسباب أو أكثرها في شخص واحد، فيعظم لذلك حسده، وتقوى قوة لا يقدر معها على المجاملة، فتظهر العداوة بالمكاشفة. وربما قوى الحسد بحيث يتمنى صاحبه أن يزول عن كل أحد ما يراه له من النعمة، وينتقل اليه.

---

(١) الزخرف، الآية: ٣١.

(٢) يس، الآية: ١٥.

(٣) المؤمنون، الآية: ٤٧.

(٤) المؤمنون، الآية: ٣٤.

ومثله لا ينفك عن الجهل والحرص، إذ هو يتمنى استجماع جميع النعم والخيرات الحاصلة لجيمع الناس له، ولا ريب في استحالة ذلك، ولو قدر امكانه لا يمكنه الاستمتاع بها، فلو لم يكن حريصاً لم يتمن ذلك أصلاً، ولو كان عالماً لدفع هذا التمنى بقوته العاقلة.

(تنبيه) بعض الأسباب المذكورة، كما يقتضى أن يتمنى زوال النعمة والسرور به كذلك يقتضى تمنى حدوث البلية والارتياح منه. إلا أن المعدود من الحسد هو الأول، والثانى معدود من العداوة. فالعداوة اعم منه، إذ هي تمنى وقوع مطلق الضرر بالعدو، سواء كان زوال نعمة أو حدوث بلية. والحسد تمنى زوال مجرد النعمة.

فصل

(لا تحاسد بين علماء الآخرة والعارفين)

الأسباب المذكورة إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون لأجلها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف بعضهم بعضاً في غرض من اغراضه، أبغضه وثبت فيه الحقد، فعند ذلك يريد استحقاره والتكبر عليه، ويكون في صدد مكافاته على المخالفة لغرضه، ويكره تمكنه من النعمةالتي توصله إلى اغراضه، فيتحقق الحسد. ولذا ترى أنه لا تحاسد بين شخصين في بلدتين متباعدتين، لعدم رابطة بينهما، إلا إذا تجاورا في محل واحد، وتواردا على مقاصد تظهر فيها مخالفة بينهما، فيحدث منهما التباغض، وتثور منه بقية اسباب الحسد. وترى كل صنف يحسد مثله دون غيره، لتواردهما على المقاصد، وتزاحمهما على صنعة واحدة. فالعالم يحسد العالم دون العابد، والتاجر يحسد التاجر دون غيره، إلا بسبب آخر سوى الاجتماع على الحرفة، وهكذا يغم من اشتد حرصه على حب الجاه وأحب الصيت والاشتهار في جميع اطراف العالم وشاق التفرد بما هو فيه. فانه يحسد كل من في العالم ممن يشاركه في الفن الذي يتفاخر به.

ثم منشأ جميع ذلك حب الدنيا، إذ منافعها لضيقها وانحصارها تصير محل التزاحم والتعارك، بحيث لا يمكن وصول منفعة منها، كمنصب أو مال، إلى أحد إلا بزوالها عن الآخر. وأما الآخرة، فلا ضيق فيها، فلا تنازع بين أهلها. ومثالها في الدنيا العلم، فانه منزه عن المزاحمة. فمن يحب العلم بالله وصفاته وافعاله ومعرفة النظام الجملي من البدو الى النهاية، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً. إذ العلم لا يضيق عن كثرة العالمين. والمعلوم الواحد يعرفه الف الف عالم، ويفرح كل واحد منهم بمعرفته ويلتذ به، ولا ينقص ما لديه بمعرفة غيره، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الانس وثمرة الافادة والاستفادة. إذ معرفة الله بحر واسع لا ضيق فيه، وكل علم يزيد بالانفاق وتشريك غيره من ابناء النوع. يصير منشأ لزيادة اللذة والبهجة، وقس على العلم التقرب والمنزلة عند الله وغيرهما من النعم الأخروية. فان أجل ما عند الله من النعم وأعلى مراتب المنزلة والقرب عنده تعالى لذة لقائه، وليس فيها ممانعة ومزاحمة، ولا يضيق بعض أهل اللقاء على بعض، بل يزيد الأنس بكثرتهم.

وقد ظهر مما ذكر: أنه لا تحاسد بين علماء الآخرة، لأنهم يلتذون ويبتهجون بكثرة المشاركين في معرفة الله وحبه وأنسه، وإنما يقع التحاسد بين علماء الدنيا، وهم الذين يقصدون بعلمهم طلب المال والجاه. إذ المال أعيان وأجسام، إذا وقعت في يد واحد خلت عنها أيدي الآخرين. والجاه ملك القلوب. وإذا امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم، انصرف عن تعظيم الآخر، أو نقص عنه لا محاله. فيكون ذلك سبباً للتحاسد. وأما إذا امتلأ قلبه من الابتهاج بمعرفة الله، لم يمنع ذلك من أن يمتلىء غيره به. فلو ملك انسان جميع ما في الأرض، لم يبق بعده مال يملكه غيره لضيقه وانحصاره. وأما العلم فلا نهاية له، ومع ذلك لو ملك انسان بعض العلوم، لم يمنع ذلک من تملك غيره له.

فظهر أن الحسد انما هو في التوارد على مقصود مضيق عن الوفاء بالكل. فلا حسد بين العارفين ولا بين العليين. لعدم ضيق ومزاحمة في المعرفة ونعيم

الجنة، ولذا قال الله سبحانه فيهم:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾[١].

بل الحسد من صفات المسجونين في سجن السجين.

فيا حبيبى، إن كنت مشفقاً على نفسك، طالباً لعمارة رمسك، فاطلب نعمة لا مزاحمة فيها، ولذة لا مكدر لها. وما هي إلا لذة معرفة الله وحبه وانسه، والانقطاع إلى جناب قدسه، وإن كنت لا تلتذ بذلك، ولا تشتاق اليه، وتنحصر لذاتك بالأمور الحسية والوهمية، فاعلم أن جوهر ذاتك معيوب، وعن عالم الأنوار محجوب، وعن قريب تحشر مع البهائم والشياطين، وتكون مغلولا معهم في أسفل السافلين. ومثلك في عدم درك هذه اللذة، مثل الصبى والعنين في عدم درك لذة الوقاع. فكما أن هذه اللذة يختص بادراكها رجال اصحاء، فكذلك لذة المعرفة يختص بادراكها:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٢].

ولا يشتاق غيرهم اليها، إذ الشوق بعد الذوق، فمن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك كان مطروداً عن العليين، ممنوعاً عن مجاورة المقربين، محبوساً مع المحرومين في أضيق دركات السجين:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[٣].

فصل

(علاج الحسد)

لما علم أن الحسد من الأمراض المهلكة للنفوس، فاعلم أن أمراض النفوس

---

(١) الحجر، الآية: ٤٧.

(٢) النور، الآية: ٣٧.

(٣) الزخرف، الآية: ٣٦.

لا تداوى إلا بالعلم والعمل. والعلم النافع لمرض الحسد أن تعرف أنه يضرك في الدين والدنيا ولا يضر محسودك فيهما، بل ينتفع به فيهما. ومهما عرفت ذلك عن بصيرة وتحقيق، ولم تكن عدونفسك لا صديق عدوك، فارقت الحسد.

وأما أنه يضر بدينك ويؤدى بك إلى عذاب الأبد وعقاب السرمد، فلما علمت من الآيات والأخبار الواردة في ذمه وعقوبة صاحبه، ولما عرفت من كون الحاسد ساخطاً لقضاء الله تعالى، وكارهاً لنعمه التي قسمها لعباده، ومنكراً لعدله الذي أجراه في ملكه. ومثل هذا السخط والأنكار، لايجابه الضدية والعناد لخالق العباد، كاد أن يزيل اصل التوحيد والايمان، فضلاً عن الاضرار بهما. على أن الحسد يوجب الغش والعداوة بالمؤمن، وترك نصيحته وموالاته وتعظيمه ومراعاته ومفارقة أنبياء الله وأوليائه في حبهم الخير والنعمة له، ومشاركة الشيطان واحزابه في فرحهم بوقوع المصائب والبلايا عليه، وزوال النعم عنه. وهذه خبائث في النفس، تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

واما أنه يضرك في الدنيا، لأنك تتألم وتتعذب به، ولا تزال في تعب وغم وكد وهم، إذ نعم الله لا تنقطع عن عباده ولا عن أعدائك، فانت تتعذب بكل نعمة تراها لهم، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى دائماً مغموماً محزوناً، ضيق النفس منشعب القلب، فانت باختيارك تجر إلى نفسك ما تريد لأعدائك ويريد أعداؤك لك. وما أعجب من العاقل أن يتعرض لسخط الله ومقته في الآجل، ودوام الضرر والالم في العاجل، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى وفائدة.

وأما أنه لا يضر المحسود في دينه ودنياه فظاهر، لان النعمة لا تزول عنه بحسدك. إذ ما قدره الله من النعم على عباده لا بد أن يستمر إلى وقته، ولا ينفع التدبير والحيلة في دفعه، لا مانع لما أعطاه ولا راد لما قضاه:

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾. ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[١].

ولو كانت النعم تزول بالحسد، لم تبق عليك وعلى كافة الخلق نعمة، لعدم خلوك وخلوهم عن الحسد، بل لم تبق نعمة الايمان على المؤمنين، إذ الكفار يحسدونهم، كما قال الله سبحانه:

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٢].

ولو تصورت زوال النعمة عن محسودك بحسدك، وعدم زوالها عنك بحسد حاسدك، لكنت أجهل الناس وأشدهم غباوة. نعم، ربما صار حسدك منشأ لانتشار فضل المحسود، كما قيل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طُويت، أتاح لها لسان حسود

فإذا لم تزل نعمته بحسدك، لم يضره في الدنيا، ولا يكون عليه إثم في الآخرة.

وأما أنه ينفعه في الدين، فذلك ظاهر من حيث كونه مظلوما من جهتك، (لا) سيما إذا اخرجك الحسد إلى ما لا ينبغي من القول والفعل، كالغيبة، والبهتان، وهتك ستره، وإفشاء سره، والقدح فيه، وذكر مساويه. فتحتمل بهذه الهدايا التي تهديها إليه بعضاً من أوزاره وعصيانه، وتنقل شطراً من حسناتك إلى ديوانه، فيلقاك يوم القيامة مفلساً محروماً عن الرحمة، كما كنت تلقاه في الدنيا محروماً عن النعمة. فاضفت له نعمة إلى نعمة، ولنفسك نقمة إلى نقمة.

وأما أنه ينفعه في الدنيا، فهو أن أهم أغراض الناس مساءة الاعداء، وسوء حالهم، وكونهم متألمين معذبين. ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد. فقد فعلت بنفسك ما هو غاية مراد حسادك في الدنيا. وإذا تأملت هذا، عرفت أن كل

---

(١) الرعد، الآية: ٨، ٣٨.

(٢) آل عمران، الآية: ٦٩.

حاسد عدونفسه، وصديق عدوه. فمن تأمل في ذلك، وتذكر ما يأتي من فوائد النصيحة وحب الخير والنعمة للمسلمين، ولم يكن عدونفسه، فارق الحسد ألبتة.

وأما العمل النافع فيه، فهو أن يواظب على آثار النصيحة التي هي ضده، بأن يصمم على أن يكلف نفسه بنقيض ما يقتضيه الحسد من قول وفعل، فان بعثه الحسد على التكبر عليه، ألزم نفسه التواضع له، وان بعثه على غيبته والقدح فيه، كلف لسانه المدح والثناء عليه، وإن بعثه على الغش والخرق بالنسبة اليه، كلف نفسه بحسن البشر واللين معه، وإن بعثه على كف الانعام عنه، ألزم نفسه زيادته. ومهما فعل ذلك عن تكلف وكرره وداوم عليه، انقطعت عنه مادة الحسد على التدريج. على أن المحسود إذا عرف منه ذلك طاب قلبه وأحبه، وإذا ظهر حبه للحاسد زال حسده وأحبه أيضاً، فتتولد بينهما الموافقة، وترتفع عنهما مادة المحاسدة، وهذا هو المعالجة الكلية لمطلق مرض الحسد. والعلاج النافع لكل نوع منه، أن يقمع سببه، من خبث النفس وحب الرئاسة والكبر وعزة النفس وشدة الحرص وغير ذلك مما ذكر، وعلاج كل واحد من هذه الأسباب يأتي في محله.

تنبيه
(القدر الواجب في نفي الحسد)

اعلم أن مساواة حسن حال العدو وسوء حاله، وعدم وجدان التفرقة بينهما في النفس، ليست مما تدخل تحت الاختيار. فالتكليف به تكليف بالمحال. فالواجب في نفي الحسد وازالته هو القدر الذي يمكن دفعه، وبيان ذلك ـ كما أشير إليه ـ أن الحسد:

(اولاً) ـ إما يبعث صاحبه على إظهاره بقول أو فعل، بحيث يعرف حسده من آثاره الاختيارية. ولا ريب في كونه مذموماً محرماً، وكون صاحبه عاصياً آثماً، لا لمجرد آثاره الظاهرة التي هي الغيبة والبهتان مثلاً، إذ هي أفعال صادرة عن الحسد،

محلها الجوارح، وليست عين الحسد، إذ هو صفة للقلب لا صفة للفعل، ومحله القلب دون الجوارح، قال الله سبحانه:

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾(١). وقال: **﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾**(٢). وقال: **﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾**(٣).

فلو كان الإثم على مجرد أفعال الجوارح، لم يكن أصل الحسد الذي هو صفة القلب معصية، والأمر ليس كذلك، فيكون عاصياً لنفس الحسد الذي في قلبه أيضاً، أعني ارتياحه بزوال النعمة مع عدم كراهة ذلك من نفسه. والاثم حقيقة على عدم كراهته وعدم مقته وقهره على نفسه لهذا الارتياح الذي يجده منها، لكونه اختيارياً ممكن الزوال، لا على نفس الارتياح والاهتزاز، لما اشير إليه من أنه طبيعى غير ممكن الدفع لكل أحد. فهذا القسم من الحسد أشد انواعه، لترتب معصيته على أصله، وأخرى على ما يصدر عنه من آثاره المذمومة.

(ثانياً) ـ أولا يبعثه على اظهاره بالآثار القولية والفعلية، بل يكف ظاهره عنها، إلا أنه بباطنه يحب زوال النعمة من دون كراهة في نفسه لهذه الحالة. ولا ريب في كونه مذموماً محرماً أيضاً، لأنه كسابقه بعينه، ولا فرق إلا في أنه لا تصدر منه الآثار الفعلية والقولية الظاهرة، فهو ليس بمظلمة بحسب الاستحلال منها، بل معصية بينه وبين الله، لأن الاستحلال إنما هو من الأفعال الظاهرة الصادرة من الجوارح.

(ثالثاً) ـ أولا يبعثه على الآثار الذميمة الظاهرة، ومع ذلك يلزم قلبه كراهة مايترشح منه طبعاً من حب زوال النعمة، حتى أنه يمقت نفسه ويقهرها على هذه الحالة التي رسخت فيها. والظاهر عدم ترتب الاثم عليه، اذ تكون كراهته التي من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع، فقد أدى الواجب عليه. وأصل الميل

(١) الحشر، الآية: ٩.

(٢) النساء، الآية: ٨٩.

(٣) آل عمران، الآية: ١٢٠.

الطبيعي لا يدخل تحت الاختيار غالباً، إذ تغير الطبع بحيث يستوى عنده المحسن والمسيء، وعدم التفرقة بين ما يصل منهما إليه من النعمة والبلية، ليس شريعة لكل وارد. نعم من تنور قلبه بمعرفة ربه، واشرقت نفسه باضواء حبه وانسه، وصار مستغرقا بحب الله تعالى مثل الشكران الواله، واستشعر بالارتباط الخاص الذي بين العلة والمعلول، والاتحاد الذي بين الخالق والمخلوق، وعلم أنه أقوى النسب والروابط، ثم تيقن بأن الموجودات بأسرها من رشحات وجوده، والكائنات برمتها صادرة عن فيضه وجوده، وأن الأعيان الممكنة متساوية في ارتضاع لبان الوجود من ثدي واحدة، والحقائق الكونية غير متفاوتة في شرب ماء الرحمة والجود من مشرع الوحدة الحقيقية ـ فقد ينتهي امره إلى ألا تلتفت نفسه إلى تفاصيل أحوال العباد، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة، وهي عين الرحمة، ويرى الكل عباداً لله وأفعاله، ويراهم مسخرين له، فلا ينظر إلى شيء بعين السخط والمساءة، وإن ورد منه ما ورد من السوء والبلية، لأنه ينظر إليه من حيث هو حتى يظهر التفاوت، بل من حيث انتسابه إليه سبحانه، والكل في الانتساب إليه سواء.

ثم من الناس من ذهب إلى أنه لا إثم على الحسد ما لم تظهر آثاره على الجوارح، وعلى هذا ينحصر الحسد المحرم في القسم الأول. واحتج على ما ذهب إليه بماذكرناه من قوله ﷺ: «ثلاثة لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد...»، وبقوله ﷺ: «ثلاث في المؤمن له منهن مخرج ومخرجه من الحسد ألا يبغى». والصحيح أن تحمل أمثال هذه الأخبار على القسم الثالث، وهو ما يكون فيه ارتياح النفس بزوال النعمة طبعاً، مع كراهة له من جهة العقل والدين، حتى تكون هذه الكراهة في مقابلة حب الطبع. إذ اخبار ذم الحسد تدل بظاهرها على أن كل حاسد آثم، والحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال الظاهرة. وعلى هذا المذهب، لا يكون اثم على صفة القلب، بل إنما يكون على مجرد الأفعال الظاهرة على الجوارح.

فقد اتضح بما ذكر، أن الأحوال المتصورة لكل أحد بالنسبة إلى اعدائه ثلاثة: الأولى: أن يحب مساءتهم، ويظهر الفرح بمساءتهم بلسانه وجوارحه، أو يظهر ما يؤذيهم قولا أو فعلا، وهذا محظور محرم قطعاً، وصاحبه عاص آثم جزماً. الثانية: أن يحب مساءتهم طبعاً، ولكن يكره حبه لذلك بعقله، ويمقت نفسه عليه، ولو كانت له حيلة في ازالة ذلك الميل لأزاله. وهذا معفو عنه وفاقا، وفاعله غير آثم إجماعاً. الثالثة: وهى ما بين الأوليين: أن يحسد بالقلب من غير مقته لنفسه على حسده، ومن غير انكار منه على قلبه، ولكن يحفظ جوارحه عن صدور آثار الحسد عنها، وهذا محل الخلاف. وقد عرفت ما هو الحق فيه.

وصل
(النصيحة)

قد عرفت أن ضد الحقد والحسد (النصيحة)، وهى ارادة بقاء نعمة الله للمسلمين، وكراهة وصول الشر اليهم. وقد تطلق في الأخبار على ارشادهم إلى ما فيه مصلحتهم وغبطتهم، وهو لازم للمعنى الأول. فينبغى أن نشير إلى فوائدها وما ورد في مدحها، تحريكاً للطالبين على المواظبة عليها ليرتفع بها ضدها.

اعلم أن من أحب الخير والنعمة للمسلمين كان شريكاً في الخير، بمعنى أنه في الثواب كالمنعم وفاعل الخير. وقد ثبت من الأخبار، أن من لم يدرك درجة الأخيار بصالحات الأعمال، ولكنه أحبهم، يكون يوم القيامة محشوراً معهم، كما ورد: «إن المرء يحشر مع من أحب». وقال اعرابى لرسول الله: «الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم. فقال ﷺ: المرء مع من أحب». وقال رجل بحضرة النبى ـ بعد ما ذكرت الساعة ـ: «ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام، إلا أنى أحب الله ورسوله. فقال ﷺ: أنت مع من أحببت»، قال الراوى: فما فرح المسلمون بعد اسلامهم كفرحهم يومئذ، إذ أكثر ثقتهم كانت بحب الله وبحب رسوله. وروى: «أنه قيل

له ﷺ: الرجل يحب المصلين ولا يصلى، ويحب الصوام ولا يصوم ـ حتى عد أشياء ـ فقال: هو مع من أحب». وبهذا المضمون وردت أخبار كثيرة.

والأخبار الواردة في مدح خصوص النصيحة وذم تركها، وفي ثواب ترك الحسد وعظم فوائده، أكثر من أن تحصى. عن ابى عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: إن اعظم الناس منزلة عندالله يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه». وعن أبى جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه». وقال الباقر عليه السلام: «يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة». وقال الصادق عليه السلام: «يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب». وقال عليه السلام: «عليك بالنصح لله في خلقه، فلن تلقاه بعمل افضل منه». وبمضمونها أخبار. وعن أبى عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: من سعى في حاجة لأخيه فلم ينصحه، فقد خان الله ورسوله». وقال الصادق عليه السلام: «من مشى في حاجة أخيه، ثم لم يناصحه فيها، كان كمن خان الله ورسوله، وكان الله خصمه»[1]. والأخبار الأخر بهذا المضمون أيضاً كثيرة.

وروى: «أن رسول الله ﷺ شهد لرجل من الأنصار بأنه من أهل الجنة»، وكان باعثه ـ بعد التفتيش ـ خلوه عن الغش والحسد على خير أعطى أحداً من المسلمين. وروى: «أن موسى عليه السلام لما تعجل إلى ربه، رأى في ظل العرش رجلا، فغبطه بمكانه، وقال: إن هذا لكريم على ربه. فسأل ربه أن يخبر باسمه، فلم يخبره باسمه، وقال: احدثك عن عمله: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعق والديه، ولا يمشى بالنميمة».

وغاية النصيحة، أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن

---

(١) صححنا الأحاديث في النصيحة كلها على (الكافى): باب نصيحة المؤمن وباب من لم يناصح أخاه المؤمن.

يحب للمؤمن ما يحب لنفسه». وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه». وقال ﷺ: «إن أحدكم مرآة أخيه، فإذا رأى به شيئاً فليمط عنه هذا».

ومنها:

الايذاء والاهانة والاحتقار

ولا ريب في كون ذلك في الغالب مترتباً على العداوة والحسد، وإن ترتب بعض أفرادها في بعض الأحيان على مجرد الطمع أو الحرص ليكون من رداءة القوة الشهوية، أو على مجرد الغضب وسوء الخلق والكبر، وإن لم يكن حقد وحسد. وعلى أي تقدير، لا شبهة في أن الايذاء للمؤمن واحتقاره محرم في الشريعة، موجب للهلاك الأبدى. قال الله سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ: «من آذى مؤمناً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فهو ملعون في التوراة والانجيل والزبور والفرقان». وفي خبر آخر: «فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»(٢). وقال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه». وقال ﷺ: «لا يحل للمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه». وقال ﷺ: «ألا انبئكم بالمؤمن! من ائتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم. ألا انبئكم بالمسلم! من سلم المسلمون من لسانه ويده. والمؤمن حرام على المؤمن أن يظلمه أو يخذله أو يغتابه أو يدفعه دفعة». وقال الصادق عليه السلام: «قال الله عز وجل:

---

(١) الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٢) صححنا الحديثين على (جامع الأخبار): الباب ٧، الفصل ٤.

ليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن». وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، نادى منادٍ: أين المؤذون لأوليائي؟ فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم، فيقال: هؤلاء الذين آذوا المؤمنين، ونصبوا لهم وعاندوهم وعنفوهم في دينهم. ثم يؤمر بهم إلى جهنم». وقال ﷺ: «قال رسول الله ﷺ: قال الله تبارك وتعالى: من أهان لي ولياً فقد ارصد لمحاربتي». وقال ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول: من أهان لي ولياً فقد أرصد لمحاربتي، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي». وقال ﷺ: «قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: قد نابذني من أذل عبدي المؤمن». وقال ﷺ: «من حقر مؤمناً مسكيناً أو غير مسكين، لم يزل الله عز وجل حاقراً له ماقتاً، حتى يرجع عن محقرته إياه»(١). وفي معناها أخبار كثيرة اخر.

ومن عرف النسبة التي بين العلةوالمعلول، والربط الخاص الذي بين الخالق والمخلوق، يعلم أن إيذاء العباد واهانتهم يرجع في الحقيقة إلى ايذاء الله واهانته، وكفاه بذلك ذماً. فيجب على كل عاقل ان يكون دائماً متذكراً لذم ايذاء المسلمين واحتقارهم، ولمدح ضدهما، من رفع الأذية عنهم واكرامهم ـ كما يأتي ـ، ويحافظ نفسه عن ارتكابهما، لئلا يفتضح في الدنيا ويعذب في الآخرة.

وصل

(كف الأذى عن المسلمين)

لا ريب في فضيلة أضداد ما ذكر وفوائدها، من كف الأذى عن المؤمنين والمسلمين واكرامهم وتعظيمهم. والظواهر الواردة، في مدح دفع الضرر وكف الأذى عن الناس كثيرة، كقول النبي ﷺ: «من رد عن قوم من المسلمين عادية ماء أو نار

---

(١) صححنا الاحاديث هنا على (اصول الكافي): باب من آذى المسلمين واحتقرهم. وعلى (احياء العلوم): ٢ / ١٧١، ١٧٢.

وجبت له الجنة»[١]. وقوله ﷺ: «أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده». وقوله ﷺ في حديث طويل أمر فيه بالفضائل: «...فان لم تقدر فدع الناس من الشر، فانها صدقة تصدقت بها على نفسك». وقوله ﷺ: «رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين».وقال ﷺ: «من زحزح من طريق المسلمين شيئاً يؤذيهم، كتب الله له به حسنة اوجب له بها الجنة»[٢].

وكذا الأخبار التي وردت في مدح إكرام المؤمن وتعظيمه كثيرة. قال الصادق عليه السلام: «قال الله سبحانه: ليأمن غضبى من أكرم عبدى المؤمن». وقال رسول الله ﷺ: «من اكرم اخاه المسلم بكلمة يلطفه بها، وفرج عنه كربته، لم يزل في ظل الله الممدود، عليه الرحمة ماكان في ذلك». وقال ﷺ: «ما في أمتى عبد ألطف أخاه في الله بشيء من لطف، إلا أخدمه الله من خدم الجنة». وقال ﷺ: «أيما مسلم خدم قوماً من المسلمين إلا أعطاه الله مثل عددهم خداماً في الجنة». وقال الصادق عليه السلام: «من أخذ من وجه أخيه المؤمن قذاة، كتب الله عز وجل له عشرة حسنات، ومن تبسم في وجه أخيه كانت له حسنة». وقال عليه السلام: «من قال لأخيه مرحباً، كتب الله له مرحباً إلى يوم القيامة». وقال عليه السلام: «من أتاه أخوه المؤمن فأكرمه، فانما أكرم الله عز وجل». وقال عليه السلام لإسحاق بن عمار: «أحسن يا اسحاق إلى أوليائى ما استطعت، فما أحسن مؤمن إلى مؤمن ولا اعانه إلا خمش وجه ابليس وقرح قلبه»[٣].

---

(١) صححناه على (فروع الكافى): كتاب الجهاد، في ملحق باب فضل الشهادة. وعلى (اصوله): في باب الاهتمام بامور المسلمين.

(٢) صححنا هذه الأحاديث الأربعة الأخيرة على (احياء العلوم): ٢ / ١٧١، ١٧٢.

(٣) صححنا الأحاديث هنا على (اصول الكافى): باب إلطاف المؤمن وإكرامه، وباب من آذى المسلمين واحتقرهم.

ثم ينبغی تخصيص بعض طبقات الناس بزيادة التعظيم والاكرام، كأهل العلم والورع، لما ورد من الحث الأكيد في الأخبار على اكرامهم والاحسان اليهم، وكذا ينبغی تخصيص ذی الشيبة المسلم بزيادة التوقير والتكريم، وقد ورد ذلك في الأخبار الكثيرة، قال رسول الله ﷺ: «من عرف فضل كبيرلسنه فوقره، آمنه الله من فزع يوم القيامة». وقال الصادق عليه السلام: «إن من إجلال الله عز وجل اجلال الشيخ الكبير». وقال عليه السلام: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا». والأخبار في هذا المضمون كثيرة.

وكذا ينبغی تخصيص كريم القوم بزيادة الاكرام، لقول النبی ﷺ: «إذا اتاكم كريم قوم فأكرموه»[1].

وكذاتخصيص الذرية العلوية بزيادة الاكرام والتعظيم. قال رسول الله ﷺ: «حقت شفاعتی لمن أعان ذريتی بيده ولسانه وماله». وقال ﷺ: «اربعة انا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتی، والقاضی لهم حوائجهم، والساعی لهم في امورهم عندما اضطروا اليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه»[2]. وقال ﷺ: «اكرموا اولادی، وحسنوا آدابی». وقال ﷺ: «اكرموا أولادی الصالحون لله والطالحون لي». والأخبار في فضل السادات وثواب من يكرمهم ويعينهم اكثر من أن تحصى.

وإضرار المسلم قريب من معنى إيذائه، وربما كان الاضرار أخص منه، فما يدل على ذمه يدل على ذمه، كقول النبی ﷺ: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر: الشرك بالله تعالى، والضر بعباد الله». وكذا ضده، أعنی ايصال النفع اليه، قريب من معنى ضده وأخص منه. فما يدل على مدحه يدل على مدحه. ولا ريب في أن ايصال النفع إلى المؤمنين من شرائف الصفات والأفعال. والأخبار الواردة في فضيلته

---

(١) صححنا هذه الأحاديث على (أصول الكافی): باب اجلال الكبير، وباب وجوب اجلال ذی الشيبة، وباب اكرام الكريم وعلى (الوسائل): كتاب الحج، أبواب احكام العشرة، الباب ٦٧.

(٢) تقدم هذان الحديثان في ص ٣٨٤ من هذا الجزء.

كثيرة، قال رسول الله ﷺ: «الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وادخل على أهل بيته سروراً». وسئل ﷺ: «من أحب الناس إلى الله؟ قال: انفع الناس للناس»[١]. وقال رسول الله ﷺ: «خصلتان من الخير ليس فوقهما شيء من البر: الإيمان بالله، والنفع لعباد الله».

تنبيه
(ذم الظلم بالمعنى الاخص)

اعلم أن الظلم قد يراد به ما هو ضد العدالة، وهو التعدى عن الوسط في أى شيء كان، وهو جامع للرذائل باسرها ـ كما أشير إليه ـ. وهذا هو الظلم بالمعنى الأعم، وقد يطلق عليه الجور أيضاً، وقد يراد به ما يرادف الاضرار والايذاء بالغير، وهو يتناول قتله وضربه وشتمه وقذفه وغيبته وأخذ ماله قهراً ونهباً وغصباً وسرقة وغير ذلك من الأقوال والأفعال المؤذية. وهذا هو الظلم بالمعنى الأخص، وهو المراد إذا اطلق في الآيات والأخبار وفي عرف الناس. وباعثه إن كانت العداوة والحسد، يكون من رذائل قوة الغضب، وإن كان الحرص والطمع في المال، يكون من رذائل قوة الشهوة. وهو أعظم المعاصى وأشدها عذابا باتفاق جميع الطوائف. ويدل على ذمه ـ بعد ما ورد في ذم كل واحد من الأمور المندرجة تحته كما يأتى بعضها ـ ما تكرر في القرآن من اللعن على الظالمين، وكفاه ذماً أنه تعالى قال في مقام ذم الشرك: **﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**[٢]. وقال: **﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[٣]. وقال: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ**

(١) هذان الحديثان صححناهما على (اصول الكافى): باب الاهتمام بامور المسلمين.

(٢) لقمان، الآية: ١٣.

(٣) الشورى، الآية: ٤٢.

غَـٰفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[١]. وقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إن أهون الخلق على الله، من ولي أمر المسلمين فلم يعدل لهم». وقال ﷺ: «جور ساعة في حكم، أشد وأعظم عند الله من معاصي تسعين سنة». وقال ﷺ: «اتقوا الظلم، فانه ظلمات يوم القيامة». وقال ﷺ: «من خاف القصاص، كف عن ظلم الناس». وروى: «أنه تعالى أوحى إلى داود: قل للظالمين لا تذكرونى، فان حقاً علي أن اذكر من ذكرنى، وإن ذكرى إياهم أن العنهم». وقال علي بن الحسين عليهما السلام لابنه ابى جعفر عليه السلام حين حضرته الوفاة: «يا بنى، إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله». وقال أبو جعفر عليه السلام: «ما من أحد يظلم بمظلمة إلا أخذه الله تعالى بها في نفسه أو ماله». وقال رجل له عليه السلام: «إنى كنت من الولاة، فهل لي من توبة؟ فقال لا! حتى تؤدى إلى كل ذى حق حقه». وقال عليه السلام: «الظلم ثلاثة: ظلم يغفره الله تعالى، وظلم لا يغفره الله تعالى، وظلم لا يدعه الله. فاما الظم الذي لا يغفره الله عز وجل فالشرك، وأما الظلم الذي يغفره الله عز وجل فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله عز وجل، وأما الظلم الذي لا يدعه فالمداينة بين العباد». وقال الصادق عليه السلام في قول تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[٣]:

«قنطرة على الصراط، لا يجوزها عبد بمظلمة». وقال عليه السلام: «ما من مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلا الله تعالى». وقال: «من أكل مال أخيه ظلماً، ولم يرده اليه، أكل جذوة من النار يوم القيامة». وقال عليه السلام: «إن الله عز وجل أوحى إلى نبى من أنبيائه في مملكة جبار من الجبارين: أن ائت هذا الجبار، فقل له: إنى لم استعملك على سفك الدماء واتخاذ الأموال، وإنما استعملتك لتكف عنى أصوات

(١) ابراهيم، الآية: ٤٢.

(٢) الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٣) الفجر، الآية: ١٤.

المظلومين، فانى لن أدع ظلامتهم وإن كانوا كفاراً». وقال ﷺ: «أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم اكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم... ثم قال: من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به. أما إنه يحصد ابن آدم ما يزرع. وليس يحصد أحد من المر حلواً، ولا من الحلو مراً». وقال ﷺ: «من ظلم، سلط الله عليه من يظلمه، أو على عقبه أو على عقب عقبه». قال الراوى: «قلت: هو يظلم، فيسلط الله على عقبه أو على عقب عقبه؟! قال: فان الله تعالى يقول:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللهَ وَلْـيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾(١).

والظاهر أن مؤاخذة الأولاد بظلم آبائهم انما هو في الأولاد الذين كانوا راضين بفعل آبائهم، أو وصل اليهم اثر ظلمهم، أى انتقل اليهم منهم بعض أموال المظلومين. وقال بعض العلماء: الوجه في ذلك: أن الدنيا دار مكافاة وانتقام، وان كان بعض ذلك مما يؤخر إلى الآخرة. وفائدة ذلك أما بالنسبة إلى الظالم فانه يردعه عن الظلم إذا سمع، وأما بالنسبة إلى المظلوم فانه يستبشر بنيل الانتقام في الدنيا مع نيله ثواب الظلم الواقع عليه في الآخرة، فانه ما ظفر أحد بخير مما ظفر به المظلوم، لأنه يأخذ من دين الظالم أكثر مما أخذ الظالم من ماله، كما تقدم. وهذا مما يصحح الانتقام من عقب الظالم أو عقب عقبه، فانه وإن كان في صورة الظلم، لأنه انتقام من غير أهله، مع أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، إلا انه نعمة من الله عليه في المعنى من جهة ثوابه في الدارين، فان ثواب المظلوم في الآخرة اكثر مما جرى عليه من الظلم في الدنيا.

ثم إن معين الظالم، والراضى بفعله، والساعى له في قضاء حوائجه وحصول مقاصده، كالظالم بعينه في الاثم والعقوبة. قال الصادق ﷺ: «العامل بالظلم، والمعين

---

(١) صححنا أحاديث الباب على (أصول الكافى): باب الظلم. والآية من الحديث الأخير: سورة النساء، الآية: ٩.

له، والراضي به، شركاء ثلاثتهم». وقال عليه السلام: «من عذر ظالماً بظلمه، سلط الله عليه من يظلمه، فان دعا لم يستجب له، ولم يأجره الله على ظلامته». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «شر الناس المثلث؟»، قيل: وما المثلث؟ قال: «الذي يسعى باخيه إلى السلطان، فيهلك نفسه، ويهلك أخاه، ويهلك السلطان». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من مشى مع ظالم فقد أجرم». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة، نادى مناد: أين الظلمة وأعوان الظلمة ومن لاق لهم دواة أو ربط لهم كيساً مدهم بمدة قلم؟ فاحشروهم معهم».

وصل
(العدل بالمعنى الأخص)

ضد الظلم بالمعنى الأخص هو العدل بالمعنى الأخص، وهو الكف عنه، ورفعه، والاستقامة، وإقامة كل أحد على حقه. والعدل بهذا المعنى هو المراد عند اطلاقه في الآيات والأخبار، وفضيلته اكثر من أن تحصى. قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ...﴾[(١)]. وقال: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ﴾**[(٢)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة قيام ليلها وصيام نهارها». وقال الصادق عليه السلام: «من أصبح ولا يهم بظلم أحد، غفر له ما اجترم». وقال عليه السلام: «من أصبح لا ينوى ظلم أحد، غفر الله تعالى له ذنب ذلك اليوم، ما لم يسفك دماً أو يأكل مال يتيم حراماً». وقال عليه السلام: «العدل احلى من الماء يصيبه الظمآن. ما أوسع العدل إذا عدل فيه، وإن قل». وقال عليه السلام: «العدل أحلى من الشهد، وألين من الزبد، وأطيب ريحاً من المسك». وقال عليه السلام: «اتقوا الله واعدلوا، فانكم تعيبون على

---

(١) النحل، الآية: ٩٠.

(٢) النساء، الآية: ٥٨.

قوم لا يعدلون»[١].

ومما يدل على فضيلة العدل بهذا المعنى ما ورد في ثواب رد المظالم. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «درهم يرده العبد إلى الخصماء، خير له من عبادة الف سنة، وخير له من عتق الف رقبة، وخير له من الف حجة وعمرة»، وقال صلى الله عليه وآله: «من رد درهماً إلى الخصماء، اعتق الله رقبته من النار، واعطاه بكل دانق ثواب نبي، وبكل درهم ثواب مدينة في الجنة من درة حمراء»، وقال صلى الله عليه وآله: «من رد أدنى شيء إلى الخصماء، جعل الله بينه وبين النار ستراً كما بين السماء والأرض، ويكون في عداد الشهداء». وقال صلى الله عليه وآله: «من أرضى الخصماء من نفسه، وجبت له الجنة بغير حساب، ويكون في الجنة رفيق اسماعيل بن ابراهيم». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن في الجنة مدائن من نور، وعلى المدائن ابواب من ذهب مكللة بالدر والياقوت، وفي جوف المدائن قباب من مسك وزعفران، من نظر إلى تلك المدائن يتمنى أن تكون له مدينة منها». قالوا: يا نبي الله، لمن هذه المدائن؟ قال: «للتائبين النادمين، المرضين الخصماء من أنفسهم، فان العبد إذا رد درهما إلى الخصماء، أكرمه الله كرامة سبعين شهيداً. فان درهما يرده العبد إلى الخصماء خير له من صيام النهار وقيام الليل. ومن رد درهماً ناداه ملك من تحت العرش: استأنف العمل، فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك». وقال صلى الله عليه وآله: «من مات غير تائب، زفرت جهنم في وجهه ثلاث زفرات، فاولاها لاتبقى دمعة إلا جرت من عينيه، والزفرة الثانية لايبقى دم إلا خرج من منخريه، والزفرة الثالثة لا يبقى قيح إلا خرج من فمه، فرحم الله من تاب، ثم أرضى الخصماء، فمن فعل فأنا كفيله بالجنة». وقال صلى الله عليه وآله: «لرد دانق من حرام يعدل عند الله سبعين الف حجة مبرورة»[٢]

ومنها:

(١) صححنا الأحاديث هنا على (اصول الكافي): باب الظلم وباب الانصاف والعدل.

(٢) صححنا الأحاديث النبوية هذه كلها على (جامع الأخبار): الباب ٧، الفصل ٧، ولم نعثر لها على أثر في الكتب المعتبرة.

إخافة المؤمن

وإدخال الكرب في قلبه. وهما شعبتان من الايذاء والإضرار، فيترتبان غالباً على العداوة والحسد، وقد يترتبان على مجرد الغضب أو سوء الخلق أو الطمع، وهما من رذائل الأفعال، والأخبار الواردة في ذمهما كثيرة، كقول النبى ﷺ: «من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها، أخافه الله تعالى يوم لاظل إلا ظله». وقول الصادق عليه السلام: «من روع مؤمناً بسلطان ليصيبه منه مكروه فلم يصبه فهو في النار، ومن روع مؤمناً بسلطان ليصيبه منه مكروه فاصابه فهو مع فرعون وآل فرعون في النار». وقوله عليه السلام: «من أدخل السرور على مؤمن فقد أدخله على رسول الله ﷺ، ومن أدخله على رسول الله ﷺ فقد وصل ذلك إلى الله، وكذلك من أدخل عليه كربا»[١]. والأخبار الواردة في هذا المعنى كثيرة.

وصل
(إدخال السرور في قلب المؤمن)

وضد ذلك إزالة الخوف عنه، وتفريج كربه، وادخال السرور في قلبه. وهى من أعظم شعب النصيحة، ولا حد للثواب المترتب عليها، كما نطقت به الأخبار. قال رسول الله ﷺ: «من حمى مؤمناً من ظالم، بعث الله له ملكا يوم القيامة يحمى لحمه من نار جهنم». وقال ﷺ: «من فرج عن مغموم أو أعان مظلوماً، غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة». وقال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، فقيل كيف ينصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم». وقال الامام أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «من أغاث أخاه المؤمن اللهفان اللهثان عند جهده، فنفس كربته واعانه على نجاح حاجته، كتب الله تعالى له بذلك اثنتين وسبعين رحمة من الله، يعجل له منها واحدة يصلح بها أمر

---

(١) صححنا الأحاديث هنا على (اصول الكافى): باب ادخال السرور على المؤمن، وباب من أخاف مؤمناً.

معيشته، ويدخر له احدى وسبعين رحمة لافزاع يوم القيامة وأهواله». وقال عليه السلام: «من نفس عن مؤمن كربة، نفس الله عنه كرب الآخرة، وخرج من قبره وهو ثلج الفؤاد». وقال الرضا عليه السلام: «من فرج عن مؤمن، فرج الله قلبه يوم القيامة» وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من سر مؤمناً فقد سرني، ومن سرني فقد سر الله». وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن أحب الأعمال إلى الله عزوجل ادخال السرور على المؤمنين». وقال الباقر عليه السلام: «تبسم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرفه القذى عنه حسنة، وما عبد الله بشيء أحب إلى الله من ادخال السرور على المؤمن». وقال عليه السلام: «إن فيما ناجى الله عزوجل به عبده موسى عليه السلام: قال: إن لي عباداً ابيحهم جنتي واحكمهم فيها، قال: يا رب، ومن هؤلاء الذين تبيحهم جنتك وتحكمهم فيها؟ قال: من ادخل على مؤمن سروراً... ثم قال: إن مؤمناً كان في مملكة جبار، فولع به، فهرب منه إلى دار الشرك، فنزل برجل من أهل الشرك فاظله وأرفقه وأضافه، فلما حضره الموت، أوحى الله اليه: وعزتي وجلالي! لو كان لك في جنتي مسكن لأسكنتك فيها، ولكنها محرمة على من مات مشركا بي، ولكن يا نار هيديه ولا تؤذيه، ويؤتى برزقه طرفي النهار»، قلت[1]: من الجنة؟ قال: «من حيثما شاء الله». وقال عليه السلام: «لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سروراً أنه عليه أدخله فقط، بل والله علينا، بل والله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!». عن ابان بن تغلب، قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن حق المؤمن على المؤمن. فقال: حق المؤمن على المؤمن أعظم من ذلك، لو حدثتكم لكفرتم، إن المؤمن إذا خرج من قبره خرج معه مثال من قبره يقول له: ابشر بالكرامة من الله والسرور، فيقول له: بشرك الله بخير. قال: ثم يمضي معه يبشره بمثل ما قال، وإذا مر بهول قال: ليس هذا لك، وإذا مر بخير قال: هذا لك. فلا يزال معه، يؤمنه مما يخاف ويبشره بما يحب، حتى يقف معه بين يدي الله عزوجل. فإذا أمر به إلى الجنة. قال له

---

(١) القائل الراوي، والمجيب أبو جعفر عليه السلام.

المثال: ابشر فان الله عزوجل قد أمر بك إلى الجنة. قال: فيقول: من أنت رحمك الله؟ تبشرني من حين خرجت من قبري، وآنستني في طريقي، وخبرتني عن ربي! قال: فيقول: انا السرور الذي كنت تدخله على اخوانك في الدنيا، خلقت منه لا بشرك وأونس وحشتك». وروى ابن سنان، قال: «كان رجل عند أبي عبدالله عليه السلام، فقرأ هذه الآية:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[١].

فقال أبو عبدالله عليه السلام: فما ثواب من أدخل عليه السرور؟ فقلت: جعلت فداك! عشر حسنات. قال: أي والله وألف ألف حسنة!»[٢].

ومنها:

ترك اعانة المسلمين

وعدم الاهتمام باموره‍م. فان من يعادى غيره أو يحاسده يترك إعانته ولا يهتمّ بأموره، وربما كان ذلك من نتائج الكسالة بها، أو ضعف النفس أو البخل. وبالجملة: لا ريب في كونه من رذائل الصفات، ودليلا على ضعف الايمان. وما ورد في ذمه من الأخبار كثير، قال الباقر عليه السلام: «من بخل بمعونة أخيه المسلم والقيام له في حاجة، إلا ابتلى بالقيام بمعونة من يأثم عليه ولا يؤجر». وقال الصادق عليه السلام: «أيما رجل من شيعتنا أتاه رجل من اخوانه، فاستعان به في حاجة فلم يعنه، وهو يقدر، إلا ابتلاه الله تعالى بأن يقضى حوائج عدة من أعدائنا، يعذبه الله عليها يوم القيامة». وقال عليه السلام: «أيما مؤمن منع مؤمناً شيئاً مما يحتاج إليه وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره،

---

(١) الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٢) صححنا الأحاديث كلها هنا على (أصول الكافى): باب ادخال السرور على المؤمن، باب تفريج كرب المؤمن.

أقامه الله عزوجل يوم القيامة مسوداً وجهه، مزرقة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه، فيقال: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار». وقال عليه السلام: «من كانت له دار، فاحتاج مؤمن إلى سكناها، فمنعه إياها، قال الله تعالى: يا ملائكتي، أبخل عبدي على عبدي بسكنى الدنيا؟ وعزتي وجلالي! لا يسكن جناتي أبداً». وقال عليه السلام لنفر عنده: «ما لكم تستخفون بنا؟»، فقام إليه رجل من أهل خراسان، فقال: معاذ لوجه الله أن نستخف بك أو بشيء من أمرك! فقال: «إنك أحد من استخف بي»، فقال: معاذ لو جه الله أن استخف بك! فقال له: «ويحك! ألم تسمع فلاناً، ونحن بقرب الجحفة، وهو يقول لك: احملني قدر ميل، فقد والله أعييت. والله ما رفعت به رأساً، لقد استخففت به. ومن استخف بمؤمن فبنا استخف، وضيع حرمة الله عزوجل»(١).

وقال عليه السلام: «من أتاه أخوه في حاجة يقدر على قضائها فلم يقضها له، سلط الله عليه شجاعاً ينهش ابهامه في قبره إلى يوم القيامة مغفوراً له أو معذباً». وقال ابو الحسن عليه السلام: «من قصد إليه رجل من اخوانه مستجيراً به في بعض احواله، فلم يجره بعد أن يقدر عليه، فقد قطع ولاية الله عزوجل». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أصبح لا يهتم بامور المسلمين فليس بمسلم». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من اصبح لا يهتم بامور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلا ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم»(٢).

---

(١) صححنا هذا الحديث بالخصوص على (الوسائل): كتاب الحج، باب تحريم الاستخفاف. وهو يرويه عن (الكافي).

(٢) صححنا الأحاديث هنا على (اصول الكافي): باب من استعان اخوه به فلم يعنه، وباب قضاء حاجة المؤمن، وباب من منع مؤمناً شيئاً من عنده، وباب الاهتمام بامور المسلمين.

وصل
(قضاء حوائج المسلمين)

ضد هذه الرذيلة: قضاء حوائج المسلمين والسعي في انجاح مقاصدهم. وهو من أعظم أفراد النصيحة، ولا حد لمثوبته عند الله. قال رسول الله ﷺ: «من قضى لأخيه المؤمن حاجة، فكأنما عبدالله دهره»[1]. وقال ﷺ: «من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار، قضاها أو لم يقضها، كان خيراً له من اعتكاف شهرين». وقال ابو جعفر عليه السلام: «أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: إن من عبادى من يتقرب الي بالحسنة فاحكمه في الجنة، فقال موسى: يا رب، وما تلك الحسنة؟ قال يمشى مع أخيه المؤمن في قضاء حاجته، قضيت أو لم تقض». وقال عليه السلام: «من مشى في حاجة أخيه المسلم، أظله الله بخمسة وسبعين ألف ملك، ولم يرفع قدماً إلا كتب الله له حسنة، وحط عنه بها سيئة، ويرفع له بها درجة، فإذا فرغ من حاجته كتب الله عز وجل له بها أجر حاج ومعتمر». وقال عليه السلام: «إن المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا تكون عنده فيهتم بها قلبه، فيدخله الله تبارك وتعالى بهمه الجنة». وقال الصادق عليه السلام: «من قضى لأخيه المؤمن حاجة، قضى الله تعالى له يوم القيامة مائة ألف حاجة، من ذلك أولها الجنة، ومن ذلك أن يدخل قرابته ومعارفه واخوانه الجنة، بعد ان لا يكونوا نصاباً». وقال عليه السلام: «إن الله تعالى خلق خلقاً من خلقه، انتجبهم لقضاء حوائج فقراء شيعتنا، ليثيبهم على ذلك الجنة. فان استطعت أن تكون منهم فكن». وقال عليه السلام: «قضاء حاجة المؤمن خير من عتق الف رقبة، وخير من حملان الف فرس في سبيل الله». وقال عليه السلام: «لقضاء حاجة امرىء مؤمن احب إلى الله تعالى من عشرين حجة، كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة الف». وقال عليه السلام: «من طاف بالبيت طوافاً

---

(١) صححناه على (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، باب استحباب قضاء حاجة المؤمن، رواه عن (مجالس الطوسى). ولم نعثر على مصدر للنبوى الثاني.

واحداً كتب الله له ستة آلاف حسنة، ومحى عنه ستة آلاف سيئة، ورفع له ستة آلاف درجة ـ وفي رواية: وقضى له ستة آلاف حاجة ـ حتى إذا كان عند الملتزم، فتح له سبعة أبواب من الجنة»، قلت له: جعلت فداك! هذا الفضل كله في الطواف؟ قال: «نعم! وأخبرك بأفضل من ذلك: قضاء حاجة المؤمن المسلم أفضل من طواف وطواف وطواف... حتى بلغ عشراً». وقال عليه السلام: «تنافسوا في المعروف لاخوانكم، وكونوا من أهله، فان للجنة باباً يقال له المعروف، لا يدخله إلا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا، فان العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن، فيو كل الله عز وجل به ملكين، واحداً عن يمينه وآخر عن شماله، يستغفران له ربه، ويدعوان بقضاء حاجته»... ثم قال: «والله لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اسر بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة». وقال عليه السلام: «ما قضى مسلم لمسلم حاجة إلا ناداه الله تعالى: علي ثوابك، ولا أرضى لك بدون الجنة». وقال عليه السلام: «أيما مؤمن أتى أخاه في حاجة فإنما ذلك رحمة من الله ساقها إليه وسببها له، فان قضى حاجته كان قد قبل الرحمة بقبولها، وإن رده عن حاجته وهو يقدر على قضائها فإنّها رد عن نفسه رحمة من الله عز وجل، ساقها إليه وسببها له، وذخر الله تلك الرحمة إلى يوم القيامة، حتى يكون المردود عن حاجته هو الحاكم فيها، إن شاء صرفها إلى نفسه، وإن شاء صرفها إلى غيره»... ثم قال عليه السلام للراوي: «فإذا كان يوم القيامة، وهو الحاكم في رحمة من الله تعالى قد شرعت له، فالى من ترى يصرفها؟»، لا أظن يصرفها عن نفسه، قال: «لا تظن! ولكن استيقن، فانه لن يردها عن نفسه». وقال عليه السلام: «من مشى في حاجة أخيه المؤمن يطلب بذلك ما عند الله حتى تقضى له، كتب الله عز وجل له بذلك مثل أجر حجة وعمرة مبرورتين، وصوم شهرين من أشهر الحرم واعتكافهما في المسجد الحرام، ومن مشى فيها بنية ولم تقض، كتب الله له بذلك مثل حجة مبرورة. فارغبوا في الخير». وقال عليه السلام: «لئن أمشي في حاجة أخ لي مسلم، احب إلي من أن أعتق الف نسمة، وأحمل في سبيل الله على الف فرس مسرجة ملجمة». وقال عليه السلام: «من سعى

في حاجة أخيه المسلم، وطلب وجه الله، كتب الله عز وجل له الف الف حسنة، يغفر فيها لأقاربه وجيرانه واخوانه ومعارفه، ومن صنع إليه معروفاً في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة، قيل له: ادخل النار، فمن وجدته فيها صنع اليك معروفاً في الدنيا فأخرجه باذن الله عز وجل، إلا أن يكون ناصبياً». وقال ابو الحسن عليه السلام: «إن لله عباداً في الأرض يسعون في حوائج الناس، هم الآمنون يوم القيامة. ومن أدخل على مؤمن سروراً، فرح الله قلبه يوم القيامة»(١). والأخبار الواردة بهذه المضامين كثيرة، وما ذكرناه كاف لتحريك الطالبين على قضاء حوائج المؤمنين. ومما يدل على مدحه وشرافته، ما ورد في ثواب اطعام المؤمن وسقيه وكسوته، كما يأتى.

ومنها:

التهاون والمداهنة

في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وهو ناش إما من ضعف النفس وصغرها، أو من الطمع المالى ممن يسامحه، فيكون من رذائل القوة الغضبية من جانب التفريط، أو من رذائل القوة الشهوية من جانب الافراط. وهو من المهلكات التي يعم فسادها وضرها، ويسرى إلى معظم الناس اثرها وشرها. كيف ولو طوى بساط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، اضمحلت الديانة، وتعطلت النبوة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، وضاعت أحكام الدين، واندرست آثار شريعة رب العالمين، وهلك العباد، وخرجت البلاد. ولذا ترى وتسمع أن في كل عصر نهض باقامة هذه السنة بعض المؤيدين، من غير أن تأخذهم في الله لومة لائمين، من أقوياء العلماء المتكفلين لعلمها وإلقائها، ومن سعداء الأمراء الساعين

---

(١) صححنا الاحاديث ـ ابتداء من الحديث عن ابى جعفر عليه السلام على (اصول الكافى): باب قضاء حاجة المؤمن، وباب السعي في حاجة المؤمن.

في اجرائها وإمضائها، رغب الناس إلى ضروب الطاعات والخيرات، وفتحت عليهم بركات الأرض والسماوات. وفي كل قرن لم يقم باحيائها عالم عامل ولا سلطان عادل، إستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، واسترسل الناس في اتباع الشهوات والهوى، وانمحت أعلام الهداية والتقوى.

ولذا ترى في عصرنا ـ لما اندرس من هذا القطب الأعظم عمله وعلمه، وانمحت بالكلية حقيقته واسمه، وعز على بسيط الأرض دين يحرس الشريعة، واستولت على القلوب مداهنة الخليقة ـ أن الناس في بيداء الضلالة حيارى، وفي أيدى جنود الأبالسة اسارى، ولم يبق من الاسلام إلا اسمه ومن الشرع إلا رسمه.

ولأجل ذلك ورد الذم الشديد في الآيات والأخبار على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمداهنة فيهما، قال الله سبحانه:

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ: «ما من قوم عملوا بالمعاصى، وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل، إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده». وقال ﷺ: «إن الله تعالى ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له»، فقيل له: وما المؤمن الذي لا دين له؟ قال: «الذى لا ينهى عن المنكر». وقيل له ﷺ: «أتهلك القرية وفيها الصالحون؟ قال: نعم! قيل: بم يا رسول الله؟ قال: بتهاونهم وسكوتهم عن معاصى الله». وقال ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، أو ليستعملن عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»(٢). وقال ﷺ: «إن الله تعال ليسأل العبد: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكر؟». وقال ﷺ: «ان الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة،

---

(١) المائدة، الآية: ٦٣.

(٢) روى في (فروع الكافى) ـ باب الأمر بالمعروف ـ هذا الحديث عن أبى الحسن الرضا عليه السلام. وصححنا الحديث الذي قبل الأخير على (فروع الكافى) في الموضع المذكور أيضاً.

حتى يظهر المنكر بين اظهرهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «انما هلك من كان قبلكم، حيث عملوا بالمعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك، وانهم لما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والاحبار عن ذلك، نزلت بهم العقوبات، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر...». وقال عليه السلام: «من ترك إنكار المنكر بقلبه ويده ولسانه، فهو ميت بين الأحياء». وقال عليه السلام: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة». وقال عليه السلام :«إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ثم بالسنتكم، ثم بقلوبكم، فمن لم يعرف بقلبه معروفاً ولم ينكر منكراً قلب، فجعل أعلاه أسفله». وقال الباقر عليه السلام: «أوحى الله عز وجل إلى شعيب النبي عليه السلام: إني معذب من قومك مائة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم، وستين ألفاً من خيارهم. فقال عليه السلام: يا رب، هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل اليه: داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي». وقال الصادق عليه السلام: «ما قدست أمة لم يؤخذ لضعيفها من قويها بحقه غير متعتع». وقال عليه السلام: «ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وقال عليه السلام: «إن الله تعالى بعث ملكين إلى أهل مدينة ليقلبها على أهلها، فلما انتهيا إلى المدينة وجدا رجلاً يدعو الله ويتضرع اليه، فقال أحد الملكين لصاحبه: أما ترى هذا الداعي؟ فقال: قد رأيته، ولكن أمضي ما أمر به ربي. فقال: لا، ولكن لا احدث شيئاً حتى أراجع ربي. فعاد إلى الله تبارك وتعالى، فقال: يا رب إني انتهيت الى المدينة، فوجدت عبدك فلاناً يدعوك ويتضرع اليك. فقال: امض ما امرتك به، فإن ذا رجل لم يتمعر وجهه غيظاً لي قط». وقال عليه السلام لقوم من اصحابه: «حق لي أن آخذ البريء منكم بالسقيم، وكيف لا يحق لي ذلك وانتم يبلغكم عن الرجل منكم القبيح فلا تنكرون عليه، ولا تهجرونه ولا تؤذونه حتى يتركه». وقال عليه السلام: «لأحملنّ ذنوب سفهائكم على علمائكم... إلى أن قال: ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل منكم ما تكرهون وما يدخل علينا به الأذى، أن تأتوه فتؤنبوه وتعذلوه، وتقولوا له

قولاً بليغاً!»، قيل له: اذن لا يقبلون منا، قال: «اهجروهم واجتنبوا مجالستهم».

وفي بعض الأخبار النبوية: «إن أمتي إذا تهاونوا في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فليأذنوا بحرب من الله». وقد وردت اخبار بالمنع عن حضور مجالس المنكر إذا لم يمكنه دفعه والنهى عنه، ولو حضر نزلت عليه اللعنة. وعلى هذا لا يجوز دخول بيت الظلمة والفسقة، ولا حضور المشاهد التي يشاهد فيها المنكر ولا يقدر على تغييره، إذ لا يجوز مشاهدة المنكر من غير حاجة، اعتذاراً بأنه عاجز. ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة، حذراً من مشاهدة المنكر في الأسواق والمجامع والاعياد، مع عجزهم عن التغيير.

ثم إذا كان الأمر في المداهنة في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بهذه المثابة، فيعلم أن الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف كيف حاله. قال رسول الله ﷺ: «كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟»، فقيل له ﷺ: ويكون ذلك يا رسول الله؟! قال: «نعم! وشر من ذلك! كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟!»، فقيل له: يا رسول الله، ويكون ذلك؟! قال نعم! وشر من ذلك! كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟!»، وفي رواية: «وعند ذلك يبتلى الناس بفتنة، يصير الحليم فيها حيران»(١).

ومن تأمل في الأخبار والآثار، واطلع على التواريخ والسير وقصص الامم السالفة والقرون الماضية، وما حدثت لهم من العقوبات، وضم ذلك إلى التجربة والمشاهدة في عصره، من ابتلاء الناس ببعض البلايا السماوية والأرضية، يعلم أن كل عقوبة سماوية وارضية، من الطاعون والوباء، والقحط والغلاء، وحبس المياه والامطار، وتسلط الظالمين والاشرار، ووقوع القتل والغارات، وحدوث الصواعق

---

(١) صححنا الاحاديث هنا على (فروع الكافى): باب الأمر بالمعروف. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف. وعلى (المستدرك): ٢ / ٣٦٠ ـ ٣٦١ كتاب الأمر بالمعروف.

والزلازل، وأمثال ذلك، تكون مسبوقة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين الناس.

فصل

(السعى في الأمر بالمعروف)

ضد المداهنة في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، هى السعى فيهما والتشمير لهما. وهو أعظم مراسم الدين، والمهم الذي بعث الله لأجله النبيين، ونصب من بعدهم الخلفاء والأوصياء، وجعل نوابهم أولي النفوس القدسية من العلماء. بل هو القطب الذي تدور عليه أرحية الملل والأديان، وتطرق الاختلال فيه يؤدى إلى سقوطها عن الدوران. ولهذا ورد في مدحه والترغيب عليه مما لا يمكن احصاؤه من الآيات والأخبار، قال الله سبحانه:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾(١). وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(٢). وقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ، إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وقال: ﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾(٣).

والقيام بالقسط هو: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقال رسول الله ﷺ: «ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجى، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهى عن

(١) آل عمران، الآية: ١٠٤، ١١٠.

(٢) الأعراف، الآية: ١٦٥.

(٣) النساء، الآية: ١١٤، ١٣٥.

المنكر إلا كنفثة في بحر لجي». وقال ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات!»، قالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: «فإذا أبيتم إلا ذلك، فاعطوا الطريق حقه»، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر». وقال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا وله حوارى، فيمكث النبى بين أظهرهم ما شاء الله، يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره، حتى إذا قبض الله نبيه، مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وسنة نبيهم، فإذا انقرضوا، كان من بعدهم قوم يركبون رؤس المنابر، يقولون ما يعرفون يعملون ما ينكرون. فإذا رأيتم ذلك، فحق على كل مؤمن جهادهم بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه. وليس وراء ذلك إسلام»(١). وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه، فقد سلم وبرىء، ومن انكره بلسانه فقد أجر، وهو أفضل من صاحبه، ومن انكره بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي اصاب سبيل الهدى وقام على الطريق، ونور في قلبه اليقين»(٢). وقال عليه السلام: «فمنهم المنكر للمنكر بقلبه ولسانه ويده، فذلك المستكمل لخصال الخير. ومنهم المنكر بلسانه وقلبه، التارك بيده، فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخير ومضيع خصلة. ومنهم المنكر بقلبه، والتارك بيده ولسانه، فذلك الذي ضيع أشرف الخصلتين من الثلاث وتمسك بواحدة. ومنهم تارك لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده، فذلك ميت الاحياء. وما اعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجي، وإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق، وأفضل من ذلك كلمة عدل عند إمام جائر». وفي خبر جابر عن الباقر عليه السلام: «إن الأمر بالمعروف والنهى عن

---

(١) صححنا هذه النبويات الثلاثة على (احياء العلوم): ٢ / ٢٧١، ٢٧٢.

(٢) صححنا الحديث على (المستدرك): كتاب الأمر بالمعروف، الباب ٣. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، الباب ٣. وكذا الحديث بعده، صححناه على (الوسائل) في الموضع المذكور.

المنكر سبيل الانبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة، بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الاعداء، ويستقيم الأمر. فانكروا بقلوبكم، والفظوا بألسنتكم، وصكوا بها جباههم، ولا تخافوا في الله لومة لائم. فإن اتعظوا والى الحق رجعوا فلا سبيل عليهم:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

هنالك فجاهدوهم بأبدانكم، وابغضوهم بقلوبكم، غير طالبين سلطانا، ولا باغين مالاً، ولا مريدين لظلم ظفراً، حتى يفيئوا إلى أمر الله ويمضوا على طاعته»(٢).

فصل

(وجوب الأمر بالمعروف وشروطه)

مقتضى الآيات والأخبار المذكورة، وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ولا خلاف فيه أيضاً، إنما الخلاف في كون وجوبهما كفائياً أو عينياً. والحق الأول، كما يأتى.

ثم الواجب إنما هو الأمر بالواجب والنهى عن الحرام. وأما الأمر بالمندوب والنهى عن المكروه فمندوب، وإنما يجب بشروط اربعة:

الأول ـ العلم بكونهما معروفاً ومنكراً، ليأمن من الغلط، فلا يجبان في المتشابه، فمن علم بالقطع الوجوب أو الحرمة، وعدم جواز الاختلاف فيه من ضرورة الدين أو المذهب أو الاجماع القطعى النظرى أو الكتاب والسنة أو من قول العلماء، فله أن

---

(١) الشورى، الآية: ٤٢.

(٢) صححنا الحديث على (فروع الكافى): كتاب الجهاد، باب الأمر بالمعروف.

يأمر وينهى ويحتسب به على كل أحد، ومن لم يعلمها بالقطع، بل علمها بالظن الحاصل من الاجتهاد أو التقليد، وجوز الاختلاف فيه، فليس له الأمر والنهى والحسبة، إلا على من كان على هذا الاعتقاد من مجتهد أو مقلد، أو لزم عليه أن يكون هذا الاعتقاد، وان لم يكن عليه بالفعل للجهل، كالمقلد المطلق لمجتهد إذا لم يعلم بعض العقائد الاجتهادية لمجتهده، فيتأتى لغيره ان يحتسب به عليه. وحاصل ما ذكر: أن القطعيات الوفاقية تأتى لكل أحد أن يحتسب بها على كل أحد بعد علمها، وغير القطعيات الجائز فيها الاختلاف والمرجح أحد طرفيها لاجتهاد لا يتأتى لمجتهدها ومقلده فيها الاحتساب، أي الأمر والنهى، إلا على من كان موافقاً في الاعتقاد أو يلزم أن يكون موافقاً.

الثاني ـ تجويز التأثير. فلو علم أو غلب على ظنه انه لا يؤثر فيه، لم يجب، لعدم الفائدة.

الثالث ـ القدرة والتمكن منه، وعدم تضمنه مفسدة. فلو ظن توجه الضرر إليه أو الى أحد من المسلمين بسببه سقط، إذ لا ضرر ولا ضرار في الدين.

الرابع ـ أن يكون المأمور أو المنهى مصراً على الاستمرار. فلو ظهر منهما امارة الإقلاع سقط، للزوم العبث.

ثم هذه الشروط يختلف اشتراطها بسبب اختلاف درجات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما يأتي. ويدل على اشتراط الثلاثة الأول ما روى: «انه سئل مولانا الصادق عليه السلام: ان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو اجب على الأمة جميعاً؟ فقال: لا. فقيل له: ولم؟ قال: انما هو على القوى المطاع، العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعيف الذي لا يهتدى سبيلاً إلى أى من أى يقول من الحق إلى الباطل. والدليل على ذلك كتاب الله عز وجل، قوله:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾(١).

فهذا خاص غير عام، كما قال الله عز وجل:

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾(٢).

ولم يقل على امة موسى، ولا على كل قوم، وهم يومئذ امم مختلفة، والامة واحد فصاعداً، كما قال الله عز وجل: ﴿إن ابراهيم كان امة قانتاً لله﴾ يقول مطيعاً لله عز وجل. وليس على من يعلم ذلك في هذه الهدنة من حرج، إذا كان لا قوة له ولا عذر ولا طاقة». وقال مسعدة: «سمعت ابا عبدالله عليه السلام ـ وسئل عن الحديث الذي جاء عن النبى صلى الله عليه وآله: (إن أفضل الجهاد كلمة عدل عند امام جائر) ما معناه ـ قال: هذا على أن يأمره بعد معرفته، وهو مع ذلك يقبل منه، وإلا فلا». وفي خبر آخر: «إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ أو جاهل فيتعلم. فأما صاحب سوط أو سيف فلا». وفي خبر آخر: «من تعرض لسلطان جائر واصابته بلية، لم يؤجر عليها ولم يرزق الصبر عليها»(٣). ومن الشرائط أن يظهر المنكر على المحتسب من غير تجسس، فلا يجب، بل لا يجوز التجسس، كفتح الباب المغلق، ووضع الاذن والانف لاحتباس الصوت والريح، وطلب اراءة ما تحت الثوب، وأمثال ذلك، لنص الكتاب والسنة.

فصل

(عدم اشتراط العدالة فيه)

لا تشترط فيه العدالة وائتمار الآمر بما يأمر به وانتهاء الناهى عما ينهى عنه،

---

(١) آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) الأعراف، الآية: ١٥٩.

(٣) صححنا الأحاديث على (فروع الكافى): باب الأمر بالمعروف، وباب انكار المنكر بالقلب. اسقط المؤلف من الحديث الأول قسماً فأكملناه.

لاطلاق الأدلة، ولأن الواجب على فاعل الحرام المشاهد فعله من غيره أمران: تركه وانكاره، ولا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر، كيف ولو شرط ذلك لاقتضى عدم وجوب ذلك إلا على المعصوم، فينسد باب الحسبة بالكلية.

وأما الانكار في قوله تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2].

وما في حديث الاسرى من قرض مقاريضهم بالنار، فانما هو على عدم العمل بما يأمر به ويقوله، لا على الأمر والقول. وكذلك ما روى: «أن الله تعالى أوحى إلى عيسى: عظ نفسك، فان اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحى منى»[3]. وقس على ذلك جميع ما ورد من هذا القبيل.

وما قيل إن هداية الغير فرع الاهتداء، وتقويم الغير فرع الاستقامة، ففيه أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تارة يكون بالوعظ وتارة بالقهر، ومن لم يكن مهتديا مستقيماً، تسقط عنه الحسبة بالوعظ، لعلم الناس بفسقه، فلا يتضمن وعظه وكلامه فائدة، ولا يؤثر في العالم بفسقه، ولا يخرج ذلك وعظه وقوله عن الجواز، كما لا تخرج حسبته القهرية عن التأثير والفائدة أيضاً. إذ الفاسق إذا منع غيره قهراً عن الزنا واللواط وشرب الخمر، وأراق الخمور، وكسر آلات الملاهى، حصل التأثير والفائدة بلا شبهة. والحاصل: أن أحد نوعى الاحتساب ـ أعنى الوعظى ـ يتوقف تأثيره على العدالة، وأما نوعه الآخر ـ أعنى القهرى ـ فلا يتوقف عليه مطلقاً.

---

(١) البقرة، الآية: ٤٤.

(٢) الصف، الآية: ٢ ـ ٣.

(٣) صححنا الأحاديث كلها على (فروع الكافى): باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف. وعلى (المستدرك): ٢ / ٣٦٠، كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

فان قيل: إذا أتى رجل امرأة إكراهاً، وهي مستورة الوجه، فكشفت وجهها باختيارها، فما اشنع واقبح أن ينهاها الرجل في أثناء الزنا عن كشف وجهها، ويقول لها: أنت مكرهة في الزنا ومختارة في كشف الوجه لغير المحرم، وما أنا بمحرم لك، فاستري وجهك.

قلنا: القبح والاستنكار إنما هو لأجل أنه ترك الاهم واشتغل بما هو الاهون، كما إذا ترك المشتبه وأكل الحرام، أو ترك الغيبة وشهد بالزور، لا لأن هذا النهي هو حرام في نفسه، أو خرج عن الوجوب إلى الاباحة أو الكراهة. ولأن نهيه هذا خرج بفسقه عن التأثير والفائدة، فالاستنكار عليه وتقبيح نهيه عن هذا من حيث أنه نزل نفسه مقام من يؤثر قوله، مع أنه لا يؤثر، كما تقدم آنفاً.

ثم ما ذكرناه من عدم اشتراط العدالة في العمل بما يأمر به وينهى عنه إنما هو في آحاد الحسبة الصادرة من أفراد الرعية المطلعين على المنكر. وأما من نصب نفسه لا صلاح الناس ونصحهم، وبيان الاحكام الإلهية نيابة عن رسول الله ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام، فلابد فيه من العدالة والتقوى والعلم بالكتاب والسنة، وغير ذلك من شرائط الاجتهاد. وعلى هذا يحصل جواب آخر عن الآيات والاخبار الواردة في الانكار على الواعظ غير المتعظ بتخصيصها به دون افراد الرعية. وعليه يحمل قول الصادق عليه السلام في (مصباح الشريعة)[1]: «من لم ينسلخ عن هواجسه، ولم يتخلص من آفات نفسه وشهواتها، ولم يهزم الشيطان، ولم يدخل في كنف الله وأمان عصمته، لا يصلح له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه إذا لم يكن بهذه الصفة، فكلما أظهر أمراً كان حجة عليه، ولا ينتفع الناس به. قال الله عز وجل:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾[2].

---

(١) الباب ٦٤. وقد صححنا الحديث عليه وعلى (بحار الانوار): ٢١ / ١١٤، باب الأمر بالمعروف. وعلى (مستدرك الوسائل): ٢ / ٣٦٣ ـ ٣٦٥.

(٢) البقرة، الآية: ٤٤.

ويقال له: يا خائن! أتطالب خلقى بما خنت به نفسك وأرخيت عنه عنانك!».

وكذا يحمل عليه قول الصادق عليه السلام[١]: «صاحب الأمر بالمعروف يحتاج إلى أن يكون عالماً بالحلال والحرام، فارغاً من خاصة نفسه مما يأمرهم به وينهاهم عنه، ناصحاً للخلق، رحيماً لهم، رفيقاً بهم، داعياً لهم باللطف وحسن البيان، عارفاً بتفاوت اخلاقهم، لينزل كلاً منزلته، بصيراً بمكر النفس ومكائد الشيطان، صابراً على ما يلحقه، لا يكافيهم بها ولا يشكو منهم، ولا يستعمل الحمية ولا يغتلظ لنفسه، مجرداً نيته لله، مستعيناً به ومبتغياً لوجهه، فان خالفوه وجفوه صبر، وإن وافقوه وقبلوا منه شكر، مفوضاً أمره إلى الله، ناظراً إلى عيبه».

(تنبيه) اعلم أن المحتسب عليه ـ أعنى من يؤمر به أو ينهى عنه ـ وان اشترط كونه عاقلاً بالغاً، إلا أن هذا الشرط انما هو في غالب الأوامر والنواهى، وبعضها لا يشترط فيه ذلك. إذ من رأى صبياً أو مجنونا يشرب الخمر، وجب عليه أن يمنعه ويريق خمره. وكذا إن رأى مجنوناً يزنى بمجنونة أو بهيمة، فعليه أن يمنعه منه، ولا يلزم منه أن يكون منع بهيمة عن افساد زرع انسان حسبة ونهياً عن منكر، إذ لا يصدق اسم المحتسب عليه والمنهى إلا على من كان الفعل الممنوع عنه في حقه منكراً، وهو لا يكون إلا الانسان دون سائر الحيوانات.

فصل
(مراتب الأمر بالمعروف)

اعلم أن للامر بالمعروف والنهى عن المنكر مراتب:

الأولى ـ الانكار بالقلب: بأن يبغضه على ارتكاب المعصية. وهذا مشروط بعلم الناهي واصرار المنهى، ولا يشترط بالشرطين الأخيرين.

---

(١) مصباح الشريعة: الباب المتقدم.

الثانية ـ التعريف: بأن يعرف المرتكب للمنكر بأنه معصية، فان بعض الناس قد يرتكب بعض المعاصى لجهلهم بأنه معصية، ولو عرف كونه معصية تركه.

الثالثة ـ إظهار الكراهة والإعراض والمهاجرة.

الرابعة ـ الانكار باللسان: بالوعظ، والنصح، والتخويف، والزجر، مرتباً الأيسر فالأيسر، إلى أن يصل إلى التعنيف بالقول والتغليظ في الكلام. كقوله: يا جاهل! يا أحمق! لا تخالف ربك! وههنا شبكة عظيمة للشيطان، ربما يصطاد بها أكثر الوعاظ. فينبغى لكل عالم ناصح أن يراها بنور البصيرة، وهى أن يحضره عند الوعظ والارشاد، ويلقى في قلبه تعززه وشرافته بالعلم، وذلة من يعظه بالجهل والخسة. فربما يقصد بالتعريف والوعظ الاذلال والتجهيل، واظهار شرف نفسه بالعلم، وهذه آفة عظيمة تتضمن كبراً ورياء. وينبغى لكل واعظ دين ألا يغفل عن ذلك، ويعرف بنور بصيرته عيوب نفسه وقبح سريرته. وعلامة براءة نفسه من هذه الآفة، أن يكون اتعاظ ذلك العاصى بوعظ غيره أو امتناعه من المعصية بنفسه أحب إليه من اتعاظه بوعظه.

الخامسة ـ المنع بالقهر مباشرة: ككسر آلات اللهو، واراقة الخمر، واستلاب الثوب المغصوب منه ورده إلى صاحبه، وأمثال ذلك.

السادسة ـ التهديد والتخويف: كقوله: دع عنك هذا، وإلا ضربتك أو كسرت رأسك! أو غير ذلك مما يجوز له أن يفعل لو لم ينته عن معصيته. ولا يجوز أن يهدده بما لا يجوز فعله، كقوله: دع هذا وإلا أضرب عنقك! أو أضرب ولدك، أو استبين زوجتك، وأمثال ذلك.

السابعة ـ مباشرة الضرب باليدوالرجل وغير ذلك، من دون أن ينتهى إلى شهر سلاح وجراح.

الثامنة ـ الجرح بشهر بعض الأسلحة. وجوزه سيدنا المرتضى ﷺ من أصحابنا وجماعة، والباقون اشترطوا إذن الامام في ذلك. إذ ربما لا يقدر عليه بنفسه، ويحتاج

فيه إلى أعوان وانصار يشهرون السلاح، وربما يستمد الفاسق أيضاً باعوانه، فيؤدى الى المقاتلة والمحاربة وحدوث فتنة عظيمة.

فصل
(معنى وجوبهما كفائياً)

إذا اجتمعت الشرائط، وكان المطلع منفرداً، تعين عليه. وإن كان ثمة غيره، وشرع أحدهما في الأمر والنهي، فان ظن الآخر أن لمشاركته اثراً في تعجيل ترتب الأثر ورسوخ الانزجار، وجب عليه أيضاً، وإلا فلا. لأن الغرض وقوع المعروف وارتفاع المنكر، فمتى حصلا بفعل واحد، كان السعي من الآخر عبثاً. وهذا معنى كون وجوبهما كفائياً.

فصل
(ما ينبغي في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر)

ينبغي لكل من الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون حسن الخلق، صابراً حليماً قوياً في نفسه، لئلا ينزعج، ولا يضطرب إذا قيل في حقه ما لا يليق به. فان اكثر الناس اتباع الهوى، فإذا نهوا عما يميلون إليه شق ذلك عليهم، فربما اطلقوا ألسنتهم في حق الناهي، ويقولون فيه ما لا يليق بشأنه، وربما تجاوزوا إلى سوء الأدب قولا وفعلا بالمشافهة.

وأن يكون رفيقاً بالناس، فان الوعظ بالرفق والملاءمة أوقع وأشد تأثيراً في قلوب أكثر الناس.

وأن يكون قاطعاً للطمع عن الناس، فان الطامع من الناس في أموالهم أو اطلاق ألسنتهم بالثناء عليه لا يقدر على الحسبة، ولذا نقل: «أن بعض المشايخ كان له سنور، وكان يأخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئاً من القد لسنوره، فرأى على القصاب

منكراً، فدخل الدار أولا، وأخرج السنور، ثم جاء ووعظ القصاب وشدد عليه القول، فقال القصاب: لا يأكل سنورك شيئاً بعد ذلك، فقال: ما احتسبت عليك إلا بعد اخراج السنور وقطع الطمع عنك!».

تتميم
(أنواع المنكرات)

اعلم أن المنكرات إما محظورة أو مكروهة، والمألوفة منها في العادات أكثر من أن تحصى.

فمنها ـ ما يكون غالباً في المساجد: كإساءة الصلاة، والاخلال ببعض أفعالها، والتأخير عن أوقاتها، وادخال النجاسة فيها، والتكلم فيها بأمور الدنيا والبيع والشراء، ودخول الصبيان والمجانين فيها مع اشتغالهم باللهو واللعب، وقراءة القرآن فيها باللحن أو الغناء، ودخول النسوان فيها مع ظن تطرق الريبة، ونظر الأجانب اليهن أو نظرهن اليهم، ودخول الجنب أو الحائض فيها، وتغنى المؤذنين بالأذان أو غيره مما يقرؤن، وتقديمهم الأذان على الوقت، ووعظ من لا ينبغى أن يتمكن من الموعظة، كمن يكذب في حديثه أو يفتى بالمسائل وليس أهلا لها، أو يظهر من وعظه كونه مرائياً طالباً للجاه، وأمثال ذلك. فان كل ذلك من المنكرات، بعضها محظورة وبعضها مكروهة، ينبغى لكل مطلع ان ينهى عنها.

ومنها ـ ما يكون غالباً في الأسواق : من الكذب في المحاولات والمعاملات واخفاء العيب، والايمان الكاذبة، والمنازعة بالضرب والشتم والطعن واللعن وامثال ذلك، والتبخس في الكيل والميزان، والمعاملات الفاسدة باقسامها على ما هو مقرر في الفقهيات.

ومنها ـ ما يكون في الشوارع : كوضع الاساطين، وبناء الدكات متصلة بالابنية المملوكة، وتضيق الطرق على المارة بوضع الاطعمة والاحطاب وربط الدواب فيها،

وسوق الدواب فيها وعليها الاشواك والنجاسات ـ إذا تأذى الناس منها وامكن العدول بها إلى موضع واسع، وإن لم يكن فلا منع، إذ حاجة أهل البلد ربما تمس إلى ذلك ـ وتحميل الدواب ما لا يطيقها من الحمل، وذبح القصاب على الطريق أو على باب دكانه بحيث تلوث الطريق بالدم، وطرح الكناسة على جواد الطريق، ورش الماء على الطرق بحيث يخشى منه الزلق والسقوط، وارسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط إلى الطرق الضيقة، وغير ذلك. وقس على ذلك منكرات الحمات، والخانات، والاسواق، ومجالس العامة، ومجامع القضاة، ومدارس الفقهاء، ورباطات الصوفية، ودواوين السلاطين، وغيرها. فان أمثال ما ذكر من المنكرات يجب أن ينهى عنها، فلو قام بالاحتساب والنهي عنها أحد سقط الحرج على البواقي، وإلا عم الحرج أهل البلد جميعاً. وأمثال ما ذكر إنما هو من المنكرات اليسيرة الجزئية.

وأما المنكرات العظيمة: من البدعة في الدين، والقتل والظلم، والزنا واللواط، وشرب الخمر، وانواع الغناء، والنظر إلى غير المحارم، وأكل الحرام، والصلاة في الاماكن المغصوبة، والوضوء والغسل من المياه المحرمة، والتصرف في أموال الأوقاف وغصبها، والمعاملة مع الظالمين، والجهل في الاصول الاعتقادية والفروع الواجبة، وآفات اللسان، فلا يمكن حصرها لكثرتها، لا سيما في أمثال زماننا. فلو امكن لمؤمن دين أن يغير هذه المنكرات كلاً أو بعضاً بالاحتساب، فليس له أن يقعد في بيته، بل يجب عليه الخروج للنهي والتعليم. بل ينبغي لكل مسلم أن يبدأ بنفسه، فيصلحها بالمواظبة على الطاعات وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم أهل بلده، ثم أهل السواد المكتنف بلده، ثم إلى غيرهم، وهكذا الاقرب فالأقرب إلى اقصى العالم. فان قام به الادنى سقط عن الابعد، وإلا لزم الحرج على كل قادر عليه، قريباً كان أو بعيداً. ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل يعرض عن فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فريضة. وهذا شغل شاغل لمن يهمه

أمر دينه يشغله عن سائر المشاغل. إلا أن إعراض الناس عن أمور دينهم في عصرنا لم يبلغ حداً يقبل الاصلاح، إلى ان تتعلق به مشيئة الله، فينهض بعض عباده السعداء الاقوياء، فيدفع هذه الوصمة، ويسد هذه الثلمة، ويتلافي هذه الفترة.

ومنها:

الهجرة والتباعد

ولا ريب في كونه من نتائج العداوة والحقد، أو الحسد أو البخل. فيكون من رذائل قوة الغضب أو الشهوة. وهو من ذمائم الأفعال. قال رسول الله ﷺ: «أيما مسلمين تهاجرا، فمكثا ثلاثاً لا يصطلحان، إلا كانا خارجين من الاسلام، ولم يكن بينهما ولاية. فأيهما سبق الكلام لأخيه، كان السابق إلى الجنة يوم الحساب». وقال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث...». وقال الصادق عليه السلام: «لا يفترق رجلان على الهجران، إلا استوجب أحدهما البراءة واللعنة، وربما استحق ذلك كلاهما»، فقال له معتب: جعلنى الله فداك! هذا للظالم، فما بال المظلوم؟! قال: «لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته، ولا يتعامس له عن كلامه. سمعت أبى عليه السلام يقول: إذا تنازع اثنان، فعاد أحد هما الآخر، فليرجع المظلوم إلى صاحبه، حتى يقول لصاحبه: أى أخى، انا الظالم، حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فان الله تبارك وتعالى حكم عدل، يأخذ للمظلوم من الظالم». وقال عليه السلام: «لا يزال ابليس فرحاً ما اهتجر المسلمان»، فإذا التقيا اصطكت ركبتاه وتخلعت أوصاله، ونادى: ياويله! مالقى من الثبور». وقال الباقر عليه السلام: «إن الشيطان يغرى بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدد، ثم قال: فزت. فرحم الله امرأ ألف بين وليين لنا. يا معشر المؤمنين، تآلفوا وتعاطفوا»[١]. والأخبار الواردة في ذم الهجرة

---

(١) صححنا الاخبار كلها على (الكافى): باب الهجران.

والتباعد كثيرة.

فيجب على كل طالب لنجاة الآخرة أن يتأمل في امثال هذه الأخبار، ثم يتذكر ثواب ضد ذلك وفوائده، أعني التآلف والتزاور بين الاخوان بنفسه، فيحافظ نفسه من حصول الانقطاع والتباعد مع أحد اخوانه. ولو حصل ذلك كلف نفسه المبادرة إلى زيارته وتألفه، حتى يغلب على الشيطان ونفسه الامارة، ويفوز بما يرجوه المتقون من عظيم الأجر وجزيل الثواب.

فصل
(التزاور والتآلف)

قد اشير إلى أن ضد التباعد والهجران هو التزاور والتآلف، وهو من ثمرات النصيحة والمحبة، وثوابه أكثر من أن يحصى. عن أبى جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حدثنى جبرئيل عليه السلام: أن الله عزوجل أهبط إلى الأرض ملكا، فاقبل ذلك الملك يمشى حتى وقع إلى باب عليه رجل يستأذن على رب الدار، فقال له الملك: ما حاجتك إلى رب هذه الدار؟ قال: أخ لي مسلم زرته في الله تبارك وتعالى. فقال له الملك: ما جاء بك إلا ذاك؟ فقال: ما جاء بى إلا ذاك. قال: فانى رسول الله اليك، وهو يقرئك السلام، ويقول: وجبت لك الجنة. وقال الملك: إن الله عزوجل يقول: أيما مسلم زار مسلماً فليس إياه زار، بل إياى زار، وثوابه عليّ الجنة». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لقاء الاخوان مغنم جسيم، وإن قلوا».

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إن لله عزوجل جنة لا يدخلها إلا ثلاثة: رجل حكم على نفسه بالحق، ورجل زار أخاه المؤمن في الله، ورجل آثر أخاه المؤمن في الله». وقال عليه السلام: «إن المؤمن ليخرج إلى أخيه يزوره فيوكل الله عزوجل به ملكا فيضع جناحاً في الأرض وجناحاً في السماء يظله، فإذا دخل إلى منزله، ناداه الجبار تبارك وتعالى: أيها العبد المعظم لحقى، المتبع لآثار نبيى، حق عليّ إعظامك، سلنى

أعطك، أدعني أجبك، اسكت أبتدئك. فإذا انصرف شيعه الملك يظله بجناحه حتى يدخل إلى منزله، ثم يناديه تبارك وتعالى: أيها العبد المعظم لحقى، حق عليّ إكرامك، قد أوجبت لك جنتى، وشفعتك في عبادى». وقال عليه السلام: «أيما مؤمن خرج الى أخيه يزوره عارفا بحقه، كتب الله له بكل خطوة حسنة، ومحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة، فإذا طرق الباب فتحت له ابواب السماء، فإذا التقيا وتصافحا وتعانقا، أقبل الله عليهما بوجهه، ثم باهى بهما الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبدى تزاورا وتحابا فى، حق عليّ ألا أعذبهما بالنار بعد ذا الموقف. فإذا انصرف شيعه ملائكة عدد نفسه وخطاه وكلامه، يحفظونه عن بلاء الدنيا وبوائق الآخرة إلى مثل تلك الليلة من قابل، فان مات فيما بينهما اعفى من الحساب، وان كان المزور يعرف من حق الزائر ما عرفه الزائر من حق المزور كان له مثل أجره».

وقال الصادق عليه السلام: «من زار أخاه لله لا لغيره، التماس موعد الله وتنجز ما عند الله، وكل الله به سبعين الف ملك ينادونه: ألا طبت وطابت لك الجنة!». وقال عليه السلام: «من زار أخاه في الله، قال الله عزوجل: إياى زرت، وثوابك علي، ولست أرضى لك ثواباً دون الجنة». وقال عليه السلام: «من زار أخاه في الله في مرض أو صحة، لا يأتيه خداعاً ولا استبدالاً، وكل الله به سبعين الف ملك، ينادون في قفاه: أن طبت وطابت لك الجنة! فانتم زوار الله، وأنتم وفد الرحمن، حتى يأتى منزله»، فقال له بشير: جعلت فداك! فان كان المكان بعيداً؟ قال: «نعم يا بشير! وإن كان المكان مسيرة سنة، فان الله جواد، والملائكة كثير، يشيعونه حتى يرجع إلى منزله». وقال عليه السلام: «من زار أخاه في الله تعالى ولله، جاء يوم القيامة يخطر بين قباطى من نور[1]، لا يمر بشيء الا أضاء له، حتى يقف بين يدى الله عزوجل، فيقول الله له: مرحباً! وإذا قال مرحباً، اجزل الله عزوجل له العطية». وقال عليه السلام: «لزيارة مؤمن في الله خير من عتق عشر رقاب

(١) القبط ـ بالكسر ـ: أهل مصر الاصليون. واليهم تنسب الثياب البيض القبطية ـ والجمع (قباطى).

مؤمنات، ومن أعتق رقبة مؤمنة وقى بكل عضو عضواً من النار، حتى أن الفرج بقي الفرج». وقال عليه السلام لأبى خديجة: «كم بينك وبين البصرة؟» قال: في الماء خمس إذا طابت الريح، وعلى الظهر ثمان ونحو ذلك، فقال: «ما أقرب هذا، تزاوروا وتعاهدوا بعضكم بعضاً، فانه لابد يوم القيامة يأتى كل انسان بشاهد شهد له على دينه». وقال: «إن المسلم إذا رأى أخاه، كان حياة لدينه إذا ذكر الله». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، مالقى المؤمنان قط إلا أفاد الله احدهما من صاحبه خيراً».

والأخبار الواردة بهذه المضامين كثيرة. والسر في هذا الترغيب الشديد على تزاور المؤمنين وملاقاتهم، كونه دافعاً للحسد والعداوة، جالباً للتأليف والمحبة. وهو أعظم ما يصلح به أمر دنياهم وعقباهم. ولذا ورد الثناء والمدح في الآيات والأخبار على نفس الألفة وانقطاع الوحشة، لا سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين. وورد الذم في التفرقة والتوحش، قال الله سبحانه في مقام الامتنان على المؤمنين بنعمة الألفة:

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَافِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾(١).

وقال: **﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا﴾**: أي بنعمة الألفة. وقال سبحانه: **﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾**(٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المؤمن إلف مألوف، ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف». وهذا هو السر في الترغيب على التسليم والمصافحة والمعانقة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أولى الناس بالله وبرسوله من بدأ بالسلام». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تغضبوا ولا تقبضوا، افشوا السلام، وأطيبوا الكلام، وصلوا بالليل والناس نيام،

---

(١) الانفال، الآية: ٦٣.

(٢) آل عمران، الآية: ١٠٣.

تدخلوا الجنة بسلام». وقال الباقر عليه السلام: «إن الله يحب إفشاء السلام». وقال عليه السلام: «من التواضع أن تسلم على من لقيت». وقال الصادق عليه السلام: «تصافحوا، فانها تذهب بالسخيمة». وقال: «مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائكة». وقال الباقر عليه السلام: «إن المؤمنين إذا التقيا فتصافحا، أدخل الله تعالى يده بين أيديهما، وأقبل بوجهه على أشدهما حباً لصاحبه. فإذا أقبل الله تعالى بوجهه عليهما، تحاتت عنهما الذنوب كما تتحاتت الورق من الشجر». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا لقى أحدكم أخاه فليسلم وليصافحه، فان الله تعالى أكرم بذلك الملائكة، فاصنعوا صنع الملائكة». وقال الصادق عليه السلام: «إن المؤمنين إذا اعتنقا غمرتهما الرحمة، فإذا التزما لا يريدان بذلك إلا وجه الله ولا يريدان غرضاً من اغراض الدنيا، قيل لهما: مغفوراً لكما فاستأنفا، فإذا أقبلا على الماء، قالت الملائكة بعضها لبعض: تنحوا عنهما، فان لهما سراً وقد ستر الله عليهما»[١].

ومنها:

قطع الرحم

وهو إيذاء ذوى اللحمة والقرابة، أو عدم مواساتهم بما ناله من الرفاهية والثروة والخيرات الدنيوية، مع احتياجهم اليه. وباعثه إما العداوة أو البخل والخسة، فهو من رذائل القوة الغضبية أو الشهوية، ولا ريب في كونه من أعم المهلكات المفسدة للدنيا والدين، قال الله سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ﴾[٢].

---

(١) صححنا الاحاديث كلها على (الكافى): باب زيارة الاخوان، وباب المصافحة، وباب المعانقة. وعلى (سفينة البحار): ٥٦٧/١.

(٢) الرعد، الآية: ٢٥.

وقال رسول الله ﷺ: «أبغض الأعمال إلى الله الشرك بالله، ثم قطيعة الرحم، ثم الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف». وقال ﷺ: «لا تقطع رحمك وإن قطعتك». وقال تعالى: «أنا الرحمن، وهذه الرحم شققت لها اسماً من اسمى، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته». وقال ﷺ: «حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مر الوصول للرحم المؤدى للامانة نفذ إلى الجنة، وإذا مر الخائن للامانة القطوع للرحم لم ينفعها معه عمل(١) وتكفأ به الصراط في النار». وقال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة: «أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء»، فقام إليه عبدالله بن الكوى اليشكرى، فقال: يا أمير المؤمنين، أو تكون ذنوب تعجل الفناء؟ فقال: «نعم، ويلك! قطيعة الرحم. إن أهل البيت ليجتمعون ويتواسون وهم فجرة فيرزقهم الله، وإن أهل البيت ليتفرقون ويقطع بعضهم بعضاً فيحرمهم الله وهم اتقياء». وقال عليه السلام: «إذا قطعوا الارحام، جعلت الأموال في أيدى الأشرار». وقال الباقر عليه السلام: «في كتاب علي ـ صلوات الله عليه ـ: ثلاث خصال لا يموت صاحبهن ابداً حتى يرى وبالهن: البغى، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها. وإن اعجل الطاعات ثواباً لصلة الرحم. وإن القوم ليكونون فجاراً فيتواصلون فتنمى أموالهم ويثرون. وإن اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم لتذران الديار بلاقع من أهلها. وتنقل الرحم، وإن نقل الرحم انقطاع النسل». وقال عليه السلام: «اتقوا الحالقة(٢)، فانها تميت الرجال»، قيل: وما الحالقة؟ قال: «قطيعة الرحم». وجاء الرجل اليه، فشكى أقاربه، فقال له: اكظم وافعل»، فقال: انهم يفعلون ويفعلون، فقال: «أتريد أن تكون مثلهم فلا ينظر الله اليكم؟»(٣). وكتب

---

(١) قال في (الوافى): لم ينفعهما معه عمل، أي لم ينفع الخائن ولا القطوع مع الخيانة أو القطع عمل. وفي نسخة من (الكافى): لم ينفعه معهما.

(٢) قال في (مجمع البحرين) ـ مادة حلق ـ: «وفي الحديث: اتقوا الحالقة. قال بعض الشارحين: الحالقة هي الخصلة التي من شأنها ان تحلق، أى تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل الموسى الشعر».

(٣) صححنا الاحاديث كلها على (اصول الكافى): باب قطيعة الرحم، وباب صلة الرحم.

أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض عماله: «مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا»[١]، وذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق، وذلك ربما يورث التحاسد والتباغض وقطيعة الرحم، كما هو مشاهد في اكثر ابناء عصرنا، وليس الخبر كالمعاينة، وإذا لم يتجاوروا وتزاحمت[٢] ديارهم، كان أقرب إلى التحابب، كما قيل بالفارسية: «دورى ودوستى»[٣].

وصل

(ضد قطيعة الرحم: صلة الرحم)

وهو تشريك ذوى اللحمة والقرابات بما ناله من المال والجاه وسائر خيرات الدنيا، وهو أعظم القربات وأفضل الطاعات، قال الله سبحانه:

﴿وَٱعْبُدُوا ٱللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ...﴾[٤]. وقال: **﴿وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾**[٥]. وقال: **﴿ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ﴾** - إلى قوله - **﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾**[٦].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اوصى الشاهد من امتى والغائب، ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء، إلى يوم القيامة: أن يصل الرحم وإن كانت منه على مسيرة سنة، فان ذلك من الدين». وقال صلى الله عليه وآله: «إن اعجل الخير ثواباً صلة الرحم». وقال: «من

---

(١) لم نعثر على مصدر لهذا الحديث.

(٢) كذا في النسخ، والظاهر ان الصحيح «وتباعدت».

(٣) يعنى: التباعد معه التحابب.

(٤) النساء، الآية: ٣٦.

(٥) النساء، الآية: ١.

(٦) الرعد، الآية: ٢١، ٢٢.

سره النساء في الأجل، والزيادة في الرزق، فليصل رحمه». وقال ﷺ: «إن القوم ليكونون فجرة ولا يكونون بررة، فيصلون أرحامهم، فتنمى أعمالهم وتطول أعمارهم، فكيف إذا كانوا ابراراً بررة». وقال ﷺ: «الصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشر وصلة الاخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربعة وعشرين». وقيل له ﷺ: «أى الناس افضل؟ فقال: اتقاهم الله، وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر». وقال ﷺ: «إن أهل البيت ليكونون فجاراً، تنمى أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم». وقال ﷺ: «أفضل الفضائل: أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». وقال ﷺ: «من سره أن يمد الله في عمره، وأن يبسط في رزقه، فليصل رحمه. فان الرحم لها لسان يوم القيامة ذلق، تقول: يا رب، صل من وصلنى، واقطع من قطعنى. فالرجل ليرى بسبيل خير إذا أتته الرحم التي قطعها، فتهوى به إلى أسفل قعر في النار».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «صلوا أرحامكم ولو بالتسليم، يقول الله تعالى: واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً». وقال الباقر عليه السلام: «إن الرحم متعلقة يوم القيامة بالعرش، تقول: اللهم صل من وصلنى واقطع من قطعنى». هذا تمثيل للمعقول بالمحسوس، واثبات لحق الرحم على أبلغ وجه، وتعلقها بالعرش كناية عن مطالبة حقها بمشهد من الله. وقال عليه السلام: «صلة الأرحام تحسن الخلق، وتسمح الكف، وتطيب النفس، وتزيد في الرزق، وتنسىء في الأجل». وقال: «صلة الأرحام تزكى الأعمال، وتنمى الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسىء في الأجل». وقال الصادق عليه السلام: «صلة الرحم والبر ليهونان الحساب ويعصمان من الذنوب، فصلوا أرحامكم وبروا باخوانكم، ولو بحسن السلام ورد الجواب». وقال عليه السلام: «صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة، وهى منسأة في العمر، وتقى مصارع السوء». وقال عليه السلام: «صلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار». وقال عليه السلام: «ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلا صلة الرحم، حتى أن الرجل

يكون أجله ثلاث سنين، فيكون وصولاً للرحم، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة، فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة. ويكون أجله ثلاثاً وثلاثين سنة، فيكون قاطعاً للرحم، فينقصه الله تعالى ثلاثين سنة، ويجعل أجله إلى ثلاث سنين»[١]. والأخبار الواردة في فضيلة صلة الرحم وعظم مثوباته أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه كاف لتنبيه الغافل.

تنبيه

(المراد بالرحم)

المراد بالرحم الذي يحرم قطعه وتجب صلته، ولو وهب له شيء لا يجوز الرجوع عنه، هو مطلق القريب المعروف بالنسب، وإن بعدت النسبة وجاز النكاح. والمراد بقطعه أن يؤذيه بالقول أو الفعل، أو كان له شدة احتياج إلى ما يقدر عليه زيادة على قدر حاجته، من سكنى وملبوس ومأكول فيمنعه، أو أمكنه أن يدفع عنه ظلم ظالم ولم يفعله، أو هاجره غيظاً وحقداً من دون أن يعوده إذا مرض، أو يزوره إذا قدم من سفر وأمثال ذلك. فان جميع ذلك وأمثالها قطع للرحم. وأضدادها، من دفع الأذية، ومواساته بما له، وزيارته، واعانته باللسان واليد والرجل والجاه وغير ذلك، صلة.

ثم الظاهر تحقق الواسطة بين القطع والصلة، إذ كل احسان، ولو كان مما لا يحتاج إليه قريبه وهو محتاج اليه، يسمى صلة، وعدمه لا يسمى قطعاً.

ومنها:

عقوق الوالدين

وهو أشد انواع قطيعة الرحم، إذ أخص الأرحام وأمسها ما كان بالولادة،

(١) صححنا الأخبار هنا كلها على (اصول الكافى): باب صلة الرحم. وعلى (سفينة البحار): ١ / ٥١٤.

فيتضاعف تأكد الحق فيهما، فهو كقطيعة الرحم، إما يكون ناشئاً من الحقد والغيظ، أو من البخل وحب الدنيا، فيكون من رذائل احدى قوتي الغضب والشهوة. ثم جميع ما يدل على ذم قطيعة الرحم يدل على ذم العقوق، ولكونه أشد أنواع القطيعة وأفضعها، وردت في خصوص ذمه آيات وأخبار أخر كثيرة، كقوله تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[1].

وقول رسول الله ﷺ: «كن بارّاً واقصر على الجنة، وإن كنت عاقاً فاقصر على النار». وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ في كلام له: إياكم وعقوق الوالدين، فان ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، ولا يجدها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جار إزاره خيلاء. إنما الكبرياء لله رب العالمين». وقوله عليه السلام: «من أصبح مسخطاً لأبويه، أصبح له بابان مفتوحان إلى النار». وعن أبي جعفر عليه السلام: قال: «ان أبي عليه السلام نظر إلى رجل ومعه ابنه يمشي والأبن متكيء على ذراع الأب،: فما كلمه أبي مقتاً له حتى فارق الدنيا». وقال الصادق عليه السلام: «من نظر إلى أبويه نظر ماقت، وهما ظالمان له، لم يقبل الله له صلاة». وقال الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة كشف غطاء من أغطية الجنة، فوجد ريحها من كانت له روح من مسيرة خمسمائة عام، إلا صنفاً واحداً»، فقيل له: من هم؟ قال: «العاق لوالديه». وقال عليه السلام: «لو علم الله شيئاً هو أدنى من اف لنهى عنه، وهو أدنى العقوق. ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحد النظر اليهما»[2]. وسئل الكاظم عليه السلام: «عن الرجل يقول لبعض ولده: بأبي أنت وأمي! أو بأبوي أنت! أترى بذلك بأساً؟ فقال: «إن كان ابواه حيين فأرى ذلك عقوقاً، وإن كانا قد ماتا فلا بأس».

---

(١) الاسراء، الآية: ٢٣.

(٢) صححنا الاحاديث كلها على (اصول الكافي): باب العقوق. وعلى (مستدرك الوسائل): ٢ / ٦٣١، كتاب النكاح. وعلى (الوسائل): كتاب النكاح.

والأخبار في ذم العقوق أكثر من أن تحصى، وورد في بعض الأخبار القدسية: «بعزتى وجلالى وارتفاع مكانى! لو أن العاق لوالديه يعمل باعمال الأنبياء جميعاً لم أقبلها منه». وروى أيضاً: «ان أول ماكتب الله في اللوح المحفوظ: إنى أنا الله لا إله إلا أنا، من رضى عنه والداه فانا منه راض، ومن سخط عليه والداه فأنا عليه ساخط». وقد ورد عن رسول الله أنه قال: «كل المسلمين يرونى يوم القيامة، إلا عاق الوالدين، وشارب الخمر، ومن سمع اسمى ولم يصل علي». وقد ثبت من الأخبار والتجربة، أن دعاء الوالد على ولده لا يرد ويستجاب ألبتة. ودلت الأخبار على أن من لا ترضى عنه امه تشتد عليه سكرات الموت وعذاب القبر. وكفى للعقوق ذماً أنه ورد في الاسرائيليات: «أنه تعالى أوحى إلى موسى: أن من بر والديه وعقنى كتبته براً، ومن برنى وعق والديه كتبته عاقاً».

وصل
(بر الوالدين)

ضد العقوق (بر الوالدين) والاحسان اليهما، وهو أفضل القربات، وأشرف السعادات. ولذلك ورد ما ورد من الحث عليه، والترغيب اليه. قال الله سبحانه:
﴿**وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا**﴾(١).
وقال: ﴿**وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا**﴾(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله». وقال ﷺ: «من أصبح مرضياً لابويه، أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة». وعن أبى عبد الله عليه السلام قال: «إن رجلا أتى إلى النبى ﷺ فقال:

---

(١) الاسراء، الآية: ٢٤.

(٢) النساء، الآية: ٣٦.

يا رسول الله أوصني. فقال: لا تشرك بالله شيئاً وإن حرقت بالنار وعذبت إلا وقلبك مطمئن بالايمان، ووالديك فأطعهما وبرهما حيين كانا أو ميتين وإن امراك، أن تخرج من أهلك فافعل، فان ذلك من الايمان». وعن أبى عبدالله عليه السلام قال: «جاء رجل وسأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن بر الوالدين. فقال: أبرر أمك، أبرر أمك، أبرر أمك،أبرر أباك، أبرر أباك، أبرر أباك وبدأ بالام قبل الأب».

وعن ابى عبدالله عليه السلام قال: «جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم: فقال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أباك» وأتاه رجل آخر وقال: «إنى رجل شاب نشيط، واحب الجهاد، ولي والدة تكره ذلك. فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: ارجع فكن مع والدتك، فو الذي بعثنى بالحق! لأنسها بك ليلة خير من جهاد في سبيل الله سنة». وقال ابو عبدالله عليه السلام: «ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتته اخت له من الرضاعة، فلما نظر اليها سر بها، وبسط ملحفته لها، فأجلسها عليها، ثم أقبل يحدثها ويضحك في وجهها، ثم قامت فذهبت وجاء أخوها، فلم يصنع به ما صنع بها، فقيل له: يا رسول الله صنعت باخته ما لم تصنع به وهو رجل، فقال: لأنها كانت ابر بوالديها منه».

وقيل للصادق عليه السلام: «أى الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة لوقتها، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله». وقال له عليه السلام رجل: «إن أبى قد كبر جداً وضعف، فنحن نحمله إذا اراد الحاجة. فقال: إن استطعت أن تلى ذلك منه فافعل، ولقمه بيدك، فانه جنة لك غداً». وقال له عليه السلام رجل: «إن لي أبوين مخالفين. فقال: برهما كما تبر المسلمين ممن يتولانا». وقال رجل للرضا عليه السلام: «: «أدعو لو الدى إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: ادع لهما وتصدق عنهما، وان كانا حيين لا يعرفان الحق فدارهما، فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله بعثنى بالرحمة لا بالعقوق». وقد وردت أخبار أخر في الأمر بالبر والاحسان إلى الوالدين، وإن كانا على خلاف الحق. وقال عليه السلام: «ما يمنع الرجل منكم أن يبر والديه حيين وميتين، ويصلى عنهما، ويتصدق عنهما، ويحج عنهما، ويصوم

عنهما، فيكون الذي صنع لهما وله مثل ذلك، فيزيده الله عز وجل ببره وصلاته خيراً كثيراً»[١].

والأخبار في ثواب بر الوالدين غير محصورة. فينبغي لكل مؤمن أن يكون شديد الاهتمام في تكريمهما وتعظيمهما واحترامهما، ولا يقصر في خدمتهما، ويحسن صحبتهما، وألا يتركهما حتى يسألاه شيئاً مما يحتاجان اليه، بل يبادر إلى الاعطاء قبل أن يفتقرا إلى السؤال، كما ورد في الأخبار، وإن اضجراه فلا يقل لهما أف، وإن ضرباه لا يعبس وجهه، وقال: غفر الله لكما، ولا يملأ عينيه من النظر اليهما إلا برحمة ورقة، ولا يرفع صوته فوق صوتهما، ولا يده فوق ايديهما، ولا يتقدم قدامهما، بل مهما أمكن له لا يجلس عندهما، وكلما بالغ في التذلل والتخضع كان أجره أزيد وثوابه أعظم.

وبالجملة: اطاعتهما واجبة وطلب رضاهما حتم، فليس للولد أن يرتكب شيئاً من المباحات والمستحبات بدون اذنهما، ولذا أفتى العلماء بأنه لا تجوز المسافرة في طلب العلم إلا باذنهما، إلا إذا كان في طلب علم الفرائض، من الصلاة والصوم واصول العقائد، ولم يكن في بلده من يعلمه، ولو كان في بلده من يعلمه لم تجز المسافرة. وقد روى: «أن رجلا هاجر من اليمن إلى رسول الله ﷺ وأراد الجهاد، فقال له: ارجع إلى ابويك فاستأذنهما، فان اذنا فجاهد، وإلا فبرهما ما استطعت، فان ذلك خير مما كلف به بعد التوحيد». وجاء آخر إليه للجهاد، فقال: «ألك والدة؟» قال: نعم! قال: «فالزمها، فان الجنة تحت قدمها». وجاء آخر، وطلب البيعة على الهجرة إلى الجهاد، وقال: ما جئتك حتى ابكيت والديّ. قال: «ارجع اليهما، فأضحكهما كما ابكيتهما». ولو وقعت بين الوالدين مخالفة، بحيث توقف رضى احدهما على سخط

---

(١) صححنا الاحاديث كلها على (اصول الكافى): باب بر الوالدين. وعلى (الوسائل): كتاب النكاح، أبواب أحكام العشرة، باب وجوب بر الوالدين، وباب وجوب بر الوالدين برين كانا أو فاجرين، وباب جملة من حقوق الوالدين. وعلى (المستدرك): ٢ / ٦٢٨. كتاب النكاح.

الآخر، فينبغى أن يجتهد في الاصلاح بينهما بأى طريق امكن، ولو بالعرض إلى فقيه البلد حتى يطلبهما ويعظهما ويقيمهما على الوفاق، لئلا ينكسر خاطر أحدهما منه.

واعلم أن حق كبير الأخوة على صغيرهم عظيم، فينبغى محافظته. قال رسول الله ﷺ: «حق كبير الأخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده».

تذنيب
(حق الجوار)

حق الجوار قريب من جق الرحم، إذ الجوار يقتضى حقاً وراء ما تقتضيه اخوة الاسلام،فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة، فمن قصر في حقه عداوة أو بخلاً فهو آثم. قال رسول الله ﷺ: «الجيران ثلاثة: فمنهم من له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق الاسلام، وحق القرابة. ومنهم من له حقان: حق الاسلام وحق الجوار. ومنهم من له حق واحد: الكافر له حق الجوار». فانظر كيف اثبت للكافر حق الجوار. وقال ﷺ: «احسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً». وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره». وقال ﷺ: «لا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه». وقيل له ﷺ: «فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتتصدق، وتؤذى جارها بلسانها. فقال ﷺ: لا خير فيها، هي من أهل النار». وعن علي عليه السلام: «إن رسول الله ﷺ كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب: أن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم، وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه، وقال الصادق عليه السلام: «حسن الجوار زيادة في الأعمار وعمارة في الديار». وقال عليه السلام: «ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره». وقال عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: ما آمن بى من بات شبعاناً وجاره جائع». وقال: «إن يعقوب عليه السلام لما ذهب عنه بنيامين، نادى: يارب أما ترحمنى، اذهبت عينى واذهبت ابنى؟ فأوحى الله تبارك وتعالى اليه: لو كنت امتهما لأحييتهما لك، اجمع بينك وبينهما، ولكن تذكر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلت،

وفلان إلى جانبك صائم لم تنله منها شيئاً». وفي رواية أخرى: «فكان بعد ذلك يعقوب ينادى مناديه كل غداة ومساء من منزله على فرسخ: ألا من أراد الغداء أو العشاء فليأت إلى يعقوب!»(١). وفي بعض الأخبار(٢): «أن الجار الفقير يتعلق بجاره الغنى يوم القيامة، ويقول: سل يا رب هذا لم منعنى معروفه وسد بابه دونى؟».

تتميم

(حدود الجوار وحقه)

معرفة الجوار موكولة إلى العرف، فأى دار يطلق عليها الجار عرفاً يلزم مراعاة حقوق أهلها. والمستفاد من بعض الأخبار: أن كل اربعين داراً من كل واحد من الجوانب الأربعة جيران. ثم لا ينحصر حق الجار في مجرد كف الأذى، إذ ذلك يستحقه كل أحد، بل لا بد من الرفق واهداء الخير والمعروف، وتشريكه فيما يملكه ويحتاج إليه من المطاعم، كما ظهر من بعض الأخبار المتقدمة. وينبغى أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويصفح عن زلاته، ويستر ما اطلع عليه من عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في صب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا في المرور عن طريقه، ولا يمنعه ما يحتاج إليه من الماعون، ويغض بصره عن حرمه، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ويتلطف لأولاده في كلمته، ويرشده إلى ما يصلحه من أمر دينه ودنياه، وإن استعان به في أمر أعانه، وإن استقرضه أقرضه، ولا يستطيل عليه بالبناء فيحجب عنه الريح، إلا باذنه، وإذا اشترى شيئاً من لذائذ المطاعم وظرفها فليهد له،

(١) صححنا الاحاديث هنا على (اصول الكافى): باب حسن الجوار. وعلى (المستدرك): ٢ / ٧٨ و ٧٩. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، ابواب احكام العشرة، الباب ٨٥ـ٨٨.

(٢) هذا كلام ذكره في (احياء العلوم): ٢ / ١٨٩ بعد قوله: «إذ يقال».

وإن لم يفعل فليدخلها بيته سراً، ولا يخرج بها أولاده حتى يطلع عليها بعض أولاد جاره، فيشتهيه وينكسر لذلك خاطره.

ومنها:

طلب العثرات

وتجسس العيوب والعورات وإظهارها. ولا ريب في كونه من نتائج العداوة والحسد، وربما حدث في القوة الشهوية رداءة توجب الاهتزاز والانبساط، من ظهور عيب بعض المسلمين، وإن لم يكن عداوة وحقداً، كما قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

ومن تصفح الآيات والأخبار، يعلم أن من يتبع عيوب المسلمين ويظهرها بين الناس أسوأ الناس واخبثهم، قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[1]. وقال: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أذاع فاحشة كان كمبتدئها، ومن عير مؤمناً بشيء، لم يمت حتى يرتكبه». وقال صلى الله عليه وآله: «كل امتى معافى، إلا المجاهرين»، والمجاهرة أن يعمل الرجل سوأ فيخبر به. وقال صلى الله عليه وآله: «من استمع خبر قوم وهم له كارهون، صبت في أذنيه الآنك يوم القيامة». وعن ابى جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه! لا تتبعوا عثرات المسلمين، فانه من يتبع عثرات المسلمين يتتّبع الله عثراته، ومن تتبع الله عثراته يفضحه». وقال الباقر عليه السلام: «من اقرب ما يكون العبد إلى الكفر ان يؤاخى الرجل الرجل على الدين، فيحصى عليه زلاته

(١) الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) النور، الآية: ١٩.

ليعيره بها يوماً ما». وقال الصادق عليه السلام: «من أنب مؤمناً أنبه الله عز وجل في الدنيا والآخرة». وقيل للصادق عليه السلام: «شيء يقوله الناس، عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ فقال عليه السلام: ليس حيث تذهب، إنما عورة المؤمن ان يراه يتكلم بكلام يعاب عليه فيحفظه عليه ليعيره به يوماً إذا غضب». وقال الباقر عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن اسرع الخير ثواباً البر، واسرع الشر عقوبة البغي. وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عنه، وأن يعير الناس بما لا يستطيع تركه، وأن يؤذى جليسه بما لا يعينه»[١]. والأخبار الواردة بأمثال هذه المضامين كثيرة.

وصل
(ستر العيوب)

ضد كشف العيوب سترها واخفاؤها، وهو من أعظم شعب النصيحة، ولا حد لثوابه، كما يستفاد من الأخبار الكثيرة. قال رسول صلى الله عليه وآله: «من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة». وقال صلى الله عليه وآله: «لا يستر عبد عيب عبد إلا ستره الله يوم القيامة». وقال صلى الله عليه وآله: «لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه، إلا دخل الجنة». وكفى بستر العيوب فضلا أنه من أوصاف الله سبحانه، ومن شدة اعتنائه بستر الفواحش اناط ثبوت الزنا ـ وهو أفحشها ـ بما لا يمكن اتفاقه إلا نادراً، وهو مشاهدة أربعة عدول كالميل في المكحلة. فانظر إلى أنه تعالى كيف اسبل الستر على العصاة من خلقه في الدنيا، بتضييق الطرق المؤدية إلى كشفه. ولا تظنن أنك تحرم هذا الستر يوم تبلى السرائر، فقد ورد في الحديث: «أن الله تعالى إذا ستر على عبد عورته في الدنيا فهو اكرم من أن يكشفها في الآخرة، وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها أخرى».

---

(١) صححنا الاحاديث كلها على (اصول الكافى): باب من طلب عثرات المؤمنين وعوراتهم. وعلى (الوسائل): ابواب احكام العشرة، الباب ١٥٠. وعلى (المستدرك): ٢ / ١٠٤. وعلى (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٧٥، باب تتبع عيوب الناس وافشائها.

وورد أيضاً: «أنه يؤتى يوم القيامة بعبد يبكى، فيقول الله سبحانه له: لم تبكى؟ فيقول: أبكى على ما سينكشف عنى من عوراتى وعيوبى عند الناس والملائكة. فيقول الله: عبدى ما أفتضحتك في الدنيا بكشف عيوبك وفواحشك، وأنت تعصينى وتضحك! فكيف أفضحك اليوم بكشفها وأنت تعصينى وتبكى!». وفي خبر آخر: «أن رسول الله ﷺ يطلب يوم القيامة من الله سبحانه ألا يحاسب امته بحضرة من الملائكة والرسل وسائر الامم، لئلا تظهر عيوبهم عندهم، بل يحاسبهم بحيث لا يطلع على معاصيهم غيره سبحانه، وسواه ﷺ، فيقول الله سبحانه: يا حبيبى، أنا أرأف بعبادى منك، فإذا كرهت كشف عيوبهم عند غيرك، فأنا أكره كشفها عندك أيضاً، فأحاسبهم وحدى بحيث لا يطلع على عثراتهم غيرى».

فإذا كانت عناية الله سبحانه في ستر عيوب العباد بهذه المثابة، فأنى لك أيها المسكين المبتلى بأنواع العيوب والمعاصى، تسعى في كشف عيوب عباد الله، مع أنك مثلهم في الاتصاف بأنواع العيوب والعثرات! وتأمل أنه لو أظهر أحد بعض فواحشك عند الناس كيف يكون حالك، فقس عليه حال غيرك ممن تكشف أنت بعض فواحشه. وقد ثبت ووضح من الأخبار والتجربة: أن من يفضح يفتضح. فيا حبيبى، ترحم على نفسك وتأس بربك، فاسبل الستر على عيوب غيرك.

ومنها:

افشاء السر

واذاعته، وهو اعم من كشف العيب. إذ السر قد يكون عيباً وقد لا يكون بعيب، ولكن في افشائه ايذاء واهانة بحق الأصدقاء أو غيرهم من المسلمين، وهو من رذائل قوة الغضب إن كان منشأه العداوة، ومن رذائل قوة الشهوة إن كان منشأه تصور نفع مالى، أو مجرد اهتزاز النفس بذلك لخبائثها، وهو مذموم منهي عنه. قال رسول الله ﷺ: «إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت، فهى أمانة». وقال ﷺ: «الحديث

بينكم أمانة». وورد: «أن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك». وقال عبدالله بن سنان للصادق عليه السلام: «عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ فقال: نعم! قلت: يعنى سفلته؟ قال: ليس حيث تذهب، إنما هو اذاعة سره»(١).

فصل
(كتمان السر)

ضد إفشاء السر: كتمانه، وهو من الأفعال المحمودة، وقد أمر به في الأخبار. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «طوبى لعبد نومة، عرفه الله ولم يعرفه الناس، أولئك مصابيح الهدى وينابيع العلم، تتجلى عنهم كل فتنة مظلمة، ليسوا بالمذاييع البذر، ولا الجفاة المرائين». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبى لعبد نومة، لا يؤبه له، يعرف الناس ولا يعرفه الناس، يعرفه الله منه برضوان، أولئك مصابيح الهدى، تنجلي عنهم كل فتنة، ويفتح لهم باب كل رحمة، ليسوا بالبذر المذاييع، ولا الجفاة المرائين». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «قولوا الخير تعرفوا به، واعملوا الخير تكونوا من أهله، ولا تكونوا عجلا مذاييع. فان خياركم الذين إذا نظر اليهم ذكر الله، وشراركم المشاؤن بالنميمة، المفرقون بين الأحبه، المبتغون للبراء المعايب»(٢).

تنبيه
(النميمة)

النميمة تطلق في الأكثر على أن ينم قول الغير إلى المقول فيه، كأن يقال: فلان تكلم فيك بكذا وكذا، أو فعل فيك كذا وكذا. وعلى هذا تكون نوعا خاصاً من افشاء

(١) صححنا الأحاديث على البحار: ٤ / ١٧٥ مج ١٥، باب تتبع عيوب الناس.

(٢) صححنا الاحاديث كلها على (البحار): ج ٤ مج ١٥: باب فضل كتمان السر. وعلى (أصول الكافى): باب كتمان السر، وباب الرواية على المؤمن.

السر وهتك الستر، وهو الذي يتضمن فساداً أو سعاية. وقد تطلق على ما لا يختص بالمقول فيه، بل على كشف ما يكره كشفه، سواء كره المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو الكتابة أو بالرمز والايماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيباً ونقصانا على المنقول عنه أو لم يكن. وعلى هذا يكون مساوقة لافشاء السر وهتك الستر. وحينئذ فكل ما يرى من احوال الناس ولم يرضوا بافشائه، فاذاعته نميمة. فاللازم على كل مسلم أن يسكت عما يطلع عليه من أحوال غيره، إلا إذا كان في حكايته نفع لمسلم أو دفع لمعصية. كما إذا رأى أحداً يتناول مال غيره، فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، واما إذا رآه يخفي ما لا لنفسه، فحكايته نميمة وافشاء للسر.

ثم الباعث على النميمة يكون غالباً ارادة السوء بالمحكى عنه، فيكون داخلا تحت الايذاء، وربما كان باعثه اظهار المحبة للمحكى له، أو التفريح بالحديث، أو الخوض في الفضول. وعلى أي تقدير، لا ريب في أن النميمة أرذل الأفعال القبيحة واشنعها. وما ورد في ذمها من الآيات والأخبار لا يحصى كثرة، قال الله سبحانه:

﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[١].

والزنيم: هو ولد الزنا. فيستفاد من الآية: أن كل من يمشي بالنميمة فهو ولد الزنا. وقال سبحانه:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[٢]: أي النمام المغتاب.

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام». وفي خبر آخر: «لا يدخل الجنة قتات»: أي النمام. وقال ﷺ: «احبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا، الموطئون اكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى الله المشاؤن بالنميمة، المفرقون بين

(١) القلم، الآية: ١١ ـ ١٣.

(٢) الهمزة، الآية: ١.

الأحبة، الملتمسون للبراء العثرات»[١]. وقال ﷺ: «ألا انبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: المشاؤن بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء المعايب»[٢]. وقال ﷺ: «من اشار على مسلم كلمة ليشينه بها في الدنيا بغير حق، شانه الله في النار يوم القيامة». وقال ﷺ: «أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها بريء ليشينه بها في الدنيا، كان حقاً على الله أن يدينه بها يوم القيامة في النار». وقال ﷺ: «إن الله لما خلق الجنة قال لها: تكلمي، قالت: سعد من دخلني. قال الجبار جل جلاله: وعزتي وجلالي! لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس: لا يسكنك مدمن خمر، ولا مصر على الزنا، ولا قتات ـ وهو النمام ـ، ولا ديوث، ولا شرطي، ولا مخنث، ولا قاطع رحم، ولا الذى يقول علي عهد الله أن أفعل كذا وكذا ثم لم يف به». وقال الباقر عليه السلام: «الجنة محرمة على المغتابين المشائين بالنميمة». وقال عليه السلام: «يحشر العبد يوم القيامة وما ندا دماً»[٣]، فيدفع إليه شبه المحجمة أو فوق ذلك، فيقال له: هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا رب، انك لتعلم أنك قبضتني وما سفكت دماً، فيقول: بلى، سمعت من فلان رواية كذا وكذا فرويتها عليه، فنقلت حتى صارت إلى فلان الجبار فقتله عليها، وهذا سهمك من دمه». وقال الصادق عليه السلام: «من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله

---

(١) صححنا الحديث على (المستدرك): ١١١ كتاب الحج.

(٢) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب الحج، ابواب احكام العشرة، الباب ١٦٤. وعلى (المستدرك): ١١٠ كتاب الحج. وعلى (اصول الكافى): باب النميمة.

(٣) قال في مجمع البحرين ـ مادة (ندا) ـ: «فلان ما ندا دماً ولا قتل قتلاً: أى ما سفك دماً». وقد كتبت كلمة (ندا) في جميع ما وجدناه من الكتب بالالف، وعسى أن تكون بالياء هكذا (ندى) كرضى. واحتمل في الوافي أن تكون (ندى) بتشديد الدال، وذكر احتمالات كثيرة، فراجعه. وقد روى في (الوسائل) ـ كتاب الحج، ابواب احكام العشرة، الباب ١٦٣ ـ مثل هذا الحديث عن (الشيخ الطوسى)، وقد جاء فيه: «وما ادمى دماً». أما الحديث المذكور هنا، فقد صححناه على (اصول الكافى) باب الاذاعة.

تعالى من ولايته إلى ولاية الشيطان، ولا يقبله الشيطان»[1]. وروى: «أنه اصاب بني اسرائيل قحط، فاستسقى موسى مرات، فما اجيب. فأوحى الله تعالى اليه: إني لا استجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد اصر على النميمة. فقال موسى: يا رب، من هو حتى نخرجه من بيننا؟ فقال: يا موسى، انهاكم عن النميمة واكون نماماً؟! فتابوا باجمعهم، فسقوا». وروى: «أن ثلث عذاب القبر من النميمة».

ومن عرف حقيقة النميمة، يعلم أن النمام شر الناس واخبثهم، كيف وهو لا ينفك من الكذب، والغيبة، والغدر، والخيانة، والغل، والحسد، والنفاق، والإفساد بين الناس، والخديعة. وقد قال الله سبحانه:

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2].

والنمام يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسد في الأرض. وقال الله:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[3].

والنمام منهم.

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع»: أي قاطع بين الناس، والنمام قاطع بينهم. وقال ﷺ: «شر الناس من اتقاه الناس لشره»: والنمام منهم، والنمام أعظم شراً من كل أحد.

نقل: أن رجلا باع عبداً، فقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة، قال رضيت. فاشتراه، فكمث الغلام اياماً، ثم قال لزوجة مولاه: إن زوجك لا يحبك، وهو يريد أن يتسرى عليك، وانا اسحره لك في شعره، فقالت: كيف اقدر على أخذ شعره؟ فقال: إذا نام فخذي الموسى واحلقي من قفاه عند نومه شعرات. ثم قال للزوج: إن امرأتك

---

(١) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب احكام العشرة، الباب ١٥٧، وعلى (اصول الكافي): باب الرواية على المؤمن.

(٢) البقرة، الآية: ٢٧.

(٣) الشورى، الآية: ٤٢.

اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتى تعرف. فتناوم فجاءته المرأة بالموسى، فظن أنها تقتله، فقام وقتلها، فجاء أهلها وقتلوا الزوج، فوقع القتال بين القبيلتين، وطال الأمر بينهم.

ثم يلزم على من تحمل إليه النميمة ألا يصدق النمام، لأنه فاسق، والفاسق مردود الشهادة بقوله تعالى:

﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾(١).

وأن ينهاه عن ذلك، وينصحه ويقبح له فعله، لقوله تعالى:

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(٢).

وأن يبغضه في الله، لكونه مبغوضاً عنده تعالى، وألا يظن بأخيه سوأ بمجرد قوله، لقوله تعالى:

﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾(٣).

وألا يحمل عمله على التجسس والبحث لتحقيق ما حكى له، لقوله تعالى: «ولا تجسسوا». وألا يرضى لنفسه ما نهى عنه النمام، فلا يحكي نميمته، فيقول: فلان قد حكى كذا وكذا، فيكون به نماماً ومغتاباً. وروى محمد بن فضيل عن الكاظم عليه السلام: «أنه قال له عليه السلام: «جعلت فداك! الرجل من اخواني يبلغني عنه الشيء الذي اكرهه، فاسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات. فقال لي: يا محمد، كذب سمعك وبصرك عن أخيك، فان شهد عندك خمسون قسامة، فقال لك قولا، فصدقه وكذبهم، ولا تذيعن عليه شيئاً تشينه به وتهدم مروته، فتكون من الذين قال الله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤).

---

(١) الحجرات، الآية: ٦.

(٢) لقمان، الآية: ١٧.

(٣) الحجرات، الآية: ١٢.

(٤) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب الحج، ابواب احكام العشرة، الباب ١٥٧. والآية من سورة النور: ١٩.

وقدر روى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أن رجلا أتاه يسعى إليه برجل، فقال: يا هذا، نحن نسأل عمن قلت، فان كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك. قال: اقلني يا أمير المؤمنين». ونقل: «أن رجلا زار بعض الحكماء، واخبره بخبر عن غيره، فقال: قد ابطأت عنى الزيارة، وبغضت إلي أخى، وشغلت قلبى الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة».

تتمة

(السعاية)

السعاية هي النميمة، بشرط كون المحكى له من يخاف جانبه، كالسلاطين والأمراء والحكماء والرؤساء وأمثالهم، فهى أشد انواع النميمة إثماً ومعصية، وهى أيضاً تكون من العداوة ومن حب المال وطمعه، فتكون من رداءة القوتين وخباثتهما. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الساعى بالناس إلى الناس لغير رشده»: يعنى ليس ولد حلال. وذكرت السعاة عند بعض الأكابر، فقال: ما ظنك بقوم يحمد الصدق من كل طبقة إلا منهم؟

ومنها:

الافساد بين الناس

وهو في الأكثر يحصل بالنميمة، وإن لم يوجب كل نميمة افسادا. ولا ريب في كونه من المهلكات المؤدية إلى النار، قال الله سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾(١).

---

(١) البقرة، الآية: ٢٧.

وقال رسول الله ﷺ: «إن فساد ذات البين هي الحالقة».

وصل

(الاصلاح)

وضده الاصلاح بين الناس، وهو أعظم أفراد النصيحة، ولا غاية لمثوبته عند الله. قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة اصلاح ذات البين». وقال ﷺ: «اتقوا الله واصلحوا ذات بينكم، فان الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة». وقال ﷺ: «ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيراً». وقال ﷺ: «كل الكذب مكتوب، إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فان الحرب خدعة، أو يكذب بين اثنين ليصلح بينهما»... وقال الصادق عليه السلام: «صدقة يحبها الله تعالى اصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا». وقال عليه السلام للمفضل: «إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة، فافتدها من مالى». وقال عليه السلام لابن عمار: «ابلغ عنى كذا وكذا في اشياء أمر بها. فقال له ابن عمار: فابلغهم عنك، وأقول عنى ما قلت لي وغير الذي قلت؟ قال: نعم! إن المصلح ليس بكاذب». وقال عليه السلام: «المصلح ليس بكاذب»[1]: يعنى إذا تكلم بما لا يطابق الواقع فيما يتوقف عليه الاصلاح لم يعد كلامه كذباً. وهذا يدل على وجوب الاصلاح بين الناس، لأن ترك الكذب واجب، ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه.

ومنها:

---

(١) صححنا الاحاديث عن الصادق عليه السلام على (اصول الكافى): باب الاصلاح بين الناس وصححنا النبويات على (كنز العمال): ٢ / ١٤، ١٢٨.

الشماتة

وهوإظهار أن ما حدث بغيره من البلية والمصيبة إنما هو من سوء فعله واساءته، والغالب صدوره عن العداوة أو الحسد. وعلامته أن يكون مع فرح ومسرة، وربما صدر عن رداءة القوة الشهوية، بأن يهتز به ويميل اليه، مع جهله بمواقع القضاء والقدر، وإن لم يكن معه حقد وحسد. والتجربة والأخبار شاهدان على أن كل من شمت بمسلم في مصيبة لم يخرج من الدنيا حتى يبتلى بمثلها ويشمت به غيره فيها. قال الصادق عليه السلام: «لا تبدى الشماتة لأخيك، فير حمه الله ويحلها بك». وقال عليه السلام: «من شمت بمصيبة نزلت بأخيه، لم يخرج من الدنيا حتى يفتتن»[1]. على أن كل بلية ومصيبة ترد على مسلم يمكن أن تكون كفارة لذنوبه باعثاً لرفع درجاته وأعلاه مرتبته في دار الآخرة.

والدليل على ذلك: ان أعظم البلايا والمصائب موكلة بالأنبياء، ثم بالأولياء، ثم بالأمثل فالأمثل في درجات الاعتلاء. ولا ريب في أن ورود المصائب والمحن عليهم ليس من سوء فعلهم وإساءتهم. فينبغى لكل عاقل أن يتأمل **(أولا)** أن الشماتة بمسلم بمصيبة لا ينفك في الدنيا من ابتلائه بمثلها، **(وثانياً)** أنها ايذاء لأخيه المسلم، فلا ينفك عن العذاب في الآخرة، و**(ثالثاً)** ان نزول هذه المصيبة به لا يدل على سوء حاله عند الله، بل الأرجح دلالته على حسن حاله وتقربه عند الله سبحانه. فليحافظ على نفسه عن ابداء الشماتة لأحد من المسلمين، ويخوف من يراه من الشامتين عن عقوبة العاجل وعذاب الآجل.

ومنها:

---

(١) صححنا الحديثين على (اصول الكافى): باب الشماتة.

المراء والجدال والخصومة

إعلم أن المراء طعن في كلام الغير لاظهار خلل فيه، من غير غرض سوى تحقيره واهانته، واظهار تفوقه وكياسته. والجدال مراء يتعلق باظهار المسائل الاعتقادية وتقريرها. والخصومة لجاج في الكلام لاستيفاء مال أو حق مقصود، وهذه تكون تارة ابتداءاً وتارة اعتراضاً، والمراء لا يكون إلا اعتراضاً على كلام سبق، فالمراء داخل تحت الايذاء، ويكون ناشئاً من العداوة أو الحسد. وأما الجدال والخصومة، فربما صدرا من أحدهما أيضاً، وربما لم يصدرا منه.

وحينئذ، فالجدال إن كان بالحق ـ اى تعلق باثبات احدى العقائد الحقة ـ وكان الغرض منه الارشاد والهداية، ولم يكن الخصم لدوداً عنوداً، فهو الجدال بالأحسن، وليس مذموماً، بل ممدوح معدود من الثبات في الايمان الذي هو من نتائج قوة المعرفة وكبر النفس، قال الله سبحانه:

﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ﴾(١).

وإن لم يكن بالحق، فهو مذموم اقتضته العصبية أو حب الغلبة أو الطمع، فيكون من رذائل القوة الغضبية أو الشهوية، وربما أورث شكوكاً وشبهات تضعف العقيدة الحقة، ولذا نهى الله سبحانه عنه وذمّ عليه، فقال:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾(٢). وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾(٣).

والخصومة أيضاً إن كانت بحق، أى كانت مما يتوقف عليه استيفاء مال أو حق ثابت، فهي ممدوحة معدودة من فضائل القوة الشهوية، وإن كانت بباطل، أى تعلقت بما يدعيه كذباً أو بلا علم ويقين، فهى مذمومة معدودة من رذائلها. فالخصومة

---

(١) العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) الحج، الآية: ٨

(٣) الانعام، الآية: ٦٨.

المذمومة تتناول المخاصمة فيما يعلم قطعاً عدم استحقاقه، وفيما لا علم له بالاستحقاق، كخصومة وكيل القاضى، فانه قبل أن يعرف أن الحق في أى جانب، يتوكل في الخصومة من أى جانب كان، ويخاصم من غير علم وايقان، فمثله خبّاط العثرات وركاب الشبهات، يضر بالمسلمين بلا غرض، ويتحمل أو زار الغير بلا عوض، فهو أخسر الناس اعمالاً وأعظمهم في الآخرة أو زاراً ونكالاً. وتتناول أيضاً مخاصمة من يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة، بل يظهر اللدد والعناد في الخصومة قصداً للتسلط والإيذاء، ومن يمزج بخصومته كلمة مؤذية لا يحتاج اليها في اظهار الحق وبيان الحجة، ومن يحمله على الخصومة محض العناد بقهر الخصم وكسره مع استحقاره لذلك القدر من المال، وربما صرح بأن قصدى العناد والغلبة عليه وكسر عرضه، وإذا أخذت منه هذا المال رميته، ولا أبالى، فمثله غرضه اللدد واللجاج.

فتنحصر الخصومة الجائزة بمخاصمة المظلوم الذي يطلب حقه وينصر حجته بطريق الشرع من غير قصد عناد وإيذاء، مع الاقتصار على قدر الحاجة في الخصومة من دون أن يتكلم بالزائد ولا بكلمات مؤذية، ففعله ليس بحرام وإن كان الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً، إذ ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر أو متعسر، لأنها تو غر الصدر، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب ذهب المتنازع فيه من البين، واشتد الحقد بين المتخاصمين حتى يحزن كل واحد بمسرة صاحبه ويفرح بمساءته. فالخصومة مبدأ كل شر، فينبغى ألا يفتح بابها إلا عند الضرورة على قدر الضرورة، ولا يتعدى عن الواجب، إذ أقل درجاتها تشوش الخاطر، حتى أنه في الصلاة ليشغل بمخاصمة الخصم، ويتضمن الطعن والاعتراض، اى التجهل، والتكذيب، إذ من يخاصم غيره إما يجهله أو يكذبه، فيكون آتياً بسوء الكلام، ويفوت به ضده، أعنى طيب الكلام، مع ما ورد فيه من الثواب. وكذا الحال في المراء والجدال.

وبالجملة: المراء والجدال والخصومة، سوى ما استثنى، من ذمائم الأفعال ومبادى أكثر الشرور والفتن، ولذا ورد بها الذم الشديد في الأخبار قال رسول الله ﷺ: «من جادل في خصومة بغير علم، لم يزل في سخط حتى ينزع». وقال ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم». وقال ﷺ: «ما أتانى جبرئيل قط إلا وعظنى، فآخر قوله لى: إياك ومشادة الناس، فانها تكشف العورة وتذهب بالعز». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إياكم والمراء والخصومة، فانهما يمرضان القلوب على الاخوان، وينبت عليهما النفاق». وقال على بن الحسين عليهما السلام: «ويل امة فاسقاً من لايزال ممارياً! ويل امة فاجراً من لا يزال مخاصماً! ويل امة آثماً من كثر كلامه في غير ذات الله!». وقال الصادق عليه السلام: «لا تمارين حليماً ولا سفيهاً، فان الحليم يغلبك والسفيه يؤذيك». وقال: «إياك والمشادة، فإنها تورث المعرة وتظهر العورة». وقال عليه السلام: «إياكم والخصومة، فانها تشغل القلب، وتورث النفاق، وتكسب الضغائن»[١]. فمن تأمل في ما يدل على ذمها وسوء عاقبتها عقلا ونقلا ـ فمع عدم ترتب فائدة عليها، وتذكر ما ورد في مدح تركها وفوائد ضدها، أعنى طيب الكلام ـ يسهل عليه ان يتركها ولا يحوم حولها.

تذنيب
(علاج المراء)

طريق المعالجة في إزالة المراء والجدال والخصومة: أن يعلم انها توجب التباغض والمباينة، وتزيل الإلفة والمحبة، وتقطع الإلتيام والوحدة. ولا ريب في أن قوام النظام الأصلح بالإلتيام والوحدة، كما اقتضته العناية الإلهية والحكمة الازلية،

---

(١) صححنا الأحاديث على (الكافى): باب المراء والخصومة. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، ابواب احكام العشرة، الباب ١٣٥ و١٣٦. وعلى (احياء العلوم): ٢ / ١٠٢.

والمباينة الراجعة إلى الكثرة ينافيهما، ولا ينبغي للعاقل أن يرتكب ما يضاد فعل الله وحكمته. وهذا هو العلاج العلمي، وأما العملي، فليواظب على ضد هذه الثلاثة، أعني طيب الكلام، ويكلف نفسه عليه، حتى يصير ملكة له وترفع اضدادها عنه بالمرة.

وصل

(طيب الكلام)

قد أشير إلى أن ضد الرذائل الثلاث طيب الكلام، وما ورد في مدحه وفي ثواب تركها أكثر من أن يحصى. قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من لقى الله تعالى بهن دخل الجنة من أى باب شاء: من حسن خلقه، وخشى الله في المغيب والمحضر، وترك المراء وإن كان محقاً». وقال ﷺ: «يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام». وقال ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام». وقال ﷺ: «الكلمة الطيبة صدقة». وروي: «أن عيسى عليه السلام مر به خنزير. فقال: مر بسلامة. فقيل له: يا روح الله، تقول هذا للخنزير! فقال: اكره أن اعود لسانى الشر». وقال بعض الحكماء: «الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح».

ومنها:

السخرية والاستهزاء

وهو محاكاة أقوال الناس أو أفعالهم أو صفاتهم وخلقهم، قولا وفعلا، أو ايماءاً واشارة، على وجه يضحك منه. وهو لا ينفك عن الايذاء والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص. وإن لم يكن ذلك بحضرة المستهزأ به، فيتضمن الغيبة ايضاً. وباعثه إما العداوة أو التكبر واستصغار المستهزأ به، فيكون من رذائل القوة الغضبية،

أو قصد ضحك الأغنياء وتنشيط قلوبهم، طمعاً في بعض أوساخهم الملوثة، وأخذ النبذ من حطامهم المحرمة، ولا ريب في انه صفة من لا حظّ له في الدين، وشيمة اراذل احزاب الشياطين، لأنهم يظهرون أكاذيب الأقوال ويرتكبون أعاجيب الأفعال، يخلعون قلائد الحرية عن الرقاب، ويهتكون استار الحياء بمرأى من أولى الألباب، يبتغون عيوب المؤمنين وعوراتهم، ويظهرون نقائص المسلمين وعثراتهم، يقلدون أفعال الأخيار على وجه يضحك الاشرار، ويحاكون صفات الأبرار على أفضح الوجوه في الأنظار. ولا ريب في أن المرتكب لهذه الأفعال بعيد عن الانسانية بمراحل، ومستوجب لعقوبة العاجل وعذاب الآجل، ولا يخلو ساعة عن الصغار والهوان، ولا وقع له في قلوب أهل الايمان، وكفاه ذماً انه جعل تلك المعاصي الخبيثة وسيلة لتحصيل المال أو الواقع في قلوب ابناء الدنيا، ويلزمه عدم اعتقاده بأن الله سبحانه هو المتكفل لأرزاق العباد.

والطريق في دفعه ـ بعد التأمل في سوء عاقبته، ووخامة خاتمته، وفيما يلزمه من الذلة والهوان في الدنيا ـ أن يبادر إلى ازالة العداوة والتكبر إن كان باعثه ذلك، وإن كان باعثه تنشيط قلوب أهل الدنيا طمعاً في مالهم، فليعلم أن لكل نفس ما قدر لها من الأموال والأرزاق، يصل اليها من الله سبحانه ألبتة، فان من يتق الله ويتوكل عليه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ويكون في الآخرة سعيداً، وان أغواه الشيطان وحثه على تحصيلها من المداخل الخبيثة، لم يصل إليه أكثر مما قدر له، وكان في الآخرة شقياً.

وليعلم أيضاً ان المتوكل على الله والمتصف بالحرية، لا يبدل التوكل والحرية بهذه الأفعال لأجل الوصول إلى بعض خبائث الأموال، فليعاتب نفسه ويزجرها بالمواعظ والنصائح، ويتذكر ما ورد في الشريعة من ذم المستهزئين وتعذيبهم يوم القيامة بصورة الاستهزاء، قال الله جل شأنه:

﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾[١].

وقال ﷺ: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة، فيقال: هلم هلم! فيجيء بكربه وغمه، فإذا أتى اغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر، فيقال: هلم هلم! فيجيء بكربه وغمه، فإذا أتى أغلق دونه. فما يزال كذلك، حتى يفتح له الباب، فيقال له: هلم هلم! فما يأتيه». وقال ابن عباس في قوله تعالى:

﴿يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِهَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَىٰهَا﴾[٢]:

«الصغيرة: التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة: القهقهة بذلك». وفيه اشارة إلى أن الضحك على الناس من الجرائم العظيمة.

ثم جميع ما ذكر إنما هو في حق من يؤذى الناس ويهينهم باستهزائه وسخريته، وأما من جعل نفسه مسخرة ويسر بأن يهزل ويسخر به، وإن كان هو ظالماً لنفسه خارجاً عن شعار المؤمنين، حيث أهان نفسه وأذلها، إلا أن سخرية الغير به من جملة المزاح، ويأتى ما يذم منه وما يحمد، وإنما المحرم منه ما يؤدى إلى ايذائه وتحقيره: بأن يضحك على كلامه إذا يخبط ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيراً أو طويلاً أو ناقصاً بعيب من العيوب. فالضحك على جملة ذلك داخل في السخرية المنهى عنها.

وطريق علاجه ـ بعد تذكر ما تقدم ـ أن استهزاءه يوجب خزى نفسه يوم القيامة عند الله وعند الملائكة والنبيين وعند الناس أجمعين، فلو تفكر في حسرته وحيائه وخجله وخزيه يوم يحمل سيئات من استهزأ به ويساق إلى النار، لأدهشه ذلك عن إخزاء غيره،ولو عرف حقيقة حاله يوم القيامة، لكان الأولى له أن يضحك على نفسه تارة ويبكى عليها اخرى، لانه باستهزائه به عند بعض أراذل الناس عرض نفسه لان

---

(١) الحجرات، الآية: ١١.

(٢) الكهف، الآية: ٤٩.

يأخذ بيده ذلك الغير يوم القيامة على ملأ من الناس ويسوقه تحت السياط، كما يساق الحمار، إلى النار، مستهزئاً به، مسروراً بخزيه وتمكين الله تعالى اياه على الانتقام منه. فمن تأمل في ذلك، ولم يكن عدواً لنفسه، اجتنب عن السخرية والاستهزاء كل الاجتناب.

ومنها:

المزاح

وأصله مذموم منهى عنه، وسببه إما خفة في النفس، فيكون من رذائل القوة الغضبية، اوميل النفس وشهوتها اليه، أو تطيب خاطر بعض أهل الدنيا طمعاً في مالهم، فيكون من رذائل القوة الشهوية. وسبب الذم فيه: أنه يسقط المهابة والوقار، وربما أدى إلى التباغض والوحشة والضغينة، وربما انجر إلى الهزل والاستهزاء، وادخل صاحبه في جملة المستهزأ بهم، وربما صار باعثاً لظهور العداوة ـ كما قيل ـ وربما جرّ إلى اللعب، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تمار أخاك، ولا تمازحه»، وقال بعض الاكابر لابنه: «يا بنى، لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنيّ فيجترئ عليك»، وقال آخر: «أياكم والممازحة، فانها تورث الضغينة وتجر إلى القطيعة». وقال آخر: «المزاح مسلبة للبهاء، ومقطعة للاصدقاء».

وقيل: «لكل شيءبذر، وبذر العداوة المزاح». ومن مفاسد المزاح: أنه سبب للضحك، وهو منهى عنه. قال الله تعالى:

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة فيضحك بها جلساءه، يهوى بها أبعد من الثريا»، وقال: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً»، وهو

(١) التوبة، الآية: ٨٢.

يدل على أن الضحك علامة الغفلة عن الآخرة. وقال بعض: «من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه». وخاطب عارف نفسه وقال: «أتضحك ولعل اكفانك قد خرجت من عند القصار؟!». وقال رجل لأخيه: «يا أخي، هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم! قال: وهل أتاك أنك خارج منها؟ فقال: لا، قال: ففيم الضحك؟ فما رئي بعد ذلك ضاحكا حتى مات». ونظر بعضهم إلى قوم يضحكون في يوم الفطر، فقال: «إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين، وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين».

ثم المذموم من الضحك هو القهقهة، والتبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع الصوت ليس مذموماً، بل محمود لفعل النبي ﷺ(١).

تذنيب
(المذموم من المزاح)

الحق أن المذموم من المزاح هو الافراط فيه والمداومة عليه، أو ما يؤدى إلى الكذب والغيبة وأمثالهما، ويخرج صاحبه عن الحق. وأما القليل الذي يوجب انبساط خاطر وطيبة قلب، ولا يتضمن ايذاءاً ولا كذباً ولا باطلا، فليس مذموماً، لقول رسول الله ﷺ: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً». ولما روي: «أنهم قالوا له ﷺ: يا رسول الله، انك تداعبنا! فقال: إني وأن داعبتكم، فلا أقول إلا حقاً». ولما روت العامه: «أنه ﷺ كان كثير التبسم، وكان أفكه الناس». وورد: «أن رسول الله ﷺ كساذات يوم واحدة من نسائه ثوباً واسعاً، وقال لها: إلبسيه واحمدي، وجرى منه ذيلا كذيل العروس». وقال ﷺ: «لا تدخل الجنة عجوز. فبكت العجوز. فقال: إنك لست يومئذ

---

(١) راجع اخبار المزاح والضحك والتبسم: كتاب (الوسائل): الباب ٨٠ - ٨٤ من ابواب احكام العشرة، والظاهر ان المؤلف لم يرجع إلى اخبارنا التي فيها غنى عن النقل عن اناس مجهولين.

بعجوز». وجاءت إمرأة اليه، وقالت: «إن زوجي يدعوك. فقال ﷺ: زوجك هو الذي بعينه بياض؟ قالت: والله ما بعينه بياض! فقال: بلى، إن بعينه بياضاً. فقالت: لا والله! فقال: ما من أحد إلا بعينه بياض». وأراد به البياض المحيط بالحدقة. وجاءته امرأة أخرى، وقالت: «احملني يا رسول الله على بعير. فقال: بل نحملك على ابن البعير. فقالت: ما اصنع به، أنه لا يحملني، فقال ﷺ: هل من بعير إلا وهو ابن بعير؟»، وكان ﷺ يدلع لسانه للحسين عليه السلام، فيرى لسانه فيهش له. وقال لصهيب ـ وبه رمد وهو يأكل التمر ـ: «أتأكل التمر وأنت أرمد؟ فقال: إنما آكل بالشق الآخر. فتبسم رسول الله حتى بدت نواجذه». وروي: «أن خوات ابن جبير كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، وكان ذلك قبل اسلامه، فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال له: ما لك مع النسوة؟ قال: يفتلن ضفيراً لجمل لي شرود. فمضى رسول الله لحاجته ثم عاد، فقال: يا أبا عبدالله، أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قال: فسكت واستحييت، وكنت بعد ذلك استخفى منه حياء، حتى اسلمت وقدمت المدينة، فاطلع علي يوماً وأنا أصلي في المسجد، فجلس الي، فطولت الصلاة، فقال: لا تطول فاني انتظرك، فلما فرغت قال: يا أبا عبدالله، أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قلت: والذى بعثك بالحق نبياً! ما شرد منذ أسلمت! فقال: الله اكبر الله اكبر، اللهم اهد أبا عبدالله. فحسن اسلامه». وكان نعيمان الأنصارى، رجلا مزّاحاً، فإذا دخل المدينة شيء نفيس من اللباس أو المطاعم اشترى منه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ ويقول: هذا أهديته لك. فإذا جاء صاحبه يطالبه بثمنه، جاء به إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، اعطه ثمن متاعه، فيقول له النبى ﷺ: «أو لم تهده لنا؟» فيقول: لم يكن عندى والله ثمنه، وأحببت أن تأكل منه، فيتبسم رسول الله ويأمر لصاحبه بثمنه. وأمثال هذه المطايبات مروية عن رسول الله ﷺ وعن الأئمة عليهم السلام واكثرها منقولة مع النسوان والصبيان، وكان ذلك معالجة لضعف قلوبهم، من غير ميل إلى هزل ولا كذب ولا باطل، وكان صدور ذلك عنهم أحياناً وعلى الندرة، ومثلهم كانوا يقدرون على المزاح مع عدم

خروجهم عن الحق والاعتدال، وأما غير هم فإذا فتح باب المزاح فربما وقع في الافراط والباطل. فالأولى لامثالنا تركه مطلقاً.

ومنها:

الغيبة

وهى أن يذكر الغير بما يكرهه لو بلغه، سواء كان ذلك بنقص في بدنه أو في اخلاقه أو في أقواله، أو في أفعاله المتعلقة بدينه أو دنياه، بل وإن كان بنقص في ثوبه أو داره أو دابته.

والدليل على هذا التعميم ـ بعد إجماع الامة على أن من ذكر غيره بما يكرهه إذا سمعه فهو مغتاب ـ ما روى عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «هل تدرى ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل له: أرأيت ان كان في أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته». وما روى: «انه ذكر رجل عنده، فقالوا: ما أعجزه! فقال ﷺ: اغتبتم أخاكم، قالوا: يا رسول الله، قلنا ما فيه. قال: إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه». وما روى عن عائشة قالت: «دخلت علينا امرأة، فلما ولت، أو مأت بيدى انها قصيرة، فقال ﷺ: اغتبتها». وما روى انها قالت: «إنى قلت لامرأة مرة وأنا عند النبى ﷺ: إن هذه لطويلة الذيل. فقال لي: الفظى الفظى! فلفظت مضغة لحم». وقد روى: «أن أحد الشيخين قال للآخر: إن فلاناً لنؤم، ثم طلبا أدماً من رسول الله ليأكلا به الخبز. فقال ﷺ: قد ائتدمتما. فقالا: ما نعلمه، فقال بلى! إنكما اكلتما من لحم صاحبكما».

وأما ما روى عن الصادق عليه السلام انه قال: «صفة الغيبة أن تذكر أحداً بما ليس هو عند الله بعيب ويذم ما يحمده أهل العلم فيه. وأما الخوض في ذكر الغائب بما هو عند الله مذموم وصاحبه فيه ملوم، فليس بغيبة، وإن كره صاحبه إذا سمع به وكنت أنت معافي عنه وخالياً منه، وتكون في ذلك مبيناً للحق من الباطل ببيان الله ورسوله،

ولكن على شرط ألا يكون للقائل بذلك مراد غير بيان الحق والباطل في دين الله عز وجل، واما إذا أراد به نقص المذكور بغير ذلك المعنى، فهو مأخوذ بفساد مراده وان كان صواباً»[١] فهو مخصوص بما إذا لم يكن صاحبه عالماً بقبحه، أو كان ساتراً على نفسه كارهاً لظهوره. ويدل على ذلك ما روى عنه ﷺ أيضاً، أنه سئل عن الغيبة، فقال: «هو أن تقول لاخيك في دينه ما لم يفعل، وثبت عليه أمراً قد ستره الله عليه لم يقم فيه حدّ». وقال ﷺ: «الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه، وأما الأمر الظاهر فيه، مثل الحدة والعجلة، فلا». وقال الكاظم عليه السلام: «من ذكر رجلا من خلفه بما هو فيه مما عرفه الناس، لم يغتبه، ومن ذكره من خلفه بما هو فيه مما لا يعرفه الناس، اغتابه ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهته»[٢]. ويأتى ان المجاهر بمعصيته غير ساتر لها، لا غيبة له فيها.

والحاصل: ان الاجماع والأخبار متطابقان على أن حقيقة الغيبة هو أن يذكر الغير بما يكرهه إذا سمعه، سواء كان ذلك بنقص في نفسه أو بدنه، أو في دينه أو دنياه، أو فيما يتعلق به من الأشياء، وربما قيل أنه لا غيبة فيما يتعلق بالدين، لأنه ذم من ذمه الله ورسوله، فذكره بالمعاصى وذمه جائز. وأيد ذلك بما روى: «أنه ذكر عند رسول الله امرأة وكثرة صومها وصلاتها ولكنها تؤذى جيرانها. فقال: هي في النار». وذكرت امرأة اخرى بأنها بخيلة، فقال: «فما خيرها اذن؟». ولا ريب في بطلان هذا القول، لما عرفت من عموم الأدلة. وما ورد من ذم الاشخاص المعينة في كلام الله

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٤٩. وقد تقدم الشك في صحة (مصباح الشريعة) في الجزء الاول.

(٢) صححنا الاحاديث الثلاثة على (الوسائل): كتاب الحج، ابواب احكام العشرة، الباب ١٥٤، وعلى (اصول الكافى): باب الغيبة والبهت. وعلى (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٨٤ باب الغيبة، وقال في الموضع المذكور عن الحديث الاول: «الغيبة هو أن تقول»: الضمير للغيبة، وتذكيره بتأويل الاغتياب أو باعتبار الخبر.

وكلام حججه إنما هو لتعريف الأحكام وتبيينها، وسؤال الأصحاب عنهم وذكرهم بالمعاصي، إنما كان لحاجتهم إلى معرفة الأحكام، لا للذم واظهار العيب، ولذا لم يكن ذلك إلا في مجلس الرسول ﷺ أو الأئمة عليهم السلام.

فصل

(لا تنحصر الغيبة باللسان)

اعلم أن الغيبة لا تنحصر باللسان، بل كل ما يفهم نقصان الغير، ويعرف ما يكرهه فهو غيبة، سواء كان بالقول أو الفعل، أو التصريح أو التعريض، أو بالاشارة والإيماء، أو بالغمز والرمز، أو بالكتابة والحركة ولا ريب في أن الذكر باللسان غيبة محرمة، لتفهيمه الغير نقصان اخيك وتعريفه بما يكرهه، لا لكون المفهم والمعرف لسانا، فكل ما كان مفهما ومعرفاً فهو مثله.

فالغيبة تتحقق باظهار النقص بالفعل والمحاكاة، كمشية الأعرج، بل هو أشد من الغيبة باللسان، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم منه، وبالإيماء والاشارة، وقد روى: «أنه دخلت امرأة على عائشة، فلما ولت، أو مأت بيدها أنها قصيرة. فقال رسول الله ﷺ: «قد اغتبتها».

وبالكتابة، إذ القلم أحد اللسانين، وبالتعريض، كأن يقول: الحمد الله الذي لم يبتلنا بالدخول على الظلمة، والتبذل في طلب الجاه والمال، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء، ونسأله أن يعصمنا منه، معرضاً في كل ذلك بمن ارتكب ذلك، فيذكره بصيغة الدعاء. وربما قدم مدح من يرد غيبته، ثم اتبعه باظهار عيبه، كأن يقول: لقد كان فلان حسن الحال، ولكنه ابتلى بما ابتلى به كلنا من سوء الحال، وهو جمع بين الرياء والغيبة، ومدح نفسه بالتشبه بالصلحاء في ذم انفسهم.

ومن المغتابين المنافقين من يظهر في مقام غيبة مسلم الاغتمام والحزن من سوء حاله، كأن يقول: لقد ساءنى ما جرى على صديقنا فلان من الاهانة

والاستخفاف، أو ارتكابه معصية كذا، فنسأل الله ان يجعله مكرماً أو يصلح حاله، أو يقول: قد ابتلى ذلك المسكين بآفة عظيمة. تاب الله علينا وعليه. وهو كاذب في ادعائه الحزن والكآبة، وفي اظهار الدعاء، إذ لو اغتم لأغتم باظهار ما يكرهه أيضاً، ولو قصد الدعاء لأخفاه في خلواته، فاظهار الحزن والدعاء ناش عن خبث سريرته، وهو يظن أنه ناش عن صفاء طويته. هكذا يلعب الشيطان بمن ليس له قوة البصيرة بمكائد اللعين وتلبيساته، فيسخر بهم ويضحك عليهم، ويحبط أعمالهم بمكائده، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً. وربما ذكر بعض المغتابين عيب مسلم ولم يتنبه له بعض الحاضرين، فيقول اسماعاً له واعلاماً لما يقوله: «سبحان الله ما أعجب هذا!» حتى يتوجه إليه ويعلم ما يريد، فيستعمل اسم الله آلة لتحقيق خبثه.

ثم المستمع للغيبة أحد المغتابين، كما ورد به الخبر[١]. وقد دل على ذلك أيضاً ما تقدم من حديث الشيخين، وما روى: «أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما رجم ما عزاً في الزنا، قال رجل لآخر: هذا أقعص كما يقعص الكلب. فمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم معهما بجيفة، فقال: انهشا من هذه الجيفة. فقالا: يا رسول الله، ننهش جيفة! فقال: ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه». فجمع بينهما، مع ان أحدهما كان قائلا والآخر مستمعاً.

وهو إما لا يسر باستماعها، إلا أنه لا ينكرها باللسان ولا يكرهها، بالقلب، أو يسر ويفرح باستماعها، إلا أن النفاق والتزهد حملاه على عدم التصديق، وربما منع منها رياء وتزهداً، مع كونه مشتهياً لها بقلبه، وربما توصل بالحيل المرغبة للمغتاب في زيادة الغيبة، مع التباس الأمر عليه بأنه يشتهيها، مثل أن يظهر التعجب ويقول: عجبت منه ما علمت أنه كذلك، وما عرفته إلى الآن إلا بالخير، وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه. فان ذلك تصديق للمغتاب، وباعث لزيادة نشاطه في

---

(١) اشارة إلى ما رواه الشيخ ابو الفتوح الرازى في تفسيره، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «المستمع أحد المغتابين». والى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «السامع للغيبة احد المغتابين». (بحار الانوار): ٤ مج ١٥/ ١٧٩.

الغيبة، فكأنه يستخرج منه الغيبة بهذا الطريق.

والحاصل: أن المستمع لا يخرج عن اثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه، أو يقطع الكلام بكلام آخر، أو يقوم من المجلس، وإن لم يقدر على شيء من ذلك، فلينكر بقلبه، وإن قال بلسانه: اسكت، وهو يشتهيه بقلبه فذلك نفاق، ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه. ومع عدم الخوف لا يكفى أن يشير باليد أو حاجبه أو جبينه، اى اسكت، إذ ذلك استحقار للمذكور، مع أنه ينبغى أن يعظمه فيذب عنه صريحاً. قال النبى ﷺ: «من أذل عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينتصر له فلم ينصره، أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق». وقال: «من رد عن عرض أخيه بالغيب، كان حقاً على الله ان يرد عن عرضه يوم القيامة». وقال ﷺ: «من ذب عن عرض أخيه بالغيب، كان حقاً على الله أن يعتقه من النار». وقال ﷺ: «من رد عن عرض أخيه، كان له حجاباً من النار». وقال ﷺ: «ما من رجل ذكر عنده اخوه المسلم، وهو يستطيع نصره ولو بكلمة ولم ينصره، إلا اذله الله عز وجل في الدنيا والآخرة. ومن ذكر عنده اخوه المسلم فنصره، نصره الله في الدنيا والآخرة». وقال ﷺ: «من حمى عرض اخيه المسلم في الدنيا، بعث الله له ملكاً يحميه يوم القيامة من النار». وقال ﷺ: «من تطول على أخيه في غيبته، سمعها عنه في مجلس فردها، رد الله عنه الف الف باب من الشر في الدنيا والآخرة، وان لم يردها وهو قادر على ردها، كان عليه كوزر من اغتابه سبعين مرة»، وقال الباقر عليه السلام: «من اغتيب عنده اخوه المؤمن فنصره وأعانه، نصره الله في الدنيا والآخرة، ومن لم ينصره ولم يدفع عنه وهو يقدر على نصرته وعونه، إلا خفضه الله في الدنيا والآخرة». وبهذه المضامين أخبار كثيرة اخر.

فصل

(بواعث الغيبة)

اعلم أن باعث الغيبة ـ غالباً ـ إما الغضب أو الحقد أو الحسد، فيكون من نتائجها، ومن رذائل قوة الغضب، وله بواعث أخر:

الأول ـ السخرية والاستهزاء : فإن ذلك كما يجرى في الحضور يجرى في الغيبة ايضاً، وقد عرفت ان منشأهما ماذا.

الثاني ـ اللعب والهزل والمطايبة : فيذكرغيره بما يضحك الناس عليه على سبيل التعجب والمحاكاة. ويأتي ان باعث الهزل والمزاح ماذا، وانه متعلق بالقوة الشهوية.

الثالث ـ ارادة الافتخار والمباهاة : بأن يرفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان لا يعلم شيئاً. وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه وأنه أفضل منه. وظاهر أن منشأ ذلك التكبر أو الحسد، فيكون أيضاً من رذائل القوة الغضبية.

الرابع ـ ان ينسب إلى شيء من القبائح، فيريد أن يتبرأ منه بذكر الذي فعله، وكان اللازم عليه أن يبرىء نفسه منه، ولا يتعرض للغير الذي فعله، وقد يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل، ليتمهد بذلك عذر نفسه في فعله، وربما كان منشأ ذلك صغر النفس وخبثها.

الخامس ـ مرافقة الأقران ومساعدتهم على الكلام، حذراً عن تنفرهم واستثقالهم إياه لولاه، فيساعدهم على اظهار عيوب المسلمين وذكر مساويهم، ظناً منه أنه مجاملة في الصحبة، فيهلك معهم. وباعث ذلك ايضاً صغر النفس وضعفها.

السادس ـ أن يستشعر من رجل أنه سيذكر مساويه، أو يقبح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة، فيبادره قبل ذلك باظهار عداوته، أو تقبيح حاله، ليسقط أثر كلامه وشهادته. وربما ذكره بما هو فيه قطعاً، بحيث ثبت ذلك عند السامعين ليكذب عليه بعده، فيروج كذبه بالصدق الأول، ويستشهد به ويقول: ليس الكذب من

عادتی، فانی اخبرتكم قبل ذلك من أحواله كذا وكذا، فكان كما قلت، فهذا أيضاً صدق كسابقه. وهذا أيضاً منشأه الجبن وضعف النفس.

السابع ـ الرحمة، وهو أن يحزن ويغتم بسبب ما ابتلى به غيره، فيقول: المسكين فلان قد غمنى ما ارتكبه من القبح، أو ما حدث به من الاهانة والاستخفاف! فيكون صادقاً في اغتمامه، إلا انه لما ذكر اسمه واظهر عيبه صار مغتاباً، وقد كان له الاغتمام بدون ذكر اسمه وعيبه ممكناً، فاوقعه الشيطان فيه ليبطل ثواب حزنه ورحمته.

الثامن ـ التعجب من صدور المنكر والغضب لله عليه، بأن يرى منكراً من انسان أو سمعه، فيقول عند جماعة: ما اعجب من فلان أن يتعارف مثل هذا المنكر! أو يغضب منه، فيظهر غضبه واسمه ومنكره، فانه وان كان صادقا في تعجبه من المنكر وغضبه عليه، لكن كان اللازم ان يتعجب منه ويغضب عليه، ولكنه لا يظهر اسمه عند من لم يطلع على ما صدر منه المنكر، بل يظهر غضبه عليه بالنهى عن المنكر والأمر بالمعروف من غير أن يظهره لغيره، فلما أوقعه الشيطان في ذكره بالسوء صار مغتابا، وبطل ثواب تعجبه وغضبه، وصار آثماً من حيث لا يدرى.

وهذه الثلاثة الأخيرة مما يغمض دركها، لأن اكثر الناس يظنون أن الرحمة والتعجب والغضب إذا كان لله كان عذراً في ذكر الاسم، وهو خطأ محض، إذ المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة، لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم دون غيرها، وقد روى: «أن رجلا مر على قوم في عصر النبى ﷺ فلما جاوزهم، قال رجل منهم: إنى أبغض هذا الرجل لله، فقال القوم: والله لبئس ما قلت! وإنا نخبره بذلك، فاخبروه به، فاتى الرجل رسول الله ﷺ وحكى له ما قال، وسأله أن يدعوه. فدعاه، وسأله عما قال في حقه، فقال: نعم! قد قلت ذلك. فقال رسول الله ﷺ: ولم تبغضه؟ فقال: أنا جاره وأنا به خبير، والله ما رأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة! فقال: يا رسول الله، فاسأله هل رآنى أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها والركوع والسجود؟

فسأله، فقال: لا! فقال: والله ما رأيته يصوم شهراً قط إلا هذا الشهر الذي يصومه كل بر وفاجر! قال: فاسأله يا رسول الله هل رآني افطرت فيه أو نقصت من حقه شيئاً؟ فسأله، فقال: لا! فقال: والله ما رأيته يعطي سائلا قط ولا مسكيناً، ولا رأيته ينفق من ماله شيئاً في سبيل الخير إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر! قال: فاسأله هل رآني نقصت منها شيئاً أو ماكست فيها طالبها الذي يسألها؟ فسأله فقال: لا! فقال رسول الله ﷺ للرجل: قم، فلعله خير منك». ولا ريب في أن انكار القوم عليه بعد قوله أبغضه لله يفيد عدم جواز اظهار المنكر الصادر من شخص لغيره، وإن كان في مقام الغضب والبغض لله.

فصل

(ذم الغيبة)

لما علمت حقيقة الغيبة وبواعثها، فاعلم أنها أعظم المهلكات وأشد المعاصي، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة، فقال:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُمْ بَعْضًا، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[١]. وقال: **﴿لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾**[٢]. وقال: **﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾**[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». والغيبة تتناول العرض. وقال ﷺ: «إياكم والغيبة، فان الغيبة أشد من الزنا، فان الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه».

---

(١) الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) النساء، الآية: ١٤٨.

(٣) ق، الآية: ١٨.

وقال ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فقلت: يا جبرئيل، من هؤلاء؟ قال: الذين يغتابون الناس، ويقعون في أعراضهم». وخطب ﷺ يوماً حتى أسمع العواتق في بيوتها، فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فان من تتبع عورة اخيه يتتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته». وخطب ﷺ يوماً فذكر الربا وعظم شأنه. فقال: «إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عندالله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم». ومر ﷺ على قبرين يعذب صاحباهما، فقال: «إنهما ليعذبان في كبيرة، أما أحدهما فكان يغتاب الناس، واما الآخر فكان لا يستبرى من بوله». ودعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبره، وقال: «أما إنه يهوّن من عذابهما ما كانتا رطبتين». وروى: «أنه ﷺ أمر الناس بصوم يوم، وقال: لا يفطرن احد حتى آذن له. فصام الناس، حتى إذا أمسوا، جعل الرجل يجيء، فيقول: يا رسول الله، ظللت صائماً فأذن لي لأفطر، فيأذن له، والرجل والرجل، حتى جاء رجل، فقال: يا رسول الله، فتاتان من أهلي ظلتا صائمتين، وانهما تستحيان أن تأتياك، فأذن لهما لتفطرا. فاعرض عنه. ثم عاوده فاعرض عنه. ثم عاوده، فقال: انهما لم تصوما، وكيف صام من ظل هذا اليوم ياكل لحوم الناس، أذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا. فرجع اليهما، فاخبرهما، فاستقاءتا، فقاءت كل واحدة منهما حلقة من دم. فرجع إلى النبى ﷺ فاخبره، فقال: والذى نفس محمد بيده! لو بقيتا في بطنيهما لاكلتهما النار». وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار». وقال ﷺ: «من مشى في غيبة اخيه وكشف عورته كانت أول خطوة خطاها وضعها في جهنم، فكشف الله عورته على رؤس الخلائق. ومن اغتاب مسلماً، بطل صومه ونقض وضوءه، فان مات وهو كذلك مات وهو مستحل لما حرم الله». وقال ﷺ: «الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من

الاكلة في جوفه»[١]. وقال ﷺ: «الجلوس في المسجد انتظاراً للصلاة عبادة، ما لم يحدث»، فقيل: يا رسول الله، وما الحدث؟ قال: «الاغتياب». وقال ﷺ: «من اغتاب مسلماً أو مسلمة لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين يوماً وليلة، إلا أن يغفر له صاحبه». وقال ﷺ: «من اغتاب مسلماً في شهر رمضان لم يؤجر على صيامه». وقال ﷺ: «من اغتاب مؤمناً بما فيه، لم يجمع الله بينهما في الجنة أبداً، ومن اغتاب مؤمناً بما ليس فيه، انقطعت العصمة بينهما، وكان المغتاب في النار خالداً فيها وبئس المصير». وقال ﷺ: «كذب من زعم أنه ولد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة. فاجتنب الغيبة فانها إدام كلاب النار». وقال ﷺ: «ما عمر مجلس بالغيبة إلا خرب بالدين، فنزهوا أسماعكم من استماع الغيبة، فان القائل والمستمع لها شريكان في الإثم». وقال ﷺ: «ما النار في التبن بأسرع من الغيبة في حسنة العبد»[٢]. وقال الصادق عليه السلام: «من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته اذناه، فهو من الذين قال الله عز وجل: (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم)». وقال عليه السلام: «من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان». وقال عليه السلام: «من اغتاب أخاه المؤمن من غير ترة بينهما فهو شرك شيطان»[٣]. وقال عليه السلام: «الغيبة حرام على كل مسلم، وانها لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

---

(١) الرواية مذكورة في (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٧٧. قال في الموضع المذكور: «بيان: الاكلة ـ كفرحة ـ داء في العضو يأتكل منه، وقد يقرأ بمد الهمزة على وزن فاعلة، أى العلة التي تأكل اللحم. والأول أوفق باللغة. قيل الاكلة ـ بالضم ـ اللقمة، وكلاهما محتملان إلى ان ذكر الجوف يؤيد الأول وارادة الاضافة والاذهاب يؤيد الثانى والأول أقرب وأصوب، وتشبيه الغيبة بأكل اللقمة أنسب، لأن الله سبحانه شبهها باكل اللحم».

(٢) صححنا الأحاديث هنا على (الوسائل): كتاب الحج، ابواب أحكام العشرة، الباب ١٥٢. وعلى (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٧٧. وعلى (المستدرك): ٢ / ١٠٦ وعلى (احياء العلوم): ٣ / ١٢٣.

(٣) صححنا الأحاديث الثلاثة على (الوسائل) فى الموضع المتقدم. وعلى (اصول الكافى): باب الغيبة والبهت. وعلى (المستدرك).

والأخبار الواردة في ذم الغيبة مما لا يكاد يمكن حصرها، وما ذكرناه كاف لايقاظ الطالبين. والعقل أيضاً حاكم بانها أخبث الرذائل، وقد كان السلف لا يرون العبادة في الصوم والصلاة، بل في الكف عن اعراض الناس، لأنه كان عندهم أفضل الأعمال، ويرون خلافه صفة المنافقين، ويعتقدون أن الوصول إلى المراتب العالية في الجنة يتوقف على ترك الغيبة، لما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حسنت صلاته، وكثرت عياله، وقل ماله، ولم يغتب المسلمين، كان معى في الجنة كهاتين». وما أقبح بالرجل المسلم أن يغفل عن عيوب نفسه، ويتجسس على عيوب اخوانه، ويظهرها بين الناس، فما باله يبصر القذى في عين أخيه، ولا يبصر الجذع في عين نفسه.

فيا حبيبى، إذا أردت أن تذكر عيوب غيرك، فاذكر عيوبك، وتيقن بأنك لن تصيب حقيقة الإيمان، حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ باصلاح ذلك العيب. وإذا كان شغلك اصلاح عيوب نفسك، كان شغلك في خاصة نفسك، ولم تكن لك فرصة للاشتغال بغيرك، وحينئذ كنت من أحب العباد إلى الله، لقول النبى ﷺ: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس!». واعلم أن عجز غيرك في الاجتناب عن ذلك العيب وصعوبة ازالته عليه كعجزك عن الاجتناب عنه إن كان ذلك العيب فعلاً اختيارياً، وإن كان أمراً خلقياً، فالذم له ذم للخالق تعالى. فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها. قيل لبعض الحكماء: يا قبيح الوجه! فقال: «ما كان خلق وجهى إلي فاحسنه». ولو فرض براءتك عن جميع العيوب، فلتشكر الله، ولا تلوث نفسك باعظم العيوب. إذ أكل لحوم الميتات أشد العيوب وأقبحها، مع انك لو ظننت خلوك عن جميع العيوب لكنت أجهل الناس، ولا عيب أعظم من مثل هذا الجهل.

ثم ينبغى أن يعلم المغتاب ان الغيبة تحبط حسناته وتزيد في سيئاته، لما ثبت من الأخبار الكثيرة: ان الغيبة تنقل حسنات المغتاب يوم القيامة إلى من اغتابه، وان لم تكن له حسنة نقل إليه من سيئاته. قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأحدكم يوم

القيامة، فيوقف بين يدى الله تعالى، ويدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته، فيقول: إلهى ليس هذا كتابى، فإنى لا أرى فيه طاعتى، فيقول له: إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس. ثم يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول إلهى ما هذا كتابى فإنى ما عملت هذه الطاعات، فيقول له: إن فلاناً اغتابك فدفعت حسناته اليك». وفي معناه أخبار اخر. ولا ريب في أن العبد يدخل النار بان تترجح كفة سيئاته، وربما تنقل إليه سيئة واحدة مما اغتاب به مسلماً، فيحصل به الرجحان ويدخل لأجله النار. وأقل ما في الباب أن ينقص من ثواب صالحات أعماله، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والمناقشة في الحساب. وروى عن بعضهم: «أن رجلاً قيل له: أن فلاناً قد اغتابك، فبعث إليه طبقاً من الرطب، وقال: بلغنى أنك قد أهديت الي من حسناتك، فأردت أن أكافيك عليها، فاعذرنى، فانى لا أقدر أن أكافيك على التمام».

والحاصل: أن العاقل ينبغى أن يتأمل في أن من يغتابه ان كان صديقاً ومحباً له، فاظهار عيوبه وعثراته بعيد عن المروة والانصاف، وان كان عدواً له، فتحمل خطاياه ومعاصيه ونقل حسناته إلى ديوانه غاية الحماقة والجهل.

فصل

(علاج الغيبة)

الطرق في علاج الغيبة وتركها، أن يتذكر أولا ما تقدم من مفاسدها الاخروية، ثم يتذكر مفاسدها في الدنيا، فإنه قد تصل الغيبة إلى من اغتيب، فتصير منشأ لعداوته أو لزيادة عداوته، فيتعرض لايذاء المغتاب واهانته، وربما انجر الأمر بينهما إلى ما لا يمكن تداركه من الضرب والقتل وأمثال ذلك. ثم يتذكر فوائد أضدادها ـ كما نشير اليها ـ، وبعد ذلك فليراقب لسانه، ويقدم التروى في كل كلام يريد أن يتكلم به، فان تضمن غيبة سكت عنه، وكلف نفسه ذلك على الاستمرار، حتى يرتفع عن نفسه

الميل الجلى والخفى إلى الغيبة.

والعمدة في العلاج أن يقطع أسبابها المذكورة، وقد تقدم علاج الغضب والحقد والحسد والاستهزاء والسخرية، ويأتى طريق العلاج في الهزل ووالمطايبة والافتخار والمباهاة. وأما تنزيه النفس بنسبة ما نسب إليه من الجناية إلى الغير، فمعالجته أن يعلم أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوق، ومن اغتاب تعرض لمقت الله وسخطه قطعاً، ولا يدرى أنه يتخلص من سخط الناس أم لا، فيحصل بعمله ذم الله وسخطه تقديراً، وينتظر دفع ذم الناس نسيئة، وهذا غاية الجهل والخذلان. وأما تعرضه لمشاركة الغير في الفعل تمهيداً لعذر نفسه، كأن يقول إنى اكلت الحرام، لأن فلاناً أيضاً أكل، وقبلت مال السلطان، لأن فلاناً أيضاً قبل، مع أنه أعلم منى، فلا ريب في أنه جهل وسفه، لأنه اعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به. فان من خالف الله لا يقتدى به كائناً من كان، فلو دخل غيره النار وهو يقدر على عدم الدخول فهل يقتدى به في الدخول، ولو دخل عد سفيهاً أحمق، ففعله معصية، وعذره غيبة وغباوة، فجمع بين المعصيتين والحماقة، ومثله كمثل الشاة، إذا نظرت الى العنز تردى نفسها من الجبل فهى أيضاً تردى نفسها، ولو كان لها لسان ناطق واعتذرت عن فعلها بأن العنز أكيس منى وقد أهلكت نفسها فكذلك فعلت انا، لكان هذا المغتاب المعتذر يضحك عليها، مع أن حاله مثل حالها ولا يضحك على نفسه.

والعجب أن بعض الأشقياء من العوام، لما صارت قلوبهم عش الشيطان، وصرفوا اعمارهم في المعاصى، واشتغلت ذممهم بمظالم الناس بحيث لا يرجى لهم الخلاص، مالت نفوسهم الخبيثة إلى ألا يكون معاد وحساب وحشر وعقاب، ولما وجد ذلك الميل منهم اللعين، خرج من الكمين، ووسوس في صدورهم بأنواع الشكوك والشبهات، حتى ضعف بها عقائدهم أو افسدها. ودعاهم في مقام الاعتذار عن اعمالهم الخبيثة ألايصرحوا بما ارتكز في قلوبهم ويشتهونه، خوفا من القتل واجراء احكام الكفار عليهم، ولم يدعهم أيضاً تلبسهم وتزويرهم وغلبة الشيطنة

عليهم أن يعترفوا بالنقص وسوء الحال فحملهم الشيطان باغوائه على أن يعتذروا من سوء فعالهم بأن بعض العلماء يفعلون ما نفعل ولا يجتنبون عن مثل اعمالنا، من طلب الرئاسة وأخذ الاموال المحرمة، ولم يدروا أن هذا القول ناش من جهلهم وخباثتهم.

إذ نقول لهم: إن فعل هذا البعض إن صار منشأ لزوال ايمانكم بالمعاد والحساب، فأنتم كافرون، وباعث اعمالكم الخبيثة هو الكفر وعدم الاذعان بأحوال النشأة الآخرة. وإن لم يصر منشأ له، بل ايمانكم ثابت، فاللازم عليكم العمل بمقتضاه، من غير تزلزل بعمل الغير كائناً من كان. فما الحجة في عمل هذا البعض، مع اعتقادكم بأنه على باطل؟!

وأيضاً لو كان باعث أعمالكم الخبيثة فعل العلماء، فلم اقتديتم بهذا البعض مع عدم كونه من علماء الآخرة وعدم اطلاعه على حقيقة العلم؟ ولو كنتم صادقين فيما تنسبون اليه، فهو المتأكل بعلمه، وانما حصل نبذا من علوم الدنيا ليتوسل بها إلى حطامها، ولا يعد مثله عند أولى الالباب عالماً، بل هو متشبه بالعلماء. ولم ما اقتديتم بعلماء الآخرة المتخلفين بشراشرهم عن الدنيا وحطامها؟ وانكار وجود مثلهم، والقدح في الكل مع كثرتهم في أقطار الارض غاية اللجاج والعناد. ولو سلمنا منكم ذلك، فلم ما اقتديتم بطوائف الانبياء والاوصياء، مع أنهم أعلم الناس باتفاق الكل، وحقيقة العلم ليس إلا عندهم؟ فان انكروا أعلميتهم وعصمتهم من المعاصى، واحتملوا كونهم أمثالا لهم، ظهر ما في بواطنهم من الكفر الخفى.

وأما موافقة الاقران، فعلاجه أن يتذكر ان الله يسخط عليه ويبغضه إذا اختار رضا المخلوقين على رضاه، وكيف يرضى المؤمن ان يترك رضاربه لرضا بعض أراذل الناس؟ وهل هذا إلا كونه تعالى أهون عنده منهم؟ وهو ينافي الايمان.

وأما استشعاره من رجل انه يقبح عند محتشم حاله أو يشهد عليه بشهادة فيبادره بالغيبة اسقاطاً لأثر كلامه، فعلاجه أن يعلم: (أولا) ان مجرد الاستشعار

لا يستلزم الوقوع، فلعله لا يقبح حاله ولا يشهد عليه، فالمؤاخذة بمحض التوهم تنافي الديانة والايمان. و(ثانياً) ان اقتضاء قوله سقوط اثر كلام من اغتابه في حقه مجرد توهم، والتعرض لمقت الله يقيناً بمجرد توهم ترتب فائدة دنيوية عليه محض الجهل والحماقة. و(ثالثاً) أن تؤدى فعل الغير -أعنى تقبيح حاله عند محتشم مع فرض وقوعه -إلى اضراره في حيز الشك، إذ ربما لم يقبله المحتشم، وربما لم تقبل شهادته شرعا، فتقبيح حاله وتحمل معاصيه بدون الجزم بصيرورته سبباً لايذائه محض الجهل والخذلان.

وأما الرحمة له على اثمه والتعجب منه والغضب لله عليه، وان كان كل منها حسناً، الا أنه إذا لم تكن معه غيبة، وأما إذا كانت معه غيبة، أحبط أجره وبقى اثمها. فالعلاج ان يتأمل ان باعث الرحمة والتعجب والغضب هو الايمان وحماية الدين، وإذا كان معها غيبة أضرت بالدين والايمان وليس شيء من الامور الثلاث ملزوما للغيبة لإمكان تحققه بدونها، فمقتضى الايمان وحماية الدين أن يترحم ويتعجب ويغضب لله، مع ترك الغيبة واظهار الاثم والعيب، ليكون مأجوراً غير آثم.

فصل

(مسوغات الغيبة)

لما عرفت ان الغيبة ذكر الغير بما يكرهه لو سمعه، فاعلم ان ذلك انما يحرم اذا قصد به هتك عرضه، والتفكه به، أو اضحاك الناس منه. واما إذا كان ذلك لغرض صحيح لا يمكن التوصل إليه إلا به، فلا يحرم. والاغراض الصحيحة المرخصة له امور:

الأول ـ التظلم عند من له رتبة الحكم واحقاق الحقوق، كالقضاة والمفتين والسلاطين، فان نسبة الظلم والسوء إلى الغير عندهم لاستيفاء الحق جائز، لقول النبى ﷺ: «لصاحب الحق مقال»، وقوله ﷺ: «لى الواجد يحل عرضه وعقوبته».

وعدم انكاره ﷺ على قول هند بحضرته: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى اياى وولدى، أفآخذ من غير علمه؟ وقوله ﷺ لها: «خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف».

الثاني - الاستعانة على رفع المنكر ورد العاصى إلى الصلاح، وانما يستباح بها ذكر مساءته بالقصد الصحيح لا بدونه.

الثالث - نصح المستشير في التزويج، وايداع الامانة، وامثالهما. كذلك جرح الشاهد والمفتى والقاضى إذا سئل عنهم، فله ان يذكر ما يعرفه من عدم العدالة والاهلية للافتاء والقضاء، بشرط صحة القصد وارادة الهداية وعدم باعث حسد أو تلبيس من الشيطان، وكذلك توقى المسلمين من الشر والضرر أو سراية الفسق والبدعة، فإن من رأى عالماً أو غيره من المؤمنين يتردد إلى ذى شر أو فاسق أو مبتدع، وخاف أن يتضرر ويتعدى إليه الفسق والبدعة بمصاحبته، يجوز له أن يكشف له ما يعرفه من شره وفسقه وبدعته، بشرط كون الباعث مجرد خوف وصول الشر والفساد أو سراية الفسق والبدعة اليه. قال رسول الله ﷺ: «أترعوون عن ذكر الفاجر حتى لا يعرفه الناس؟ اذكروه بما فيه يحذره الناس». ومن جملة مايدخل في تحذير المسلمين وتوقيهم من الشر والضرر، اظهار عيب يعلمه في مبيع، وان كره البايع، حفظاً للمشترى من الضرر. مثل أن يشترى عبداً، وقد عرفه بالسرقة أو الفسق أو عيب آخر، أو فرسا، وقد عرفه بكونه مال الغير، فله ان يظهر ذلك، لا ستلزام سكوته ضرراً على المشترى.

الرابع - رد من ادعى نسباً ليس له.

الخامس - القدح في مقالة أو دعوى باطلة في الدين.

السادس - الشهادة على فاعل المحرم حسبة.

السابع - ضرورة التعريف، فانه إذاكان احد معروفا بلقب يعرب عن عيب، وتوقف تعريفه عليه، ولم يكن اثم في ذكره، بشرط عدم امكان التعريف بعبارة

اخرى، لفعل الرواة والعلماء في الاعصار والامصار، فانهم يقولون: روى الاعمش والاعرج وغير ذلك، لأن الغالب صيرورته بحيث لا يكرهه صاحبه.

الثامن ـ كون المقول فيه مستحقاً للاستخفاف، لتظاهره وتجاهره بفسق، كالظلم والزنا وشرب الخمر وغير ذلك، بشرط عدم التعدى عما يتظاهر به، اذ لو ذكره بغير ما يتظاهر به لكان اثما، وأما إذا ذكر منه مجرد ما يتجاهر به فلا اثم عليه، اذ صاحبه لا يستنكف من ذكره، وربما يتفاخر به ويقصد اظهاره. ومع قطع النظر عن ذلك، فالاخبار دالة عليه، كما تقدم جملة منها. وقال رسول الله ﷺ: «من القى جلباب الحياء من وجهه فلا غيبة له». وقال ﷺ: «ليس لفاسق غيبة».

والظاهر أن ذكر ما يتجاهر به من العيوب ليس غيبة، لا شرعاً ولا لغة، لا أنه غيبة استثنى جوازها شرعاً، قال الجوهرى: «الغيبة أن يتكلم خلف انسان مستور بما يغمه لو سمعه، فان كان صدقاً سمى غيبة، وإن كان كذبا سمى بهتاناً».

هذا وقد صرح جماعة بجواز الغيبة في موضعين آخرين: أحدهما: أن يكون اثنان أو أكثر مطلعين على عيب رجل، فيقع تحاكيه بينهم من غير أن يظهروه لغيرهم ممن لم يطلع عليه، وفي بعض الأخبار المتقدمة دلالة على جوازه، كما لا يخفى. وثانيهما: أن يكون متعلقها ـ أعنى المقول فيه ـ غير محصور، كأن يقال: «قال قوم كذا، أو أهل البلد الفلانى كذا». ومثله إذا قال: «بعض الناس يقول أو يفعل كذا، أو من مر بنا اليوم شأنه كذا»، إذا لم يتعين البعض والمار عند المخاطب، ولو انتقل إلى شخص معين لقيام بعض القرائن، كانت غيبة محرمة، وكذا لو قال: «بعض من قدم من السفر، أو بعض من يدعى العلم»، إن كان معه قرينة يفهم عين الشخص فهو غيبة وإلا فلا. وكذا ذكر مصنف في كتابه فاضلا معيناً، وتهجين كلامه بلا اقتران شيء من الاعذار المحوجة إلى ذكره غيبة، وأما لو ذكره بدون تعيينه، كأن يقول: «ومن الفضلاء من صدر عنه في المقام هفوة أو عثرة»، فليس غيبة. ثم السر في اشتراط الغيبة بكونه تعريضاً لشخص معين، وعدم كون التعرض بالمبهم وغير المحصور غيبة، عدم

حصول الكراهة مع الابهام وعدم الانحصار، كما لا يخفى. وربما كان في بعض الأخبار أيضاً اشعار به، وقد كان رسول الله ﷺ إذا كره من انسان شيئا يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا» من دون تعيين للفاعل.

تذنيب
(كفارة الغيبة)

كفارة الغيبة ـ بعد التوبة والندم للخروج عن حق الله ـ أن يخرج من حق من اغتابه. وطريق الخروج من حقه، إن كان ميتا أو غائبا لم يمكن الوصول اليه، أن يكثر له من الاستغفار والدعاء، ليحسب ذلك يوم القيامة من حسناته ويقابل بها سيئة الغيبة، وإن كان حياً يمكن الوصول إليه ولم تبلغ إليه الغيبة، وكان في بلوغها إليه مظنة العداوة والفتنة، فليكثر له أيضاً من الدعاء والاستغفار، من دون أن يخبره بها، وإن بلغت إليه أو لم تبلغه، ولم يكن في بلوغها ظن الفتنة والعداوة، فليستحله متعذراً متأسفاً مبالغاً في الثناء عليه والتودد اليه، وليواظب على ذلك حتى يطيب قلبه ويحله فإن لم يطب قلبه من ذلك ولم يحله، كان اعتذاره وتودده حسنة يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة.

والدليل على هذا التفصيل قول الصادق عليه السلام: «وإن اغتبت فبلغ المغتاب، فاستحل منه، فان لم تبلغه لم تلحقه، فاستغفر الله»[1]، وذلك لأن في الاستحلال مع عدم البلوغ إليه إثارة للفتنة وجلب الضغائن، وفي حكم من لم يبلغه من لم يقدر على الوصول إليه بموت أو غيبة، وعلى هذا فقول النبي ﷺ: «كفارة من اغتبته أن تستغفر له»، محمول على صورة عدم امكان الوصول اليه، أو إمكانه مع ايجاب الاعلام والاستحلال لإثارة الفتنة والعداوة. وقوله ﷺ: «من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال، فليتحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار

(١) هذا جزء من الحديث المتقدم عن (مصباح الشريعة): ٢٨٩، الباب ٤٩ فصححناه عليه.

ولا درهم، إنما يؤخذ من حسناته، فان لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته»، محمول على صورة البلوغ أو عدم البلوغ، مع عدم ايجاب الاعلام والاستحلال فتنة وعداوة.

تتميم
(البهتان)

قد ظهر مما تقدم أن البهتان أن تقول في مسلم ما يكرهه ولم يكن فيه، فان كان ذلك في غيبته كان كذبا وغيبة، وإن كان بحضوره كان أشد انواع الكذب. وعلى أي تقدير، فهو أشد إثماً من الغيبة والكذب، قال الله سبحانه:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله على تل من نار، حتى يخرج مما قاله فيه». وقال الصادق عليه السلام: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة بما ليس فيه، بعثه الله عز وجل في طينة خبال، حتى يخرج مما قال»، قلت: وما طينة خبال؟ قال: «صديد يخرج من فروج الموسات»[2]. ثم ما ورد في ذم اللسان وكونه شر الاعضاء ومنبع أكثر المعاصي ـ كما يأتي في موضعه ـ يدل على ذم الغيبة والبهتان، كما يدل على ذم جميع آفات اللسان مما تقدم: من الفحش، واللعن، والطعن، والسخرية، وغير ذلك، وما يأتي: من الكذب، والمزاح، والخوض في الباطل، وفضول الكلام، وغير ذلك.

---

(١) النساء، الآية: ١١٢.

(٢) صححنا الاحاديث كلها على (اصول الكافى): باب الغيبة والبهتان. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، باب تحريم البهتان في المؤمن. وعلى (المستدرك): ١٠٧، كتاب الحج، باب تحريم البهتان للمؤمن.

وصل
(المدح ومواضع حسنه وقبحه)

الغيبة لما كانت راجعة إلى الذم، فضدها المدح ودفع الذم، والبهتان لما كان كذباً، فضده الصدق. وكما أن لكل واحدة من آفات اللسان مما مر ومما يأتي ضداً خاصاً، فكذلك لجميعها ضد واحد عام هو الصمت ـ كما اشير إليه فيما سبق أيضاً. وضد البهتان ـ أعني الصدق ـ يأتي في مقام بيان الكذب. وأما الضد العام للكل، فقد يأتي في موضعه مع ما يدل بعمومه عل ذم جميع آفات اللسان، فهنا نشير إلى بيان المدح وما يحمد منه، حتى يكون ضداً لها وفضيلة للقوة الغضبية أو الشهوية، وما يذم منه حتى يكون رذيلة لاحداهما، فنقول:

لا ريب في أن مدح المؤمن في غيبته وحضوره ممدوح مندوب اليه، لكونه ادخالا للسرور عليه، وقد علم مدحه وثوابه، ولما ورد من أن رسول الله ﷺ أثنى على أصحابه، وأنه قال لجماعة ـ لما اثنوا على بعض الموتى ـ: «وجبت لكم الجنة، وأنتم شهداء الله في الأرض». ولما ورد من «أن لبني آدم جلساء من الملائكة، فإذا ذكر أحد أخاه المسلم بخير، قالت الملائكة: ولك مثله، وإذا ذكره بسوء، قالت الملائكة: يا ابن آدم المستور عورته، إربع على نفسك! واحمد الله إذ ستر عورتك»، ولكنه ليس راجحاً مندوباً على الإطلاق، بل إذا سلم من آفاته، وهي أن يكون صدقا لا يفرط المادح فيه، بحيث ينتهي إلى الكذب، وألا يكون المادح فيه مرائياً منافقاً، بأن يكون غرضه اظهار الحب مع عدم كونه محباً في الواقع سواء كان صادقاً فيما ينسبه إليه من المدح أم لا، وألا يمدح الظالم والفاسق وإن كان صادقاً فيما يقول في حقه، لأنه يفرح بمدحه، وادخال الفرح على الظالم أو الفاسق غير جائز، قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق». فالظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم، ولا يمدح ليفرح، وألا يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه.

وهذه الآفة إنما تتطرق في المدح بالأوصاف المطلقة والخفية، كقولك: إنه تقي

ورع زاهد خير، أو قولك: إنه عدل رضى، وأمثال ذلك، لتوقف الصدق في ذلك على قيام الأدلة والخبرة الباطنة، وتحققهما في غاية الندرة. فالغالب أن المدح بامثال ذلك يكون من غير تحقق وتثبت، وألا يحدث في الممدوح كبراً أو اعجابا يوجبان هلاكه، ولارضى عن نفسه يوجب فتوره عن العمل، إذ من اطلقت الألسنة بالثناء عليه يرضى عن نفسه، ويظن أنه قد أدرك، وهذا يوجب فتوره عن العمل، إذ المتشمر له إنما هو من يرى نفسه مقصراًولذلك قال رسول الله ﷺ لرجل مدح بحضرته رجلا آخر: «ويحك! قطعت عنق صاحبك، لو سمعها ما أفلح، وقال ﷺ: «إذا مدحت أخاك في وجهه، فكأنما أمررت على حلقه الموسى». وقال أيضاً لمن مدح رجلا: «عقرت الرجل عقرك الله!». وقال ﷺ: «لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف، كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه».

والسر في هذه الأخبار: أن المدح يوجب الفتور عن العمل، أو الكبر أو العجب، وهو مهلك، كقطع العنق والعقر وامرار الموسى أو السكين على الحلق، فان سلم المدح عن الآفات المذكورة المتعلقة بالمادح والممدوح كان ممدوحاً، وإلا كان مذموماً. وبذلك يحصل الجمع بين ما ورد في مدحه ـ كما تقدم ـ وماورد في ذمه.

فاللازم على المادح أن يحترز عما تقدم من الآفات المتعلقة به، وعلى الممدوح أن يحترز من آفة الكبر والعجب والفتور والرياء، بأن يعرف نفسه ويتذكر خطر الخاتمة، ولا يغفل عن دقائق الرياء، ويظهر كراهة المدح، وإليه الاشارة بقوله ﷺ: «احثوا التراب في وجوه المداحين». وبالجملة: اللازم على الممدوح ألا يتفاوت حاله بالمدح، وهذا فرع معرفة نفسه، وتذكر ما لا يعرفه المادح من عثراته. وينبغي أن يظهر أنه ليس كما عرفوه، قال بعض الصالحين لما اثنى عليه: «اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني». وقال أمير المؤمنين عليه السلام لما أثني عليه: «اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون».

ثم الظاهر عدم المؤاخذة والاثم بالانبساط والارتياح بالمدح، لكون النفوس

مجبولة على الفرح والسرور بنسبة الكمال اليها، ولكن بشرط أن يكره من نفسه ذلك الارتياح، ويقهر نفسه ويعاتبها على ذلك، ويجتهد في ازالة ذلك عنها، إذ مقتضى العقل الفرح بوجود الكمال فيه لا بنسبته اليه، فما ينسب إليه منه إن كان موجوداً فيه، فينبغى أن يكون فرحه به لا بنسبته اليه، إذ الانبساط بتصريح رجل بأنك صاحب هذا الكمال حمق وسفه. وإن لم يكن موجوداً فيه، فاللازم أن يحزن ويغضب، لكونه استهزاء لا مدحاً. والحاصل: أن العاقل ينبغى الا يسر بمدح الغير ولا يحزن بذمه، إذ من ملك ياقوتة شريفة حمراء أى ضرر عليه إذا قال رجل إنها خرزة، وإذا ملك خرزة أى فائدة له إذا قال انها ياقوتة.

ومنها:

الكذب

وهو إما في القول، أى الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه، وصدوره إما عن العداوة أو الحسد أو الغضب، فيكون من رذائل قوة الغضب، أو من حب المال والطمع، أو الاعتياد الحاصل من مخالطة أهل الكذب، فيكون من رذائل قوة الشهوة.

أو في النية والارادة، وهو عدم تمحيضها بالله، بألايكون الله سبحانه بانفراده باعث طاعاته وحركاته، بل يمازجه شيء من حظوظ النفس. وهذا يرجع إلى الرياء، ويأتى كونه من رذائل أى قوة.

وإما في العزم، أى الجزم على الخير، وذلك بأن يعزم على شيء من الخيرات والقربات، ويكون في عزمه نوع ميل وضعف وتردد يضاد الصدق في العزيمة، وهذا أيضاً من رداءة قوة الشهوة.

وإما في الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، لعدم مشقة في الوعد، فإذا حقت الحقائق، وحصل التمكن، وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة،

ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا ايضاً من رذائل قوة الشهوة ومن انواع الشره.

وإما في الأعمال، وهو ان تدل اعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، أي لا يكون باطنه مثل ظاهره ولا خيراً منه. وهذا غير الرياء، لأن المرائي هو الذي يقصد غير الله تعالى في أعماله، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره سبحانه، ولكن قلبه غافل عن الله وعن الصلاة، فمن نظر الى ما يصدر عن ظاهره من الخشوع والاستكانة، يظن انه بشراشره منقطع إلى جناب ربه، وحذف ماسواه عن صحيفة قلبه، وهو بكليته عنه تعالى غافل، والى أمر من امور الدنيا متوجه. وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة الطمأنينة والوقار، بحيث من يراه يجزم بأنه صاحب السكينة والوقار، مع أن باطنه ليس موصوفاً بذلك. فمثل ذلك كاذب في عمله، وان لم يكن مرائياً ملتفتاً إلى الخلق، ولا نجاة من هذا الكذب إلا باستواء السريرة والعلانية، أو كون الباطن أحسن من الظاهر. وهذا القسم من الكذب ربما كان من رذائل قوة الشهوة، وربما كان من رذائل قوة الغضب، وربما كان من رداءة القوة المدركة، بأن كان باعثه مجرد الوساوس.

وإما في مقامات الدين، كالكذب في الخوف والرجاء، والزهد والتقوى، والحب والتعظيم، والتوكل والتسليم، وغير ذلك من الفضائل الخلقية، فإن لها مباديء يطلق الاسم بظهورها، ثم لها حقائق ولوازم وغايات والصادق المحقق من نال حقائقها ولوازمها وغاياتها، فمن لم يبلغها كان كاذباً فيها. مثلا الخوف من الله تعالى له مبدأ هو الايمان به سبحانه، وحقيقة هو تألم الباطن واحتراقه، ولوازم وآثار هي اصفرار اللون وارتعاد الفرائص وتكدر العيش وتقسم الفكر وغير ذلك، وغايات هي الاجتناب عن المعاصي والسيئات والمواظبة على الطاعات والعبادات، فمن آمن بالله تعالى صدق عليه كونه خائفاً منه خوفاً يطلق عليه الاسم، إلا أنه إن لم تكن معه حرقة القلب وتكدر العيش والتشمر للعمل كان خوفاً كاذباً، وإن كان معه ذلك كان خوفاً صادقاً، أي بالغاً درجة الحقيقة، قال أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ:

«إياكم والكذب. فإن كل راج طالب، وكل خائف هارب»[١]: أي لا تكذبوا في ادعائكم الرجاء والخوف من الله، وذلك لأن كل راج طالب لما يرجو ساع في أسبابه، وأنتم لستم كذلك، وكل خائف هارب مما يخاف منه، مجتنب مما يقربه منه، وأنتم لستم كذلك. وهذا مثل قوله عليه السلام في نهج البلاغة: «كذب والله العظيم ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله! وكل من رجا عرف رجاؤه إلا رجاء الله، فانه مدخول، وكل خوف محقق الا خوف الله، فانه معلول...»[٢].

ثم الكذب في كل مقام لما كان راجعاً إلى عدمه، فيكون رذيلة متعلقة بالقوة التي في هذا المقام فضيلة متعلقة بها. وبما ذكر يظهر: أن من له مبدأ الايمان، أعنى الاقرار بالشهادتين، وكان فاقداً لحقيقته، أعنى اليقين القطعى بالمبدأ والمعاد، أو للوازمه وغاياته، أعنى الخوف الصادق منه تعالى والتعظيم الحقيقى له سبحانه والاهتمام البالغ في امتثال أوامره ونواهيه، كان كاذباً في دعوى الايمان.

فصل

(ذم الكذب)

الكذب أقبح الذنوب وأفحشها، وأخبث العيوب وأشنعها، قال الله سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣]. **﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾**[٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إياكم والكذب، فان الكذب يهدى إلى الفجور،

(١) صححنا الرواية على (اصول الكافى): باب الكذب، وعلى (البحار): ٢ مج ١٥ / ٣٩، باب الكذب.

(٢) هذا الكلام مروى في (الوافى): ٣ / ٤٠٩ باب الكذب وفي (البحار): ٣ مج ١٥ / ٣٥. وهو مروى عن (نهج البلاغة) كما صرح به العلامة المجلسى رحمه الله في الموضع المذكور.

(٣) النحل، الآية: ١٠٥.

(٤) التوبة، الآية: ٧٧.

والفجور يهدى إلى النار». وقال ﷺ: «المؤمن إذا كذب من غير عذر لعنه سبعون الف ملك، وخرج من قلبه نتن حتى يبلغ العرش، فيلعنه حملة العرش، وكتب الله عليه بتلك الكذبة سبعين زنية، أهونها كمن زنى مع أمه»[١]. وسئل ﷺ: «يكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم! قيل، ويكون بخيلا؟ قال: نعم! قيل ويكون كذاباً؟ قال: لا!» وقال ﷺ: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب». وقال ﷺ: «الكذب ينقص الرزق». وقال ﷺ: «ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم! ويل له ويل له!». وقال ﷺ: «رأيت كأن رجلاً جاءنى، فقال لي: قم، فقمت معه، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس، وبيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده، فإذا مده رجع الآخر كما كان، فقلت للذى أقامني: ما هذا؟ فقال: هذا رجل كذاب، يعذب في قبره إلى يوم القيامة». وقال ﷺ: «ألا أخبركم باكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور»: أى الكذب. وقال ﷺ: «إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك منه مسيرة ميل من نتن ما جاء به». وقال ﷺ: «إن للشيطان كحلا ولعوقاً ونشوقاً. فأما لعوقه فالكذب، وأما نشوقه فالغضب، وأما كحله فالنوم»[٢]. وقال روح الله لأصحابه: «من كثر كذبه ذهب بهاؤه». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يجد العبد طعم الايمان حتى يترك الكذب، هزله وجده». وقال عليه السلام: «أعظم الخطايا عند الله اللسان والكذب، وشر الندامة ندامة يوم القيامة». وقال على بن الحسين عليهما السلام: «اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جد وهزل، فإن

---

(١) صححنا هذين الحديثين على (جامع الاخبار): الباب ١٢ الفصل ٧.

(٢) مثل مضمون هذه الرواية ورد في (الوسائل) في الموضع الآتى الباب ١٣٨. وفي (المستدرك) في الموضع الآتى. وفي (سفينة البحار): ٢: ٤٧٣، وفيه اختلاف عما في نسخ (جامع السعادات)، فان الموجود بهذه الكتب بهذا النص: «ان لابليس كحلا ولعوقاً وسعوطاً، فكحله النعاس، ولعوقه الكذب، وسعوطه الكبر».

الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير». وقال ابو جعفر عليه السلام: «إن الله عز وجل جعل للشر أقفالا، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شر من الشراب». وقال عليه السلام: «الكذب هو خراب الايمان». وقال عليه السلام: «إن أول من يكذب الكذاب الله عز وجل، ثم الملكان اللذان معه، ثم هو يعلم أنه كاذب». وقال الامام الزكى العسكرى عليه السلام: «جعلت الخبائث كلها في بيت، وجعل مفتاحها الكذب». والأخبار الواردة في ذم الكذب أكثر من أن تحصى. وأشد أنواع الكذب إثماً ومعصية الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأئمة، وكفاه ذماً أنه يبطل الصوم، ويوجب القضاء والكفارة على الأقوى. وقال الصادق عليه السلام: «إن الكذبة لتفطر الصائم»، قال الراوى: وأينا لا يكون ذلك منه، قال: «ليس حيث ذهبت، إنما الكذب على الله تعالى وعلى رسوله وعلى الأئمة عليهم السلام». وقال عليه السلام: «الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأوصياء عليهم السلام من الكبائر». وذكر عنده عليه السلام الحائك، وكونه ملعوناً، فقال: «إنما ذلك الذي يحوك الكذب على الله وعلى رسوله». وقال الباقر عليه السلام: «لا تكذب علينا كذبة، فتسلب الحنيفية»[١].

فصل
(مسوغات الكذب)

الكذب حرام، لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره، أو لايجابه اعتقاد المخاطب خلاف الواقع، فيصير سبباً لجهله. وهذا القسم مع كونه أهون الدرجات وأقلها إثماً، محرم أيضاً، إذ إلقاء خلاف الواقع على الغير وسببية جهله غير جائز، إلا أنه إذا كان مما يتوقف عليه تحصيل مصلحة مهمة، ولم يمكن التوصل اليها

(١) صححنا اكثر الأحاديث هنا على (الوسائل): الباب ١٣٨ ـ ١٤٠ من ابواب أحكام العشرة، وعلى (المستدرك): ٢ / ١٠٠ ـ ١٠٢، وعلى (اصول الكافى): باب الكذب، وعلى (البحار): ٣مج ١٥ / ٣٥، باب الكذب.

بالصدق، زالت حرمته وارتفع اثمه فان كانت المصلحة مما يجب تحصيلها، كانقاذ مسلم من القتل والاسر، أو حفظ عرضه أو ماله المحترم، كان الكذب فيه واجباً. وان كانت راجحة غير بالغة حد الوجوب، فالكذب لتحصيلها مباح أو راجح مثلها، كالاصلاح بين الناس والغلبة على العدو في الحرب، وتطييب خاطر امرأته واسترضائها وقد وردت الأخبار المتكثرة بجواز الكذب إذا توقف عليه تحصيل هذه المقاصد الثلاثة، كما روى: «ان رسول الله ﷺ لم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الاصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها»، وقال ﷺ: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً». وقال ﷺ: «كل الكذب يكتب على ابن آدم، إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما». وقال ﷺ: «كل الكذب مكتوب كذباً لا محالة، إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فان الحرب خدعة، أو يكون بين رجلين شحناء فيصلح بينهما، أو يحدث امرأته يرضيها». وقال ﷺ: «لا كذب على المصلح». وقال الصادق عليه السلام: «كل كذب مسؤل عنه صاحبه يوماً، إلا كذباً في ثلاثة: رجل كايد في حروبه، فهو موضوع عنه. أو رجل اصلح بين اثنين يلقى هذا بغير ما يلقى به هذا، يريد بذلك الإصلاح ما بينهما. أو رجل وعد أهله شيئاً وهو لا يريد أن يتم لهم». وقال عليه السلام: «الكلام ثلاثة: صدق وكذب، واصلاح بين الناس»، قيل له: ما الاصلاح بين الناس؟ قال: «تسمع في الرجل كلاماً يبلغه فيخبث نفسه، فتلقاه وتقول: قد سمعت من فلان فيك من الخير كذا وكذا، خلاف ما سمعت منه»[1]. وقد تقدمت اخبار اخر في هذا المعنى.

وهذه الأخبار وإن اختصت بالمقاصد الثلاثة، إلا أن غيرها من المقاصد

(١) صححنا هذه الاخبار على (اصول الكافي): باب الكذب، و(الوسائل): كتاب الحج، الباب ١٤١ من ابواب العشرة، و(كنز العمال): ٢ / ١٢٨. و(احياء العلوم): ٣ / ١١٩.

الضرورية التي فوقها أو مثلها في المصلحة يلحقها من باب الأولوية أو اتحاد الطريق.
والأخبار التي وردت في ذم هتك السر وكشف العيوب والفواحش تفيد وجوب القول بعدم الاطلاع، وإن كان مطلعاً مع كونه كذباً، فلا اثم على أحد بصدور الكذب عنه إذا كان وسيلة إلى شيء من المقاصد الصحيحة الضرورية له أو لغيره من المسلمين، فان أخذه ظالم وسأله عن ماله فله أن ينكر، وإن أخذه سلطان وسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله فله أن ينكر، وإن سئل عما يعلمه عن عيب أخيه أو سره فله أن ينكره، ولو وقع بين اثنين فساد فله أن يكذب، توسلا إلى الإصلاح بينهما وكذا يجوز له للاصلاح بين الضرات من نسائه أن يظهر لكل واحدة أنها أحب اليه، وإن كانت امرأته لا تطيعه إلا بوعد ما لا يقدر عليه، يجوز أن يعدها في الحال تطييباً لقلبها، وإن لم يكن صادقاً في وعده. ويلحق بالنساء الصبيان، فان الصبى إذا لم يرغب فيما يؤمر به من الكتابة وغيرها إلا بوعد أو وعيد وتخويف، كان ذلك جائزاً، وإن لم يكن في نيته الوفاء به. وكذا لو تكدر منه انسان، وكان لا يطيب قلبه إلا بالاعتذار اليه، بانكار ذنب واظهار زيادة تودد، كان ذلك جائز، وإن لم يكن صدقاً.

والحاصل: أن الكذب لدفع ضرر أو شر أو فساد جائز، بشرط صحة القصد. وقد ورد: ان الكذب المباح يكتب ويحاسب عليه لتصحيح قصده، فان كان قصده صحيحاً يعفى، وإلا يؤاخذ به. فينبغي ان يجهد في تصحيح قصده، وان يحترز عنه ما لم يضطر اليه، ويقتصر فيه على حد الواجب، ولا يتعدى إلى ما يستغنى عنه.

ولا ريب في أن ما يجب ويضطر إليه هو الكذب لأمور في فواتها محذور واضرار، وليس كل الكذب لزيادة المال والجاه وغير ذلك مما يستغنى عنه، فانه محرم قطعاً، إذ فواته لا يوجب ضرراً وفساداً واعداماً للموجود بل إنما يوجب فوات حظ من حظوظ النفس. وكذلك فتوى العالم بما لا يحققه وفتوى من ليس له اهلية الافتاء، اظهاراً للفضل أو طلباً للجاه والمال، بل هو أشد انواع الكذب إثماً وحرمة، لأنه مع كونه كذبا لا يستغنى عنه، كذب على الله وعلى رسوله.

فالكذب إذا كان وسيلة إلى ما يستغنى عنه حرام مطلقاً، وإذا كان وسيلة إلى ما لا يستغنى عنه ينبغي أن يوازن[١] محذور الكذب مع محذور الصدق، فيترك أشدهما وقعاً في نظر الشرع. وبيان ذلك: أن الكذب في نفسه محذور، والصدق في المواضع المذكورة يوجب محذوراً، فينبغي أن يقابل أحد المحذورين بالآخر، ويوازنا بالميزان القسط، فان كان محذور الكذب أهون من محذور الصدق فله الكذب، وإن كان محذور الصدق أهون وجب الصدق، وقد يتقابل المحذوران بحيث يتردد فيهما، وحينئذ فالميل إلى الصدق أولى، إذ الكذب أصله الحرمة، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة، وإذا شك في كون الحاجة مهمة، لزم الرجوع إلى أصل التحريم.

تنبيه
(التورية والمبالغة)

كل موضع يجوز فيه الكذب، إن امكن عدم التصريح به والعدول إلى التعريض والتورية، كان الأولى ذلك. وما قيل: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، وإن فيها ما يغني الرجل عن الكذب، ليس المراد به أنه يجوز التعريض بدون حاجة واضطرار، إذ التعريض بالكذب يقوم مقام التصريح به، لأن المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه، وهذا موجود في الكذب بالمعاريض. فالمراد أن التعريض يجوز إذا اضطر الانسان إلى الكذب، ومست الحاجة اليه، واقتضته المصلحة في بعض الأحوال في تأديب النساء والصبيان ومن يجري مجراهم، وفي

(١) لم يثبت لهذه الموازنة على عمومها دليل من الشرع، وكل ما ثبت منه تلك المواضع المذكورة آنفاً، التي جاز فيها الكذب، وهي: الاصلاح والحرب والزوجة، وفي الحصر بالمواضع الثلاثة في الروايات المتقدمة دليل على عدم جواز الكذب في غيرها، لا سيما مثل قوله ﷺ: «كل كذب مسؤل عنه صاحبه يوماً، إلا كذباً في ثلاثة...»، ولكن ثبت استثناء بعض المواضع، كدفع الظلم، فلا يتعداها.

الحذر عن الظلمة والاشرار في قتال الأعداء. فمن اضطر إلى الكذب في شيء من ذلك فهو جائز له، لأن نطقه فيه إنما هو على مقتضى الحق والدين، فهو في الحقيقة صادق، وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه، لصدق نيته وصحة قصده وارادته الخير والصلاح، فمثل هذا النطق لا يكون خارجا عن حقيقة الصدق، إذ الصدق ليس مقصوداً لذاته، بل للدلالة على الحق، فلا ينظر إلى قالبه وصورته، بل إلى معناه وحقيقته. نعم، ينبغي له في هذه المواضع أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلا يصدق اللفظ حينئذ أيضاً وإن كان متشاركاً مع التصريح في تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في الواقع. وقد كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى سفر وراه بغيره، لئلا ينتهى الخبر إلى الأعداء فيقصدونه.

ومما يدل على جواز التعريض مع صحة النية، ما روى في الاحتجاج: «أنه سئل الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى في قصة ابراهيم عليه السلام:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾(١).

قال: ما فعله كبيرهم وما كذب ابراهيم. قيل: وكيف ذلك؟ فقال: إنما قال ابراهيم فاسألوهم إن كانوا ينطقون، أي إن نطقوا فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فلم يفعل كبيرهم شيئاً، فما نطقوا وما كذب ابراهيم عليه السلام: «وسئل عن قوله تعالى:

﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾(٢).

قال: انهم سرقوا يوسف من أبيه، ألا ترى أنه قال لهم حين قالوا: ماذا تفقدون؟ قالوا: نفقد صواع الملك، ولم يقولوا: سرقتم صواع الملك. انما سرقوا يوسف من أبيه». وسئل عن قول ابراهيم:

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾(٣).

(١) الانبياء، الآية: ٦٣.

(٢) يوسف، الآية: ٧٠.

(٣) الصافات، الآية: ٨٨، ٨٩.

قال: ماكان ابراهيم سقيما، وماكذب، انما عنى سقيما في دينه، اى مرتادا».

وطريق التعريض والتورية: أن يخبر المتكلم المخاطب بلفظ ذى احتمالين احدهما غير مطابق للواقع واظهر في المقام، فيحمله المخاطب عليه، وثانيهما مطابق له يريده المتكلم، كما ظهر من خبر الاحتجاج. ومن أمثلته: انه إذا طلبك ظالم وانت في دارك ولا تريد الخروج اليه، أن تقول لأحد أن يضع اصبعه في موضع ويقول: ليس ههنا. وإذا بلغ عنك شيء إلى رجل، وأردت تطييب قلبه من غير أن تكذب، تقول له: ان الله ليعلم ما قلت من ذلك من شيء، على أن يكون لفظة (ما) عندك للابهام، وعند المستمع للنفى. وقد ظهر مما ذكر: أن كل تعريض لغرض باطل كالتصريح في عدم الجواز، لأن فيه تقريراً للغير على ظن كاذب. نعم، قد تباح المعاريض لغرض خفيف، كتطييب قلب الغير بالمزاح، كقول النبى ﷺ: «لا تدخل الجنة عجوز» و«في عين زوجك بياض» و«نحملك على ولد بعير»... وقس عليه أمثال ذلك.

ومن الكذب الذي يجوز ولا يوجب الفسق، ما جرت به العادة في المبالغة، كقولك: قلت لك كذا مائة مرة، وطلبتك مائة مرة، وأمثال ذلك لأنه لا يراد بذلك تفهيم المرات بعددها، بل تفهيم المبالغة. فان لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا، وان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة فلا يأثم، وان لم تبلغ مائة.

ومن الكذب الذي لا اثم عليه ما يكون في أنواع المجاز والاستعارات والتشبيهات، إذ الغرض تفهيم نوع من المناسبة والمبالغة، لا دعوى الحقيقة والمساواة من جميع الجهات.

ومن الكذب الذي جرت العادة به، ويتساهل فيه، قول الرجل إذا قيل له: كل الطعام: (لا اشتهيه)، مع كونه مشتهياً له. وهذا منهى عنه كما تدل عليه بعض الاخبار، إلا إذا كان فيه غرض صحيح، وما جرت العادة به قول الرجل: (الله يعلم) فيما لا يعلمه، وهو اشد أنواع الكذب، قال عيسى ﷺ: «إن من أعظم الذنوب عند الله ان

يقول العبد: ان الله يعلم لما لا يعلم». ومن الكذب الذي عظم ذنبه ويتساهل فيه، الكذب في حكاية المنام، قال رسول الله ﷺ: «إن من اعظم الفرية ان يدعى الرجل الى غير أبيه، أو يرى عينيه في المنام ما لم ير، أو يقول على ما لم أقل». وقال ﷺ: «من كذب في حلم، كلّف يوم القيامة أن يعقد بين شعرتين».

تذنيب

(شهادة الزور، اليمين الكاذب، خلف الوعد)

من أنواع الكذب وافحشها: شهادة الزور، واليمين الكاذب، وخلف الوعد.

ويدل على ذم الاول قوله تعالى في صفة المؤمنين:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّواكِرَامًا ﴾(١).

وقول النبى ﷺ: «شاهد الزور كعابد الوثن».

وعلى ذم الثانى قول النبى ﷺ: «التجارهم الفجار!» فقيل: يا رسول الله، أليس الله قد أحل البيع؟ فقال: «نعم! ولكنهم يحلفون فيأثمون، ويحدثون فيكذبون». وقوله ﷺ: «ثلاث نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم: المنان بعطيته، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره». وقوله ﷺ: «ما حلف حالف بالله فادخل فيها مثل جناح بعوضة، إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة». وقوله ﷺ: «ثلاث يشنأهم الله: التاجر أو البايع الحلاف، والفقير المختال، والبخيل المنان».

وعلى ذم الثالث قول النبى ﷺ: «من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليف إذا وعد». وقول الصادق عليه السلام: «عدة المؤمن أخاه نذر لاكفارة له، فمن اخلف فبخلف الله تعالى بدأ ولمقته تعرض، وذلك قوله تعالى:

---

(١) الفرقان، الآية: ٧٢.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من النفاق، حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». فمن وعد وكان عند الوعد عازما على ألا يفى، أو كان عازما على الوفاء وتركه بدون عذر، فهو منافق. وأما إن عن له عذر من الوفاء، لم يكن منافقاً وآثماً. وان جرى عليه ما هو صورة النفاق، فالاولى أن يحترز عن صورة النفاق ايضاً كما يحترز عن حقيقته، وذلك بألا يجزم في الوعد، بل يعلقه على المشية ومثلها.

ايقاظ
(علاج الكذب)

طريق معالجة الكذب: أولا: أن يتأمل في ما ورد في ذمه من الآيات والاخبار، ليعلم أنه لو لم يتركه لادركه الهلاك الابدى. ثم يتذكر أن كل كاذب ساقط عن القلوب في الدنيا ولا يعتنى أحد بقوله، وكثيراً ما يفتضح عند الناس بظهور كذبه. ومن اسباب افتضاحه أن الله سبحانه يسلط عليه النسيان، حتى أنه لو قال شيئاً ينسى أنه قاله، فيقول خلاف ما قاله، فيفتضح. والى ذلك اشار الصادق عليه السلام بقوله: «إن مما أعان الله به على الكذابين النسيان». ثم يتأمل في الآيات والاخبار الواردة في مدح ضده، أعنى الصدق كما يأتى، وبعد ذلك ان لم يكن عدواً لنفسه، فليقدم التروى في كل كلام يريد أن يتكلم به، فان كان كذباً يتركه وليجتنب مجالسة الفساق وأهل الكذب، ويجالس الصلحاء وأهل الصدق.

(١) الصف، الآية: ٢ ـ ٣.

وصل

(الصدق ومدحه)

ضد الكذب الصدق. وهو أشرف الصفات المرضية، ورئيس الفضائل النفسية، وما ورد في مدحه وعظم فائدته من الآيات والأخبار مما لا يمكن احصاؤه، قال الله سبحانه:

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾[١]. وقال: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٢]. وقال ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[٣]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ـ إلى قوله ـ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[٤]. وقال عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. ثم قال: وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾[٥].

وقال رسول الله ﷺ: «تقبلوا اليّ بست اتقبل لكم بالجنة: إذا حدث احدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم». وعن الصادقين عليهما السلام: «ان الرجل ليصدق حتى يكتبه الله صديقاً». وعن الصادق عليه السلام قال: «كونوا دعاة الناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع». وعنه عليه السلام: «من صدق لسانه زكى عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره بأهل بيته مد له في عمره». وعنه عليه السلام قال: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فان ذلك شيء اعتاده، ولو تركه لا ستوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه واداء أمانته». وقال عليه السلام لبعض اصحابه: «انظر إلى ما

(١) الاحزاب، الآية ٢٣.

(٢) التوبة، الآية: ١١٩.

(٣) آل عمران، الآية: ١٧.

(٤) الحجرات، الآية: ١٥.

(٥) البقرة، الآية: ١٧٧.

بلغ به على عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله فالزمه، فان علياً عليه السلام انما بلغ ما بلغ به عند رسول الله بصدق الحديث وأداء الامانة». وعنه عليه السلام قال: «إن الله لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث واداء الامانة إلى البر والفاجر»(١). وقال عليه السلام: «اربع من كن فيه كمل ايمانه ولو كان ما بين قرنه إلى قدمه ذنوب لم ينقصه ذلك ـ قال ـ: هي الصدق، واداء الامانة، والحياء، وحسن الخلق». وقد وردت بهذه المضامين اخبار كثيرة اخر. ومن انواع الصدق الصدق في الشهادة، وهو ضد شهادة الزور والصدق في اليمين، وهو ضد الكذب فيه، والوفاء بالعهد، وهو ضد خلف الوعد، وهذا القسم من الصدق، أعنى الوفاء بالعهد، أفضل أنواع الصدق القولى وأحبها، ولذا اثنى الله تعالى على نبيه اسماعيل به، وقال:

﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾(٢).

قيل: انه واعد انساناً في موضع فلم يرجع اليه، فبقى اثنين وعشرين يوماً في انتظاره. وروى: «أنه بايع رجل رسول الله صلى الله عليه وآله ووعده أن يأتيه في مكانه ذلك، فنسى وعده في يومه وغده، واتاه في اليوم الثالث وهو في مكانه». وقال رسول الله: «العدة دين». وقال صلى الله عليه وآله: «الوأى ـ أى الوعد ـ مثل الدين أو أفضل».

تكميل
(أقسام الصدق)

الصدق كالكذب له أنواع ستة:

الاول ـ الصدق في القول، وهو الاخبار عن الاشياء على ما هي عليه، وكمال هذا النوع بترك المعاريض من دون ضرورة، حذراً من تفهيم الخلاف وكسب القلب

---

(١) صححنا اغلب الاحاديث على (اصول الكافى): باب الصدق واداء الامانة. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، باب وجوب الصدق. وعلى (المستدرك): ٢ / ٨٤ ـ ٨٩.

(٢) مريم، الآية: ٥٤.

صورة كاذبة، ورعاية معناه في الفاظه التي يناجى بها الله سبحانه، فمن قال: «وجهت وجهى للذى فطر السماوات والارض» وفي قلبه سواه، أو قال: «اياك نعبد» وهو يعبد الدنيا بتقيد قلبه بها، إذ كل من تقيد قلبه بشىء فهو عبد له، كما دلت عليه الأخبار، فهو كاذب.

الثانى ـ الصدق في النية والارادة، ويرجع ذلك إلى الاخلاص، وهو تمحيض النية وتخليصها لله، بألا يكون له باعث في طاعاته، بل في جميع حركاته وسكناته، إلا الله. فالشوب يبطله ويكذب صاحبه.

الثالث ـ الصدق في العزم، أى الجزم على الخير: فان الانسان قد يقدم العزم على العمل، ويقول في نفسه: إن رزقنى الله كذا تصدقت منه كذا، وإن خلصنى الله من تلك البلية فعلت كذا. فان كان في باطنه جازماً على هذا العزم، مصمما على العمل بمقتضاه، فعزمه صادق، وإن كان في عزمه نوع ميل وضعف وتردد، كان عزمه كاذباً، إذ التردد في العزيمة يضاد الصدق فيها، وكان الصدق هنا بمعنى القوة والتمامية، كما يقال: لفلان شهوة صادقة، أى قوة تامة، أو شهوةٌ كاذبة، أى ناقصة ضعيفة.

الرابع ـ الصدق في الوفاء بالعزم: فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد، فإذا حان حين العمل بمقتضاه، هاجت الشهوات وتعارضت مع باعث الدين، وربما غلبته بحيث انحلت العزيمة ولم يتفق الوفاء بمتعلق الوعد، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله سبحانه:

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَـٰهَدُوا ٱللهَ عَلَيْهِ﴾[1].

الخامس ـ الصدق في الاعمال: وهو تطابق الباطن والظاهر، واستواء السريرة والعلانية، أو كون الباطن خيراً من الظاهر، بألا تدل اعماله الظاهرة على أمر في باطنه

(١) الاحزاب، الآية: ٢٣.

لا يتصف هو به، لا بأن يترك الاعمال بل بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر. وهذا اعلى مراتب الاخلاص، لإمكان تحقق نوع من الاخلاص بما دون ذلك، وهو أن يخالف الباطن الظاهر من دون قصد، فان ذلك ليس رياء. فلا يمتنع صدق اسم الاخلاص عليه.

توضيح ذلك: أن الرياء هو أن تقصد غير الله سبحانه في الاعمال، وقد تصدر عن انسان اعمال ظاهرة تدل على أنه صاحب فضيلة باطنة، من التوجه إلى الله والانس به، أو السكينة والوقار، أو التسليم والرضا وغير ذلك، مع أنه فاقد لها، لحصول الغلبة المانعة عن تحققها، أو اتفاق صدور الاعمال الظاهرة بهذه الهيئة من دون أن يقصد بها مشاهدة غيره سبحانه، فهذا غير صادق في عمله، كاذب في دلالة الظاهر على الباطن. وإن لم يكن مرائياً ولا ملتفتاً إلى الخلق، فاذن مخالفة الظاهر للباطن ان كانت من قصد سميت رياء، ويفوت بها الاخلاص، وان كانت من غير قصد سميت كذبا ويفوت بها الصدق، وربما لم يفت بها بعض مراتب الاخلاص. وهذا النوع من الصدق ـ أعنى مساواة السر والعلانية أو كونه خيراً منها ـ أعز من الانواع السابقة عليه، ولذلك كرر طلبه من الله سيد الرسل ﷺ في دعواته بقوله: «اللهم اجعل سريرتى خيراً من علانيتى، واجعل علانيتى صالحة». وورد: «أنه إذا ساوت سريرة المؤمن علانيته، باهى الله به الملائكة، يقول: هذا عبدى حقاً!». وكان بعض الأكابر يقول: «من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار؟». ولنعم ما قيل:

إذا السر والاعلان في المؤمن استوى ... فقد عز في الدارين واستوجب الثنا
وان خالف الاعلان سراً فما له ... على سعيه فضل سوى الكد والعنا
كما خالص الدينار في السوق نافق ... ومغشوشه المردود لا يقتضى المنى

ومن جملة هذا الصدق: موافقة القول والفعل، فلا يقول ما لا يفعل ولا يأمر بما لا يعمل. فمن وعظ ولم يتعظ في نفسه كان كاذباً. ومن هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «انى والله ما احثكم على طاعة إلا واسبقكم اليها، ولا انهاكم عن معصية إلا وأتناهى

قبلكم عنها».

السادس ـ الصدق في مقامات الدين: من الصبر، والشكر، والتوكل، والحب، والرجاء، والخوف، والزهد، والتعظيم، والرضا والتسليم، وغير ذلك. وهو اعلى درجات الصدق وأعزها، فمن اتصف بحقائق هذه المقامات ولوازمها وآثارها وغاياتها فهو الصديق الحق، ومن كان له فيها مجرد ما يطلق عليه الاسم دون اتصافه بحقائقها وآثارها وغاياتها فهو كاذب فيها. أما ترى أن من خاف سلطاناً أو غيره كيف يصفر لونه ويتعذر عليه أكله ونومه ويتنغص عليه عيشه ويتفرق عليه فكره وترتعد فرائصه وتتزلزل اركانه وجوانبه؟ وقد ينزح عن وطنه ويفترق عن أهله وولده، فيستبدل بالانس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة، فيعترض للاخطار ويختار مشقة الاسفار، كل ذلك من درك المحذور. فمثل هذه الخوف هو الخوف الصادق المحقق. ثم ان من يدعى الخوف من الله أو من النار، ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند ارادة المعصية وصدورها عنه، فخوفه خوف كاذب. قال النبي ﷺ: «لم أر مثل النار نام هاربها، ولم ار مثل الجنة نام طالبها».

ثم لا غاية لهذه المقدمات حتى يمكن لأحد أن ينال غايتها، بل لكل عبد منها حظ بحسب حاله ومرتبته، فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه غير متناهية، فلذلك لما رأى النبي ﷺ جبرئيل على صورته الاصلية، خر مغشياً عليه، وقال ـ بعد عودته إلى صورته الاولى وافاقته ـ: «ما ظننت أحداً من خلق الله هكذا! قال له: فكيف لو رأيت اسرافيل؟ إن العرش على كاهله، وان رجليه قد مرقتا تخوم الارضين السفلى، وأنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع!»: أي كالعصفور الصغير. وقال ﷺ: «مررت ليلة اسرى بى ـ أنا وجبرئيل ـ بالملأ الاعلى كالحلس البالي من خشية الله»: اى كالكساء الذي يلقى على ظهر البعير.

فانظر إلى اعاظم الملائكة والنبيين، كيف تصير حالهم من شدة الخشية والتعظيم، وهذا انما هو لقوة معرفتهم بعظمة الله وجلاله، وفوق ما لم يدركوه من

عظمته وقدرته مراتب غير متناهية. فاختلاف الناس في مراتب الخوف والتعظيم والحب والانس إنما هو بحسب اختلافهم في معرفة الله وليس يمكن ان يوجد من بلغ غايتها، فاختلاف الناس إنما هو في القدر الذي يمكن أن يبلغ اليه، والبلوغ إليه في الجميع أيضا نادر، فالصادق في جميع المقامات عزيز جداً.

ومن علامات هذا الصدق: كتمان المصائب والطاعات جميعاً، وكراهة اطلاع الخلق عليها. وقد روى: «أن الله تعالى اوحى إلى موسى عليه السلام: إنى إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوى لها الجبال، لأنظر كيف صدقه، فان وجدته صابراً اتخذته ولياً وحبيباً، وان وجدته جزوعا يشكونى إلى خلقى خذلته ولم ابال». وقال الصادق عليه السلام: «إذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب، فانظر في صدق معناك وعقد دعواك، وعيرهما بقسطاس من الله عز وجل كأنك في القيامة، قال الله عز وجل:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾[١].

فإذا اعتدل معناك بغور دعواك ثبت لك الصدق. وادنى حد الصدق الا يخالف اللسان القلب ولا القلب اللسان، ومثل الصادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع لروحه، إن لم ينزع فماذا يصنع»[٢].

تنبيه
(اللسان أضر الجوارح)

اعلم أن اكثر ما تقدم من الرذائل المذكورة في هذا المقام: من الكذب والغيبة، والبهتان، والشماتة، والسخرية، والمزاح وغيرها، وفي المقام الثالث ـ أعنى التكلم بما لا يعنى والفضول والخوض في الباطل ـ من آفات اللسان وهو اضر الجوارح

(١) الاعراف، الآية: ٨.

(٢) هذا الحديث في (مصباح الشريعة): الباب ٧٥ فصححناه عليه.

بالإنسان، واعظمها هلاكاً له، وآفاته اكثر من آفات سائر الأعضاء، وهى وان كانت من المعاصى الظاهرة، إلا أنها تؤدى إلى مساوىء الأخلاق والملكات. إذ الأخلاق انما ترسخ في النفس بتكرير الأعمال، والأعمال انما تصدر من القلب بتوسط الجوارح، وكل جارحة تصلح لأن تصدر منها الأعمال الحسنة الجالبة للاخلاق الجميلة، وأن تصدر منها الأعمال القبيحة المورثة للاخلاق السيئة، فلا بد من مراعاة القلب والجوارح معا بصرفهما إلى الخيرات ومنعهما من الشرور. وعمدة ما تصدر منه الذمائم الظاهرة المؤدية إلى الرذائل الباطنية هو اللسان، وهو أعظم آفة للشيطان في استغواء نوع الانسان، فمراقبته اهم، ومحافظته أوجب وألزم. والسر فيه ـ كما قيل ـ: أنه من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فانه وان كان صغيراً جرمه، عظيم طاعته وجرمه، إذ لا يتبين الايمان والكفر إلا بشهادته، ولا يهتدى إلى شيء من امور النشأتين إلا بدلالته، وما من موجود أو معدوم إلا وهو يتناوله ويتعرض له باثبات أو نفى، اذ كل ما يتناوله العلم يعبر عنه اللسان اما بحق أو باطل، ولا شيء إلا والعلم يتناوله.

وهذه خاصية لا توجد في سائر الاعضاء، اذ العين لا تصل إلى غير الالوان والصور؛ والاذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء، واللسان رحب الميدان وسيع الجولان، وليس له مرد، ولا لمجاله منتهى ولا حد، فله في الخير مجال رحب، وفي الشر ذيل سحب، فمن اطلق عذبة اللسان واهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وأوقعه في اودية الضلالة والخذلان، وساقه الله شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى الهلاك والبوار، ولذلك قال سيد الرسل ﷺ: «هل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟»[١]. فلا ينجى من شر اللسان الا أن يقيد بلجام الشرع ولا يطلق الا فيما

(١) رواه في «اصول الكافى»: باب الصمت وحفظ اللسان، فصححناه عليه.

ينفع في الدنيا والآخرة، ويكف عن كل ما يخشى غائلته في العاجلة والآجلة، وعلم ما يحمد اطلاق اللسان فيه أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير، وهو اعصى الأعضاء على الانسان، اذ لا تعب في تحريكه ولا مؤنة في اطلاقه، فلا يجوز التساهل في الاحتراز عن آفاته وغوائله، وفي الحذر عن مصائده وحبائله.

والآيات والأخبار الواردة في ذمه وفي كثرة أفاته وفي الأمر بمحافظته والتحذير عنه كثيرة، وهي بعمومها تدل على ذم جميع آفاته مما مر ومما يأتي. قال الله سبحانه:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١]. وقال: ﴿لَا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَيٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه، اتكفل له بالجنة». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه، فقد وقى»[٣]: والقبقب: البطن، والذبذب: الفرج، واللقلق: اللسان. وقيل له صلى الله عليه وآله وسلم: «ما النجاة؟ قال: إملك عليك لسانك». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اكبر ما يدخل الناس النار الاجوفان: الفم، والفرج» والمراد بالفم: اللسان. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد السنتهم؟». وقال له رجل: «ما أخوف ما يخاف علي؟ فاخذ بلسانه، وقال: هذا». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فينا، فانما نحن بك، فان استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»[٤].

---

(١) ق، الآية: ١٨

(٢) النساء، الآية: ١١٤.

(٣) تقدم هذا الحديث في ١ / ٢٨٧.

(٤) صححنا الحديث على (كنز العمال): ٢ / ١١١.

«وقال له رجل: أوصني! فقال صلى الله عليه وآله: أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك في الموتى، وان شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله ـ وأشار بيده إلى لسانه». وقال صلى الله عليه وآله: «ان الله عند لسان كل قائل، فليتق الله امرؤ على ما يقول». وقال صلى الله عليه وآله: «من لم يحسب كلامه من عمله، كثرت خطاياه وحضر عذابه». وقال صلى الله عليه وآله: «يعذب الله اللسان بعذاب لا يعذبه به شيئاً من الجوارح، فيقول: أى رب! عذبتنى بعذاب لم تعذب به شيئاً من الجوارح. فيقال له: خرجت منك كلمة بلغت مشارق الارض ومغاربها، فسفك بها الدم الحرام، وانتهب بها المال الحرام، وانتهك بها الفرج الحرام. وعزتى وجلالى! لأعذبنك بعذاب لا أعذب به شيئاً من جوارحك!». وقال صلى الله عليه وآله: «ان كان في شيء شؤم ففى اللسان». وقال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل يتكلم بفضول الكلام: «يا هذا! إنك تملى على حافظيك كتاباً إلى ربك، فتكلم بما يعنيك، ودع ما لا يعنيك»[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «المرء مخبوء تحت لسانه، فزن كلامك، واعرضه على العقل والمعرفة، فان كان لله وفي الله فتكلم، وان كان غير ذلك فالسكوت خير منه، وليس على الجوارح عبادة أخف مؤنة وافضل منزلة وأعظم قدراً عند الله كلام فيه رضى الله عز وجل ولوجهه ونشر آلائه ونعمائه في عباده، ألا ان الله لم يجعل فيما بينه وبين رسله معنى يكشف ما أسر اليهم من مكنونات علمه ومخزونات وحيه غير الكلام، وكذلك بين الرسل والامم، فثبت بهذا أنه أفضل الوسائل (والكلف والعبادة)[٢]. وكذلك لا معصية أثقل على العبد وأسرع عقوبة عند الله وأشدها ملامة وأعجلها سآمة عند الخلق منه، واللسان ترجمان الضمير وصاحب خبر القلب، وبه ينكشف ما في سر الباطن، وعليه يحاسب الخلق يوم القيامة، والكلام خمر يسكر

---

(١) صححنا الاحاديث الاربعة على (اصول الكافى): باب الصمت وحفظ اللسان. وعلى (الوافى): ٢/ ٣٤٠. وعلى (البحار): ٢ مج ١٥/ ١٨٨، ١٨٩، باب السكوت والصمت.

(٢) وفي نسخ (جامع السعادات): «والطف العبادة».

العقول ما كان منه لغير الله، وليس شيء أحق بطول السجن من اللسان»[١]. وقال السجاد عليه السلام: «إن لسان ابن آدم يشرف في كل يوم على جوارحه كل صباح، فيقول: كيف اصبحتم؟ فيقولون بخير ان تركتنا! ويقولون: الله الله فينا! ويناشدونه ويقولون: انما نثاب ونعاقب بك». وقال الصادق عليه السلام: «ما من يوم إلا وكل عضو من اعضاء الجسد يكفر اللسان، يقول: نشدتك الله أن نعذب فيك!»[٢].

تتميم
(الصمت)

لما علمت كون اللسان شر الأعضاء وكثرة آفاته وذمه، فاعلم أنه لا نجاة من خطره إلا بالصمت، وقد اشير فيما سبق: أن الصمت ضد لجميع آفات اللسان، وبالمواظبة عليه تزول كلها، وهو من فضائل قوة الغضب أو الشهوة، وفضيلته عظيمة وفوائده جسيمة، فان فيه جميع الهم، ودوام الوقار، والفراغ للعبادة والفكر والذكر، وللسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسناته في الآخرة. ولذا مدحه الشرع وحث عليه، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم: «من صمت نجا». وقال: «الصمت حكم، وقليل فاعله». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كف لسانه ستر الله عورته». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أخبركم بايسر العبادة وأهونها على البدن: الصمت وحسن الخلق». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو وليسكت». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «رحم الله عبداً تكلم خيراً فغنم، أو سكت عن سوء فسلم». وجاء اليه صلى الله عليه وآله وسلم أعرابى وقال: «دلنى على عمل يدخلنى الجنة. قال: اطعم الجائع واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فان لم تطق، فكف لسانك إلا من خير». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اخزن لسانك إلا من خير، فانك بذلك

---

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٤٦.

(٢) الحديثان الاخيران مرويان في (الكافى): ج ٢ باب الصمت. قال في (الوافى): ٢ / ٣٤٠: «يكفر اللسان: أى يذل ويخضع. والتكفير: هو ان ينحنى الانسان ويطأطىء رأسه قريباً من الركوع».

تغلب الشيطان» وقال ﷺ: «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه، فانه يلقن الحكمة». وقال ﷺ: «الناس ثلاثة: غانم، وسالم، وشاحب، فالغانم: الذي يذكر الله، والسالم: الساكت، والشاحب: الذي يخوض في الباطل». وقال ﷺ: «إن لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه، ثم أمضاه بلسانه. وان لسان المنافق امام قلبه، فإذا هم بشيء امضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه». وقال ﷺ: «أمسك لسانك، فانها صدقة تصدق بها على نفسك»... ثم قال: «ولا يعرف عبد حقيقة الايمان حتى يخزن من لسانه». وقال ﷺ لرجل اتاه: «ألا أدلك على امر يدخلك الله به الجنة؟ قال: بلى يا رسول الله! قال: أنل مما أنالك الله! قال: فان كنت احوج ممن انيله؟ قال: فانصر المظلوم. قال: فان كنت أضعف ممن أنصره، قال: فاصنع للأخرق ـ يعنى أشر عليه ـ. قال: فان كنت أخرق ممن اصنع له. قال: فاصمت لسانك إلا من خير، أما يسرك ان تكون فيك خصلة من هذه الخصال تجرك إلى الجنة؟». وقال ﷺ: «نجاة المؤمن حفظ لسانه». وجاء رجل اليه ﷺ فقال: «يا رسول الله أوصنى! قال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله أوصنى! قال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله أوصنى! قال: احفظ لسانك. ويحك! وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟».

وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام: «دلنا على عمل ندخل به الجنة. قال: لا تنطقوا أبداً. قالوا: لا نستطيع ذلك. قال: فلا تنطقوا إلا بخير». وقال عليه السلام أيضاً: «العبادة عشرة اجزاء، تسعة منها في الصمت، وجزء في الفرار عن الناس». وقال: «لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله، فان الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون». وقال لقمان لابنه: «يا بنى، إن كنت زعمت أن الكلام من فضة، فان السكوت من ذهب».

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «كان أبوذر يقول: يا مبتغى العلم، إن هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر، فاختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورقك».

وقال عليه السلام: «إنما شيعتنا الخرس». وقال الصادق عليه السلام لمولى له يقال له (سالم) ـ بعد أن وضع يده على شفتيه ـ: «يا سالم، احفظ لسانك تسلم، ولا تحمل الناس على رقابنا». وقال عليه السلام: «في حكمة آل داود: على العاقل أن يكون عارفا بزمانه، مقبلا على شأنه. حافظاً للسانه». وقال عليه السلام: «لا يزال العبد المؤمن يكتب محسناً ما دام ساكتا، فإذا تكلم كتب محسناً أو مسيئاً». وقال عليه السلام: «النوم راحة للجسد، والنطق راحة للروح، والسكوت راحة للعقل». وقال عليه السلام: «الصمت كنز وافر، وزين الحليم، وستر الجاهل». وقال ابو الحسن الرضا عليه السلام: «احفظ لسانك تعز، ولا تمكن الناس من قيادك فتذل رقبتك». وقال عليه السلام: «من علامات الفقه: الحلم، والعلم، والصمت، ان الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، انه دليل على كل خير». وقال عليه السلام: «كان الرجل من بنى اسرائيل إذا أراد العبادة صمت قبل ذلك بعشر سنين»[(١)].

وفي (مصباح الشريعة) عن مولانا الصادق عليه السلام قال: «الصمت شعار المحققين بحقائق ما سبق وجف القلم به، وهو مفتاح كل راحة من الدنيا والآخرة، وفيه رضا الرب، وتخفيف الحساب والصون من الخطايا والزلل وقد جعله الله سترا على الجاهل وزيناً للعالم، ومعه عزل الهوى، ورياضة النفس، وحلاوة العبادة، وزوال قسوة القلب، والعفاف والمروة والظرف. فاغلق باب لسانك عما لك منه بد، لا سيما إذا لم تجد أهلا للكلام والمساعد في المذاكرة لله وفي الله. وكان ربيع بن خيثم يضع قرطاساً بين يديه، فيكتب كل ما يتكلم به ثم يحاسب نفسه عشية، ما له وما عليه، ويقول: آه آه! نجا الصامتون وبقينا.وكان بعض اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يضع الحصاة في فمه، فإذا أراد ان يتكلم بما علم أنه لله وفي الله ولوجه الله أخرجها.وان كثيراً من

---

(١) صححنا الاحاديث هنا على (اصول الكافى): باب الصمت. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، الباب ١١٧ من احكام العشرة. وعلى (المستدرك): ٢ / ٨٨، ٨٩ وعلى (سفينة البحار): ٢ / ٥٠، ٥١. وعلى (البحار): ٢ مج ١٥ / ١٨٩ باب السكوت والصمت. وعلى (احياء العلوم): ٣ / ٩٣ـ٩٥. وعلى (كنز العمال): ٢ / ٧٢ و ١١١.

الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يتنفّسون تنفس الغرقى، ويتكلمون شبه المرضى. وانما سبب هلاك الخلق ونجاتهم الكلام والصمت. فطوبى لمن رزق معرفة عيب الكلام وهوائه، وعلم الصمت وفوائده! فان ذلك من أخلاق الانبياء وشعار الاصفياء. ومن علم قدر الكلام أحسن صحبة الصمت ومن أشرف على ما في لطائف الصمت واؤتمن على خزائنه كان كلامه وصمته كله عبادة، ولا يطلع على عبادته هذه إلا الملك الجبار»[1].

وقد ظهر من هذه الاخبار: أن الصمت مع سهولته أنفع للانسان من كل عمل، وكيف لا يكون كذلك، وخطر اللسان الذي هو أعظم الاخطار وآفاته التي هي أشد المهلكات لا ينسد إلا به؟ والكلام وان كان في بعضه فوائد وعوائد، إلا أن الامتياز بين الممدوح والمذموم منه مشكل، ومع الامتياز فالاقتصار على مجرد الممدوح عند اطلاق اللسان أشكل، وحينئذ فالصمت عما لا جزم بتضمنه للخير والثواب من الكلام أولى وأنفع.

وقد نقل: «أن أربعة من أذكياء الملوك ـ ملك الهند، وملك الصين، وكسرى، وقيصر ـ تلاقوا في وقت، فاجتمعوا على ذم الكلام ومدح الصمت فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل. وقال الآخر: إني إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني. وقال الثالث: عجبت للمتكلم، ان رجعت عليه كلمته ضرته، وان لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت».

ومنها:

(١) مصباح الشريعة: الباب ٢٧.

حب الجاه والشهرة

والمراد بالشهرة: انتشار الصيت، ومعنى الجاه: ملك القلوب وتسخيرها بالتعظيم والاطاعة والانقياد له. وبعبارة اخرى: قيام المنزلة في قلوب الناس، وانما تصير القلوب مملوكة مسخرة للشخص، باشتمالها على اعتقاد اتصافه بكمال حقيقي، أو بما يظنه كمالا، من علم وعبادة، أو ورع وزهادة، أو قوة وشجاعة، أو بذل وسخاوة، أو سلطنة وولاية، أو منصب ورياسة، أو غنى ومال، أو حسن وجمال، أو غير ذلك مما يعتقده الناس كمالا. وتسخير القلوب وانقيادها على قدر اعتقادها، وبحسب درجة ذلك الكمال عندها، فبقدر ما يعتقد أرباب القلوب تذعن له قلوبهم، وبقدر اذعانها تكون قدرته عليهم، وبقدر قدرته يكون فرحه وحبه للجاه. ثم تلك القلوب تبعث أربابها على المدح والثناء، فان المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده فيثنى عليه، وعلى الخدمة والاعانة، فانه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده، وعلى الايثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقى والابتداء بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد.

(تنبيه) : حب الجاه والشهرة إن كان من حيث إيجابهما الغلبة والاستيلاء حتى ترجع حقيقة إلى حبهما، وكان طالبهما طالباً لهما، فهو من رذائل قوة الغضب، وان كان من حيث التوصل بهما إلى قضاء الشهوات وحظوظ النفس البهيمية، فهو من رذائل قوة الشهوة، وإن كان من الحيثيتين فهو من رذائلهما بالاشتراك، بمعنى مدخلية كل منهما في حدوث خصوص هذه الصفة. والاصل اشتراك القوتين في حدوث حب الجاه والشهرة ـ كما ذكرناه في جملة ما يتعلق بهما معاً ـ بخلاف حب المال، فان الغالب أن حبه من حيث التوصل به إلى قضاء حظوظ القوة الشهوية، وكونه لمجرد الاستيلاء عليه بالمالكية والتمكن على التصرف فيه نادر، ولذا ذكرناه فيما يتعلق بقوة الشهوة.

فصل

(ذم حب الجاه والشهرة)

اعلم ان حب الجاه والشهرة من المهلكات العظيمة، وطالبهما طالب الآفات الدنيوية والاخروية، ومن اشتهر اسمه وانتشر صيته لا يكاد أن تسلم دنياه وعقباه، إلا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلف طلب للشهرة منه. ولذا ورد في ذمهما ما لا يمكن احصاؤه من الآيات والاخبار: قال الله سبحانه:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾(١). وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ. أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

وهذا بعمومه متناول لحب الجاه، لأنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا واكبر زينة من زينتها.

وقال رسول الله ﷺ: «حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل». وقال ﷺ: «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حب الجاه والمال في دين الرجل المسلم». وقال ﷺ: «حسب امرىء من الشر إلا من عصمه الله أن يشير الناس إليه بالاصابع». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «تبذل ولا تشتهر، ولا ترفع شخصك لتذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم، تسر الأبرار وتغيظ الفجار». وقال الباقر عليه السلام: «لا تطلبن الرياسة ولا تكن ذنباً، ولا تأكل الناس بنا فيفقرك الله». وقال الصادق عليه السلام: «اياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فو الله ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك!». وقال عليه السلام: «ملعون من ترأس، ملعون من هم بها، ملعون من

---

(١) القصص، الآية: ٨٣.

(٢) هود، الآية: ١٥ ـ ١٦.

حدث بها نفسه!». وقال ـ عليه السلام ـ: «من أراد الرياسة هلك». وقال عليه السلام: «أترى لا أعرف خياركم من شراركم؟ بلى والله! إن شراركم من أحب أن يوطأ عقبه، أنه لا بد من كذاب أو عاجز الرأى»(١).

والأخبار بهذه المضامين كثيرة، ولكثرة آفاتها لا يزال اكابر العلماء وأعاظم الاتقياء يفرون منهما فرار الرجل من الحية السوداء، حتى أن بعضهم إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام من مجلسه، وبعضهم يبكى لأجل أن اسمه بلغ المسجد الجامع، وبعضهم إذا تبعه اناس من عقبه التفت اليهم وقال: «على مَ تتبعونى، فو الله لو تعلمون ما أغلق عليه بابى ما تبعنى منكم رجلان». وبعضهم يقول: «لا أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح». وآخر يقول: «لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس». وآخر يقول: «والله ما صدق الله عبد إلا سره ألا يشعر بمكانه».

ومن فساد حب الجاه: أن من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغوفا بالتودد اليهم والمراءاة لأجلهم، ولا يزال في اقواله وافعاله متلفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجر لا محالة الى التساهل في العبادات والمراآة بها، والى اقتحام المحظورات للتوصل بها إلى اقتناص القلوب، ولذلك شبه رسول الله حب الشرف والمال وافسادهما للدين بذئبين ضاريين، وقال: «إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل»، إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول والفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس يضطر إلى النفاق معهم، والى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها، وذلك عين النفاق.

---

(١) الاحاديث الخمسة الاخيرة صححناها على (اصول الكافى): باب طلب الرياسة. و(الوسائل): كتاب الجهاد، الباب ٤٩ من ابواب جهاد النفس.

فصل

(الجاه أحب من المال)

إن لملك القلوب ترجيح على ملك المال بوجوه:

الأول - أن المال معرض التلف والزوال، لأنه يغصب ويسرق وتطمع فيه الملوك والظلمة، ويحتاج فيه إلى الحفظ والحراسة وتتطرق إليه أخطار كثيرة. وأما القلوب إذا ملكت، فهى من هذه الآفات محفوظة، نعم انما يزول ملك القلوب بتغيير اعتقادها فيما صدقت به من الكمال الحقيقى أو الوهمى.

الثانى - ان التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب، لوقصد اكتساب المال تيسر له بسهولة، لأن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب، ومبذولة لمن اذعنت له بالانقياد واعتقدت فيه أوصاف الكمال، وأما الخسيس العارى عن الكمال إذا ظفر بكثرة من المال ولم يكن له جاه يحفظ به ماله وأراد ان يتوصل به إلى الجاه، لم يتيسر له.

الثالث - أن ملك القلوب يسرى وينمو ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومشقة، إذ القلوب إذا أذعنت بشخص واعتقدت اتصافه بعلم أو عمل أو غيره، أفصحت الالسنة بما فيها لا محالة، فيصف ما يعتقده لغيره وهو أيضا يذعن به ويصفه لآخر، فلا يزال يستطار في الاقطار، ويسرى من واحد إلى واحد، إلى أن يجتمع معظم القلوب على التعظيم والقبول. وأما المال، فمن ملك شيئاً منه فلا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة.ولهذه الوجوه تستحقر الأموال في مقابلة عظم الجاه وانتشار الصيت وانطلاق الالسنة بالمدح والثناء.

فصل

(لا بد للانسان من جاه)

كما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والملبس والمسكن ومثله ليس

بمذموم، فكذلك لا بد من ادنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، إذ الانسان كما لا يستغنى عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام والمال الذي يباع به الطعام، فكذلك لا يستغنى عن خادم يخدمه ورفيق يعينه وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المنزلة ما يدعوه إلى الخدمة وفي قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته، وفي قلب السلطان من المحل ما يدفع به الشر عنه، ليس بمذموم. إذ الجاه كالمال وسيلة إلى الاغراض، فلا فرق بينهما، إلا أن هذا يقضى إلى ألا يكون المال والجاه محبوبين باعيانهما بل من حيث التوصل بهما الى غيرهما. ولا ريب في أن كل ما يراد به التوصل إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوسل إليه دون الوسيلة.

ومثل هذا الحب مثل حب الانسان أن يكون في داره بيت الخلاء لقضاء حاجته، ولو استغنى عن قضاء الحاجة ولم يضطر اليه، كره اشتمال داره على بيت الخلاء، ومثل أن يحب زوجته ليدفع بها فضلة الشهوة، ولو كفى مؤنة الشهوة لأحب مهاجرتها، وإذا كان حبهما لضرورة البدن والمعيشة لا لذاتهما، لم يكن مذموماً، والمذموم أن يحبهما لذاتهما. وفيما يجاوز ضرورة البدن كحب زوجته لذاتها حب العشاق حتى لو كفى مؤنة الشهوة لَبقي مستصحباً لحبها.

ثم حبهما باعيانهما وان كان مذموماً مرجوحا، لكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان مالم يحمله الحب على مباشرة معصية، وما لم يتوصل إلى اكتسابهما بكذب وخداع وتلبيس، كأن يظهر للناس قولاً أو فعلاً اعتقدوا لأجله اتصافه بوصف ليس فيه، مثل العلم والورع أو علو النسب، وبذلك يطلب قيام المنزلة في قلوبهم، وما لم يتوصل إلى اكتسابهما بعبادة، إذ التوصل إلى المال والجاه بالعبادة جناية على الدين وهو حرام، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور، كما يأتى.

وأما طلبهما بصفة هو متصف بها، فهو مباح غير مذموم، وذلك كقول يوسف عليه السلام:

﴿إجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[١].

حيث طلب المنزلة في قلب الملك بكونه حفيظاً عليما، وكان صادقاً في قوله. وكذا طلبهما باخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلمه فلا تزول به منزلته في قلبه، مباح غير مذموم، إذ حفظ الستر على القبائح جائز، بل لا يجوز هتك الستر واظهار القبيح، وهذا ليس فيه كذب وتلبيس بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة للعلم به، كالذى يخفى عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقى إليه أنه ورع، فان قوله إنه ورع تلبيس، وعدم اقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع، بل يمنع العلم بالشرب، وهو جائز شرعا وعقلا.

فصل
(دفع اشكال في حب المال والجاه)

إن قيل: الوجه في حبهما بالعرض وفي حب قدر ما يضطرّ اليهما في المعيشة وضرورة البدن ظاهر، فما الوجه في حبهما باعيانهما وفي حب الزائد عن قدر الضرورة منهما؟ كحب جمع المال، وكنز الكنوز، وادخار الذخائر، واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، وحب اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى اقاصى البلاد التي يعلم قطعاً أنه قط لا يطؤها ولا يشاهد أهلها ليعضموه ويعينوه على غرض من أغراضه، فانه مع ذلك يلتذ به غاية الالتذاذ ويسر به غاية السرور، حتى لا يجد في نفسه لذة أقوى منه، ويراه فوق جميع لذاته وابتهاجاته.

قلنا: الوجه في ذلك أمران:

الاول ـ دفع ألم الخوف الناشىء من سوء الظن وطول الامل. فان الانسان وإن كان له من المال ما يكفيه في الحال، إلا انه لطول أمله قد يخطر بباله ان المال الذي

---

(١) يوسف، الآية: ٥٥.

فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله، هاج الخوف في قلبه، ولا يزال ألم الخوف إلا بالأمن الحاصل من وجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال آفة، فهو أبداً لحبه للحياة وشفقته على نفسه يقدر طول الحياة وهجوم الحاجات، ويقدر امكان تطرق الآفات إلى الاموال ويستشعر الخوف من ذلك، فيطلب ما يدفع خوفه، وهو كثرة المال، حتى ان اصيب بطائفة من ماله يفزع إلى الاخرى. وهذا خوف لا موقف له عند مقدار مخصوص من المال، ولذلك لم يكن لميله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا، ولذلك قال ﷺ: «منهومان لا يشبعان: منهوم العلم، ومنهوم المال». ومثل هذه العلة ترد في حب قيام المنزلة والجاه في قلوب الاباعد عن وطنه وبلده، فانه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن، أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكناً، كان للنفس لذة وسرور بقيام المنزلة في قلوبهم، لما فيه من الأمن من هذا الخوف.

الثاني ـ أن الانسان مركب من اصول مختلفة: هي القوة الشهوية، والقوة السبعية، والقوة الشيطانية، والروح الذي هو أمر رباني، ولذلك له ميل إلى صفات بهيمية، كالأكل والوقاع، والى صفات سبعية، كالقتل والايذاء، والى صفات شيطانية، كالمكر والخديعة والاغواء، والى صفات ربوبية، كالعلم والقدرة والكبر والعز والفخر والاستعلاء. فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع، ومعنى الربوبية التوحد بالكمال، والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال، والاستيلاء على جميع الأشياء بالغلبة، واستناد الكل إليه بالصدور منه والمعلولية.

وبالجملة : مقتضى الربوبية التفرد بالوجود والكمال ورجوع كل وجود وكمال اليه، إذ هو التام فوق التمام، ولا يتحقق ذلك إلا بالتفرد بالوجود والكمال والقدرة والاستيلاء على جميع ما عداه. إذ المشاركة في الوجود نقص لا محالة، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها، فلو كانت معها شمس اخرى كان ذلك نقصاناً في

حقها، إذ لم تكن متفردة بكمال معنى الشمسية فإذا كان معنى الربوبية هو التفرد بالوجود والكمال، وكل انسان كان فيه أمر رباني، فالتفرد بالوجود والكمال محبوب له بالطبع، وضده ـ أعني العبودية ـ قهر على نفسه، لأنه علم أن المتفرد بالوجود والكمال هو الله تعالى، اذ ليس معه موجود سواه، فان ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته، بل هو قائم به، وليس له معية بالوجود بالنسبة إليه تعالى، إذ المعية توجب المساواة في الرتبة، وهي نقصان في الكمال، إذ الكمال الحقيقي من لا نظير له في الوجود، والكمال بوجه من الوجوه وان كان لغيره وجود وكمال بعد كونه صادراً منه معلولا له، اذ تحقق الموجودات وذوات الممكنات لا يوجب نقصاناً في ذاته سبحانه بعد استنادها جميعها اليه، وكونها أضعف منه بمراتب غير متناهية في الوجود والكمال شدة وقوة، فكما ان اشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاناً في الشمس، بل هو من جملة كمالها، وانما نقصانها بوجود شمس أخرى مساوية لها في الرتبة مستغنية عنها، فكذلك وجود كل ما في العالم إذا كان من اشراق نور القدرة الإلهية تابعاً لها، لم يكن ذلك نقصاناً في الواجب سبحانه، بل كان كمالا له.

ولما علم ذلك، وتيقن بأن التفرد بالوجود والكمال والاستيلاء التام على جميع الاشياء لا يليق به، لأنه عبد مملوك مقهور تحت القدرة الإلهية، عرف أنه عاجز عن درك منتهى الكمال الذي هو التفرد بالوجود والاستيلاء اى كون وجود غيره منه. إلا أنه لم تسقط شهوته للكمال، بل هو محب له ملتذ به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال، وطالب لتحصيل ما يتمكن منه. فمطلق الكمال محبوب عنده، إلا أن طلبه إنما يتعلق بالكمال الممكن في حقه ومن الكمال الممكن في حقه أن يحصل له نوع استيلاء على كل الموجودات، فكان ذلك محبوباً عنده ومطلوباً له. ولما كانت الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير، كذات الواجب وصفاته وعالم المجردات، والى ما يقبل التغيير ولكن لا تستولى عليه قدرة الخلق بالتصرف، كالأفلاك والكواكب وملكوت السماوات ونفوس الملائكة والجن والشياطين

والجبال والبحار وغير ذلك، والى ما يقبل التغير وتستولى عليه قدرة العباد، كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان، ومن جملتها قلوب الآدميين ونفوسهم لكونها قابلة للتغيير والتأثير مثل أجسادهم وأجساد سائر الحيوانات ـ فلم يكن للانسان أن يتصور إمكان استيلائه على الكل بالتصرف فيه، فلم يتعرض لطلب ذلك، بل أحب في كل منها نوع الاستيلاء الذي يمكن في حقه والاستيلاء الذي يمكنه في حقه بالنظر إلى القسمين الاولين هو الاحاطة عليه بالعلم والاطلاع على اسراره، لأن ذلك نوع استيلاء. اذ المعلوم المحاط به تحت القدرة، والعالم كالمستولى عليه. ولذلك أحب الانسان ان يعرف الواجب تعالى والملائكة والافلاك والكواكب وعجائب الملك والملكوت، لأن ذلك نوع استيلاء، والاستيلاء، نوع كمال.

وأما القسم الثالث، فيمكنه أن يستولى عليه بالتصرف فيه كيف يريد فيقدر على الأراضي والاملاك بأن يتصرف فيها بالحيازة والضبط والزرع والغرس، وعلى الأجساد الأرضية الحيوانية والنباتية والجمادية بالركوب والضبط والحمل والرفع والوضع والتسليم والمنع، وعلى نفوس الآدميين وقلوبهم بأن تكون مسخرة متصرفة تحت اشارته وارادته وصيرورتها محبة له باعتقاد الكمال فيه. ولكون هذا النوع من الاستيلاء نوع كمال، أحب الانسان هذا الاستيلاء على الأموال والقلوب، وإن كان لا يحتاج اليهما في ملبسه ومطعمه وفي شهوات نفسه، ولذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأحرار ولو بالقهر والغلبة. وقد ظهر مما ذكر: أن محبوب النفس بذاتها هو الكمال بالعلم والقدرة، والمال والجاه محبوب لكونه من أسباب القدرة. ولما كانت المعلومات والمقدورات غير متناهية، فلا يكاد أن تقف النفس إلى حد من العلم والقدرة، ولهما درجات غير متناهية، فسرور كل نفس ولذتها بقدر الدرجة التي تدركها.

فصل

(الكمال الحقيقى في العلم والقدرة لا المال والجاه)

لما عرفت أن المحبوب عند الانسان هو العلم والقدرة والمال والجاه لكونها كمالا، فاعلم أنه اشتبه الأمر عليه باغواء الشيطان، حيث التبس عليه الكمال الحقيقى بالوهمى، وتيقن بكون جميع ذلك كمالا وأحبه. إذ التحقيق أن بعضها كمال حقيقى وبعضها كمال وهمى لا اصل له، والسعى في طلبه جهل وخسران وتضييع وقت وخذلان.

بيان ذلك: أنه لا ريب في عدم كون المال والجاه كمالا، لأن القدرة والاستيلاء على أعيان الاموال بوجوه التصرف وعلى القلوب والأبدان بالتسخير والانقياد ينقطع بالموت، فمن ظن ذلك كمالا فقد جهل. فالخلق كلهم في غمرة هذا الجهل، فانهم يظنون أن القدرةعلى الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال.ولما اعتقدوا كون ذلك كمالا أحبوه، ولما أحبوه طلبوه، ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه، فنسوا الكمال الحقيقى الذي يوجب القرب من الله، أعنى العلم والحرية كما يأتى. فهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى:

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا، وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾[١].

فالعلم والحرية وفضائل الأخلاق هي الباقيات الصالحات التي تبقى كمالا للنفس بعد خراب البدن، والمال والجاه هو الذي ينقضى على القرب، وهو كما مثله الله تعالى، حيث قال:

---

(١) الكهف، الآية: ٤٦.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ . . .﴾(١).

وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو من الباقيات الصالحات.

فقد ظهر أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال وهمى لا أصل له، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصوداً فهو جاهل، إلا قدر البلغة منها إلى الكمال الحقيقى.

وأما العلم، فلا ريب في كون ما هو حقيقة العلم كمالا حقيقياً، إذ الكمال الحقيقى هو الذي يقرب من يتصف به من الله ويبقى كمالا للنفس بعد الموت. ولا شك في أن العلم بالله وبصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السماوات والارض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو المقرب للعبد إلى الله، إذ هو علم ثابت لا يقبل التغيير والانقلاب، اذ معلوماته أزلية أبديةوليس لها تغيير وانقلاب، حتى يتغير العلم بتغيرها مثل التغيرات التي يتغير العلم بها بتغيرها وانقلابها، كالعلم بكون زيد في الدار.

فهو علم ثابت أزلا وأبداً من دون تغير واختلاف، كالعلم بجواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات. فهذا العلم ـ أعنى معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله ـ هو الكمال الحقيقى الذي يبقى بعد الموت وينطوى فيه العلم بالنظام الجملى الأصلح وجميع المعارف المحيطة بالموجودات وحقائق الاشياء، اذ الموجودات كلها من أفعاله، فمن عرفها من حيث هي فعل الله ومن حيث ارتباطها بالقدرة والارادة والحكمة، كانت هذه المعرفة من تكملة معرفة الله التي تبقى كمالا للنفس بعد الموت، وتكون نوراً للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم وأيمانهم: «يقولون ربنا أتمم لنا نورنا»، وهى رأس مال يوصل إلى كشف مالم ينكشف في الدنيا، كما أن من معه سراج خفى، فانه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج

(١) يونس، الآية: ٢٤.

آخر يقتبس منه، فيكمل النور بذلك النور الخفى على سبيل الاستتمام، ومن ليس معه أصل السراج لا مطمع له في ذلك. فمن ليس له اصل معرفة الله لم يكن له مطمع في هذا النور، بل هو في «ظلمات في بحر لجى، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض».

وما عدا هذه المعرفة من المعارف، إما لا فائدة فيه أصلا، كمعرفة الشعر وأنساب العرب ومثلها، أو له منفعة في معرفة الله، كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار، ومعرفة طريق تزكية النفس التي تفيد استعداداً لقبول الهداية إلى معرفة الله، كما قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيٰهَا﴾[1]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2].

فهو من حيث إنه وسيلة إلى معرفة الله والى تحصيل الحرية مما لا بد منه بالعرض.

ثم ان المعرفة التي هي كمال حقيقى للانسان ليس كمال العلم وغايته، إذ لا يتصور كمال العلم ونهايته إلا للواجب تعالى، إذ كمال العلم انما يتحقق بامور ثلاثة:

الأول ـ أن يحيط بكل المعلومات، ولا يتحقق ذلك في علم البشر. إذ ما أوتى من العلم إلا قليلا، بل العلم الذي يحيط بجميع المعلومات هو علم الله تعالى، وعلم العبد انما يتحقق ببعض المعلومات، وكلما كانت معلوماته اكثر كان علمه أقرب إلى علم الله تعالى.

الثاني ـ ان يتعلق بالمعلوم على ما هو به، ويكون المعلوم منكشفاً واضحاً في غاية الإنكشاف والوضوح، بحيث لا يقبل انكشافاً أتم منه. وهذا أيضاً غير ممكن التحقيق في حق الانسان، إذ علمه لا يخلو عن كدرة وابهام، بل الكشف التام الذي

---

(١) الشمس، الآية: ٩.

(٢) العنكبوت، الآية: ٦٩.

هو غاية الظهور والانجلاء مختص بعلم الله تعالى، إذ معلوماته مكشوفة بأتم انواع الكشف على ما هي عليها، وعلم العبد له ببعض مراتب الانكشاف، فكلما كان اجلى وأوضح وأتقن وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفاته، كان أقرب إلى علم الله.

الثالث ـ أن يكون باقياً أبد الآباد، بحيث لا يتغير ولا يزول. وهذا أيضا مختص بعلم الله تعالى، اذ علمه تعالى باق لا يتصور أن يختلف ويتغير ويزول، وعلم الانسان يتغير ويزول، فكلما كان علمه بمعلومات لا تقبل التغير والانقلاب، كان اقرب إلى علم الله تعالى.

هذا، ومن الكمالات للانسان: التحلى بفضائل الأخلاق والصفات، لإيجابها صفاء النفس المؤدى إلى البهجة الدائمية والحرية، أعنى الخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر، تشبهاً بالملائكة الذين لا تستغرقهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، اذ رفع آثار الشهوة والغضب من النفس كمال حقيقى، لأنه من صفات الملائكة. ومن صفات الكمال لله سبحانه عدم تطرق التغيير والتأثير على حريم كبريائه، فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله أقرب.

وأما القدرة، فقد قال بعض العلماء: «أما القدرة فليس فيها كمال حقيقى للعبد، إذ القدرة الحقيقية لله، وما يحدث من الأشياء عقيب ارادة العبد وقدرته وحركته، فهى حادثة باحداث الله تعالى. نعم، له كمال من جهة القدرة بالاضافة إلى الحال، وهى وسيلة إلى كمال العلم، كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش، ورجله للمشى، وحواسه للادراك، فان هذه القوى آلة للوصول به إلى حقيقة كمال العلم، وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصل به إلى المطعم والملبس، وذلك إلى قدر معلوم، فان لم يستعمله للوصول به إلى معرفة الله فلا خير فيه ألبتة، إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضى على القرب، ولا طريق للعبد إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته، إذ قدرته على كل شيء من الأرضيات، كالمال والأبدان والنفوس، تنقطع بالموت».

وأنت خبير بأن تحقق نـوع قـدرة للـعباد مـما لا ريب فـيه، وإن كـانت أسـبابها وأصلها من الله سبحانه، إلا أن القدرة على الامور الدنيوية الفانية كالمال والأشـخاص وغير ذلك، ليست كمالا حقيقياً، لزوالها بالموت. نعم، الحـق ثـبوت القـدرة النـفسية للعبد ـ أعنى تأثير نفسه في الغير من الكائنات تأثيراً روحانياً معنوياً، كما هو ظاهر من تأثير بعض النفوس في الانسان والحيوان والنبات والجماد بأنـواع التأثـيرات، ومـثل هذه القدرة تبقى للنفوس بعد المـوت ولذا تـرى أن مـن يسـتغيث بـبعض النـفوس الكاملة من الأموات يرى منها عجائب التأثـيرات والاسـتفاضات، فـما ذكـره بـعض العلماء من عدم بقاء قدرة للنفوس بعد الموت محل النظر.

وقد ظهر بما ذكر: أن الكمال الحقيقى للانسـان هـو العـلم الحـقيقى وفـضائل الأخلاق والحرية والقدرة.

فصل

(علاج حب الجاه)

اعلم ان علاج حب الجاه مركب من علم وعمل. وعلاجه العـلمى: أن يـعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه ـ وهـو كـمال القـدرة عـلى اشـخاص النـاس وعـلى قلوبهم ان صفا وسلم ـ فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات بل لو سجد له كل من على وجه الأرض إلى خمسين سنة أو اكثر لا بد بالاخرة من موت الساجد والمسجود له، ويكون حاله كحال من مات قبله من ذوى الجاه مـع المـتواضـعين له. ولا ينبغى للعاقل أن يترك بمثل ذلك الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها. ومن فهم الكمال الحقيقى والكمال الوهمى ـ كما سبق ـ صغر الجـاه فـي عـينه، إلا أن ذلك انما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده، وأبصار اكثر الخلق ضعيفة مـقصورة عـلى العـاجلة لا يـمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، كما قال الله تعالى:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[١]. وقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ﴾[٢].

فمن هذه مرتبته، فينبغي ان يعالج قلبه من حب الجاه بمعرفة الآفات العاجلة، وهو أن يتفكر في الأخطارالتي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا فان كل ذى جاه محسود مقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ولا يزال في الاضطراب والخوف من أن تتغير منزلته في القلوب. مع أن قلوب الناس أشد تغيراً وانقلاباً من القدر في غليانه، وهى مرددة بين الاقبال والاعراض، فكلما يبنى على قلوب الخلق يضاهى ما يبنى على أمواج البحر فانه لا ثبات له. والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع اذى الأعداء اشتغال عن الله وتعرض لمقته في العاجل والآجل كل ذلك غموم عاجلة مكدرة للذة الجاه، فلا يبقى في الدنيا أيضا مرجوها بمخوفها، فضلا عما يفوت في الآخرة. فبهذا ينبغى أن تعالج البصيرة الضعيفة وأما من نفذت بصيرته وقوى ايمانه فلا التفات له إلى الدنيا. فهذا هو العلاج العلمى.

وأما العلاج العملى: فاسقاط الجاه عن قلوب الخلق بالانس بضد الجاه الذي هو الخمول ويقنع بالقبول من الخالق، وأقوى العلاج لقطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى مواضع الخمول، لا مجرد الاعتزال في بيته في البلدة التي هو فيها مشهور، لأن المعتزل في بيته في البلدة التي هو فيها مشهور عند أهلها لا يخلو بسبب عزلته عن حب المنزلة التي تترسخ له في القلوب، فربما يظن أنه ليس محباً لذلك الجاه وهو مغرور، وانما سكنت نفسه لأنها ظفرت بمقصودها، ولو تغير الناس عما اعتقدوا فيه ودموه أو نسبوه إلى امر غير لائق، ربما جزعت نفسه وتألمت وتوصلت الى الاعتذار من ذلك واماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن

---

(١) الأعلى، الآية: ١٦ ـ ١٧.

(٢) القيامة، الآية: ٢٠ ـ ٢١.

قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالى به، وبه يتبين انه بعد محب للجاه والمنزلة، ولا يمكنه ألا يحب المنزلة في قلوب الناس مادام يطمع في الناس، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة. فمن قنع استغنى عن الناس، وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب وزن عنده، بل من لم يطمع في الناس وكان من أهل المعرفة، كان الناس عنده كالبهائم، فكيف يكون طالباً لقيام منزلته في قلوبهم؟

والحاصل: أن الغالب والباعث على قيام المنزلة في قلوب الناس هو الطمع منهم، ولذا ترى انك لا تطلب قيام منزلتك في قلوب من في أقصى المشرق أو المغرب، لعدم طمع لك فيهم، ثم ينبغى أن يستعين على المعالجة بالأخبار الواردة في ذم الجاه ـ كما مر ـ وفي مدح الخمول، كما يأتى.

فصل

(حب الخمول)

ضد حب الجاه والشهرة حب الخمول، وهو شعبة من الزهد، كما أن حب الجاه شعبة من حب الدنيا. فحب الدنيا والزهد ضدان.

ثم الخمول من صفات المؤمنين وخصال الموقنين، وقد كانت طوائف العرفاء المتوحدين ومن يماثلهم من سلفنا الصالحين محبين له طالبين إياه، وكل من عرف الله وأحبه وأنس به، كان محباً للخمول متوحشاً من الجاه وانتشار الصيت، كما تنادى به كتب السير والتواريخ. وقد وردت بمدحه أخبار كثيرة، كقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن اليسير من الرياء شرك، وان الله يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يتحول من كل غبراء مظلمة». وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، لو قال: اللهم اسألك الجنة! لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً». وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أدلكم على أهل

الجنة؟ كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره». وقوله ﷺ: «إن أهل الجنة كل اشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له، الذين إذا استأذنوا على الامراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم. حوائج أحدهم تتخلخل في صدره، لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم». وقوله ﷺ: «إن من امتى من لو اتى أحدكم يسأله ديناراً لم يعطه إياه، أو يسأله درهما لم يعطه اياه ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها إياه، ولو سأله الدنيا لم يعطها اياه، وما منعها اياه لهوانه عليه». وقوله ﷺ: «قال الله عز وجل: ان من أغبط أوليائى عندى رجلا حفيف الحال، ذا حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه بالغيب، وكان غامضا في الناس، جعل رزقه كفافاً فصبر عليه، عجلت منيته فقل تراثه وقل بواكيه»(١). وورد: «أن الله تعالى يقول في مقام الامتنان على بعض عبيده: ألم أنعم عليك؟ ألم استرك؟ ألم أخمل ذكرك؟». وقال بعض خيار الصحابة: «كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، احلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب: تعرفون في أهل السماء، وتخفون في أهل الأرض». ومن اطلع على أحوال اكابر الدين والسلف الصالحين من ايثارهم الخمول والذل على الجاه والشهرة والغلبة، ثم في ما ورد في مدحهما من الأخبار، تيقن بأنهما من أوصاف المؤمنين، ولا بد للمؤمن من الاتصاف بهما، ولذا ورد: «أن المؤمن لا يخلو عن ذلة أو علة أو قلة».

ومنها:

حب المدح

وكراهة الذم. وهما من نتائج حب الجاه، ومن المهلكات العظيمة، إذ كل محب للمدح والثناء خائف من الذم، يجعل أفعاله وحركاته على ما يوافق رضا الناس،

---

(١) تقدم الحديث في ١٢٨/١، وذكرنا في التعليقة تفسير معنى (حفيف).

رجاءاً للمدح وخوفا من الذم. فيختار رضا المخلوق على رضا الخالق، فيرتكب المحظورات ويترك الواجبات، ويتهاون في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويتعدى عن الانصاف والحق، وكل ذلك من المهلكات، وليس للمؤمن أن يحوم حولها، بل المؤمن من لم يؤثر قط رضا المخلوق على رضا الخالق، ولا تأخذه في الله لومة لائم. ولعظم فساد حب المدح وبغض الذم ورد في ذمهما ما ورد في الأخبار، قال رسول الله ﷺ: «إنما هلك الناس باتباع الهوى وحب الثناء». وقال ﷺ: «رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى». وقال ﷺ لرجل اثنى على آخر بحضرته: «لو كان صاحبك حاضراً فرضى بالذى قلت فمات على ذلك، دخل النار». وقال ﷺ لما مدح آخر: «ويحك! قطعت ظهره! ولو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة». وقال ﷺ: «ألا لاتمادحوا! وإذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب». وقال ﷺ: «ويل للصائم! وويل للقائم! وويل لصاحب التصوف! إلا من... فقيل: يا رسول الله، إلا من؟ فقال: إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا، وأبغض المدحة واستحب المذمة».

فصل

(مراتب حب المدح وكراهة الذم)

اعلم أن لحب المدح وكراهة الذم مرتبتين: أولاهما: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح، ويغضب من الذم ويحقد على الذام، ويكافيه أو يحب مكافاته. وهذا حال أكثر الخلق، ولاحد لاتمها. وأخراهما: أن يفرح باطنه ويرتاح للمادح، ولكن يحفظ ظاهره من اظهار السرور، ويتبغض في الباطن على الذام، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافاته. وهذه وان كانت نقصاناً، إلا أنها بالنظر إلى الاولى كمال.

وباعتبار آخر، لحب المدح درجات:

الاولى ـ أن يتمنى المدح وانتشار الصيت بحيث يتوصل إلى نيلهما بكل

ممكن، حتى يرائى بالعبادات ولا يبالى بمفارقة المحظورات، لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح. وهذا من الهالكين.

الثانية ـ أن يريد ذلك ويطلبه بالمباحات لا بالعبادات وارتكاب المحظورات، وهذا على شفا جرف الهلاك. اذ حدود الكلام والأعمال التي يستميل بها القلوب لا يمكنه أن يضبطها، فيوشك أن يقع فيما لا يحل له ليتوصل به إلى نيل المدح. فهو قريب من الهالكين.

الثالثة ـ ألا يريد المدح ولا يسعى لطلبه، ولكن إذا مدح سر وارتاح، من غير وجدان كراهة في نفسه لهذا السرور والارتياح. وهذا أيضا نقصان، وان كان أقل اثماً بالاضافة إلى ما قبله.

الرابعة ـ أن يسر ويرتاح، ولكن كره هذا السرور والارتياح، وكلف قلبه كراهة المدح وبغضه، وهو في مقام المجاهدة، ولعل الله يسامحه إذا بذل جهده. ومع ذلك لم يقدر على ربط نفسه على كراهة المدح دائما.

فصل

(أسباب حب المدح)

حب المدح والثناء له أسباب:

الأول ـ شعور النفس بكمالها، فان الكمال لما كان محبوباً فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، فان كان ما به المدح وصفاً مشكوكاً فيه صادر عن خبير بصير لا يجازف في القول، كالوصف بكمال العلم والورع وبالحسن المطلق، فاللذة فيه عظيمة لأن الانسان ربما كان شاكاً في كمال علمه وكمال حسنه ويكون شائقاً لزوال هذا الشك، فإذا ذكره غيره، (لا) سيما إذا كان من أهل البصيرة أورث ذلك طمأنينة وثقة بوجود ذلك الكمال، فعظمت لذته، ولو كان صادراً ممن لا بصيرة له، كانت لذته أقل لقلة الاطمئنان بقوله.

وإن كان ما به المدح وصفاً جلياً، كاعتدال القامة وبياض اللون، كانت لذته في غاية القلة، لأن ثناءه لا يورث ما ليس له من الطمأنينة والثقة، إلا أنه لا يخلو عن لذة ما، اذ النفس قد تغفل عنه فتخلو عن لذته، فتنبهها عليه بالمدح يورث لذة ما. ولضد هذه العلة يبغض الذم أيضاً، لأنه يشعر بنقصان في نفسه، والنقصان ضد الكمال.

الثاني ـ ان المدح يدل على أن قلب المادح ملك الممدوح، وأنه مريد له معتقد فيه ومسخر تحت مشيته، وملك القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيذ، ولذلك تعظم اللذة مهما صدرت ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر، ولضد هذه العلة يكره الذم ويتألم القلب به.

الثالث ـ أن المدح سبب اصطياد قلب كل من يسمعه، لا سيما إذا كان المادح ممن يعتنى بقوله، وهذا يختص بمدح يقع على الملأ.

الرابع ـ أن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح إلى اطلاق اللسان بالثناء عليه طوعا أو قهراً، والحشمة محبوبة لما فيها من الغلبة والقدرة، فشعور النفس بها يورث لذة، وهذه اللذة تحصل وان علم الممدوح ان المادح لا يعتقد بما يقوله، اذ ما يطلبه يحصل منه، ولضد هذه العلة يبغض الذم أيضاً.

وهذه الأسباب قد تجتمع في مدح واحد فيعظم به الالتذاذ، وقد تفترق فينتقص ويندفع استشعار الكمال، بأن يعلم الممدوح ان المادح غير صادق في مدحه، فان كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله بطلت اللذة الثانية أيضاً، وهو استيلاءه على قلبه، وبقيت لذة الاستيلاء بالحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالمدح.

فصل

(علاج المدح وكراهة الذم)

إذا علم أن حب المدح وكراهة الذم من المهلكات، فيجب أن يبادر إلى العلاج.

وعلاج الأول : أن يلاحظ اسبابه، ويعلم أن شيئاً منها لا يصلح حقيقة لأن يكون سبباً له. أما استشعار الكمال بالمدح، فلأن المادح ان صدق فليكن الفرح من فضل الله حيث أعطاه هذه الصفات، وإن كذب فينبغي أن يغمه ذلك ولا يفرح به لأنه استهزاء به، مع أن الفرح مطلقاً في صورة الصدق من السفاهة، اذ الوصف الذي مدح به إن كان مما لا يستحق الفرح به، كالثروة والجاه وغيرهما من المطالب الدنيوية، فالفرح به من قلة العقل، لأنها كمالات وهمية لا أصل لها، وان كان مما يستحق الفرح به كالعلم والورع، فالفرح إنما هو لكونه مقرباً إلى الله، وهذا فرع حسن الخاتمة وهو غير معلوم. ففي الخوف من خطر الخاتمة شغل شاغل من الفرح بكل شيء. وأما دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سبباً لتسخير قلب من يسمعه، فحب ذلك يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب، وقد سبق طريق معالجته. وأما دلالته على الحشمة، فانها ليست إلا قدرة عارضة ناقصة لا ثبات لها، والعاقل لا يفرح بمثلها.

وأما علاج الثاني : ـ أعني كراهة الذم ـ فيعلم بالمقايسة على علاج حب المدح. والقول الوجيز فيه: ان من يذمك إن كان صادقاً وقصده النصح والارشاد، فلا ينبغي أن تبغضه وتغضب عليه، بل ينبغي أن تفرح وتجتهد في ازالة الصفة المذمومة عن نفسك، وما أقبح بالمؤمن أن يغضب على من يحسن إليه ويريد هدايته. وان كان قصده الإيذاء والتعنت، فلا ينبغي لك أيضا أن تبغضه وتكره ذلك، لأنه أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به، وذكرك إياه إن كنت غافلا عنه، وقبحه في عينك إن كنت متذكراً له. وعلى التقادير قد استفدت منه ما تنتفع به، وينبغي لك أن تغتنمه وتبادر الى ازالة عيبك. وإن كان كاذباً مفتريا عليك بما أنت منه بريء، فينبغي لك ايضا ألا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه، لأنك وإن خلوت من ذلك العيب، إلا أنك لا تخلو من عيوب اخر مساوية له وأفحش منها، فاشكر الله تعالى على أنه سترها ولم يطلع أحداً عليها، ودفعها بذكر ما أنت منه بريء، مع أنه كفارة لبقية مساويك. ومن ذمك أهدى

اليك حسناته وجنى على دينه، حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه عليك، فما بالك تحزن بحط ذنوبك واهداء الحسنات اليك؟ ولم تغضب عليه، مع أن الله سبحانه غضب عليه وأبعده من رحمته؟ فان ذلك كاف لانتقامك منه.

فصل

(ضد حب المدح)

ضد حب المدح وكراهة الذم: إما كراهة المدح وحب الذم، أو مساواتهما عنده بحيث لا تسره المدحة ولا تغمه المذمة. وقد تقدم بعض الأخبار الدالة على ذم من لم يتصف بالحالة الاولى. وهي وإن كانت نادرة الوجود، إذ ما أقل على بسيط الأرض ـ (لا) سيما في هذه الاعصار ـ من تستوى عنده المدحة والمذمة، فضلا عمن يكره المدح ويسر بالذم، إلا أن تحصيلها ممكن إذ كل من عرف أن المدح مضر بدينه وقاصم لظهره، فلا بد أن يكرهه ويبغض المادح، لو كان عاقلا مشفقاً على نفسه. وكذا من عرف أن الذام له يرشده إلى عيوبه ويهدى إليه بعض حسناته، لا بد أن يحبه ويسر بذمه.

وأما الحالة الثانية، فهي أولى درجات الكمال، ومن لم يتصف بها فهو ناقص. فالاتصاف بها لازم على كل مؤمن. وربما ظن بعض الناس اتصافه بها، مع كونه فاقداً لها. فمن ظن ذلك من نفسه، فلا بد أن يمتحن نفسه بعلاماتها حتى يظهر له صدق ظنه وكذبه، وعلاماته: ألا يكون سعيه ونشاطه في قضاء حوائج المادح اكثر منهما في قضاء حوائج الذام، وألا يتفاوت همه وحزنه لأجل موتهما وابتلائهما بمصيبة، وألا تكون ذلة المادح أخف في قلبه وعينه من ذلة الذام، وألا يكون جلوس الذام عنده أثقل ولا قيامه أهون من جلوس المادح وقيامه. وبالجملة: أن يستويا عنده من كل وجه. فمن وجد نفسه استواءهما في جميع الجهات، فهو من يتساوى عنده المدح والذم.

ومنها:

الرياء

وهو طلب المنزلة في قلوب الناس بخصال الخير أو ما يدل عليها من الآثار. فهو من أصناف الجاه، إذ هو طلب المنزلة في القلوب بأى عمل اتفق، والرياء طلب المنزلة باداثه خصال الخير أو ما يدل على الخير. ثم خصال الخير يشمل أعمال البر بأسرها، وهى أعم من العادات إن خصت العبادة بمثل الصلاة والصوم والحج والصدقة وأمثال ذلك، ومساوقة لها إن أريد بالعبادة كل فعل يقصد به التقرب ويترتب عليه الثواب. إذ على هذا كل عمل من اعمال الخير، سواء كان من الواجبات أو المندوبات أو المباحات في الاصل إذا قصد به القربة كان طاعة وعبادة، وان لم يقصد به ذلك لم يكن عبادة ولا عمل خير، ولو كان مثل الصلاة. وربما خص الرياء عادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة بالمعنى الأخص.

والمراد بالآثار الدالة على الخيرية هي كل فعل ليس في ذاته براً وخيراً، وإنما يستدل به على الخيرية.

وهى إما متعلقة بالبدن، كاظهار النحول والصفار ليستدل بهما على قلة الأكل أو الصوم وسهر الليل، ويوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة الخوف من الله ومن أهوال الآخرة، وكخفض الصوت ليستدل به على ان وقار الشرع قد خفض صوته... وقس عليها غيرها من الامور المتعلقة بالبدن، الدالةعلى الخيرية قصداً إلى تحصيل المنزلة في قلوب الناس، وكل ذلك يضر بالدين وينافي الورع واليقين، ولذا قال عيسى عليه السلام: «إذا صام أحدكم، فليدهن رأسه، ويرجل شعره، ويكحل عينيه»، خوفا من نزع الشيطان بالرياء. ثم هذه مراآة أهل الدين بالبدن، وأما أهل الدنيا فيراؤن في البدن باظهار السمن وصفاء اللون ونظافة البدن وحسن الوجه وأمثال ذلك.

أو متعلقة بالزى والهيئة كحلق الشارب وإطراق الرأس في المشى، والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود في الجبهة، ولبس الصوف أو الثوب الخشن أو الأبيض

وتعظيم العمامة ولبس الطيلسان والدراعة، وأمثال ذلك مما يدل على العلم والتقوى أو الانخلاع عن الدنيا.

والمراؤن من أهل الدين بالزى واللباس على طبقات: منهم من يرى طلب المنزلة بالثياب الخشنة، ومنهم من يرى بالثياب الفاخرة، ومنهم من يرى بالوسخة، ومنهم من يراه بالنظيفة، وللناس فيما يعشقون مذاهب. وأما أهل الدنيا فلا ريب في أنهم يراؤن في اللباس بلبس الثياب النفيسة وركوب المراكب الرفيعة وأمثال ذلك.

أو متعلقة بالقول والحركات كاظهار الغضب والاسف على المنكرات ومفارقة الناس للمعاصى، ليستدل بها على حمايته للدين وشدة اهتمامه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع أن قلبه لم يكن متأثراً عن ذلك، وكارخاء الجفون وتنكيس الرأس عند الكلام واظهار الهدوء والسكون في المشى ليستدل بذلك على وقاره، وربما اسرع المرائى في المشى إلى حاجة فإذا اطلع عليه واحد رجع إلى الوقار خوفا من أن ينسب إلى عدم الوقار، فإذا غاب الرجل عاد إلى عجلته.

أو متعلقة بغير ذلك كمن يتكلف ان يكثر الزائرون له والواردون عليه (لا) سيما من العلماء والعباد والامراء ليقال إن أهل الدين والعظماء يتبركون بزيارته.

فصل

(ذم الرياء)

الرياء من الكبائر الموبقة والمعاصى المهلكة وقد تعاضت الآيات والأخبار على ذمه، قال سبحانه:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾(١). وقال سبحانه: **﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ**

(١) الماعون، الآية: ٤ ـ ٧.

﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1]. وقال سبحانه ﴿يُرَاءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]. وقال: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر»، قالوا: وما الشرك الاصغر؟ قال: «الرياء، يقول الله عز وجل يوم القيامة للمرائين إذا جازى العباد باعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن لهم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء». وقال ﷺ: «استعيذوا بالله من جب الحزن» قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «واد في جهنم أعد للقراء المرائين». وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: من عمل لى عملا اشرك فيه غيرى فهو له كله، وأنا منه برىء، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك». وقال ﷺ: «لا يقبل الله تعالى عملا فيه مثقال ذرة من رياء». وقال ﷺ: «إن أدنى الرياء الشرك». وقال ﷺ: «إن المرائى ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائى ضل عملك وحبط اجرك اذهب فخذ اجرك ممن كنت تعمل له». وكان ﷺ يبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «إنى تخوفت على امتى الشرك أما انهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولاقمراً ولا حجراً ولكنهم يراؤن باعمالهم». وقال ﷺ: «سيأتى على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم وتحسن فيه علانيتهم طمعاً في الدنيا لا يريدون به ما عند ربهم، يكون دينهم رياء لا يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم». وقال: «إن الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل: اجعلوها في سجين إنه ليس إياى اراد به»[4]. وقال ﷺ: «ان الحفظة تصعد بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم

(1) الكهف، الآية: 110.

(2) النساء، الآية: 142.

(3) البقرة، الآية: 264.

(4) صححنا الحديث وكذا ما قبله على (اصول الكافى): باب الرياء وباقى الاحاديث النبوية على (احياء العلوم): ج 3 ص 254.

وصلاة ونفقة واجتهاد وورع، لها دوى كدوى الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك، فيجاوزون به إلى السماء السابعة، فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، اضربوا به جوارحه، اقفلوا به على قلبه، إني أحجب عن ربى كل عمل لم يرد به وجه ربى، إنه أراد بعمله غير الله، إنه أراد رفعة عند الفقهاء وذكراً عند العلماء وصيتاً في المدائن، أمرني أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيرى، وكل عمل لم يكن لله خالصاً فهو رياء، ولا يقبل الله عمل المرائى، قال ﷺ: وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر الله تعالى وتشيعه ملائكة السماوات حتى يقطع الحجب كلها الى الله فيقفون به بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله، قال: فيقول الله تعالى لهم انتم الحفظة على عمل عبدى وأنا الرقيب على نفسه، انه لم يردنى بهذا العمل وأراد به غيرى فعليه لعنتى فتقول الملائكة كلهم عليه لعنتك ولعنتنا، وتقول السماوات كلها عليه لعنة الله ولعنتنا، وتلعنه السماوات السبع ومن فيهن».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «اخشوا الله خشية ليس بتعذير[1] واعملوا بغير رياء ولا سمعة فانه من عمل لغير الله وكله الله إلى عمله يوم القيامة». وقال الباقر عليه السلام: «الابقاء على العمل أشد من العمل»، قيل: وما الابقاء على العمل؟ قال: «يصل الرجل بصلة وينفق نفقة لله وحده لا شريك له فكتب له سراً ثم يذكرها فتمحى فكتب له علانية ثم يذكرها فتمحى فتكتب له رياء». وقال الصادق عليه السلام: «قال الله تعالى أنا خير شريك فمن عمل لى ولغيرى فهو لمن عمل له غيرى». وقال عليه السلام: «قال الله تعالى: أنا أغنى الاغنياء عن الشريك فمن اشرك معى غيرى في عمل لم أقبله إلا ما كان لى خالصاً». وقال عليه السلام: «كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس،

(١) قال في الوافي في باب الرياء ٣ / ٤٠٠: بيان (بتعذير) ـ بحذف المضاف ـ اى ذات تعذير، وهو بالعين المهملة والذال المعجمة بمعنى التقصير.

ومن عمل لله كان ثوابه على الله». وعن أبى عبدالله عليه السلام في قول الله عز وجل:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

قال: «الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية الناس، يشتهى أن يسمع به الناس فهذا الذي اشرك بعبادة ربه»، ثم قال: «ما من عبد أسر خيراً فذهبت الأيّام أبداً حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسر شراً فذهبت الايام حتى يظهر الله له شراً». وقال عليه السلام: «ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً ويسر سيئاً أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أن ذلك ليس كذلك والله عز وجل يقول: (بل الانسان على نفسه بصيرة). ان السريرة إذا صحت قويت العلانية». وقال عليه السلام: «من أراد الله بالقليل من عمله اظهر الله له اكثر مما أراده به ومن أراد الناس بالكثير من عمله في تعب من بدنه وسهر من ليله أبى الله إلا أن يقلّله في عين من سمعه». وقال عليه السلام لعباد البصرى: «ويلك يا عباد! إياك والرياء فانه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له». وقال عليه السلام: «اجعلوا أمركم هذا لله ولا تجعلوه للناس فانه ما كان لله فهو لله وما كان للناس فهو لا يصعد إلى الله». وقال الرضا عليه السلام لمحمد بن عرفة: «ويحك يابن عرفة! اعملوا لغير رياء ولا سمعة فانه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل، ويحك ما عمل أحد عملا إلا أراده الله به إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً»[١].

وكفى للرياء ذماً انه يوجب الاستحقار لله وجعله أهون من عباده الضعفاء الذين لا يقدرون نفعاً ولا ضراً، اذ من قصد بعبادة الله عبداً من عبيده فلا ريب في أن ذلك لأجل ظنه بأن هذا العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرب إليه منه تعالى واى استحقار بمالك الملوك اشد من ذلك.

---

(١) صححنا الاحاديث عن آل البيت عليهم السلام على (اصول الكافى): باب الرياء وعلى (البحار): مج ١٥: ٤٣/٣. وعلى (الوسائل): ج ١، الباب ١١، ١٢، ١٤ من أبواب مقدمة العبادات.

فصل

(أقسام الرياء)

الرياء إما في العبادات أو في غيرها (والاول) حرام مطلقاً وصاحبه ممقوت عند الله وهو يبطل أصل العبادة ولأن الاعمال بالنيات، والمرائى بالعبادة لم يقصد امتثال أمر الله بل قصد ادراك مال أو جاه أو غرض آخر من الأغراض فلا يكون ممتثلاً لأمر الله خارجا عن عهدة التكليف، ثم مع بطلان عبادته وعدم خروجه عن عهدة التكليف يكون له اثم على حدة لأجل الرياء، كما دلت عليه الآيات والأخبار، فيكون أسوأ حالا ممن ترك العبادة رأساً، كيف لا والمرائى بالعبادة جمع بين الاستهزاء بالله والتلبيس والمكر لأنه خيل إلى الناس أنه مطيع لله من أهل الدين وليس كذلك.

وأما الرياء بغير العبادات، فقد يكون مذموماً، وقد يكون مباحاً، وقد يكون مستحباً، وقد يكون واجباً، إذ يجب على المؤمن صيانة عرضه وألا يفعل ما يعاب عليه، فلا يليق بذوى المروات أن يرتكبوا الامور الخسيسة بانفسهم عند مشاهدة الناس وان جاز لهم ذلك في الخلوة، ومن زين نفسه باللباس أو غيره في أعين الناس حذراً من لومهم واستثقالهم أو استقذارهم اياه كان ذلك مباحاً له، إذ الحذر من ألم الذم غير مذموم، إلا أن ذلك يختلف باختلاف الازمنة والبلاد والأشخاص من العباد، فربما كان بعض أقسام الرياء بغير العبادات مذموماً بالنظر إلى وقت أو شخص أو بلد غير مذموم بالنظر إلى آخر. روى: «ان رسول الله ﷺ اراد يوماً أن يخرج على أصحابه، فكان ينظر في حب من الماء ويسوى عمامته وشعره، فقيل له: أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ فقال: نعم، إن الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لأخوانه إذا خرج اليهم».وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «يتزين أحدكم لأخيه المسلم كما يتزين للغريب الذي يحب أن يراه في أحسن الهيئة»، وقال الصادق عليه السلام: «الثوب النقى يكبت العدو». وروى: «أنه عليه السلام نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً وهو يحمله، فلما رآه الرجل استحيى منه، فقال عليه السلام: اشتريته لعيالك وحملته اليهم، أما والله لو لا

أهل المدينة لا حببت أن اشترى لعيالى الشىء ثم احمله اليهم»[١]. أراد عليه السلام لولا مخافة ان يعيبوه على ذلك لفعل مثل فعله، إلا أنه لما كان في زمان يعاب عليه بمثله لم يجز له أن يرتكبه، ولما لم يكن ذلك مما يعاب عليه في زمن أمير المؤمنين عليه السلام كان يرتكبه وكان ذلك منقبة له وتعليما. فظهر أن ارتكاب بعض الامور وعدم ارتكاب بعض الافعال قد يكون رياء محبوباً وقد يكون رياء مذموماً.

فصل
(تأثير الرياء على العبادة)

الرياء إما أن يكون مجرداً عن قصد القربة والثواب بحيث لولاه والفرد صاحبه لترك العمل وهو أشد درجات الرياء وأعظمها اثماً، أو يكون مع قصدهما فان كان قصداً ضعيفاً مرجوحا بحيث لو كان خاليا عن قصد الرياء لم يبعثاه على العمل، ولو كان قصد الرياء خالياً عنهما بعثه عليه، كان قريباً من سابقه وان كان مساوياً لقصد الرياء بحيث لو كان كل واحد خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل، فالحق كونه مفسداً للعمل أيضاً لظواهر الاخبار. وان كان راجحاً على قصد الرياء غالباً عليه بأن يكون قصد الرياء واطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه بحيث لو لم يكن لم يترك العمل، ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم على العمل، (فبعض العلماء) على أنه لايحبط أصل العمل والثواب بل ينقص من الثواب أو يعاقب صاحبه على مقدار قصد الرياء، ويثاب على مقدار قصد الثواب و(فيه نظر) إذ ظواهر الأخبار تفيد ابطاله اصل العمل والثواب لصدق الرياء عليه وصدق المرائى على صاحبه، لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ثلاث علامات للمرائى: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان

---

(١) تقدم هذا الحديث في ١ / ٢٩٢، والاحاديث الثلاثة الاخيرة صححناها على (الوسائل): كتاب الصلاة، ابواب احكام الملابس، الباب ٤ ـ ٦.

وحده، ويحب أن يحمد في كل اموره». وما تقدم من الأخبار الدالة على أن كل عمل اشرك مع الله تعالى غيره كان الله منه بريئاً ولم يقبله، صريح في المطلوب. وحملها على ما إذا تساوى القصد أو كان قصد الرياء أرجح خلاف الظاهر. ثم الظاهر أن البطلان في هذه الصورة إنما هو إذا رجع قصده إلى حبه اطلاع الناس عليه لتقع منزلة له في قلوبهم، ليتوسل بها إلى نيل غرض من الاغراض الدنيوية، وأما إذا كان سروره وقصده من اطلاع الناس لاحد المقاصد الصحيحة الآتية فلا بأس به ولا يبطل العمل.

تنبيه

(السرور بالاطلاع على العبادة)

من كان قصده اخفاء الطاعة والاخلاص لله، فإذا اتفق اطلاع الناس على طاعته فلا بأس بالسرور به، من حيث علمه بأن الله اطلعهم عليه واظهر الجميل من حاله، فيستدل به على حسن صنع الله به من حيث انه ستر الطاعة والمعصية، والله تعالى ابقى معصيته على الستر وأظهر طاعته، فيكون فرحه بجميل نظر الله وفضله له لا بمدح الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال الله تعالى:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[(١)].

وكأنه ظهر له بظهور طاعته أنه عند الله مقبول ففرح به. أو من حيث استدلاله باظهار الله الجميل وستره القبيح في الدنيا أنه كذلك يفعل به في الآخرة، قال رسول الله ﷺ: «ما ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستر الله عليه في الآخرة». فالأول فرح بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل وهذا التفات إلى المستقبل. أو من حيث ظنه رغبة المطلعين في الاقتداء في الطاعة، فيتضاعف بذلك اجره. إذ يكون له اجر السر بما قصده أولا، واجر العلانية بما اظهره آخراً، ومن اقتدى الناس به في

(١) يونس، الآية: ٥٨.

طاعة فله اجر اعمال المقتدين به من غير أن ينقص من اجورهم شيء. أو من حيث فرحه بطاعة المطلعين لله في مدحهم وحبهم للمطيع، وميل قلوبهم إلى الطاعة، إذ من الناس من يمقت أهل الطاعة ويحسدهم أو يستهزىء بهم وينسبهم إلى الرياء، فهذا فرح بحسن ايمان عباد الله، وعلامة الاخلاص فيه: أن يكون سروره بمدحهم غيره مثل سروره بمدحهم اياه.

ويدل على عدم البأس بالسرور فيما ذكر ماروى: «أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: انى اسر العمل لا أحب أن يطلع عليه أحد فيطلع عليه فيسرني! قال: لك أجران: أجر السر وأجر العلانية». وما روى: «أنه سئل الباقر عليه السلام عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه انسان فيسره ذلك، قال: لابأس، ما من احد إلا وهو يحب أن يظهر الله له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك». وهذان الخبران باطلاقهما يدلان على نفي البأس بالسرور لأجل المقاصد المذكورة، ويخصص منهما ما هو المذموم من الفرح الحاصل من اطلاع الناس، وإن كان قصده الاخفاء أولاً، وهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بحوائجه، وانما يخصص ذلك منهما مع شمول اطلاقهما له ايضا لمعارض أقوى.

هذا وقد تقدم أن قصده أولا ـ أي في حال عقد الطاعة ـ اطلاع الناس عليه وارتياحه به لأحد المقاصد المذكورة لابأس به أيضا، فعدم البأس لايختص بطرو القصد والارتياح بعد العقد أو بعد تمام العمل.

ثم كما لا بأس بالسرور من ظهور الطاعات للمقاصد المذكورة، فكذلك لابأس بكتمان المعاصي واغتمامه باطلاع الناس عليها لاسباب نذكرها، بل الحق رجحان الكتمان ومزيته بعد ارتكابها، وان كان الاصل في الاخلاص استواء السريرة والعلانية. ولذا قال بعض الاكابر: «عليك بعمل العلانية وهو ما إذا ظهر لم تستح منه». وقال بعضهم: «ما عملت عملا ابالي ان يطلع الناس عليه إلا اتياني أهلي والبول والغائط». إلا أن ذلك درجة عظيمة ليست شرعة لكل وارد، ولا يصل اليها إلا واحد بعد واحد.

إذ كل انسان -إلا من عصمه الله - لا يخلو من ذنوب باطنة، (لا) سيما ما يختلج بباله من الامانى الباطلة والامور الشهوية، والله مطلع عليها وهى مخفية عن الناس، والسعى في اخفائها وكراهة ظهورها جائز بل راجح، بشرط ألا يكون باعث اخفائها قصد أن يعتقدوا فيه الورع والصلاح، بل كان الباعث:

١ - إما كون السر مأموراً به.

٢ - أو كون الهتك واظهار المعاصى منهياً عنه. قال رسول الله ﷺ: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستره بستر الله تعالى». ويعرف صدق ذلك بكراهة ظهورها عن الغير، أو كون ستر الله عليه في الدنيا دليلا على ستره في الآخرة، لما ورد في الخبر: «أن من ستر الله عليه في الدنيا ستر الله عليه في الآخرة».

٣ - أو كون ظهور المعاصى موجباً لذم الناس، والذم يؤلم القلب ويشغله عن طاعة الله، ويصده عن الاشتغال بتحصيل ما خلق لأجله، ولكون التألم بالذم جبلياً غير ممكن الدفع بسهولة يكون اخفاء ما ظهوره يؤدى إلى حدوثه جائزاً. نعم، كمال الصدق استواء المدح والذم، إلا أن ذلك قليل جداً، وأكثر الطباع تألّم بالذم، لما فيه من الشعور بالنقصان. وربما كان التألم بالذم ممدوحا إذا كان الذام من أهل البصيرة في الدين، فان ذمه يدل على وجود نقصان فيه، فينبغى أن يتألم منه ويتشمر لدفعه.

٤ - أو كون الناس شهداءه يوم القيامة، كما ورد فيجوز الاخفاء لئلا يشهدوا عليه يوم القيامة.

٥ - أو خوف ان يقصد بشر أو سوء إذا عرف ذنبه.

٦ - أو خوف صيرورة الذام عاصياً بذمه، وهذا من كمال الايمان، ويعرف بتسوية ذمه وذم غيره.

٧ - أو خوف سقوط وقع المعاصى من نفسه أو اقتداء الغير به فيها وهذه العلة هى المبيحة لاظهار الطاعة، ويختص ذلك بمن يقتدى به من الائمة وامثالهم، ولهذه العلة ينبغى أن يخفى العاصى معصيته من أهله وولده أيضاً، لئلا يقتدوا به فيها.

٨ ـ أو حبه محبة الناس له لا للتوسل بها إلى الاغراض الدنيوية، بل ليستدل بها على محبة الله تعالى له، لأن من أحبه الله تعالى جعله محبوباً في قلوب الناس.

٩ ـ أو مجرد الحياء من ظهور قبائحه، وهو غير خوف الذم والقصد بالشر، إذ هو من فضائل الاخلاق ومن كريم الطبع، قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله». وقال الصادق عليه السلام: «الحياء شعبة من الايمان». وقال ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بالخير». وقال ﷺ: «إنّ الله تعالى يحب الحي الحليم». ومن صدر عنه فسق ولم يبال بظهوره للناس، فقد جمع إلى الفسق الهتك وعدم الحياء ـ أعنى الوقاحة ـ، فهو أسوأ حالا ممن يفسق ويستحى فيستره.

ثم كثيراً ما يشتبه الحياء بالرياء، فيدعى من يرائى بأنه يستحى، وأن تركه السيئات أو اخفاءها أو تحسينه للعبادات إنما هو لأجل الحياء من الناس دون الرياء، وذلك كذب. وبيان ذلك: أن الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم، ويمكن أن يهيج عقيبه داعية الرياء فيرائى معه، ويمكن أن يهيج داعية الاخلاص فيجمعه اليه. مثلا من طلب من صديقه قرضاً، فان رده صريحاً من غير مبالاة ومن دون أن يتعلل ارتكب الوقاحة وعدم الحياء، وان اعطاه بمجرد انقباض نفسه من استشعار قبح رده مشافهة من دون رغبة في الثواب ولا خوف من ذمه أو حب إلى مدحه حتى لو طلبه مراسلة أو بتوسط غيره من الأجانب لرده، فاعطاؤه هذا صادر عن مجرد الحياء من دون ترتب رياء أو إخلاص عليه. وان تعسر عليه الرد للحياء وكان ما في نفسه من البخل مانعاً من الاعطاء فحدث خاطر الرياء، ويخاطب نفسه بأنه ينبغى أن تعطيه حتى يمدحك بالسخاء ولا يذمك بالبخل فاعطاه لذلك فهو مزج الرياء بالحياء، والمحرك للرياء هو هيجان الحياء. وان تعسر عليه الرد للحياء والاعطاء للبخل، فهيج باعث الاخلاص، ويقول له: ان الصدقة بواحدة والقرض بثمانية، ففيه أجر عظيم، وادخال السرور على قلب مسلم صديق من أقرب القربات، فسخت نفسه بالاعطاء، فهو جمع بين الحياء والاخلاص ثم الحياء لايكون إلا في القبائح الشرعية أو العقلية

أو العرفية، كالبخل ومقارفة الذنوب والظلم وصدور بعض الحركات القبيحة عرفا في المحافل، والرياء يكون في المباحات أيضاً، حتى أنه لو عاد الضاحك إلى الانقباض والمستعجل في المشى إلى الهدوء بعد اطلاع الناس كان مرائياً، وربما أن باعث ذلك هو الحياء وهو الجهل، إذ باعثه مجرد الرياء. وما قيل: إن بعض الحياء ضعف، فالمراد أن الحياء مما ليس بقبيح ناش من ضعف النفس، كالحياء من وعظ الناس واقامة الصلاة، ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الا إذا وجد عذر يحسن الحياء معه، كأن يشاهد معصية من شيخ فيستحى من شيبته أن ينكر عليه، لأن من اجلال الله اجلال ذى الشيبة المسلم، ولو استحيى من الله ولا يضيع الأمر بالمعروف لكان أحسن. وأقوياء النفوس من أهل الايمان يؤثرون الحياء من الله على الحياء من الخلق، وأما ضعفاء النفوس منهم فقد لا يقدرون على ذلك.

فصل

(متعلقات الرياء)

الرياء إما باصل الايمان، وهو اظهار الشهادتين مع التكذيب باطناً، وهذا هو كفر النفاق، وقد كان في صدر الاسلام كثيراً، وقل ما يوجد في أمثال زماننا، وان كثر فيه انكار بعض ضروريات الدين، كالجنة والنار والثواب والعقاب واعتقاد طى بساط أحكام الشرع باطناً، ميلا إلى قول الملاحدة وأهل الاباحة، مع اظهار الخلاف ظاهراً، وهذا أيضاً معدود من كفر النفاق، وصاحبه ينسل عن الدين مخلد بالنار. وصاحب كفر النفاق مطلقاً أسوأ حالا من الكافر المحارب، لأنه جمع بين الكفر الباطن والنفاق الظاهر. أو بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، كأن يصلى في الملأ دون الخلوة، ويصوم مع اطلاع الناس عليه ويفطر بدونه، ومثله وإن لم ينسل من أصل الدين، إلا أنه شر المسلمين، لترجيحه الخلق على الخالق، وكون التقرب اليهم أحب من التقرب لديه، وكون خوفه من ذمهم أشد من خوفه من عقابه سبحانه. أو بالنوافل

والسنن، وهذا أيضا مذموم مهلك، ولكنه دون ما قبله، لأن صاحبه وان قدم مدح الخلق على مدح الخالق، الا أنه لم يقدم خوف ذمهم على خوف عقابه، لعدم ترتب عقاب على ترك النافلة. أو بأوصاف العبادة الواجبة أو المستحبة، كفعل ما في تركه نقصان أو كراهة أو ترك ما في فعله أحدهما أو بزيادات خارجة عن نفس النوافل، كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده الصف الاول، وأمثال ذلك. وكل ذلك مذموم، إلا أن بعضه أشد من بعض.

فصل

(بواعث الرياء)

باعث الرياء إما التمكن من المعصية، كاظهار الورع والتقوى لتفوض إليه الحكومة والقضاء، لينال الجاه والاستيلاء، ويحكم بالجور، ويأخذ الرشا، أو تسلم إليه الودائع والصدقات وأموال اليتامى وأمثال ذلك، فيأخذ لنفسه منها ما يقدر عليها، وكحضوره مجالس العلم والوعظ والتعزية لملاحظة النسوان والصبيان، وهذا أشد درجات الرياء اثماً، ويقرب منه اظهار الديانة والتقوى ليدفع عن نفسه تهمة ما اقترفه من الجرائم، أو نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا، كالاشتغال بالوعظ والتذكير والامامة والتدريس واظهار الصلاح والورع، كالاشتغال بالوعظ والتذكير والامامة والتدريس واظهار الصلاح والورع، لتستبذل له الأموال وترغب في تزوجيه النسوان أو خوف أن ينظر إليه بعين النقص والحقارة، أو ينسب إلى الكسالة والبطالة كترك العجلة، والضحك بعد اطلاع الناس عليه، خوفا من أن يعرف باللهو والهزل فيستحقر، وكالقيام للتهجد واداء النوافل إذا وقع بين المتهجدين والمتنفلين لئلا ينسب إلى الكسالة، ولو خلى بنفسه لم يتنفل مطلقاً، وكذا الامتناع من الاكل والشرب في اليوم الذي يصام فيه تطوعا، وتصريحه بأنى صائم، خوفا من أن ينسب إلى البطالة، وربما لم يصرح بكونه صائماً، بل يقول: لى عذر، وحينئذ قد جمع بين

رياءين: الرياء بكونه صائماً، والرياء بكونه مخلصاً غير مراء. ثم إن ألجأته الكسالة والشهوة إلى عدم القيام إلى النوافل وعدم الصبر عن الأكل والشرب، ذكر لنفسه عذرا، تصريحاً أو تعريضاً، كأن يتعلل الترك بمرض أو ضعف أو شدة العطش أو تطييب خاطر فلان، وقس عليها غيرها من الكلمات والاعذار، فانها لا تسبق إلى اللسان الا لرسوخ عرق الرياء في النفس، والمخلص لا يريد غير الله والتقرب اليه، ولا يعتنى بالخلق وحصول المنزلة في قلوبهم، فان لم يصم لم يحب أن يعتقد غيره فيه ما يخالف علم الله ليكون ملبساً، وان صام قنع بعلم الله ولم يشرك فيه غيره. ثم هذه البواعث لما كان بعضها صادراً من رداءة قوة الغضب وبعضها من رداءة قوه الشهوة، فيكون بعض أنواع الرياء من رذائل الاولى وبعضها من رذائل الثانية.

تنبيه
(الرياء الجلى والخفى)

الرياء جلى وخفى، والجلى: ما يبعث على العمل لولا قصد الثواب، والخفى: ما لا يبعثه بمجرده إلا أنه يخفف العمل الذي أريد به التقرب في الخلوة، ويعرف بالسرور إذا اطلع عليه الناس، لا للمقاصد المتقدمة، بل لطلب نوع منزلة في قلوب الناس، ويتوقع التعظيم والتوقير وقضاء الحوائج منهم ووجدان الاستبعاد من نفسه لو قصر في احترامه، كأن نفسه تتقاضى الاكرام والاحترام على الطاعة التي اخفاها مع أنه لم يطلع عليه أحد. ولا شك أن هذا التقاضى لا ينفك عن شوب خفى من الرياء أخفى من دبيب النمل، ولو كان عنده وجود الطاعة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق وقنع بعلم الله فيها لم يكن لهذا التوقع وجه. فعلامة خلوص العمل من الرياء ألا يجد تفرقة بين أن يطلع على عبادته انسان أو بهيمة، ومهما وجد تفرقة في ذلك فلا يكون

منفكا عن توقع ما (عن)[1] الناس في طاعته، وذلك مما يحبط العمل. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله تعالى يقول للقراء يوم القيامة: ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبدأون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ فلا اجر لكم، قد استوفيتم اجوركم!».

فصل

(كيف يفسد الرياء العمل)

لو عقد العمل على الخلاص واستمر إلى الفراغ، لم يحبطه السرور بظهوره بعده، لامن قبله كمادل عليه بعض الظواهر السالفة. ولا يعصى به أيضاً إن كان لأجل أحد المقاصد السالفة، ويكتب له معصية إن كان لظنه حصول منزلة له في القلوب. ولو كان ظهوره بعده من نفسه بالتحدث مع الرغبة والسرور بذلك، فربما قيل باحباطه العمل، إذ حب التحدث به يدل على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد خفى من الرياء. وقد أيد ذلك بما روى: «أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وآله وسلم: إنى صمت الدهر. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لا صمت ولا أفطرت!». وما روى: «أن ابن مسعود سمع رجلا يقول: قرأت البارحة سورة البقرة. فقال: ذلك حظه منها».

والظاهر أنه لا يحبط عمله، بل يثاب عليه، وان عوقب على ما صدر منه بعد الفراغ من الرياء. والتعليل لو تم لا يفيد البطلان، إذ العقد الذي لم يشعر به صاحبه لا يؤاخذ به، وإلا لزم التكليف بالمحال. والخبر لو صح فانكاره صلى الله عليه وآله وسلم لأجل كراهية صوم الدهر لا لاظهاره. وقول ابن مسعود لو ثبت لا حجية فيه.

ولو عقد العمل على الاخلاص، وورد في اثنائه وارد السرور باطلاع بعض الناس عليه، فان لم يكن باعثاً على العمل ومؤثراً فيه بحيث لو لم يحدث لأتم العمل

(١) كذا في النسخ، ولعل (عند) مكان (عن).

على الاخلاص، من غير فتور، وكان أيضاً لأحد المقاصد الصحيحة المتقدمة، فلا بطلان ولا اثم، لما تقدم من الأخبار. وإن لم يكن باعثاً ولكن لم يكن لشيء من المقاصد المذكورة، بل كان لظنه نيل الجاه أو المال بالظهور، فالحق بطلان العمل وكونه آثماً للعمومات السالفة. وان كان باعثاً ومؤثراً فهو الرياء المحرم، سواء كان غالباً على قصد التقرب أو مساوياً له أو مغلوباً عنه، فيحبط العمل وعليه الاعادة لو كان فريضة، لماتقدم من العمومات، ولقوله ﷺ: «العمل كالوعاء، إذا طاب آخره طاب أوله». وقوله ﷺ: «من راءى بعمله ساعة، حبط عمله الذي كان قبله». ثم هذا في العمل المركب الذي له اجزاء، ويتوقف صحته على صحة كل واحد منها، كالصوم والصلاة والحج. وأما العمل الذي كل جزء منه منفرد، كالصدقة والقراءة، فما يطرأ من الرياء في اثنائه إنما يفسد الباقي دون الماضي فطرؤه فيه في الاثناء بالنسبة الى الماضي كطروئه بعد الفراغ في الاول. وهذا حكم الرياء الطارىء بعد عقد الطاعة على الاخلاص أو قبله، سواء لم يرجع عنه حتى يتمها، أو ندم بعده في الاثناء أيضاً ورجع واستغفر وأما المقارن حال العقد، بأن يبتدى بالصلاة مثلا على قصد الرياء، فان اتمها عليه فلا خلاف في كونه إثماً وعدم الاعتداد بها. وان ندم عليه في الاثناء ورجع واستغفر، فان مجرد القصد إلى الغير الباعث إلى اطلاع الناس لبعض المقاصد المتقدمة وارتياحه به فلا بأس به ولا يحبط العمل، وان كان غير ذلك أفسده، سواء في ذلك جميع شقوقه المتقدمة، كما علم وجهه.

فائدة

(شوائب الرياء مبطلة للعمل)

لما كان المناط في الأعمال، صحة وفساداً، هو القصد والنية، إذ الاعمال بالنيات، ولكل امرىء مانوى، فكل عمل تدخله شوائب الرياء فهو فاسد، سواء وقع سراً أو علانية، وكل عمل كان خالصاً لله وأمن صاحبه من دخول الرياء فيه فلا بأس

باسراره ولا باظهاره. ثم لو تعلق قصد صحيح باظهار نفس العمل أو التحدث به بعد الفراغ عنه، كترغيب الناس في الخير وتنبيههم على الاقتداء به فيه، كان اظهاره أفضل من اسراره بشرط عدم اشتماله على رياء أو فساد آخر، كاهانة الفقير في التصدق، ولو اشتمل على شيء من ذلك، كان اسراره أفضل من اعلانه، وبذلك يجمع بين الاقوال والأخبار.

والحاصل: أنه متى انفك القلب عن شوائب الرياء، بحيث يتم الاخلاص على وجه واحد في الحالتين، فما فيه القدوة وهو العلانية أفضل ومهما حصلت فيه شوائب الرياء لم ينفعه اقتداء غيره، لكونه مهلكا له، فالسر أفضل منه. فعلى من يظهر العمل أن يعلم أو يظن انه يقتدى به، وان يراقب قلبه لئلا يكون فيه حب الرياء الخفي، فربما اظهر العمل لعذر الاقتداء وكان في نفسه قصد التجمل بالعمل وكونه مقتدى به، وهذا حال كل من يظهر العمل، إلا من أيده الله بقوة النفس وخلوص النية، فلا ينبغي لضعيف النفس أن يخدع نفسه فيضل ويضل ويهلك ويهلك من حيث لا يشعر. فان الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يعلم سباحة ضعيفة، فينظر إلى جماعة من الغرقى فيرحمهم، وأقبل عليهم لينجيهم، فتشبثوا به، وهلك وهلكوا. وهذه المواضع مزال أقدام العلماء والعباد، فانهم يتشبهون بالاقوياء في الاظهار ولا تقوى قلوبهم على الاخلاص، فتحبط اجورهم بالرياء. ودرك ذلك غامض جداً لا يبلغه إلا الخائضون في غمرات علم الاخلاق. ويعرف الخلوص في ذلك بألا يتفاوت حاله باقتداء الناس به وبغيره من اقرانه وأمثاله، فان كان قلبه أميل إلى أن يكون هو المقتدى به، فاظهاره العمل غير خال عن شوائب الرياء.

ايقاظ

لما عرفت أن المناط في صحة الأعمال وفسادها هو القصد والنية، تعلم أن كل عمل لم يكن خالصاً لوجه الله وأريد به غيره سبحانه ينبغي أن يترك ويعرض عنه،

و ن كان خالصاً له تعالى مقصوداً على قصد صحيح، لا ينبغي تركه لمجرد بعض الوساوس والخواطر الشيطانية. فان الشيطان يدعو أولاً إلى ترك العمل فان لم يجب يدعو إلى الرياء، فإذا أيس منه يقول: هذا العمل ليس خالصاً، بل هو رياء، فأى فائدة منه؟!

ثم الاعمال إما من الطاعات اللازمة التي لا تعلق لها بالغير، كالصلاة والصوم والحج وأمثالها، أو من الطاعات المتعدية التي لها تعلق بالخلق، كالامامة والقضاء والحكومة والافتاء والوعظ والتذكير والتعليم والتدريس وانفاق المال وغير ذلك.

والقسم الاول : إن دخله الرياء قبل الفعل، بأن يكون باعثه الرياء دون الخلوص والقربة، فينبغي أن يترك ولا يشرع فيه، وان دخله بعد العقد أو معه، فلا ينبغي أن يترك لأنه وجد له باعث دينى، وإنما طرأه باعث الرياء، فليجاهد في دفع الرياء وتحصيل الاخلاص، ويرد نفسه إليه قهراً بالمعاجلات التي نذكرها. ومهما كان في مقام المجاهدة مع نفسه معاتباً لها قاهراً عليها في ميلها إلى الرياء، ووجد من طبعه كراهية هذا الميل، فالنجاة في حقه مرجوة، ولعل الله يسامحه بعظيم رحمته. وأما إذا لم يكن في مقام المجاهدة، ولم يكن كارهاً مما يجد في نفسه من الميل إلى الرياء، بل أعطى زمام الاختيار إلى النفس الامارة، وهى ترائى في الاعمال، وهو يتبعها في ذلك من غير قهر عليها وكراهية لفعلها، فلا ريب في فساد أعماله وأولوية تركها، وان كان باعثها ابتداء محض القربة ودخلها الرياء مع العقد أو بعده.

وأما القسم الثاني : المتعلق بالخلق ـ أعنى امامة الصلاة والقضاء والتدريس والافتاء والوعظ والارشاد وأمثال ذلك ـ فأخطارها عظيمة، ومثوبتها جسيمة. فمن له أهلية ذلك من حيث العلم ـ ان كان ذا نفس قوية لا يعتنى بالناس ولا تزعجها وساوس الخناس وله معرفة تامة بعظمة ربه وقدرته وسائر صفاته الكمالية، بحيث شغله ذلك عن الالتفات إلى الخلق وما في أيديهم حتى يرائى لأجلهم أو يختار رضاهم على رضا ربه ـ فالأولى لمثله ألا يترك هذه المناصب ليفوز بمثوبتها العظيمة. وإن كان ذا

نفس ضعيفة، كخيط مرسل في الهواء تفيئها[١] الريح مرة هكذا ومرة هكذا، فهو لا يأمن الرياء وسائر أخطارها. فاللازم لمثله تركها. ولذلك كان أهل اليقين من السلف يتدافعون هذه المناصب ما وجدوا إليه سبيلا. وورد ما ورد من الأخبار في عظم خطرها وكثرة آفاتها ولزوم التثبت والاحتياط لمن يزاولها وما ورد من الوعيد الشديد في حق علماء السوء يكفى للزوم الحذر عن فتن العلم وغوائله. ومما يقصم ظهور أمثالنا من الذين يقولون ما لا يعلمون ويأمرون بما لا يفعلون، قول عيسى بن مريم عليه السلام: «يا علماء السوء! تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون! أو تدرسون ما لا تعلمون فيا سوء ما تحكمون! تتوبون بالقول والامانى، وتعملون بالهوى، وما يغنى عنكم أن تتقوا جلودكم وقلوبكم دنسة! بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة! كذلك انتم! تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم! يا عبيد الدنيا! كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته! بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكى من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم: أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم، فصلاح الدنيا أحب اليكم من صلاح الآخرة! فاى ناس أخس منكم لو تعلمون! ويلكم! حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محلة المتحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم! مهلا مهلا! ويلكم! ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم! كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة. يا عبيد الدنيا! توشك الدنيا أن تقلعكم عن اصولكم فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبّكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم! يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى! فيوقفكم على سوآتكم، ثم يخزيكم بسوء

---

(١) وفي نسختنا الخطية (تعليها).

أعمالكم!!»[١]. هذا ويعرف الصادق المخلص من أهل هذه المناصب بأنه إذا ظهر من هو أعدل وأحسن وعظاً وأكثر علماً منه وأشد قبولا للناس فرح به ولم يحسده، وإذا حضر الأكابر والأعاظم مجلسه أو اقتدوا به لم يتغير كلامه ولم يتفاوت حاله، بل يبقى على ماكان عليه، وينظر إلى عباد الله بعين واحدة.

(تنبيه): لما عرفت حقيقة الرياء، تعلم أنه إذا صار عمل بعض الصالحين أو قولهم محركا لغيرهم على الاشتغال بالطاعة لم تكن هذه الطاعة رياء إذا عقدت على الخلوص، وان لم يكن هذا الغير ليفعل هذه الطاعة إذا لم يشاهدها من بعض الصالحين أو لم يسمعها منه. فمن لم تكن عادته التهجد وبات مع قوم متهجدين في موضع، فإذا قاموا للتهجد انبعث نشاطه للموافقة ووافقهم في التهجد، ولم يكن ذلك ريا ء بعد أن يكون قصده منه الثواب والتقرب إلى الله، إذ كل مؤمن راغب في عبادة الله وفي قيام الليل، ولكن قد تعوقه العوائق وتمنعه الغفلة، فإذا شاهد قوما يتهجدون ربما صارت مشاهدة طاعتهم سبباً لزوال غفلته، كما يصير قولهم ووعظهم سبباً لذلك، فيتحرك باعث الدين دون الرياء ويدعوه إلى موافقتهم. وربما كان الموضع مما ليس فيه عائق، فيغتنم الفرصة ويبعثه ما فيه من الايمان إلى الطاعة. وقس على التهجد غيره: من الصوم، والتصدق، والقراءة، والذكر، وغيرها من أعمال البر.

فصل

(علاج الرياء)

لماكانت الاسباب الباعثة على الرياء هي حب لذة المدح والفرار من ألم الذم والطمع بما في أيدى الناس، فالطريق في علاجه أن يقطع هذه الاسباب وقد تقدم طريق العلاج في قطع الاولين، ويأتى طريق ازالة الثالث. وما نذكره هنا من العلاج

---

(١) روى هذا الحديث في (احياء العلوم): ٣ / ٢٨١، فصححناه عليه. وهو يرويه عن (الحارث المحاسبى).

العلمي للرياء، هو أن يعلم أن الشيء إنما يرغب فيه لكونه نافعاً، وإذا علم أنه ضار ليعرض عنه البتة. وحينئذ، فينبغي لكل مؤمن أن يتذكر مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من المقت والعذاب ومتى تذكر ذلك وقابل ما يحصل له في الدنيا من الناس الذين راءى لأجلهم بما يفوته في الآخرة من ثواب الاعمال، لترك الرياء لا محالة. مع أن العمل الواحد ربما تترجح به كفة حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات، فترجح به ويهوى إلى النار. هذا مع أن المرائي في الدنيا متشتت الهم متفرق البال بسبب ملاحظة قلوب الناس، فان رضاهم غاية لا تدرك، وكلما يرضى به فريق يسخط به فريق، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضاً. ثم اى غرض له في مدحهم وايثار ذم الله لأجل مدحهم ولا يزيده مدحهم رزقاً ولا اجلالاً ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة؟! ومن كان رياؤه لاجل الطمع بما في ايدى الناس، ينبغي أن يعلم ان الله هو المسخر للقلوب بالمنع والاعطاء، وان الخلق مضطرون فيه، ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل عن الذل والخسة. وان وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، وإذا قرر ذلك في نفسه ولم يكن منكراً لأمسه، زالت غفلته وفترت عن الرياء رغبته وأقبل على الله بقلبه، وانقطع بشراشره إلى جناب ربه. ويكفيه أن يعلم أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء واظهار الاخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه اليهم، ولو أخلص لله لكشف الله لهم اخلاصه وحببه اليهم وسخرهم له، وأطلق ألسنتهم بمدحه وثنائه، مع أنه لا يحصل له كمال بمدحهم ولا نقصان بذمهم.

ثم من تنور قلبه بنور الايمان وانشرح صدره باليقين والعرفان، وعرف معنى الواجب وحقيقة الممكن، وتيقن بأن الواجب ـ أي الحقيقة التي تقتضي بنفس ذاته التحقق والبقاء، وهو صرف الوجود ـ يجب أن يكون تاماً فوق التمام، ولا يتصور حقيقة أتم كمالاً منه، والحقيقة التي هذا شأنها يجب أن يكون ما سواها باسره

مستنداً اليها وصادراً عنها على أشرف انحاء الصدور وأقواها. وهذا النحو الأشرف الأقوى الذي لا يتصور نحوه أقوى منه في الاختراع وأدل منه على كمال عظمة الموجد وقدرته، وهو كون ما سواه سبحانه من الموجودات، إما اعتبارات وشؤنات لدرجات ذاته واشراقات لتجليات صفاته، كما ذهب إليه قوم، أو كونها ماهيات امكانية اختراعية علماً وعيناً، صادرة عنه سبحانه بوجودات خاصة متعددة ارتباطية بمحض ارادته ومشيته، كما ذهب إليه آخرون[1]. ولو لم يكن غيره من الموجودات مستنداً إليه على أقوى أنحاء الاستناد، لم يكن تاما فوق التمام، اذ تكون الذات التي يستند الكل اليها باحد النحوين اكمل منه وأشرف. وإذا عرف انه سبحانه كذلك، يعرف أنه ليس في الوجود حقيقة أحد سواه وغيره حقيقته العدم وما له من الوجود والظهور منه سبحانه، وبعد هذه المعرفة لا يختار غيره تعالى عليه، ويعلم أن العباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، ولا يملكون موتاً ولا حياة، فلا يتغير قلبه بمشاهدة الخلق، ولا يلتفت اليهم إلا بخطرات ضعيفة لا يشق عليه ازالتها، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله.

وأما العلاج العملي، فهو أن يعود نفسه على اخفاء العبادات واغلاق الابواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عبادته، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به. وذلك وإن شق في بداية

(١) القول الاول مبنى على اصالة الوجود، والثانى على اصالة الماهية. وهذا البحث الذي ذكره المؤلف من دقائق الفلسفة الالهية واعلاها، ولقد أحسن فيه البيان جداً. فانه مبنى على فهم معنى واجب الوجود لذاته، وهو الذي يكون ذاته بذاته، مع قطع النظر عن كل ماعداه، ومن حيث هو هو منشأ لانتزاع انه موجود، فلذلك يجب ان يكون صرف الوجود انه لاشيء له الوجود وإلا لكان ممكناً، ويجب ان يكون متصفاً بجميع الكمالات بل اكمل الكمالات ومن جملتها ان تكون الموجودات مستندة إليه على اقوى انحاء الاستناد. وإذا لم يتصف بجميع الكمالات لا يتصف باعدامها، فيدخل في حقيقتة العدم، فلم يكن صرف الوجود، فلم يكن واجب الوجود لذاته، وهذا خلاف الفرض، أو بهذه الطريقة يستدل على اتصافه بجميع صفات الجمال والجلال

المجاهدة، لكن إذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه بتواصل الطاف الله وما يمده به عبادة من حسن التوفيق والتأييد:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

تتميم

القالع مغارس الرياء من قلبه بقطع الطمع واستحقار مدح الناس وذمهم ربما لا يتركه الشيطان، (لا) سيما في اثناء العبادة، فعارضه بخطرات الرياء ونزعاته، حتى احدث في قلبه ميلاً خفياً إلى الرياء وحباً له. والحق أن ذلك ليس من الرياء المحرم، ولا تفسد به العبادة، مع كونه كارها لهذا الميل والحب وقاهراً على نفسه ماقتاً لها في تاثرها وتغيرها عن نزعات الشيطان ومنازعا للشيطان ومجاهداً اياه لدفع خطراته، لأن الله لم يكلف عباده الا ما يطيقون، وليس في وسعهم منع الشيطان عن نزعاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى شهواته، وغاية ما يقدرون عليه أن يقابلوا نزعاته وميل الطبع بالكراهة والقهر على النفس في هذا الميل، مع المجاهدة في دفع ذلك بتذكر المعالجات المقررة لدفع الرياء والوساوس، وإذا فعلوا ذلك أدوا ما يجب عليهم. ويدل على ذلك أيضا ما تقدم من الأخبار الدالة على عدم المؤاخذة بمجرد الوسوسة، وقول النبي ﷺ: «الحمد الله الذي رد كيد الشيطانالوسوسة».فوسوسة الشيطان وميل النفس لا يضران مع ردهما بالكراهة والاباء، اذ الوساوس والخواطر والتذكرات والتخيلات المهيجة للرياء من الشيطان، والميل والرغبة بعد تلك

(١) الرعد، الآية: ١١.

(٢) التوبة، الآية: ١٢٠.

الخواطر من النفس، والإباء والكراهة من الايمان ومن آثار العقل فلا يضر ما من النفس والشيطان إذا قوبل بما من العقل والايمان. ولذا قال بعض الاكابر: «ما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك، فلا يضرك ما هو من عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه».

ثم الطرق المتصورة في دفع خطرات الرياء في اثناء العبادة مع كراهتها أربع:

الأولى ـ أن يشتغل بمجادلة الشيطان في رد نزعاته، ويطيل معه الجدال.

الثانية ـ أن يقتصر على تكذيب الشيطان ودفعه من غير اشتغال بمجادلته.

الثالثة ـ ألا يشتغل بتكذيبه أيضا، بل يكتفى بما قرر في عقد ضميره من كراهة الرياء وكذب الشيطان، فيستمر على ما كان عليه مستصحباً له غير مشتغل بالمخاصمة والتكذيب.

الرابعة ـ أن يزيد فيما هو فيه من الاخلاص والاشتغال بالله، أو ما يؤدى اليهما، كاخفاء العبادة والصدقة غيظاً للشيطان، لأن ذلك يغيظ الشيطان ويوجب يأسه، ومهما عرف من العبد هذه العادة، كف عنه خوفا من أن يزيد في حسناته.

ولا ريب في أن الاشتغال بالمجادلة والتكذيب واطالتهما يمنع الحضور ويصد عن التوجه إلى الله، وهو نقصان لأهل السلوك. فالصواب لكل مؤمن ان يقرر دائما في عقد ضميره كراهية الرياء وتكذيب الشيطان، ويعزم أبداً على أنه إذا تهجم عليه الشيطان وعارضه بنزعات الرياء زاد ما هو فيه مما يغيظ الشيطان ويوجب يأسه، فإذا حدثت خطرات الشيطان في الاثناء، اكتفى بما عقد عليه أولا مستصحباً له، وزاد في الاخلاص وما يؤدى إليه فان ذلك يوجب قنوط الشيطان. وإذا عرف العبد بهذه الصفة لا يتعرض له لئلا يزيد فيما يغيظه. وينبغى لكل مؤمن أن يكون هذا ديدنه في جميع الصفات والملكات، مثلا إذا حصل اليقين والعقيدة الجازمة بالمبدأ وصفاته الكمالية، وقرر ذلك في نفسه، وأثبت في قلبه كراهية الشك وخطور الوساوس، فإذا حدث بعض الوساوس في اثناء عبادة أو غيرها، ينبغى ألا يشتغل بطول المجاهدة

مع الشيطان، ويكفى بما تقرر في قلبه من اليقين وكراهية الشك والوسوسة، معتقداً بأن هذه الوساوس لا أصل لها ولا عبرة بها. وكذا إذا قرر في نفسه النصيحة للمسلمين وكراهية الحسد، فإذا أوقع الشيطان نزعات الحسد في قلبه، ينبغى ألا يلتفت اليها، ويستصحب ما كان عليه من النصيحة والكراهة، وقس عليها سائر الصفات والأخلاق.

ثم مثل من يشتغل بطول المجاهدة مع الشيطان مثل من قصد مجلساً من مجالس العلم والوعظ لينال فائدة وهداية فعارضه ضال فاسق ودعاه إلى مجلس فسق فابى وانكر عليه، فإذا عرف الضال إياه، اشتغل بالمجادلة معه، وهو أيضاً يساعده على ذلك ليرد ضلاله، ظاناً أن ذلك مصلحته، مع أنه غرض الضال إذ قصده من المجادلة أن يؤخره عن نيل مقصوده. ومثل من يشتغل بالتكذيب مثل من لا يشتغل بالقتال مع الضال بعد دعوته إلى مجلس الضلال، بل وقف بقدر أن يدفع في منحره، وذهب مستعجلا، ففرح الضال بقدر توقفه للدفع. ومثل من يكتفى بعقد الضمير مثل من لم يلتفت إلى الضال بعد دعوته أصلا، واستمر على ما كان عليه من المشى. ومثل من يزيد فيما كان له من الاخلاص أو ما يؤدى إليه مثل من يزيد في عجلته بعد دعوته ليغيظه. ولا ريب في أن الضال يمكن أن يعاود الجميع في الدعوة الى الضلالة إذا مروا عليه مرة اخرى إلا الأخير، مخافة أن يزداد فائدة باستعجاله.

فصل

(الاخلاص وحقيقته)

ضد الرياء الاخلاص، وهو تجريد القصد عن الشوائب كلها. فمن عمل طاعة رياء فهو مراء مطلق، ومن عملها وانضم إلى قصد القربة قصد غرض دنيوى انضماماً غير مستقل فعمله مشوب غير خالص، كقصد الانتفاع بالحمية من الصوم، وقصد التخلص من مؤنة العبد أو سوء خلقه من عتقه، وقصد صحة المزاج أو التخلص من

بعض الشرور والاحزان من الحج، وقصد العزة بين الناس أو سهولة طلب المال من تعلم العلم، وقصد النظافة والتبرد وطيب الرائحة من الوضوء والغسل، والتخلص عن ابرام السائل من التصدق عليه، وهكذا. فمتى كان باعث الطاعة هو التقرب ولكن انضافت إليه خطرة من هذه الخطرات، خرج عمله من الاخلاص. فالاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها، كثيرها وقليلها. والمخلص من يكون عمله لمحض التقرب إلى الله سبحانه، من دون قصد شيء آخر أصلا.

ثم أعلى مراتب الاخلاص ـ وهو الاخلاص المطلق واخلاص الصديقين ـ ارادة محض وجه الله سبحانه من العمل، دون توقع غرض في الدارين. ولا يتحقق إلا لمحب لله تعالى مستهتراً به، مستغرق الهم بعظمته وجلاله، بحيث لم يكن ملتفتاً إلى الدنيا مطلقاً. وأدناها ـ وهو الاخلاص الاضافي قصد الثواب والاستخلاص من العذاب، وقد أشار سيد الرسل ﷺ إلى حقيقة الاخلاص بقوله: «هو أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت[1]، تعمل لله، لا تحب أن تحمد عليه! اى لا تعبد هواك ونفسك، ولا تعبد إلا ربك، وتستقيم في عبادتك كما امرت». وهذا اشارة إلى قطع ما سوى الله سبحانه عن مجرى النظر، وهو الاخلاص حقاً. ويتوقف تحصيله على كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد في الآخرة، بحيث ما يغلب ذلك على القلب والتفكر في صفات الله تعالى وافعاله والاشتغال بمناجاته حتى يغلب على قلبه نور جلاله وعظمته، ويستولى عليه حبه وأنسه، وكم من اعمال يتعب الانسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله تعالى، ويكون فيها مغروراً لعدم عثوره على وجه الآفة فيها، كما حكى عن بعضهم أنه قال: «قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد جماعة في الصف الاول، لأنى تأخرت يوماً لعذر وصليت في الصف الثانى، فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى في الصف الثانى، فعرفت أن نظر

(١) اشارة إلى قوله تعالى، مخاطباً لنبيه ﷺ: «فاستقم كما أمرت».

الناس إلى في الصف الأول كان يسرني، وكان سبب استراحة قلبي من ذلك من حيث لا أشعر». وهذا دقيق غامض، وقلما تسلم الأعمال من أمثاله، وقل من يتنبه له، والغافلون عنه يرون حسناتهم في الآخرة كلها سيئات، وهم المرادون بقوله تعالى:

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾[١]. و **﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾**[٢]. وبقوله: **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا؟ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾**[٣].

فصل

(مدح الاخلاص)

الاخلاص منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين. وهو الكبريت الأحمر، وتوفيق الوصول إليه من الله الاكبر، ولذا ورد في فضيلته ما ورد من الآيات والأخبار، قال الله تعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤]. وقال: **﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾**[٥]. وقال: **﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَٱعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾**[٦]. وقال: **﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾**[٧].

نزل فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه.

---

(١) الجاثية، الآية: ٣٣.

(٢) الزمر، الآية: ٤٧.

(٣) الكهف، الآية: ١٠٣، ١٠٤.

(٤) البينة، الآية: ٥.

(٥) الزمر، الآية : ٣.

(٦) النساء، الآية: ١٤٦.

(٧) الكهف، الآية: ١١٠.

وفي الخبر القدسى: «الاخلاص سر من اسرارى، استودعته قلب من أحببت من عبادى». وقال رسول الله ﷺ: «اخلص العمل يجزك منه القليل». وقال ﷺ: «ما من عبد يخلص العمل لله تعالى أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». وقال ﷺ: «ثلاث لا يغل عليهن»: وعد منها قلب رجل مسلم أخلص العمل لله عز وجل. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تهتموا لقلة العمل، واهتموا للقبول». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع اذناه، ولم يحزن صدره بما اعطى غيره!». وقال الباقر عليه السلام: «ما أخلص عبد الايمان بالله أربعين يوماً ـ أو قال: ما أجمل عبد ذكر الله أربعين يوماً ـ إلا زهّده الله تعالى في الدنيا وبصره داءها ودواءها، وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه». وقال الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾:

«ليس يعنى اكثركم عملا، ولكن أصوبكم عملا. وانما الاصابة خشية الله والنية الصادقة»... ثم قال: «الايفاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عز وجل، والنية أفضل من العمل، ألا وان النية هي العمل»... ثم تلا قوله عز وجل «قل كل يعمل على شاكلته»: يعنى على نيته.

وقال الصادق عليه السلام: «الاخلاص[1] يجمع فواضل الاعمال، وهو معنى مفتاحه القبول وتوفيقه الرضا، فمن تقبل الله منه ورضى عنه فهو المخلص وان قل عمله، ومن لا يتقبل الله منه فليس بمخلص وان كثر عمله، اعتباراً بآدم عليه السلام وابليس. وعلامة القبول وجود الاستقامة ببذل كل المحاب مع اصابة علم كل حركة وسكون،

---

(١) صححنا الاخبار المروية عن أهل البيت عليهم السلام على (الكافى): باب الاخلاص. وعلى (الوافى): ٣٢٨/٣، ٣٢٩ باب الاخلاص.

والمخلص ذائب روحه باذل مهجته في تقويم ما به العلم والأعمال والعامل والمعمول بالعمل، لأنه إذا ادرك ذلك فقد أدرك ذلك الكل، وإذا فاته ذلك فاته الكل، وهو تصفية معانى التنزيه في التوحيد كما قال الاول: هلك العاملون إلا العابدون، وهلك العابدون إلا العالمون وهلك العالمون إلا الصادقون، وهلك الصادقون إلا المخلصون، وهلك المخلصون إلا المتقون، وهلك المتقون إلا الموقنون، وأن الموقنين لعلى خطر عظيم! قال الله لنبيه ﷺ: واعبد ربك حتى يأتيك اليقين. وأدنى حد الاخلاص بذل العبد طاقته، ثم لا يجعل لعمله عند الله قدراً فيوجب به على ربه مكافاة بعمله، لعلمه أنه لو طالبه بوفاء حق العبودية لعجز، وادنى مقام المخلص في الدنيا السلامة في جميع الآثام، وفي الآخرة النجاة من النار والفوز بالجنة»(١).

ومن تأمل في هذه الاخبار وفي غيرها مما لم يذكر، يعلم أن الاخلاص رأس الفضائل ورئيسها، وهو المناط في قبول الأعمال وصحتها، ولا عبرة بعمل لا اخلاص معه، ولا خلاص من الشيطان إلا بالاخلاص، لقوله:

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(٢).

وما ورد في الاسرائيليات من حكاية العابد والشيطان والشجرة مشهور وفي الكتب مسطور(٣).

---

(١) صححنا الرواية على (مصباح الشريعة): الباب ٧٧. وعلى (البحار): مج ١٥: ٢ / ٨٦ باب الاخلاص عن (مصباح الشريعة).

(٢) الحجر، الآية: ٤٠.

(٣) راجع (احياء العلوم): ٤ / ٣٢٢.

فصل
(آفات الاخلاص)

الآفات التي تكدر الاخلاص وتشوشه لها درجات في الظهور والخفاء اجلاها الرياء الظاهر، وهو ظاهر. ثم تحسين العبادة والسعي في الخشوع فيها في الملأ دون الخلوة ليتأسى به الناس، ولو كان عمله هذا خالصاً لله لم يتركه في الخلوة، إذ من يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرتضي لغيره تركه، فكيف يرتضي ذلك لنفسه في الخلوة؟ ثم تحسينها في الخلوة أيضاً بقصد التسوية بين الخلوة والملأ، وهذا من الرياء الغامض، لأنه حسن عبادته في الخلوة ليحسنها في الملأ، فلا يكون فرق بينهما في التفاته فيهما إلى الخلق، اذ الاخلاص الواقعي ان تكون مشاهدة الخلق لعبادته كمشاهدة البهائم لها، من دون تفاوت اصلا، فكأن نفسه لا تسمح باساءة العبادة بين اظهر الناس، ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول باستواء عبادته في الخلوة والملأ، وليس كما ظنه، اذ زوال ذلك موقوف على عدم التفاته إلى الخلق في الملأ والخلوة كما لا يلتفت إلى الجمادات فيهما مع أنه مشغول الهم بالخلق فيهما جميعاً. واخفاها أن يقول له الشيطان ـ وهو في العبادة في الملأ بعد يأسه عن المكائد السابقة ـ: «أنت واقف بين يدى الله سبحانه، فتفكر في جلاله وعظمته، واستحيي من أن ينظر إلى قلبك وهو غافل عنه! فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه». وهذا أخفى مكائد الشيطان وخداعه، ولو كانت هذه الخطرة ناشئة عن الاخلاص لما انفكت عنه في الخلوة ولم يخص خطورها بحالة حضور غيره، وعلامة الامن من هذه الآفة: أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير سبباً لحضوره، كما لا يكون حضور بهيمة سبباً له، فما دام العبد يفرق في أحواله وأعماله بين مشاهدة انسان ومشاهدة بهيمة، فهو بعد خارج عن صفو الاخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة

الصماء، كما ورد به الخبر ولا يسلم منه إلا من عصمه الله بخفى لطفه، اذ الشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله، لا يغفل عنهم لحظة ليحملهم على الرياء في كل واحد من أفعالهم وأعمالهم.

تتميم

الحق ـ كما أشير إليه ـ أن الشوب الممزوج بالاخلاص إن كان من المقاصد الصحيحة الراجحة شرعا، لم يبطل العمل والاخلاص ولم ينقص الأجر والثواب. اذ نية الخيرات المتعددة توجب تضاعف الثواب بحسبها وان كان من الاغراض الدنيوية الراجعة إلى حب جاه أو طمع مال فهو مبطل للعمل والثواب، سواء كان الباعث الدينى أضعف من الباعث النفسى أو مساوياً له أو أقوى منه، لظواهر الاخبار المتقدمة. ومع ابطاله العمل، يترتب عليه عقاب على حدة أيضاً، إذ الرياء في العبادة في نفسه منهى عنه محرم، سواء كان هو الباعث وحده أو انضم إلى نية التقرب انضماما مستقلا أو غير مستقل، فمن ارتكبه كان آثماً لأجل الرياء في نفسه وتاركا للعبادة من حيث دخول الرياء فيها، فان كانت واجبة ترتب اثم آخر على تركها إلا أن يسقطه بقضائها، وان كانت مستحبة لم يلزم قضاؤها ولم يترتب اثم على تركها، بل كان اثمها منحصراً بما يترتب على الرياء في نفسه. ثم المترتب على الرياء المحض اشد واغلظ من المترتب على الرياء الممزوج بالقربة، ويتزايد اثم الممزوج بحسب ازدياد قوة باعث الرياء بالنظر إلى باعث الاخلاص، وينقص بحسب نقصان ذلك.

وعلى ما ذكرناه، فما انعقد عليه اجماع الائمة من أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه واثيب عليه، مع أن سفره ليس خالصاً للحج، فالوجه فيه أن التجارة تعرض للرزق، وهو أيضاً عبادة. وقد تقدم أن نية الخيرات المتعددة موجبة لتضاعف الثواب بحسبها، فلا حاجة إلى ما قيل: «إن التاجر إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص، وإنما المشترك طول المسافة،

ولا ثواب فيه مهما قصد تجارة»، ولا إلى ما قيل: «مهما كان الحج هو المحرك الأصلي، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع، فلا ينفك نفس السفر عن الثواب». نعم، إذا كان التجارة للجمع والادخار من غير حاجة، فلا يبعد أن يقال ذلك، وكذا إذا انضم إلى قصد الحج قصد التفرج ودفع التوحش عن الاهل انضماما غير مستقل، ومثله إذا انضم إلى نية الوضوء التبرد، والى نية الصوم قصد الحمية، والى نية العتق الخلاص من المؤنة وسوء الخلق، إلى غير ذلك، إذا لم تكن المنضمات مستقلة.

ومن العلماء من قال: «إن الباعثين إن تساويا تساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه، وان كان باعث الرياء أقوى لم يكن العمل نافعاً، بل كان مضراً وموجباً للعقاب، وإن كان عقابه أخف من عقاب الذي تجرد للرياء وان كان باعث التقرب اقوى فله ثواب بقدر ما فضل من قوته، لقوله تعالى:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[٢].

فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان قصد التقرب غالباً على الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد. والسر: أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها، فداعية الرياء من المهلكات، وقوة هذا المهلك بالعمل على وفقه، وداعية الخير من المنجيات، وقوته بالعمل على وفقه، فإذا اجتمعت الصفات في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء قويت تلك الصفة، وان عمل على وفق داعية الخير قويت أيضاً تلك الصفة، واحدهما مهلك والآخر منج. فان كانت تقويته لهذا بقدر تقويته للآخر فقد تقاوما، وان كان احدهما غالباً زاد تأثيره بقدر الفاضل من قوته، كما

---

(١) الزلزلة، الآية: ٧، ٨.

(٢) النساء، الآية: ٤٠.

في تأثير الأدوية والأغذية المتضادة» انتهى[١]

وفيه: أن اطلاق الظواهر يفيدكون شوب الرياء محبطاً للعمل والثواب وقد تقدم بعضها. ومنها ما روى: «أن رجلا سأل النبى ﷺ: عمن يصطنع المعروف ـ أو قال يتصدق ـ فيحب أن يحمد ويؤجر، فلم يدر ما يقول له، حتى نزل قوله تعالى:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٢].

ولا ريب في أنه قصد الحمد والأجر جميعاً، ومع ذلك نزلت في حقه هذه الآية.

ومنها ما روىَ: «أن اعرابياً اتاه ﷺ وقال: يار سول الله، الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله! فقال ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وحملها على صورة تساوى القصدين أو غلبة قصد الرياء خلاف الظاهر. وما ذكره من أن لكل قصد وفعل تأثيراً خاصاً على حدة، ففيه أن ذلك إذا لم يبطله ضده. ونحن نقول: إن مقتضى الاخبار كصريح العقل يدل على أن قصد الرياء يبطل قصد القربة إذا تواردا على فعل واحد، فلا يبقى لقصد التقرب تأثير حتى يتصف بالزيادة على تأثير قصد الرياء.

ومنها:

(١) أبو حامد الغزالى: (احياء العلوم): ٤ / ٣٢٨. ونقله المؤلف باختصار وتصرف قليلين.

(٢) هذه مروية في (البحار): مج ١٥: ٣ / ٥٩، باب ذم السمعة والاغترار بمدح الناس، عن عدة الداعى بمضمون يقارب ما هنا. ونصه عن سعيد بن جبير، قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: انى اتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله فيذكر عنى وأحمد عليه، فأسر في ذلك وأعجب به فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً، فنزل قوله تعالى: إنما أنا بشر... الآية».

النفاق

وهو مخالفة السر والعلن، سواء كان في الايمان أو في الطاعات أو في المعاشرات مع الناس، وسواء قصد به طلب الجاه والمال أم لا. وعلى هذا فهو أعم من الرياء مطلقاً، وان خص بمخالفة القلب واللسان أو بمخالفة الظاهر والباطن في معاملة الناس ومصاحبتهم، فبينهما عموم وخصوص من وجه. وعلى التقادير، إن كان باعثه الجبن فهو من رذائل قوة الغضب من جانب التفريط، وان كان باعثه طلب الجاه فهو من رذائلها من جانب الافراط وإن كان منشأ تحصيل مال أو منكح فهو من رداءة قوة الشهوة. ولا ريب في أنه من المهلكات العظيمة، وقد تعاضدت الآيات والأخبار على ذمه. وأشد أنواع النفاق ـ بعد كفر النفاق ـ كون الرجل ذا وجهين ولسانين، بأن يمدح أخاه المسلم في حضوره ويظهر له المحبة والنصيحة، ويذمه في غيبته ويؤذيه بالسب والسعاية إلى الظالمين وهتك عرضه واتلاف ماله وغير ذلك، بأن يتردد بين متعاديين ويتكلم لكل واحد بكلام يوافقه، ويحسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه ويمدحه[1] على ذلك، أو يعد كل واحد منهما أنه ينصره، أو ينقل كلام كل واحد إلى الآخر. وهذا شر من النميمة التي هي النقل من أحد الجانبين. وبالجملة: هو بجميع أقسامه مذموم محرم، قال رسول الله ﷺ: «من كان له وجهان في الدنيا، كان له لسانان من نار يوم القيامة». وقال ﷺ: «تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين: الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه». وقال ﷺ: «يجيء يوم القيامة ذوالوجهين دالعاً لسانه في قفاه وآخر من قدامه يلتهبان ناراً حتى يلتهبان خده، ثم يقال: هذا الذي كان في الدنيا ذا وجهين وذا لسانين، يعرف بذلك يوم القيامة». وورد في التوراة: «بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين، يهلك الله يوم القيامة كل شفتين مختلفتين». وعن علي بن

(١) وفي النسخ (اثناه) بدل (يمدحه)، ولم نر لها وجهاً.

اسباط، عن عبدالرحمن بن حماد، رفعه قال: قال الله تبارك وتعالى لعيسى: «يا عيسى، ليكن لسانك في السر والعلانية لساناً واحد، وكذلك قلبك، إني احذرك نفسك، وكفى بي خبيراً! لا يصلح لسانان في فم واحد، ولا سيفان في غمد واحد، ولا قلبان في صدر واحد، وكذلك الاذهان!». وقال الباقر عليه السلام: «لبئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطرى أخاه شاهداً ويأكله غائباً، إن أعطى حسده وان ابتلى خذله».

ثم لا يخفى أن الدخول على المتعاديين والمجاملة مع كل منهما قولا وفعلا لا يوجب كونه منافقاً ولا ذا لسانين إذا كان صادقاً، إذ الواحد قد يصادق متعاديين، ولكن صداقة ضعيفة، إذ الصداقة التامة تقتضي معاداة الاعداء وكذا من ابتلى بذى شر يخاف شره، يجوز أن يجامله ويتقيه ويظهر له في حضوره من المدح والمحبة ما لم يعتقد به قلبه، وهو معنى المداراة، وهو وان كان نفاقا إلا أنه جائز شرعا للعذر، قال الله سبحانه:

﴿إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾[1].

وروى: «أنه استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ائذنوا له فبئس رجل العشيرة. فلما دخل، ألان له القول، حتى ظن أن له عنده منزلة. فلما خرج، قيل له: لما دخل قلت الذي قلت، ثم ألنت له القول؟! فقال: إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من اكرمه الناس اتقاء لشره». ويدل على جواز ذلك جميع أخبار التقية وأخبار المداراة. وفي خبر: «ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة». وقال بعض الصحابة: «كنا نبشر في وجوه أقوام نلعنهم بقلوبنا». ثم جواز ذلك انما إذا اضطر إلى الدخول على ذى الشر ومدحه مظنة الضرر، أما لو كان مستغنياً عن الدخول والثناء أو عن احدهما، ومع ذلك ابدى بلسانه ما ليس في قلبه من المدح، فهو نفاق محرم.

---

(١) المؤمنون، الآية: ٩٦.

ثم ضد النفاق استواء السر والعلانية، أو كون الباطن خيراً من الظاهر، وهو من شرائف الصفات، وكان الاتصاف به والاجتناب من النفاق أهم مقاصد المؤمنين من الصدر الاول. ومن تأمل في ما ورد في ذم النفاق وفي مدح موافقة الباطن مع الظاهر، وتقدم الروية في كل قول وفعل لم يصعب عليه أن يحافظ نفسه من رذيلة النفاق.

ومنها(١):

الغرور

معنى الغرور ـ ذمه ـ طوائف المغرورين: المغرورون من الكفار والعصاة والفساق من المؤمنين ـ المغترون من أهل العلم وفرقهم ـ المغترون من الوعاظ كثيرون ـ المغرورون من أهل العبادة فرق كثيرة ـ المغترون من المتصوفة أكثر ـ المغترون من الأغنياء أكثر من سائر الطوائف ـ ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد.

وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة، فهو مغرور. ولما كان أكثر الناس ظانين بانفسهم خيراً، ومعتقدين بصحة ما هم عليه من الأعمال والأفعال وخيريته، مع أنهم مخطئون فيه، فهم مغرورون، مثلا من يأخذ المال الحرام وينفقها في مصارف الخير، كبناء المساجد والمدارس والقناطر والرباطات وغيرها، يظن أن هذا خير له وسعادة مع أنه محض الغرور، حيث خدعه الشيطان وأراه ما هو شر له خيراً، وكذا الواعظ الذي غرضه الجاه والقبول من موعظته، يظن أنه في طاعة الله، مع أنه في المعصية بغرور الشيطان وخدعته.

ثم لا ريب في أن سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل الطبع إليه عن

---

(١) أى من الرذائل المتعلقة باثنتين من القوى الثلاث أو بجميعها: وهي القوة العاقلة والغضبية والشهوية وهذه الرذيلة هي الرذيلة (الواحدة والعشرون) منها.

شبهة ومخيلة، مركب من أمرين: **(أحدهما)** اعتقاد النفس بأن هذا خير له مع كونه خلاف الواقع، **(و ثانيهما)** حبها وطلبها باطناً لمقتضيات الشهوة أو الغضب. فإن الواعظ إذا قصد بوعظه طلب الجاه والمنزلة معتقداً أنه يجلب به الثواب، تكون له رغبة إلى الجاه واعتقاد بكونه خيراً له، إذ الغنى إذا أمسك ماله ولم ينفقه في مصارفه اللازمة، وواظب على العبادة معتقداً أن مواظبته على العبادة تكفي لنجاته وإن كان بخيلا، يكون له حب للمال واعتقاد بأنه على الخير. ثم الاعتقاد المذكور راجع إلى نوع معين من الجهل المركب، وهو الجهل الذي يكون المجهول المعتقد فيه شيئاً يوافق الهوى، فيكون من رذائل القوة العاقلة،والحب والطلب للجاه والمال من رذائل قوتى الغضب والشهوة. فالغرور يكون من رذائل القوى الثلاث، أو من رذائل العاقلة مع احداهما.

فصل

(ذم الغرور)

الغرور والغفلة منبع كل هلكة وأم كل شقاوة، ولذا ورد فيه الذم الشديد في الآيات والأخبار، قال الله سبحانه:

﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ ٱلْغَرُورُ﴾[1]. وقال عز وجل: **﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ ٱلْغَرُورُ﴾**[2].

وقال رسول الله ﷺ: «حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من

---

(١) لقمان، الآية: ٣٣. فاطر، الآية: ٥.

(٢) الحديد، الآية: ١٤.

المغترين». وقال الصادق عليه السلام: «المغرور في الدنيا مسكين، وفي الآخرة مغبون، لأنه باع الأفضل بالأدنى، ولا تعجب من نفسك، فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك أن لعلك تبقى. وربما اغتررت بطول عمرك وأولادك وأصحابك لعلك تنجو بهم. وربما اغتررت بجمالك ومنيتك واصابتك مأمولك وهواك، فظننت أنك صادق ومصيب. وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة، ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك. وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفاً والله يريد الإخلاص. وربما افتخرت بعلمك ونسبك، وأنت غافل عن مضمرات ما في غيب الله تعالى. وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه. وربما حسبت أنك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك أن يميلوا اليك. وربما ذممت نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة»(١).

فصل

(طوائف المغرورين)

إعلم أن فرق المغترين كثيرة، وجهات غرورهم ودرجاته مختلفة، وما من طائفة في العالم مشتركين في وصف مجتمعين على أمر، إلا ويوجد فيهم فرق من المغترين. إلا أن بعض الطوائف كلهم مغترون، كالكفار والعصاة والفساق، وبعضهم يوجد فيهم المغرور وغير المغرور، وإن كان معظم كل طائفة أرباب الغرور. ونحن نشير إلى مجاري الغرور، وإلى غرور كل طائفة، ليتمكن طالب السعادة من الإحتراز عنه، إذ من عرف مداخل الآفات والفساد ومجاريهما يمكنه أن يأخذ منها حذره، ويبنى على الجزم والبصيرة أمره. فنقول:

(١) صححناه على مصباح الشريعة: الباب ٣٦.

الطائفة الأولى

(الكفار)

وهم مغرورون بأسرهم، وهم ما بين من غرته الحياة الدنيا، وبين من غره الشيطان بالله، وأما الذين غرتهم الحياة الدنيا، فباعث غرورهم قياسان نظّمهما الشيطان في قلوبهم: **(أولهما)** أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة، والنقد خير من النسيئة. **(وثانيهما)** أن لذات الدنيا يقينيّة ولذات الآخرة مشكوكة فيها، واليقينيّ خير من المشكوك، فلا يترك به. وهذه اقيسة فاسدة، تشبه قياس ابليس، حيث قال:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾(١).

وعلاج هذا الغرور ـ بعد تحصيل اليقين بوجود الواجب تعالى وبحقية النبي ﷺ، وهو في غاية السهولة لوضوح الطرق والأدلة ـ إما أن يتبع مقتضى إيمانه ويصدق الله تعالى في قوله:

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾(٢).

وفي قوله تعالى: **﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾**(٣). وقوله: **﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾**(٤). وقوله: **﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾**(٥). وقوله: **﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾**(٦).

وإما أن يعرف بالبرهان فساد القياسين، حتى يزول عن نفسه ما تأديا إليه من الغرور. وطريق معرفة الفساد في (القياس الأول): أن يتأمل في أن كون الدنيا نقداً

---

(١) الأعراف، الآية: ١١. ص، الآية: ٧٦.

(٢) النحل، الآية: ٩٦.

(٣) الأعلى، الآية: ١٧.

(٤) القصص، الآية: ٦٠. الشورى، الآية: ٣٦.

(٥) آل عمران، الآية: ١٨٥. الحديد، الآية: ٢٠.

(٦) لقمان، الآية: ٣٣. فاطر، الآية: ٥.

والآخرة نسيئة صحيح، إلا أن كون كل نقد خيراً من النسيئة غير صحيح، بل هو محل التلبيس، إذ المسلّم خيرية النقد على النسيئة إن كان مثلها في المقدار والمنفعة والمقصود والبقاء، وأما إن كان أقل منها في ذلك وأدون، فالنسيئة خير، ألا ترى أن هذا المغرور إذا حذره الطبيب من لذائذ الاطعمة يتركها في الحال خوفا من ألم المرض في الإستقبال، ويبذل درهما في الحال ليأخذ درهمين نسيئة، ويتعب في الأسفار ويركب البحار في الحال لأجل الراحة والربح نسيئة. وقس عليه جميع اعمال الناس وصنائعهم في الدنيا: من الزراعة والتجارة والمعاملات، فإنهم يبذلون فيها المال نقداً ليصلوا إلى أكثر منه نسيئة، فإن كان عشرة في ثانى الحال خيراً من واحد في الحال، فأنسب لذة الدنيا من حيث الشدة والمدة والعدة إلى لذة الآخرة من هذه الحيثيات، فإن من عرف حقيقة الدنيا والآخرة، يعلم أنه ليس للدنيا قدر محسوس بالنسبة إلى الآخرة، على أن لذة الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات، ولذات الآخرة صافية غير ممتزجة بشيء من المكدرات.

وأما طريق معرفة فساد (القياس الثانى) بأصليه: هو أن يعرف أن كون لذات الآخرة مشكوكا فيها خطأ، وأن كل يقينى خير من المشكوك غلط: (أما الأول) فلأن الآخرة يقينيّة قطعيّة عند أهل البصيرة. وليقينهم مدركان: ـ أحدهما ـ ما يدركه عموم الخلق، وهو اتفاق عظماء الناس من الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء، فإن ذلك يورث اليقين والطمأنينة بعد التأمل، كما أن المريض الذي لا يعرف دواء علته إذا إتفق جميع أرباب الصناعة على أن دواءه كذا، فإنه تطمئن نفسه إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين، بل يثق بقولهم ويعمل به، وإن كذبهم صبى أو معتوه أو سوادى. ولا ريب في أن المنكرين للآخرة المغترين بالحياة الدنيا من الكفار والبطّالين بالنظر إلى المخبرين عن أحوال الآخرة والمشاهدين لها من الأنبياء والأولياء أدون حالاً وأقل رتبة من صبى أو معتوه أو سوادى بالنظر إلى أطباء بلد أو مملكة.

ـ وثانيهما ـ ما لا يدركه إلا الأنبياء والأولياء، وهو الوحى والإلهام، فالوحى

للأنبياء والإلهام والكشف للأولياء، فإنه قد كشفت لهم حقائق الاشياء كما هي عليها، وشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر،فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد، ولا تظنن أن معرفة النبى ﷺ لأمر الآخرة ولأمور الدين مجرد تقليد لجبرئيل بالسماع منه،كما أن معرفتك لها تقليد للنبى، هيهات! فإن الأنبياء يشاهدون حقائق الملك والملكوت، وينظرون إليها بعين البصيرة واليقين، وإن أكد ذلك بالقاء الملك والسماع منه.

وأما المغرورون بالله، وهم الذين يقدرون في انفسهم ويقولون بألسنتهم: إن كان لله معاد فنحن فيه أوفر حظاً وأسعد حالا من غيرنا،كما أخبر الله سبحانه عن قول الرجلين المتحاورين، إذ قال:

﴿وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾(١).

وباعث ذلك: ما ألقى الشيطان في روعهم من نظرهم مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون إلى تأخير الله العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال الله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢).

ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء محتاجون، فيقولون: لو احبهم الله لأحسن إليهم في الدنيا ولو لم يحبنا لما أحسن إلينا فيها، فلما لم يحسن اليهم في الدنيا وأحسن الينا فيها فيكون محباً لنا ولا يكون محباً لهم، فيكون الأمر في الآخرة كذلك، كما قال الشاعر:

كما أحسن الله فيما مضى ... كذلك يحسن فيما بقى

---

(١) الكهف، الآية: ٣٦.

(٢) المجادلة، الآية: ٨.

ولا ريب في أن كل ذلك خيالات فاسدة وقياسات باطلة، فإن من ظن أن النعم الدنيوية دليل الحب والإكرام فقد اغتر بالله، إذ ظن أنه كريم عند الله، بدليل لا يدل على الكرامة بل يدل عند أولى البصائر على الهوان والخذلان، لأن نعيم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله، وأن الله يحمى أحباءه في الدنيا كما يحمى الوالد الشفيق ولده المريض لذائذ الأطعمة، ومثل معاملة الله سبحانه مع المؤمن الخالص والكافر والفاسق، حيث يزوى الدنيا عن الأول ويصب نعمها ولذاتها على الثانى، مثل من كان له عبدان صغيران يحب أحدهما ويبغض الآخر، فيمنع الأول من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه، ليعلمه الأدب ويمنعه من لذائذ الأطعمة والفواكه التي تضره ويسقيه الأدوية البشعة التي تنفعه، ويهمل الثانى ليعيش كيف يريد ويلعب ويأكل كل ما يشتهى، فلو ظن هذا العبد المهمل أنه محبوب كريم عند سيده لتمكنه من شهواته ولذاته، وأن الآخر مبغوض عنده لمنعه عن مشتهياته، كان مغروراً أحمق، وقد كان الخائفون من ذوى البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحباً بشعار الصالحين! وأما المغرورن فعلى خلاف ذلك، لظنهم أن إقبال الدنيا عليهم كرامة من الله وأن إدبارها عنهم هوان لهم،كما أخبر الله تعالى عنه بقوله:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَيْهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّىَ أَكْرَمَنِ وَ أَمَّا إِذا مَا ٱبْـتَلَيْهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّىَ أَهَـٰنَنِ﴾(١).

وعلاج هذا الغرور: أن يعرف أن اقبال الدنيا دليل الهوان والخذلان دون الكرامة والاحسان، والتجرد منها سبب الكرامة والقرب إلى الله سبحانه والطريق إلى هذه المعرفة: إما ملاحظة أحوال الأنبياء والأولياء وغيرهما من طوائف العرفاء وفرق الأتقياء أو التدبر في الايات والاخبار. قال الله سبحانه:

---

(١) الفجر، الآية: ١٥ـ١٦.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[١]. وقال الله سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾[٤]... إلى غير ذلك من الآيات والأخبار.

ومنشأ هذا الغرور: الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر به بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى قارون وفرعون وغيرهما من الملوك والجبابرة، كيف أحسن الله اليهم إبتداء ثم دمرهم تدميراً، وقد حذر الله عباده عن مكره واستدراجه فقال:

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٥]. وقال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[٦].

الطائفة الثانية

(العصاة والفساق من المؤمنين)

وسبب غرورهم وغفلتهم: إما بعض بواعث غرور الكافرين ـ كما تقدم ـ أو ظنهم أن الله تعالى كريم ورحمته واسعة ونعمته شاملة، وأين معاصي العباد في جنب بحار رحمته، ويقولون: إنا موحدون ومؤمنون، فكيف يعذبنا مع التوحيد

---

(١) المؤمنون، الآية: ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) الأعراف، الآية: ١٨٢.

(٣) الأنعام، الآية: ٤٤.

(٤) آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٥) الأعراف، الآية: ٩٩.

(٦) آل عمران، الآية: ٥٤.

والإيمان، ويقرّرون ظنهم بما ورد في فضيلة الرجاء ـكما تقدم ـ. وربما اغتر بعضهم بصلاح آبائهم وعلو رتبتهم، كاغترار بعض العلويين بنسبهم مع مخالفتهم سيرة آبائهم الطاهرين في الخوف والورع. وعلاج هذا الغرور: أن يعرف الفرق بين الرجاء الممدوح والتمنى المذموم، ويعلم أن غروره ليس رجاء ممدوحا، بل هو تمن مذموم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله». فإن الرجاء لاينفك عن العمل، إذ من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه، وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو لم ينكح، أو نكح ولم يجامع، أو جامع ولم ينزل، فهو مغرور أحمق، كذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن، أو آمن ولم يترك المعاصى، أو تركها ولم يعمل صالحاً، فهو مغرور جاهل، كيف وقد قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أُولَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللهِ﴾[1].

يعنى أن الرجاء يليق بهم دون غيرهم، وذلك لأن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال، كما قال تعالى:

﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]. وقال: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[3]. وقال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[4]. وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[5].

أفترى أن من إستوجر على إصلاح أو ان وشرط له أجرة عليها، وكان الشارط

---

(١) البقرة، الآية: ٢١٨.

(٢) السجدة، الآية: ١٧. الاحقاف، الآية: ١٤. الواقعة، الآية: ٢٤.

(٣) آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٤) النجم، الآية: ٣٩ـ ٤٠.

(٥) المدثر، الآية: ٣٨.

كريماً يفي بوعده وشرطه، بل كان بحيث يزيد على ما وعده وشرطه، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسدها جميعاً، ثم جلس ينتظر الأجر زعماً منه أن المستأجر كريم، أفيراه العقلاء في انتظاره راجياً أو مغروراً متمنياً؟ وبالجملة: سبب هذا الغرور الجهل بين الرجاء والعزة، فليعالجه بما ذكر هنا وفيماسبق.

ثم إن المغرور بعلو رتبة آبائه، ظانّاً إن الله تعالى يحب آباءه، ومن أحب انسانا أحب أولاده، أشد حمقاً من المغرور بالله، لأن الله سبحانه يحب المطيع ويبغض العاصي من غير ملاحظة لآبائهما، فكما أنه لايبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لايحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع، وليس يمكن أن يسرى من الأب إلى الإبن شيء من الحب والبغض والمعصية والتقوى، إذ لا تزر وازرة وزر أخرى، فمن زعم أنه ينجو بتقوى أبيه، كان كمن زعم أنه يشبع بأكل أبيه، أو يصير عالماً بتعلم أبيه، أو يصل إلى الكعبة بمشى أبيه، فهيهات هيهات! إن التقوى فرض عين على كل أحد، فلا يجزى والد عن ولده شيئاً، وعند الجزاء يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، ولاينفع أحد أحداً إلا على سبيل الشفاعة، بعد تحقق شرائطها.

ثم العصاة المغرورون، إما ليست لهم طاعات، فتمنيهم المغفرة غاية الجهل ـ كمامر ـ، أو لهم طاعات ولكن معاصيهم أكثر، وهم عالمون بأكثرية المعاصى، ومع ذلك يتوقعون المغفرة وترجح حسناتهم على سيئاتهم، وهو أيضاً غاية الجهل، إذ مثله مثل من وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفاً أو ألفين، وتوقع أن تميل الكفة الثقيلة بالخفيفة، ومن الذين معاصيهم أكثر من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتدّ بها، كالذي يحج طول عمره حجة ويبنى مسجداً، ثم لايكون شيء من عباداته على النحو المطلوب، ولايجتنب من أخذ أموال المسلمين، فينسى ذلك كله ويكون حجه وما بناه من المسجد في ذكره، ويقول: كيف يعذبنى الله وقد حججت وبنيت

مسجداً؟ وكالذي يسبح الله كل يوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول نهاره من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد سبحته مع غفلته عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون، فهو يتأمل دائماً في فضيلة التسبيحات، ولا يلتفت إلى ما ورد في عقوبة الكذابين والمغتابين والنمامين والفحاشين، ولو كان كتبة اعماله يطلبون منه اجرة الزايد من هذيانه على تسبيحاته، لكان عند ذلك يسعى في كفّ لسانه عن آفاته وموازنتها بتسبيحاته، حتى لايكون لها زيادة عليها ليؤخذ منه أجرة نسخ الزائد. فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً أن يفوته مقدار قيراط ولايحتاط خوفا من فوت العليين ومجاورة رب العالمين.

الطائفة الثالثة

(أهل العلم)

والمغترون منهم فرق:

(فمنهم) من اقتصر من العلم على علم الكلام والمجادلة ومعرفة آداب المناظرة، ليتفاخر في أندية الرجال ويتوفق على الأقران والأمثال، من غير أن يكون له في العقائد قدم راسخ أو مذهب واحد، بل يختار تارة ذلك وتارة هذا، وتكون عقيدته كخيط مرسل في الهواء تفيئه الريح مرة هكذا ومرة هكذا، ومع ذلك يظن بغروره أنه اعرف الناس وأعلمهم بالله وبصفاته.

(ومنهم) من اقتصر من العلم على علم النحو واللغة، أو الشعر أو المنطق، واغتر به وأفنى عمره فيها، وزعم أن علم الشريعة والحكمة موقوف عليها، ولم يعلم أن ما ليس مطلوبا لذاته ويكون وسيلة إلى ما هو مقصود لذاته يجب أن يقتصر عليه بقدر الضرورة، والتعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فضول مستغنى عنها، وموجب للحرمان عما هو مقصود لذاته.

(ومنهم) من اقتصر على فن المعاملات من الفقه، المتضمن لكيفية الحكم والقضاء بين الناس، واشتغل بإجراء الأحكام، وأعرض عن علم العقائد والأخلاق، بل عن فن العبادات من الفقه، واهمل تفقد قلبه ليتخلى عن رذائل الأخلاق ويتحلى بفضائل الملكات وتفقد جوارحه وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات.

(ومنهم) من حصل فن العبادات ايضاً، بل أحكم العلوم الشرعية بأسرها وتعمق فيها واشتغل، ولكن ترك العلم الإلهي وعلم الأخلاق، ولم يحفظ الباطن والظاهر عن المعاصي، ولم يعمرها بالطاعات.

(ومنهم) من أحكم جميع العلوم من العقلية والشرعية، وتعمق فيها واشتغل بها، إلا أنه أهمل العمل رأساً، أو واظب على الطاعات الظاهرة وأهمل صفات القلب، وربما تفقد صفات القلب وأخلاق النفس ايضاً، وجاهد نفسه في التبرّي عنها، وقلع من قلبه منابتها الجلية القوية، ولكن بقيت في زوايا قلبه خفايا من مكائد الشيطان، وخبايا وتلبيسات النفس ما دق وغمض مدركه فلايتفطن بها.

وجميع هؤلاء غافلون مغرورون، إذا كان اعتقادهم انهم على خير وسعادة، وإن كان بينهم تفاوت من حيث الضعف والشدة، إذ سعادة النفس وخلاصها عن العذاب لاتحصل إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وأحوال النشأة الآخرة، والعلم برذائل الاخلاق وشرائفها، ثم تهذيب الباطن بفضائل الاخلاق وعمارة الظاهر بصوالح الطاعات والاعمال، فكل من يعلم بعض العلوم وترك ما هو المهم من العلم ـ أعنى معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات النفس التيهي الصفات المذمومة المانعة عن الوصول إلى الله ـ وظن أنه على خير كان مغروراً، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوباً على الله، فمن ترك العلم المهم واشتغل بغيره، فهو كمن له مرض خاص مهلك فاحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله، فاشتغل بتعلم مرض آخر يضاد مرضه في المعالجة، كما ان من احكم العلوم بأسرها وترك العمل، مثل المريض الذي تعلم دواء مرضه وكتبه، وهو يقرأه ويعلمه المرضى ولا يستعمله قط لنفسه، فإنه لا ريب

في ان مجرد تعلم الدواء لا يشفيه، بل لو كتبت منه الف نسخه وعلمه الف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة الف مرة لم ينفعه ذلك من مرضه شيئاً، حتى يشترى هذا الدواء ويشربه كما تعلم في وقته، ومع شربه واستعماله يكون على خطر من شفائه، فكيف إذا لم يشربه اصلا، فلو ظن أن مجرد تعلم الدواء يكفيه ويشفيه فهو مغرور، فكذلك من احكم علم الطاعات ولم يعملها، واحكم علم المعاصى ولم يجتنبها،واحكم علم الأخلاق ولم يزكّ نفسه عن رذائلها ولم يتصف بفضائلها، فهو في غاية الغرور، إذ قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيٰهَا﴾[١].

ولم يقل: قد افلح من علم طريق تزكيتها.

ثم من هذه الطائفة فرقة متصفة برذائل الأخلاق والغرور، أدى بهم إلى حيث ظنوا أنهم منفكون عنها، وأنهم ارفع عند الله من أن يبتليهم بها، وإنما يبتلى بها العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم. ثم إذا ظهرت عليه مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال: ما هذا تكبراً، إنما هو طلب اعزاز الدين، واظهار شرف العلم، وارغام أنف المخالفين. ومهما ظهرت منه آثار الحسد، وأطلق لسانه بالغيبة في أقرانه ومن رد عليه شيئاً من كلامه، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد، بل يقول: إن هذا غضب للحق وردّ على المبطل في عداوته وظلمه، مع أنه لو طعن في غيره من أهل العلم، وردّ عليه قوله، ومنع من منصبه، لم يكن غضبه مثل غضبه الآن، بل ربما يفرح به، ولو كان غضبه للحق لا للحسد على اقرانه وخبث باطنه، لاستوى غضبه في الحالين. وإذا خطر له خاطر الرياء قال: غرضى من اظهارالعلم والعمل اقتداء الخلق بى، ليهتدوا إلى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله. ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به، ولو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد

---

(١) الشمس، الآية: ٩.

من كان، وربما يتذكر هذا ومع ذلك لايخليه الشيطان، بل يقول: إنما ذلك لأنهم إذا إهتدوا بى كان الأجر والثواب لى، ففرحى إنما هو بثواب الله لا بقبول الخلق، هذا ما يظن بنفسه، والله مطلع على سريرته، إذ ربما كان باطنه في الخباثة بحيث لو علم قطعاً بأن ثوابه في الخمول واخفاء العلم والعمل أكثر من ثوابه في الاظهار، لاحتال مع ذلك في اظهار رئاسة، من تدريس أو وعظ أو امامة أو غير ذلك. وإذا كان بحيث يدخل على السلاطين والامراء الظلمة ويثني عليهم ويتواضع لهم، وخطر له أن مدحهم والتواضع لهم حرام، قال له الشيطان: ان ذلك عند الطمع في مالهم، وغرضك من الدخول عليهم دفع الضرر عن المسلمين دون الطمع، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض اقرانه قبول عند ذلك السلطان، وكان بحيث يقبل شفاعته في كل احد، وهو لايزال يستشفع ويدفع الضرر عن المسلمين، يثقل ذلك عليه، بحيث لو قدر أن يقبح حاله عند السلطان لفعل. وربما انتهى الغرور في بعضهم إلى أن يأخذ من أموالهم المحرمة، وإذا خطر له أنها حرام، قال له الشيطان: هذا مال مجهول المالك يجب أن يتصدق به إمام المسلمين، وأنت إمامهم وعالمهم، وبك قوام دين الله، فيحلّ لك أن تأخذ منها قدر حاجتك وتصرف الباقى على مصالح المسلمين، فيغتر بهذا التلبيس، ولا يزال يأخذها من غير أن يبذل شيئاً منها في مصرف غيره. وربما انتهى الغرور في بعضهم إلى حيث إنه إذا حضرت مائدتهم واكل طعامهم وقيل له: إن هذا لايليق بمثلك، قال: الاكل جائز بل واجب، اذ هذا مال لا يعلم مالكه، فيجب التصدّق به على الفقراء، ويجب على مثلى بقدر القوة والاستطاعة أن يجتهد في استخلاصه من يد الظالم وايصاله إلى اهله ـ أعنى الفقراء ـ، وأكلى منها نوع قدرة على استخلاصه، فآكل منه وأتصدّق بقيمته على الفقراء، والله يعلم من باطنه أنه لا يتصدق بقيمته ولا يعتقد بحقيقة ما يقوله، وإنما هو تلبيس ألقاه الشيطان في روعه، لئلا يضعف اعتقاد العامة في حقه، وربما كان بحيث لا يبالى من اخذ مالهم واكل طعامهم خفية، ولو علم أنه يطلع عليه واحد من صويلح العامة المعتقدين به،

امتنع منه غاية الامتناع. وربما كان بعضهم في الباطن مائلا إلى الدخول على السلاطين والامراء وتاركاً له في الظاهر، وكان الباعث في ذلك طلب المنزلة في قبول العامة، ومع ذلك يظن أن الاجتناب عنهم عين ورعه وتقواه. وربما كان بعضهم إمام قوم يظن أنه على خير وباعث لترويج الدين واعلاء الكلمة ومقيم بشعار الإسلام، ومع ذلك لو أمّ غيره ممن هو اعلم واورع منه في مسجده، أو يتخلف بعض من يقتدى به عن الاقتداء به، قامت عليه القيامة، وربما لم يكن باعثه على الحركة إلى المسجد للامامة مجرد التقرب والامتثال لأمر الله، بل كان الباعث محض حب الجاه والرياسة واعتقاد العامة، أو مركباً منه ومن نية الثواب. وربما اتخذ بعضهم الامامة شغلا ووسيلة لأمر المعاش، ومع ذلك يظن أنه مشتغل بامر الخير، والظاهر في امثال زماننا ندور الإمام الذي كان قصده من الامامة مجرد التقرب إلى الله، من دون وجود شيء من حب طلب المنزلة في القلوب، أو تحصيل المال، أو دفع بعض الشرور عن نفسه في زوايا قلبه، ولو وجد مثله فهو القدوة الذي يجب أن تشد الرحال من المواضع البعيدة إليه ليقتدى به، ومثله كلما وجد في نفسه قصد التقرب والثواب في الذهاب إلى المسجد للامامة ذهب، ولو لم يجد ذلك من نفسه تخلف، وصلى منفرداً، وهو الذي يستوى عنده اقتداء الناس به وعدمه، ويستوى عنده كثرة المقتدين وقلتهم، بل يكون حاله عند صلاته وهو إمام لجم غفير كحاله عند صلاته منفرداً، من دون أن يجد في نفسه تفاوتاً في الحالين.

وبالجملة: اصناف غرور أهل العلم - (لا) سيما في هذه الاعصار - كثيرة، والمتأمل يعلم أن الغرور أو التلبيس أو غيرهما من ذمائم الأفعال انتهى في بعضهم إلى أن وجودهم مضر بالإسلام والمسلمين وموتهم أنفع للايمان والمؤمنين، لأنهم دجالو الدين وقوّامو مذهب الشياطين، ومثلهم كما قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادى، فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يتخلص إلى الزرع».

الطائفة الرابعة

(الوعاظ)

والمغترون منهم كثيرون:

(فمنهم) من يتكلم في وعظه في أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف، والرجاء، والتوكل، والرضا، والصبر، والشكر، ونظائرها، ويظن أنه إذا تكلم بهذه الصفات ودعا الخلق إليها صار موصوفاً بها، وهو منفك عنها في الواقع، إلا عن قدر يسير لاينفك عنه عوام المسلمين، ويزعم ان غرضه اصلاح الخلق دون أمر آخر، ومع ذلك لو أقبل الخلق على أحد من اقرانه وصلحوا على يديه، وكان اقوى منه في الارشاد والاصلاح، لمات غماً وحسداً، ولو اثنى احد المترددين عليه على بعض اقرانه، لصار ابغض خلق الله اليه.

(ومنهم) من اشتغل بالشطح والطامات، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل، وربما كلف نفسه بالفصاحة والبلاغة، وتصنع التشبيهات والمقدمات، وشغف بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، طلباً للاعوان والأنصار، وشوقا إلى تكثر البكاء والرقة والتواجد والرغبات في مجلسه، والتذاذاً بتحريك الرؤس على كلامه والبكاء عليه، وفرحاً بكثرة الأصحاب والمستفيدين والمعتقدين به، وسروراً بالتخصيص بهذه الخاصة من بين سائر الاقران، وربما لم يبال بالكذب في نقل الأخبار والآثار، ظناً منه أنه أوقع في النفوس وأشدّ تأثيراً في رقة العوام وتواجدهم. ولا ريب في أن هؤلاء شرّ الناس، بل شياطين الانس، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، إذ الأولون إن لم يصلحوا أنفسهم، فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم، وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله، ويجرون الخلق إلى الغرور بالله، لأن سعيهم في ذكر ما يسر به العامة، ليصلوا به منهم إلى اغراضهم الفاسدة، فلا يزالون يذكرون ما يقوى الرجاء، ويزيدهم جرأة على المعاصى ورغبة في الدنيا، (لا) سيما إذا كان هذا الواعظ أيضاً ممن يرغب إلى الدنيا، ويسر بوصول المال اليه،

ويتزين بالثياب الفاخرة والمراكب الفارهة، وغيرهما من زينة الدنيا. فمثله ممن يضل ويكون افساده أكثر من اصلاحه، ومع ذلك يظن أنه مروج الشرع والدين ومرشد الضالين، فهو أشد المغرورين والغافلين.

(ومنهم) من هذب أخلاقه، وراقب قلبه، وصفاه عن جميع الكدورات، وصغرت الدنيا في عينه، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت اليهم، ودعته الرحمة والشفقة على عباد الله إلى نصحهم واستخلاصهم عن امراض المعاصي بالوعظ، فلما استقل به وجد الشيطان مجال الفتنة، فدعاه إلى الرئاسة دعاء خفياً ـ اخفى من دبيب النملة ـ لا يشعر به، ولم يزل ذلك في قلبه يربو وينمو حتى دعاه إلى التصنع والتزيّن للخلق: بتحسين الالفاظ والنغمات والحركات، والتصنع في الزيّ والهيئة والشمائل، وأقبل الناس إليه يعظمونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك، إذ رأوه شافياً لأمراضهم بمحض الرحمة والشفقة من غير طمع، فآثروه بابدانهم وأموالهم، وصاروا له كالخدم والعبيد، فعند ذلك انتشر طبعه وارتاحت نفسه، وذاق لذة يا لها من لذة، وأصاب من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة، فوقع في أعظم لذات الدنيا بعد قطعه بأنه تارك للدنيا، فقد غره الشيطان على ما لايشعر به. وعلامة ثوران حب الرئاسة في باطنه: أنه لو ظهر من اقرانه من مالت القلوب إلى قبوله، وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه، شق ذلك عليه، إذ لولا أن النفس قد استبشرت واستلذت بالرئاسة لكان يغتنم ذلك.

وعلى هذا فينبغي ألا يشتغل أحد بالنصح والوعظ إلا إذا وجد من نفسه أنه ليس له قصد سوى هدايتهم إلى الله تعالى، وكان يسره غاية السرور ظهور من يعينه على ارشادهم أو اهتدائهم من عند أنفسهم، وانقطع طمعه بالكلية عن ثنائهم وأموالهم، واستوى عنده حمدهم وذمهم، ولم يبال بذمهم إذا كان الله يمدحه، ولم يفرح بمدحهم إذا لم يقترن به مدح الله، ونظر اليهم كما ينظر إلى من هو أعلم منه وأورع، حيث لاينكر عليه ويراه خيراً من نفسه، لدلالة الظاهر على ذلك وجهله

بالخاتمة، وإلى البهائم من حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم، فإنه لايبالى كيف يراه البهائم، فلا يتزين لها، إذ راعى الماشية إنما غرضه رعايتها ودفع الذئب عنها، دون نظر الماشية إليه بعين المدح والثناء.

ثم لو ترقى الواعظ، وعلم بهذه المكيدة من الشيطان، واشتغل بنفسه وترك النصح، أو نصح مع رعاية شرط الصدق والاخلاص، لخيف عليه الاعجاب بنفسه في فراره عن الغرور، فيكون اعجابه بنفسه في الفرار عن الغرور غاية الغرور، وهو المهلك الأعظم من كل ذنب، ولذلك قال الشيطان: «يا ابن آدم! إذا ظننت أنك بعملك تخلصت منى فبجهلك قد وقعت في حبائلى». ثم لو دفع عن نفسه العجب، وعلم أن ذلك من الله تعالى لا منه، وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان عنه إلا بتوفيق الله، وأنه ضعيف عاجز لايقدر على شيء أصلاً، فضلاً عن دفع الشيطان، لخيف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل. ولا ريب أن الآمن من مكر الله خاسر مغرور، فسبيل النجاة بعد تهذيب النفس وخلوص القصد والانقطاع عن الدنيا ولذاتها، أن يرى ذلك كله من فضل الله، وكان خائفاً على نفسه من سلب حاله في كل لحظة، وغير آمن من مكر الله، وغير غافل عن خطر الخاتمة. وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه، إلا بمجاوزة الصراط والدخول في الجنة، ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع ـ وكان قد بقى له نفس ـ قال: (أفلتّ منى يا فلان!؟)، فقال: (لا! بعد).

الطائفة الخامسة

(اهل العبادة والعمل)

والمغرورون منهم فرق كثيرة:

(فمنهم) من غلبت عليه الوسوسة في إزالة النجاسة وفي الوضوء، فيبالغ فيه ولا يرتضى الماء المحكوم بالطهارة في فتوى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة

الموجبة للنجاسة، وإذا آل الأمر إلى الاكل وأخذ المال قدر الاحتمالات الموجبة للحل، بل ربما اكل الحرام المحض وقدر له محملا بعيداً لحله، ولو انقلب هذا الاحتمال من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة اكابر الأولياء. ثم من هؤلاء من يخرج إلى الاسراف في صبه الماء وربما بالغ عند الوضوء في التخليل وضرب إحدى يديه على وجهه أو يده الأخرى، ولا يدرى هذا المغرور أن هذا العمل إن كان مع اليقين بحصول ما يلزم شرعا فهو تضييع للعمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه، وإن كان بدونه بل يحتاط في التخليل ليحصل الجزم بوصول الماء إلى البشرة، فما باله يتيقن بوصول الماء إلى البشرة في الغسل بدون هذه المبالغة والاحتياط، مع أن حصول القطع بايصال الماء إلى البشرة في الغسل ألزم وأوجب. ثم ربما لم يكن له مبالغة واحتياط في الصلاة وسائر العبادات، وانحصر احتياطه ومبالغته بالوضوء، زاعماً أن هذا يكفى لنجاته، فهو مغرور في غاية الغرور.

(ومنهم) من اغتر بالصلاة فغلبت عليه الوسوسة في نيتها، فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة أوفضيلة الوقت، وقد يوسوس في التكبير حتى يغير صيغتها لشدة الاحتياط فيه، يفعل ذلك في أول صلاته ثم يغفل في جميع صلاته، ولا يحضر قلبه، ويغتر بذلك، ويظن أنه إذا أتعب نفسه في تصحيح النية فهو على خير. وربما غلبت على بعضهم الوسوسة في دقائق القراءة، واخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار عن مخارجها، فلايزال يحتاط في التشديدات وتصحيح المخارج والتمييز بين مخارج الحروف المتقاربة، من غير اهتمام فيما عدا ذلك، من حضور القلب والتفكير في معانى الاذكار، ظناً منه أنه إذا صحت القراءة فالصلاة مقبولة، وهذا أقبح أنواع الغرور.

(ومنهم) من اغتر بالصوم، وربما صام الأيام الشريفة، بل صام الدهر، ولم يحفظ لسانه عن الغيبة، ولا بطنه عن الحرام عند الافطار، ثم يظن بنفسه الخير، وذلك في غايةالغرور.

(ومنهم) من اغتر بالحج، فيخرج إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال، ويضيع في الطريق الصلاة، ويعجز عن طهارة الثوب والبدن، ثم يحضر البيت بقلب ملوّث برذائل الأخلاق وذمائم الصفات، ومع ذلك يظن أنه على خير، فهو في غاية الغرور.

(ومنهم) من اغتر بقراءة القرآن، فيهذّ هذاً، وربما يختم في اليوم والليلة مرة، فيجرى به لسانه، وقلبه مردد في أودية الأمانى، وربما اسرع في القراءة غاية السَرعة، ويظن أن سرعة اللسان من الكمالات، ويتفاخر به على الأمثال والأقران.

(ومنهم) من اغتر ببعض النوافل، كصلاة اليل، أو مجرد غسل الجمعة، أو امثال ذلك، من غير اعتداد بالفرائض، زاعماً أن المواظبة على مجرّد هذه النافلة ينجيه في الآخرة، فهو أيضاً من المغرورين.

(ومنهم) من تزهد وقنع بالدون من المطعم والملبس والمسكن، ظاناً أنه ادرك رتبة الزهاد، ومع ذلك راغب في الرئاسة باشتهاره بالزهد، فهو ترك أهون المهلكين باعظمها، إذ حب الجاه اشد فساداً من حب المال، ولو ترك الجاه وأخذ المال لكان اقرب إلى السلامة، فهو مغرور، إذ ظن أنه من الزهاد، ولم يعرف أن منتهى لذات الدنيا الرئاسة، وهو يحبها، فكيف يكون زاهداً؟

الطائفة السادسة

(المتصوفة)

والمغترون فيهم اكثر من ان يحصى:

(فمنهم) ارباب البوقات، وهم القلندرية الذين لايعرفون معنى التصوف ولاشيئاً من مراسيم الدين، وصرفوا اوقاتهم في التكدى والسؤال من الناس، ويظنون أنهم تاركون للدنيا مقبلون على الآخرة، مع أنهم لو ظفروا بشيء من امور الدنيا لأخذوه بجميع جوارحهم، فهؤلاء ارذل الناس بوجوه كثيرة لا تخفى.

(ومنهم) من اغتر بالزيّ، والمنطق، ولبس الصوف، واطراق الرأس وادخاله في الجيب، وخفض الصوت، وتنفس الصعداء، وتحريك البدن في الطول والعرض، والسقوط إلى الأرض، (لا) سيما إذا سمعوا كلاماً في الوحدة والعشق، مع عدم اطلاعهم على حقيقة شيء منهما. وربما تجاوز بعضهم من ذلك إلى الرقص والتصفيق، وابداء الشهيق والنهيق، واختراع الاذكار، والتغنى بالاشعار... وغير ذلك من الحركات القبيحة والهيئات الشنيعة، ويظن أن العبد بهذه الحركات والأفعال يصل إلى الدرجات العالية، ولم يعلم المغرور أنها تقرب العبد إلى سخط الله وعذابه.

(ومنهم) من وقع في الاباحة، وطوى بساط الشرع والاحكام، وترك الفصل بين الحلال والحرام، يتكالب على الحرام والشبهات، ولا يحترز عن أموال الظلمة والسلاطين. وربما قال: المال مال الله والخلق عيال الله، فهم فيه سواء.وربما قال: ان الله مستغن عن عملي، فأى حاجة إلى أن أتعب نفسي فيه؟ وربما قال: لا وزن لأعمال الجوارح، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة إلى حب الله واصلة إلى معرفة الله. وربما خاضوا في الشهوات الدنيوية، وقالوا: إنها لا تصدنا عن طريق الله، لقوة نفوسنا وقوة اقدامنا فيها، وإنما يحتاج العوام إلى تهذيب النفس بالأعمال البدنية، ونحن مستغنون عنه. فهؤلاء يرفعون درجتهم عن درجة الأنبياء عليهم السلام إذ كانوا يصرحون بأن ارتكاب الامور المباحة فضلاً عن الخطايا والمعاصي يصدهم عن طريق الله، حتى يبكون سنين متوالية على ترك الراجح وفعل المرجوح، فهم أشد الناس غروراً، وأعظم الخلق حماقة وجهلا.

(ومنهم) من يدعى غاية المعرفة واليقين والوصول إلى درجات المقربين، ومشاهدة المعبود، ومجاورة المقام المحمود، والملازمة في عين الشهود، وتلقف من الطامات كلمات يرددها، ويظن أنه يتكلم عن الوحى ويخبر عن السماء وينظر إلى العباد والفقهاء والمحدثين وسائر اصناف العلماء بعين الحقارة والإزدراء، يقول في العباد: إنهم أجراء مبعوثون، وفي العلماء: إنهم بالحديث عن الله لمحجوبون،

ويدعى لنفسه من الكرامات ما لايدعيه نبى ولا ولى، ويدعى كونه واصلا إلى الحق فارغا عن أعباء التكليف، لا علماً أحكم ولا عملاً هذب، لم يعرف من المعارف إلا أسماء يتفوه بها عند الأغنياء للوصول إلى بعض حطامهم الخبيثة، فهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، مع ظنه أنه من المقربين، فهو أشد الغافلين المغرورين.

(ومنهم) ملامية يرتكبون قبائح الأعمال وشنائع الأفعال الموجبة للبعد عن طريق المروة، ظناً منهم أن هذا موجب لكسر النفس وازالة ذمائم الأخلاق، ولم يعلموا أن هذه الافعال من الذمائم، وقد نهى صاحب الشرع عنه.

(ومنهم) من اشتغل بالرياضة والمجاهدة، وقطع بعض المنازل، ووصل إلى بعض المقامات على قدر سعيه ومجاهدته، إلا أنه لم يتم سلوكه وإنقطع عن سائر المقامات، إما لإعتراض مفسد في اثناء السلوك، أو لوقوعه في الأثناء ظناً منه أنه وصل إلى الله ولم يصل بعد، فإن لله سبعين حجابا من نور، ولا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل، وإليه الاشارة في حكاية الخليل، حيث رأى أولاً كوكباً، فقال: «هذا ربّى»، ثم انتقل إلى القمر، ثم عنه إلى الشمس، فإنه ليس المراد بالكوكب والقمر والشمس هذه الأجسام المضيئة، فإن شأن مثل الخليل أعظم من أن يظن كونها آلهة، بل هذا ينافي شأنه ورتبته، فالمراد بها الأنوار التي هي من حجب الله، ويراها السالك في الطريق، ولايتصور الوصول إلى الله إلا بالوصول إلى هذه الحجب، وهي حجب من النور بعضها أعظم من بعض، فاستعير لفظ الكواكب لصغره لأقل مراتبها، والقمر لاوسطها، والشمس لاعظم مراتبها، والخليل ﷺ لم يزل عند سيره في الملكوت يصل إلى نور بعد نور، ويتخيل إليه في أول ما يلقاه أنه قد وصل، ثم انكشف له أن وراءه امر، فيترقى إليه حتى وصل إلى الحجاب الأقرب، فقال: هذا اكبر، فلما ظهر أنه مع عظمته غير خال عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال، قال:

﴿لَا أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ... إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ...﴾[(١)].

فسالك هذا الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب، وربما يغتر بالحجاب الأول، وأول الحجاب بين الله وبين العبد هو قلبه، فإنه ـ ايضاً ـ أمر ربانى ونور من أنوار الله، تتجلى فيه حقيقة الحق كله، حتى يتسع لجملة العالم ويحيط به وتنجلي فيه صورة الكل، وعند ذلك يشرق نوره اشراقا عظيما، إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه، وهو في أول الأمر كان محجوبا، فإذا تجلى نوره وانكشف فيه جماله بعد اشراق نور الله تعالى ربما التفت صاحب القلب إلى القلب، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، فربما يسبق لسانه في هذه الدهشة، فيقول: أنا الحق! فإن لم يتضح له ما وراء ذلك، إغتر به، ووقف عليه وهلك، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية، ولم يصل بعد إلى القمر، فضلا عن الشمس، فهو مغرور. وهذا محل الالتباس، إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه، كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة فيظن أنه لون المرآة، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج فيظن أنه لون الزجاج، كما قيل:

رقّ الزجاج ورقت الخمر ... فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولاقدح ... وكأنما قدح ولاخمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح، فرأوا اشراق نور الله قد تلألأ فيه، فغلطوا فيه، كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء، فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء، فيمد اليد اليه، فهو مغرور. وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله كثيرة لا تخفى على أرباب البصيرة.

ثم اكثر المتلبسين بلباس العارفين ـ مع كذبهم فيما يدعونه، ونقصانهم في طريق السلوك، وجهلهم بحقيقة الامر، وعدم قطعهم جل المقامات ـ يتشبهون

---

(١) الأنعام، الآية: ٧٦ و ٧٩.

بالصادقين من العرفاء في زيّهم وهيئتهم وآدابهم ومراسمهم والفاظهم، ظانين أنهم بهذا التشبه يصلون إلى مراتبهم، فهيهات هيهات! إن الوصول إلى درجة كل أحد إنما تحصل بالإتصاف بأوصافه الباطنة والتخلق بأخلاقه النفيسة، دون التشبه به في حالاته الظاهرة وقد شبههم بعض الأكابر بامرأة عجوز سمعت أن الشجعان من المقاتلين تثبت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة، فتاقت نفسها إلى أن تكون مثلهم، فلبست درعا، ووضعت على رأسها مغفراً، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتا، وتعلمت كيفية جولانهم في الميدان، وتلقفت جميع شمائلهم في الزى والمنطق والحركات والسكنات، وتوجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان، فلما وصلت اليه، أنفذت إلى ديوان العرض، وأمرت بأن تجرد عن المغفر والدرع، وينظر إلى حقيقتها، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر شجاعتها، فلما جردت فإذا هي عجوز ذات منة ضعيفة لاتقدر على شيء، فقيل لها: أجئت للاستهزاء بالملك واهل حضرته؟ خذوها والقوها قدام الفيل، فداسها ونحتها. فهكذا يكون حال المدعين للتصوف والعرفان في القيامة، إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا إلى القاضى الحق الذي لاينظر إلى الزى واللباس بل إلى سر القلب وصفاته.

الطائفة السابعة

(الأغنياء وأرباب الأموال)

والمغترون فيهم اكثر من المغترين من سائر الطوائف:

(فمنهم) من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وسائر ما يظهر للناس بالأموال المحرمة، وربما غصب أرض المساجد والمدارس، وربما صير لها موقوفات اخذها من غير حلها، ولا باعث له على ذلك سوى الرياء والشهوة، ولذا يسعى في كتابة اسمه على احجارها ليتخلد ذكره ويبقى بعد الموت أثره، ويظن

المسكين أنه قد استحق المغفرة بذلك، وأنه مخلص فيه، ولم يدر أنه تعرض لسخط الله في كسب هذه الأموال وفي انفاقها، وكان الواجب عليه الامتناع عن اخذها من اهله، وإذا عصى الله واخذها، كان الواجب عليه التوبة وردها إلى اهلها، فإن لم يبق من اخذها منه ولا ورثته، كان الواجب ان يتصدق بها على المساكين، مع انه ربما كان في بلده أو في جواره مسكين يكون في غاية الفقر والمسكنة ولا يعطيه درهما.

(ومنهم) من ينفق الأموال في الصدقات، إلا أنه يطلب الفقراء الذين عادتهم الشكر والافشاء للمعروف، ويكره التصدق في السر، بل يطلب المحافل الجامعة ويتصدق فيها، وربما يكره التصدق على فقراء بلده ويرغب أن يعطى اهل البلاد الآخر مع اكثرية استحقاق فقراء بلده، طلباً لاشتهاره بالبذل والعطاء في البلاد الخارجة البعيدة، وربما يصرف كثيراً منه إلى رجل معروف في البلاد وإن لم يكن مستحقاً، ليشتهر ذلك في البلاد، ولا يعطى قليلا منه إلى فقير له غاية الاستحقاق إذا كان خامل الذكر، يفعل هذا ويظن انه يجلب بذلك الأجر والثواب، ولم يدر المغرور أن هذا القصد احبط عمله واضاع ثوابه.

(ومنهم) من يجمع مالا من غير حله، ولا يبالى باخذ المال من أى طريق كان، ثم يمسكه غاية الامساك، إلا أنه لا يبالى بصرف بعضه في طريق الحج، إما لنفسه فقط، أو لأولاده وازواجه أيضاً، إما للاشتهار، أو لما وصل اليه: أن تارك الحج يبتلى بالفقر.

(ومنهم) من غلب عليه البخل، فلا تسمح نفسه بانفاق شيء من ماله، فيشتغل بالعبادة البدنية من الصوم والصلاة، ظناً منه أن ذلك يكفى لنجاته، ولم يدر ان البخل صفة مهلكة لا بد من ازالتها، وعلاجه: بذل المال دون العبادات البدنية. ومثله مثل من دخلت في ثوبه حية، وقد اشرف على الهلاك، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن الصفراء، وغافل بأن الحية تقتله الآن، ومن قتلته الحية فأى حاجة له إلى السكنجبين؟

وصل

(ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد)

قد عرفت ان الغرور مركب من الجهل وحب مقتضيات الشهوة والغضب. فضدّه الفطانة والعلم والزهد، فمن كان فطناً كيساً عارفا بربه ونفسه وبالآخرة والدنيا، وعالماً بكيفية سلوك الطريق إلى الله وبما يقربه إليه وبما يبعده عنه، عالماً بآفات الطريق وعقباته وغوائله، ولاجتنب عن الغرور ولم يغرّه الشيطان في شيء من الامور، إذ من عرف نفسه بالذل والعبودية وبكونه غريباً في هذا العالم اجنبياً من هذه الشهوات البهيمية، عرف كون هذه الشهوات مضرة له وأن الموافق له طبعاً هو معرفة الله والنظر إلى وجهه، فلا يسكن نفسه إلى شهوات الدنيا، ومن عرف ربه وعرف الدنيا والآخرة ولذاتهما وعدم النسبة بينهما ثار في قلبه حب الله والرغبة إلى دار الآخرة والانزجار عن الدنيا ولذاتها، وإذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها، فإن أكل ـ مثلا ـ أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة، واندفع عنه كل غرور منشأه تجاذب الاغراض والنزوع إلى الدنيا وإلى الجاه والمال، وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضاء الله، لم يمكنه الخلاص من الغرور. فالأصل في علاج الغرور: أن يفرغ القلب من حب الدنيا، ويغلب عليه حب الله، حتى تتقوى به الارادة وتصح به النية ويندفع عنه الغرور. قال الصادق عليه السلام: «واعلم أنك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمني إلا بصدق الإنابة إلى الله، والاخبات له، ومعرفة عيوب أحوالك من حيث لا يوافق العقل والعلم، ولايحتمله الدين والشريعة وسنن القدوة وأئمة الهدى، وإن كنت راضياً بما أنت فيه فما أحد أشقى بعملك منك وأضيع عمراً، فاورثت حسرة يوم القيامة»[١].

---

(١) صححناه على مصباح الشريعة، الباب ٣٦.

ومنها:

طول الأمل

معنى طول الأمل ومرجعه ـ علاجه ـ ضده قصر الأمل ـ اختلاف الناس في طول الأمل ـ ذكر الموت مقصر للأمل ـ التعجب ممن ينسى الموت ـ الموت أعظم الدواهي ـ مراتب الناس في ذكر الموت.

وهو أن يقدّر ويعتقد بقاءه إلى مدة متمادية، مع رغبته في جميع توابع البقاء: من المال والأهل والدار وغير ذلك، وهو من رذائل قوتى العاقلة والشهوة، إذ الاعتقاد المذكور راجع إلى الجهل المتعلق بالعاقلة، وحبه لجميع توابع البقاء وميله إليه من شعب حب الدنيا. وجهله راجع إلى تعويله: إما على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، ولايتفكر المسكين في ان مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر عشير أهل البلد، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب اكثر، وإلى أن يموت شيخ يموت الف صبّى وشاب، أو على صحته وقوته، ويستبعد مجيء الموت فجاة، ولا يتأمل في أن ذلك غير بعيد، ولو سلم بعده فالمرض فجأة غير بعيد، إذكل مرض انما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً. ولو تفكر هذا الغافل، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من شباب وشيب وكهولة، ومن شتاء وخريف وصيف وربيع، وليل ونهار، وحضر وسفر، لكان دائماً مستشعراً غير غافل عنه، وعظم اشتغاله بالاستعداد له، لكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا بعثاه على الغفلة وطول الأمل، فهو أبداً يظن أن الموت بين يديه، ولا يقدّر نزوله ووقوعه فيه، ويشيع الجنائز ولا يقدّر أن تشيع جنازته، لأن هذا قد تكرر عليه، والفه بتكرر مشاهدة موت غيره. واما موت نفسه، فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه، لأنه لم يقع، وإذا وقع لا يقع دفعة أخرى بعده، فهو الأول وهو الآخر!

وأما حبه لتوابع البقاء: من المال والدار والمراكب والضياع والعقار، فراجع إلى

الانس بها والالتذاذ بها في مدة مديدة، فيثقل على قلبه مفارقتها، فيمنع قلبه عن التفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، إذ كل من كره شيئاً يدفعه عن نفسه. والانسان لما كان مشغوفاً بالاماني الباطلة، وبالدنيا وشهواتها ولذاتها وعلائقها، فتتمنى نفسه أبداً ما يوافق مراده، ومراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقرره في نفسه، ويقدّر توابع البقاء من اسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفا عليه، فيلهو عن ذكر الموت ولايقدر قربه، فإن خطر له في بعض الأحيان امر الموت والحاجة إلى الاستعداد له، سوّف ووعد نفسه إلى أن يكبر فيتوب. وإذا كبر أخر التوبة إلى أن يصير شيخاً، وإذا صار شيخاً يؤخرها إلى أن يفرغ من عمارة هذه الضيعة أو يرجع من سفر كذا أو يفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، ولا يزال يسوّف ويؤخر إلى أن يخطفه الموت في وقت لا يحتسبه، فتعظم عند ذلك بليته وتطول حسرته، وقد ورد أن اكثر أهل النار صياحهم من سوف، يقولون واحزناه من سوف! والمسوف المسكين لا يدرى أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا، إذ الخائض في الدنيا لا يتصور له الفراغ منها قط، إذ ما قضى من اخذ منها لبانته، وانما فرغ منها من أطرحها.

فصل

(علاج طول الأمل)

لما عرفت أن طول الأمل منشأه الجهل وحب الدنيا، فينبغى أن يدفع الجهل بالفكر الصافي من شوائب العمى، وبسماع الوعظ من النفوس الطاهرة، فإن من تفكر يعلم أن الموت اقرب إليه من كل شيء، وأنه لا بد أن تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه، ولعل أكفانه قد خرجت من عند القصار وهو لايدرى به. وأما حب الدنيا فينبغى أن يدفع من القلب بالتأمل في حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة، وما ورد في الأخبار من الذم والعقاب في حب الدنيا

والرغبة إليها، ومن المدح والثواب على تركها والزهد عنها، وقد تقدم ما يكفى لهذا البيان، وينبغى ـ ايضاً ـ أن يتذكر ما ورد في مدح ضد طول الأمل ـ أعنى قصر الأمل كما يأتى ـ وما ورد في ذم طول الأمل، كقوله ﷺ: «إن أشد ما اخاف عليكم خصلتان: اتباع الهوى، وطول الأمل. فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ـ ثم قال ـ: إن الله يعطى الدنيا من يحب ويبغض وإذا أحب عبداً أعطاه الايمان، ألا إن للدين ابناء وللدنيا ابناء، فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية، ألا إن الآخرة قد اتت مقبلة، ألا وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب، ألا وانكم يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل»[1]. وقوله ﷺ: «نجا أول هذه الامة باليقين والزهد، ويهلك آخر هذه الامة بالبخل والأمل». وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما أطال عبد الأمل إلا أساء الأمل».

وصل
(قصر الأمل)

ضد طول الأمل قصره، وهو من شعار المؤمنين ودثار الموقنين، ولذا ورد في الأمر به والنهى عن ضده ما ورد، قال رسول الله ﷺ: «إذا اصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من دنياك لآخرتك، ومن حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فإنك لا تدرى ما اسمك غداً». وقال ﷺ بعد ما سمع أن اسامة اشترى وليدة بمائة دينار إلى شهر: «إن اسامة لطويل الأمل، والذي نفسى بيده! ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفرىّ لا يلتقيان

---

(١) صححنا الحديث على احياء العلوم: ٤ / ٣٨٤، وهو يرويه عن على عليه السلام عن النبى ﷺ، ولكن في كنز العمال: ٢ / ١٦٩، يرويه: أنه من كلام على عليه السلام نفسه، مع اختلاف يسير عن عبارة الاحياء، وعبارة الكنز أبلغ وأرصن، وفيه كلمة (الآخرة) بدل (الدين)، ونفس الكلام مع اختلاف يسير أيضاً (وهو أبلغ وأعلى من العبارتين)، مروى في نهج البلاغة: رقم ٤١ من باب الخطب، فراجع.

حتى يقبض الله روحى، ولا رفعت طرفي فظننت أنى واضعه حتى أُقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أنى لا أسيغها حتى اغص بها من الموت»، ثم قال: «يا بني آدم! إن كنتم تعقلون فعدّوا انفسكم من الموتى، والذي نفسى بيده! إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين». وروى: «أنه ﷺ قد اطلع ذات عشية إلى الناس، فقال: أيها الناس! أما تستحيون من الله تعالى؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وتبنون ما لا تسكنون». وقال ﷺ: «أكلّكم يحب أن يدخل الجنة؟ قالوا: نعم يا رسول الله! قال: قصروا من الأمل، واجعلوا آجالكم بين ابصاركم، واستحيوا من الله حق الحياء». وكان ﷺ يقول في دعائه: «أللهم إنى أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات، واعوذ بك من امل يمنع خير العمل». وكان ﷺ يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة، ويقول لعلّى لا أبلغه. وقال عيسى ﵇: «لا تهتموا برزق غد، فإن لم يكن غداً من آجالكم فستأتى أرزاقكم مع آجالكم، وإن لم يكن غداً من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم».

فصل

(اختلاف الناس في طول الأمل)

الناس في طول الأمل وقصره مختلفون: **(فمنهم)** من يأمل البقاء ويشتيهه أبداً، كما قال الله سبحانه:

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(١).

وهو الذي إنغمر في الدنيا وخاض في لذاتها، وليس له من الآخرة نصيب. **(ومنهم)** من يأمل البقاء إلى أقصى مدة العمر الذي يتصور لأهل عصره، وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً، ويشتغل بجمع ما يمكنه في هذه المدة، وربما يجتهد

(١) البقرة، الآية: ٩٦.

بجمع الأزيد منه. **(ومنهم)** من يأمل أقل من ذلك إلى أن ينتهى إلى من لا يأمل ازيد من سنة، فلا يشتغل بتدبير ما وراءها، ولا يقدر لنفسه وجوده في عام قابل، فإن بلغه حمد الله على ذلك، ومثله يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف، وإذا جمع ما يكفيه السنة اشتغل بالعبادة. **(ومنهم)** من يأمل أقل من السنة إلى أن ينتهى إلى من لا يأمل أزيد من يوم وليلة، فلا يستعد إلا لنهاره دون غده. و(منهم) من يكون الموت نصب عينيه، كأنه واقع به وهو ينتظره، ومثله يصلى دائماً صلاة المودعين. وروى: «أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم سأل بعض الصحابة عن حقيقة ايمانه، قال: ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها اخرى». وكان بعضهم إذا يصلى يلتفت يميناً وشمالا، ولما قيل له: ما هذا الالتفات؟ قال: «انتظر ملك الموت من أى جهة يأتنى».

ثم اكثر الخلق ـ (لا) سيما في أمثال زماننا ـ قد غلبهم طول الأمل، بحيث لا يأمل اقل من أقصى مدة السنّ، وقلّ فيهم من قصر أمله والعجب أنّه كلّما يزداد السنّ يزداد طول الأمل، وفي عصرنا اكثر المشايخ والمعمرين حرصهم وطول أملهم اكثر من الشبّان، ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل». وقال عليه السلام: «حب الشيخ شاب في طلب الدنيا، وإن التفت ترقوتاه من الكبر، إلا الذين اتقوا، وقليل ما هم».

ثم يعرف طول الأمل وقصره بالاعمال: فمن اعتنى بجمع اسباب لا يحتاج إليها في سنة فهو طويل الأمل، وكذلك من انتشرت اموره، بأن يكون له مع الناس معاملات ومحاسبات إلى مدة معينة، كالسنة وازيد منها، وكان عليه ديون من الناس كذلك، ومع ذلك لم يكن مضطرباً ولا خائفاً فهو طويل الأمل. فعلامة قصر الأمل: أن يجمع امره بحيث لا يكون عليه من الناس شيء، ولا يسعى لطلب قوت الزائد على أربعين يوماً، ويصرف أوقاته في الطاعة والعبادة. ويرى نفسه كمسافر يجتهد في تحصيل الزاد.

فصل
(ذكر الموت مقصر للأمل)

ذكر الموت يقصر الأمل ويدفع طوله، ويوجب التجافي عن دار الغرور والاستعداد لدار الخلود، ولذا ورد في فضيلته والترغيب فيه اخبار كثيرة، قال رسول الله ﷺ: «اكثروا ذكر هادم اللذات»، قيل: وما هو يا رسول الله!؟ قال: «الموت، فما ذكره عبد على الحقيقة في منعة إلا ضاقت عليه الدنيا، ولا في شدة إلا اتسعت عليه». وقال ﷺ: «تحفة المؤمن الموت». وقال ﷺ: «الموت كفارة لكل مسلم». وقيل له ﷺ: هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: «نعم! من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة». وقال ﷺ: «اكثروا من ذكر الموت، فأنه يمحص الذنوب، ويزهد في الدنيا». وقال ﷺ: «كفى بالموت واعظاً». وقال ﷺ: «الموت الموت، إلا ولا بد من الموت، جاء الموت بما فيه، جاء بالروح والراحة والكرة المباركة إلى جنة عالية لأهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم». وقال ﷺ: «إذا استحقت ولاية الله والسعادة، جاء الأجل بين العينين وذهب الأمل وراء الظهر، وإذا استحقت ولاية الشيطان والشقاوة، جاء الأمل بين العينين وذهب الأجل وراء الظهر». وذكر عنده ﷺ رجل، فاحسنوا الثناء عليه، فقال ﷺ: «كيف ذكر صاحبكم للموت؟»، قالوا: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت، قال: «فان صاحبكم ليس هنالك». وسئل: أى المؤمنين أكيس وأكرم؟ فقال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأشدهم استعداداً له، أولئك هم الاكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة». وقال الباقر عليه السلام: «اكثروا ذكر الموت، فإنه لم يكثر ذكره انسان إلا زهد في الدنيا». وقال الصادق عليه السلام: «إذا انت حملت جنازة فكن كأنك أنت المحمول وكأنك سألت ربك الرجوع إلى الدنيا ففعل، فانظر ماذا تستأنف»، ثم قال عليه السلام: «عجباً لقوم حبس أولهم عن آخرهم، ثم نودى فيهم بالرحيل وهم يلعبون». وقال عليه السلام لأبى بصير ـ بعد ما شكى إليه الوسواس ـ: «أُذكر يا أبا محمد تقطع أوصالك في قبرك، ورجوع أحبائك عنك إذا دفنوك في حفرتك،

وخروج بنات الماء من منخريك، واكل الدود لحمك، فإن ذلك يسلي عليك ما أنت فيه»، قال أبو بصير: فو الله! ما ذكرته إلا سلى عنى ما أنا فيه من هم الدنيا. وقال عليه السلام: «من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغافلين، وكان مأجوراً كلما نظر اليه»[١].

وقال عليه السلام: «ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوى القلب بمواعد الله، ويرق الطبع، ويكسر اعلام الهوى، ويطفى نار الحرص، ويحقر الدنيا، وهو معنى ما قال النبى صلى الله عليه وآله: (فكر ساعة خير من عبادة سنة)، وذلك عندما يحل أطناب خيام الدنيا ويشدها في الآخرة، ولا ينكر نزول الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة، ومن لا يعتبر بالموت، وقلة حيلته، وكثرة عجزه، وطول مقامه في القبر، وتحيره في القيامة: فلا خير فيه. وقال النبى صلى الله عليه وآله: (اكثروا ذكر هادم اللذات...)، ثم ذكر تمام الحديث كما مر... ثم قال عليه السلام: والموت أول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من منازل الدنيا، فطوبى لمن اكرم عند النزول باولها، وطوبى لمن احسن مشايعته في آخرها، والموت أقرب الأشياء من بنى آدم، وهو بعده ابعد، فما أجرأ الانسان على نفسه، وما أضعفه من خلق، وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين، ولذلك اشتاق من اشتاق إلى الموت وكره من كره، قال النبى صلى الله عليه وآله: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)»[٢].

فصل

(العجب ممن ينسى الموت)

عجباً لقوم نسوا الموت وغفلوا عنه، وهو اظهر اليقينيات والقطعيات في العالم، واسرع الأشياء إلى بنى آدم، قال الله سبحانه وتعالى:

---

(١) صححنا اكثر الاحاديث على الوسائل -ج ١: الباب ٢٣ من أبواب الاستحضار في كتاب الطهارة -، وعلى احياء العلوم: ٤ / ٢٨٣.

(٢) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: الباب ٨٤.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَ لَوْكُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[١]. وقال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَ إِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَ أُدْخِلَ ٱلْـجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَ مَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٢].

وقال الصادق عليه السلام: «ما خلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما انزل الموت حق منزلته من عدّ غداً من أجله». وقال عليه السلام: «لو رأى العبد أجله وسرعته اليه، لأبغض العمل من الدنيا». وقال الصادق عليه السلام: «ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلا وملك الموت يتصفحه كل يوم خمس مرات». وقد تقدمت اخبار أخر في هذا المعنى.

فصل
(الموت أعظم الدواهى)

اعلم أن الموت داهية من الدواهى العظمى، ومن كل داهية اشد وادهى، وهو من الأخطار العظيمة والاهوال الجسيمة، فمن علم أن الموت مصرعه والتراب مضجعه، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره، والدود أنيسه والعقارب والحيات جليسه، فجدير أن تطول حسرته وتدوم عبرته، وتنحصر فيه فكرته وتعظم بليته، وتشتد لأجله رزيته، ويرى نفسه في اصحاب القبور ويعدها من الاموات، إذ كل ما هو آت قريب، والبعيد ما ليس بآت، وحقيق ألا يكون ذكره وفكره وغمه وهمه وقوله وفعله وسعيه وجده إلا فيه وله، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو أن البهائم يعلمون ما تعلمون ما اكلتم منها سميناً». وقال صلى الله عليه وآله لقوم يتحدثون ويضحكون: «اذكروا الموت، أما والذي نفسى بيده! لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً»، ومرّ صلى الله عليه وآله

(١) النساء، الآية: ٧٨.

(٢) آل عمران، الآية: ١٨٥.

بمجلس قد استعلاه الضحك، فقال: «شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات». قالوا: وما مكدر اللذات؟ قال: «الموت».

ثم غفلة الناس عن الموت لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا وعلائقها، فلا ينفع ذكره في قلبه، فالطريق فيه: أن يفرغ القلب عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى بلد بعيد ما بينهما مفازة مخطرة، أو بحر عظيم لا بد أن يركبه، فإنه لايتفكر إلا فيه، ومن تفكر في الموت بهذا الطريق وتكرر منه ذلك، لأثر ذكره في قلبه، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا، وتنزجر نفسه عنها، وينكسر قلبه، ويستعد لأجله. وأوقع طريق فيه: أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله، ونقلوا من انس العشرة إلى وحشة الوحدة ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مصاحبة الهوام والديدان، ويتذكر مصرعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ثم يتفكر كيف محى التراب الآن حسن صورتهم، وكيف تبددت اجزاؤهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساكنهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم وأوحشت ديارهم، فمهما تذكر رجلا رجلا، وفصل في قلبه حاله وكيفية حياته، وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وأمله في العيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمؤثثات الاسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله، وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد اكل التراب اسنانه، وكيف دبر لنفسه الأمور وجمع من حطام الدنيا ما لا يتفق احتياجه إليه على مرّ الأعوام والشهور وكرّ الأزمنة والدهور. ثم يتأمل أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وسيصير حاله في القبر كحالهم، فملازمة هذه الأفكار وامثالها، مع دخول المقابر وتشييع الجنائز ومشاهدة المرضى، تجدد ذكر الموت في قلبه، حتى يغلب عليه

بحيث يصير الموت نصب عينيه، وعند ذلك ربما يستعد له ويتجافي عن دار الغرور، وأما الذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان فقليل الجدوى في التنبيه والايقاظ ومهما طاب قلبه بشيء من اسباب الدنيا، فينبغى أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته. كما نقل: أن بعض الاكابر نظر يوماً إلى داره فاعجبه حسنها فبكى وقال والله لولا الموت لكنت بها مسروراً.

فصل

(مراتب الناس في ذكرالموت)

الناس بين منهمك في الدنيا خائض في لذاتها وشهواتها، وبين تائب مبتدىء، وعارف منتهى.

(فالأول): لايذكر الموت، وإن ذكره فيذكره ليذمه لصده عما يحبه من الدنيا، وهو الذي يفر منه، وقال الله تعالى فيه:

﴿**قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ**...﴾ الآية(١).

وهذا يزيده ذكر الموت بعداً من الله، إلا إذا استفاد منه التجافي عن الدنيا، ويتنغص عليه نعيمه، ويتكدر صفو لذته، وحينئذ ينفعه، لأن كل ما يكدر على الانسان اللذات فهو من أسباب نجاته.

(والثانى): يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية، فيفى بتمام التوبة، وربما يكرهه خيفة من أن يختطفه قبل الاستعداد وتهيئة الزاد وتمام التوبة، وهو معذور في كراهة الموت، ولا يدخل تحت قوله ﷺ: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه»، لان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره، وهو الذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه

---

(١) الجمعة، الآية: ٨

يرضاه، فلا يعد كارهاً للقائه. وعلامة هذا: «أن يكون دائم الاستعداد للموت لاشغل له سواه، وإن لم يكن مستعداً له عاملا بما ينفعه في الآخرة التحق بالاول.

(وأما الثالث): فانه يذكر الموت دائماً، لانه موعد للقاء حبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في غالب الامر يستبطيء مجيء الموت ويحب مجيئه، ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما روى: «أن حذيفة لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من رده، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليّ من الغنى،والسقم احب إليّ من الصحة، والموت أحب إليّ من الحياة، فسهل عليّ الموت حتى ألقاك». وأعلى رتبة منه: من يفوض امره إلى الله، ولا يختار لنفسه شيئاً: من الموت أو الحياة، والفقر والغنى، والمرض والصحة، بل يكون احب الاشياء إليه احبها إلى مولاه، وهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى درجة التسليم والرضى، وهو الغاية والانتهاء.

تتميم
(المبادرة إلى الحسنات)

من علامات قصر الامل وذكر الموت: المبادرة إلى الحسنات واشتياق الخيرات، ولذا ورد فيه الترغيب والحذر عن آفة التأخير، قال رسول الله ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك». وقال ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[١]. وكان ﷺ إذا احس من اصحابه غفلة وغرة، نادى فيهم بصوت عال: «اتتكم المنية، إما بشقاوة أو بسعادة». وروى: أنه ما من صباح ولامساء إلا ومناد ينادى: أيها الناس! الرحيل الرحيل!. وقال

---

(١) صححنا الحديث على احياء العلوم: ٤ / ٣٩٠. وفي نسخ الكتاب (أولج ومن أولج).

بعض الأكابر: التؤدة في كل شيء خير، إلا في أعمال الآخرة.

ومنها:

العصيان

ولا ريب في كونه من رذائل قوتى الغضب والشهوة معاً، لأن بعض انواعه من رذائل احداهما من جانب الافراط أو التفريط، أو من باب رداءتها، وبعض آخر من انواعه من رذائل الأخرى. وضده (التقوى والورع)، وبالمعنى الأعم: اعنى الاجتناب عن مطلق المعصية خوفا من سخط الله، وقد تقدم ما ورد في فضيلتهما،فتذكر.

ومنها:

الوقاحة

وهو عدم مبالاة النفس، وعدم انفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية أو العرفية، وكونه من رداءة قوتى الغضب والشهوة ظاهر.

وضدها (الحياء)، وهو انحصار النفس وانفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية والعادية حذراً من الذم واللوم، وهو أعم من التقوى، إذ التقوى اجتناب المعاصي الشرعية، والحياء يعم ذلك واجتناب ما يقبحه العقل والعرف أيضاً، فهو من شرائف الصفات النفسية، ولذا ورد في فضله ما ورد، قال الصادق عليه السلام: «الحياء من الايمان، والايمان في الجنة». وقال عليه السلام: «الحياء والعفاف والعي ـ أعنى عيّ اللسان لا عيّ القلب ـ من الايمان». وقال عليه السلام: «الحياء والايمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه». وقال عليه السلام: «لا ايمان لمن لا حياء له». ثم حقيقة الحياء ـ كما عرفت ـ هو الانفعال عن ارتكاب ما يذم شرعا أو عقلا أو عرفا، فالانفعال عن غير ذلك حمق، فان الانفعال عن تحقيق احكام الدين أو الخمود عما ينبغي شرعا وعقلا لا يعد حياء بل حمقاً، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحياء حياءان: حياء

عقل وحياء حمق، فحياء العقل هو العلم وحياء الحمق هو الجهل»[١].

ومنها:

الإصرار على المعصية

رجوع رذيلة الاصرار إلى أى القوى وذمها ـ ضد الاصرار التوبة وتعريفها ـ هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟ ـ وجوب التوبة ـ تحقيق في وجوبها ـ عموم وجوبها ـ لا بد من العمل بعدها ـ فضيلتها ـ قبولها ـ طريقة التوبة من المعاصى ـ تكفير الصغائر ومعنى الكبائر ـ الصغائر قد تكون كبائر ـ شروط كمال التوبة ـ هل يصح التبعيض فيها؟ ـ أقسام التائبين ـ مراتب التوبة ـ عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة ـ علاج الاصرار على الذنوب ـ الانابة ـ المحاسبة والمراقبة ـ المعنى الظاهر لهما ـ حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا ـ مقامات مرابطة الفعل للنفس.

❋ ❋ ❋

وهو إما ناشيء من رداءة احدى القوتين وخروجها عن اطاعة العاقلة أو عن رداءتهما معاً، فيكون من رذائل القوتين، وكل ما يدل على ذم مطلق المعصية أو على ذم خصوص افرادها المعينة يدل على ذم الاصرار على المعصية بطريق أولى واوكد. والأخبار الواردة في ذم خصوص افراد المعاصى ربما يظفر بجملة منها في هذا الكتاب عند ذكر كل معصية، وأما الأخبار الواردة في ذم مطلق الذنب والمعصية فكثيرة جداً، كقول النبي ﷺ: «ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يناديان باربعة اصوات، يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا، ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا، فيقول الآخر: فياليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا، فيقول الآخر: ويا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا.

(١) صححنا الأحاديث هنا على اصول الكافي (باب الحياء).

واعلموا أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام، وأنه لينظر إلى ازواجه في الجنة يتنعمن». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تبدين عن واضحة وقد عمتك الأعمال الفاضحة، ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات». وقال الباقر عليه السلام: «إن الله قضى قضاء حتما ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة». وقال عليه السلام: «ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته، إن القلب ليواقع الخطيئة، فما يزال به حتى يغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله». وقال عليه السلام: «إن العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق». وقال الصادق عليه السلام: «يقول الله تعالى: إن أدنى ما اصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن احرمه لذيذ مناجاتي». وقال عليه السلام: «من همّ بسيئة فلا يعملها، فانه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب تعالى فيقول: وعزتي وجلالي! لا أغفر لك بعد ذلك ابداً». وقال عليه السلام: «أما إنه ليس من عرق يضرب، ولا نكبة ولا صداع ولا مرض، إلا بذنب، وذلك قول الله عز وجل في كتابه:

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[١].

قال عليه السلام: «وما يعفو الله اكثر مما يؤاخذ به». وقال عليه السلام: «إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم». وقال الكاظم عليه السلام: «حق على الله ألا يعصى في دار إلا اضحاها الشمس حتى يطهرها»[٢].

والأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى، ولا يتوهم أحد أنه يمكن ألا يصل إليه أثر الذنب ووباله، فان هذا محال، فإنه لم يتجاوز عن الأنبياء في تركهم الأولى فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر المعاصي. نعم، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما، ويعذبوا في الآخرة عذابا اكبر واشد، أما سمعت أن اباك آدم قد اخرج من الجنة بتركه الأولى؟

---

(١) الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) صححنا الاحاديث هنا على اصول الكافي (باب الذنوب).

حتى روى: «أنه لما أكل الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته، وجاء جبرئيل عليه السلام واخذ التاج من رأسه وخلى الاكليل عن جنبيه، ونودى من فوق العرش: اهبطا من جوارى، فإنه لا يجاورنى من عصانى، فالتفت آدم إلى حواء باكياً، وقال: هذا أول شؤم المعصية، أخرجنا من جوار الحبيب». وروى: «أنه تعالى قال: يا آدم! أى جار كنت لك؟ قال: نعم الجار يا رب! قال: يا آدم! اخرج من جوارى وضع عن رأسك تاج كرامتى، فإنه لا يجاورنى من عصانى». وقد روى: «أن آدم بكى على ذنبه مائتى سنة، حتى قبل الله توبته وتجاوز عما ارتكبه من ترك الأولى». فإن كانت مؤاخذته في نهى تنزيه مع حبيبه وصفيه هكذا، فكيف معاملته مع الغير في ذنوب لاتحصى.

وصل
(التوبة وتعريفها)

ضد الاصرار (التوبة)، وهي الرجوع من الذنب القولى والفعلى والفكرى، وبعبارة اخرى: هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد إلى القرب، وبعبارة اخرى: ترك المعاصى في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير. وكما أن الاصرار على العصيان من رذائل قوتى الغضب والشهوة، فالرجوع عنه وتركه من فضائلهما، بمعنى أن العزم على ترك كل معصية يكون من عمل كليهما أو احداهما، ومن فعل النفس باعانتهما وانقيادهما للعاقلة، وإن كان الباعث على الرجوع وتهيج النفس والقوتين على مباشرة الرجوع والترك هو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجابا بين العبد وبين المحبوب، ويمكن أن يقال: إن التوبة هو الرجوع عن الذنب، وهو من ثمرات الخوف والحب، فان مقتضى الحب أن يمتثل مراد المحبوب ولا يعصى في شيء مما يريده ويطلب من المحب، فتكون من فضائل القوتين أيضاً. ويمكن أن يقال: إن التوبة عبارة عن مجموع العلم بضرر

الذنوب، وكونها حجابا بينه وبين الله والندم الحاصل منه، والقصد المتعلق بالترك حالا واستقبالا، والتلافي للماضي والندم، والقصد بالترك والتلافي من فعل القوتين أو فعل النفس بوساطة القوتين وانقيادهما للعاقلة، والعلم المذكور من العاقلة، فتكون التوبة من فضائل القوى الثلاث.

وتوضيح حقيقة التوبة: أنه إذا علم العبد علماً يقينياً أن ما صدر عنه من الذنوب حائلة بينه وبين محابه، ثار من هذا العلم تألم القلب بسبب فوات المحبوب، وصار متأسفاً على ما صدر عنه من الذنوب، سواء كانت افعالا أو تروكا للطاعات، ويسمى تألمه ـ بسبب فعله أو تركه المفوت لمحبوبه ـ ندما. وإذا غلب هذا الندم على القلب، انبعثت منه حالة اخرى تسمى ارادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذي كان ملابسا له، وبالاستقبال بعزمه على ترك الذنب المفوت لمحبوبه إلى آخر عمره، وبالماضي بتلافيه ما فات بالجبر والقضاء. فالعلم ـ أعنى اليقين بكون الذنوب سموما مهلكة ـ هو الأول، وهو مطلع البواقي، إذ مهما اشرق نور هذا اليقين على القلب أثمر نار الندم على الذنب، فيتألم به القلب، حيث ينظر باشراق نور الايمان واليقين أنه صار محجوبا عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب، فيرى محبوبه قد اشرف على الهلاك، فتشتعل نيران الحب في قلبه، وتنبعث بتلك النيران ارادته للانتهاض للتدارك. فالعلم، والندم، والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي: ثلاثة معان مترتبة في الحصول، يطلق اسم (التوبة) على مجموعها. وربما اطلقت التوبة على مجرد الندم، وجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع للمتأخر، وإلى هذا الاعتبار يشير قوله ﷺ: «الندم توبة»، إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه واثمره، أو عن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفا بطرفيه، اعنى ثمرته ومثمره، وبهذا الاعتبار قيل في حدها: إنها ذوبان الحشا لماسبق من الخطأ، أو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب، وربما اطلقت على

مجرد ترك الذنوب حالا والعزم على تركها استقبالا، وبهذا الاعتبار قيل في حدها: إنها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وإنها تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، أو إنها ترك اختيار الذنب حالا وتوطين القلب وتجريد العزم على عدم العود إليه استقبالا. وعلى هذا لا يكون داخلا في حقيقة التوبة، وقد صرّح بعض الاعاظم بخروجه عنها، محتجاً بأن الندم ـ وهو تألم القلب وحزنه على الذنب ـ غير مقدور، ولذا ترى تقع الندامة على امور في قلبه وهو يريد ألا يكون ذلك فلا يكون الندم مقدوراً، وإنما المقدور تحصيل أسبابه، أعنى الايمان والعلم بفوات المحبوب وتحقيقهما في قلبه. وعلى هذا فلا يكون الندم من التوبة، إذ التوبة مقدورة للعبد ومأمور بها، فاللازم فيها التندم دون الندم. وغير خفى بأن الندم كغيره من صفات النفس، فإن أمكن ازالة الصفات النفسية وكسبها فالندم كذلك، وإلا لزم بطلان علم الأخلاق بالكلية، وأيضاً إذا امكن تحصيل سبب الندامة ـ اعنى العلم بفوات المحبوب ـ لزم ترتب المسبب ـ اعنى الندامة عليه ـ فما معنى عدم كونه مقدوراً، فالندامة في الازالة والتحصيل لا يكون اصعب من كثير من الأخلاق النفسية. وبعضهم يعدّ ما عدا التندم من شرائط التوبة، قال: «وأما الندم ـ اعنى تألم القلب على الذنب الذي هو روح التوبة ـ فغير مقدور، وهو التوبة حقيقة، وإنما المقدور تحصيل أسبابه من العلم والايمان وتحقيقهما في قلبه» انتهى. وفيه ما لا يخفى بعلاوة ما سبق، قال الصادق عليه السلام: «التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال، وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات، وتوبة الأصفياء من التنفيس، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في اصول توبته ومنتهى أمره، وذلك يطول شرحه هنا.

وأما توبة العام، فإن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة، والاعتراف بجنايته دائماً، واعتقاد الندم على ما مضى، والخوف على ما بقى من عمره، ولا يستصغر

ذنوبه فيحمله ذلك إلى الكسل، ويديم البكاء والاسف على ما فاته من طاعة الله، ويحبس نفسه عن الشهوات، ويستغيث إلى الله تعالى ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود إلى ما سلف، ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة، ويقضى عن الفوائت من الفرائض، ويرد المظالم، ويعتزل قرناء السوء، ويسهر ليله ويظمأ نهاره، ويتفكر دائماً في عاقبته، ويستعين بالله سائلا منه الاستقامة في سرائه وضرائه، ويثبت عند المحن والبلاء كيلا يسْقط عن درجة التوابين، فان في ذلك طهارة من ذنوبه، وزيادة في عمله، ورفعة في درجاته. قال الله عز وجل:

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ[١]﴾[٢].

تتمة

(هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟)

التوبة انما تكون عن ذنب سبق مثله، (أما)[٣] ترك ذنب لم يسبق مثله حالا والعزم على تركه استقبالا لا يسمى توبة، بل يسمى تقوى، ويسمى صاحبه متقياً لا تائباً ولذا يصح القول بأن النبي ﷺ كان متقياً عن الكفر، ولا يصح القول بأنه كان تائباً عنه. ثم المراد بالمثل السابق أعم من أن يكون مثلا في الصورة أو المنزلة، فالشيخ الهم الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق، ولم يقدر الساعة على فعلهما إذا أراد التوبة عنهما، ينبغي أن يتوب عما يماثلهما منزلة ودرجة، كالقذف والسرقة وامثالهما، إذ لا معنى للتوبة عما يماثلهما صورة ـ اعنى نفس الزنا وقطع الطريق ـ مع عدم قدرته عليهما، ولو لم تكن التوبة عما يماثل الشيء في المنزلة والدرجة توبة عن هذا الشيء، لزم أن يكون باب التوبة مسدوداً بالنسبة إلى مثل الشيخ الهم وكل

(١) العنكبوت، الآية: ٣.

(٢) صححنا هذه الرواية على (مصباح الشريعة: الباب ٨٠).

(٣) وفي النسخ (أو) بدل (أما)، والصحيح ما أثبتناه.

من صدر منه معصية والآن لا يقدر عليها، وهو باطل، لانفتاح باب التوبة إلى الموت، ولما ذكر، قال بعض المشايخ في حد التوبة: «إنها ترك اختيار ذنب سبق مثله منه منزلة لاصورة، تعظيما لله وحذراً من سخطه». فقوله: «سبق مثله» احتراز عن ترك ذنب لم يسبق مثله، فإنه لا يسمى توبة بل تقوى، وقوله: «منزلة لا صورة» لإدخال التوبة عما سبق ولا يقدر الآن على فعله، وعلى هذا فتوبة العنين عن النظر واللمس وأمثال ذلك يكون توبة عن الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة، والظاهر أن بناء ذلك على دلالة توبته عما يقدر عليه الآن، على أنه لو كان قادراً على الزنا لتركه أيضاً، لاشعاره بأن توبته صدرت عن معرفة ويقين بضرر الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة، فلو كان قادراً عليه لتركه أيضاً.

قال أبو حامد الغزالي: «إن قلت: هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة؟ قلت: لا! لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله، فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه»، ثم قال: «ولكني أقول: لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه، وثار منه احتراق وتحسر وندم، بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها، فاني ارجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه سيئته، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين، وان لم تطرأ عليه حالة تتهيج فيها الشهوة وتتيسر اسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده، فاذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف، والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه، فعساه يقبله منه، بل الظاهر انه يقبله. والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين: ـ أحدهما ـ حرقة الندم، و الآخر ـ شدة المجاهدة بالترك في المستقبل، وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة، ولكن

ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا: ان التوبة لا تقبل مالم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة، وذلك مما يدل الظاهر الشرع على اشتراطه».

فصل

(وجوب التوبة)

التوبة عن الذنوب بأسرها واجبة: بالاجماع، والنقل، والعقل:

أما الاجماع ـ فلا ريب في انعقاده. وأما النقل ـ فكقوله تعالى:

﴿وَ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]. وقوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[2].

ومعنى النصوح: الخالص لله خالياً عن شوائب الأغراض، من مال أو جاه أو خوف من سلطان أو عدم اسباب، والأمر للوجوب، فتكون التوبة واجبة بمقتضى الآيتين.

وأما العقل ـ فهو أن من علم معنى الوجوب ومعنى التوبة فلا يشك في ثبوته لها. (بيان ذلك): أن معنى الواجب وحقيقته هو ما يتوقف عليه الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك السرمد، ولولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن معنى لوجوبه، فالواجب ما هو وسيلة وذريعة إلى سعادة الأبد. ولا ريب في أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله والانس به، فكل من كان محجوبا عن اللقاء والوصال محروماً عن مشاهدة الجلال والجمال، فهو شقي لا محالة، محترق بنار الفراق ونار جهنم. ثم لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات النفسية والغضب والانس

---

(١) النور، الآية: ٣١.

(٢) التحريم، الآية: ٨.

بهذا العالم الفانى، والاكباب على حب ما لا بد من مفارقته قطعاً، ويعبر عن ذلك بالذنوب. ولا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم، والاقبال بالكلية على الله، طلباً للانس به بدوام الذكر، والمحبة له بدوام الفكر في عظمته وجلاله وجماله على قدر طاقته. ولا ريب في أن الانصراف عن طريق البعد الذي هو الشقاوة واجب للوصول إلى القرب الذي هو السعادة، ولا يتم ذلك إلا بالتوبة التي عبارة عن العلم والندم والعزم، ولا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فالتوبة واجبة قطعاً.

تذنيب
(تحقيق في وجوب التوبة)

كيف لا تكون التوبة عن المعاصى واجبة، مع أن العلم بضرر المعاصى وكونها مهلكة من اجزاء الايمان ووجوب الايمان ومما لا ريب فيه، والعالم بهذا العلم إذا لم يعمل به فكما لا يعلمه أو ينكره فلا يكون له هذا الجزء من الايمان، لأن كل علم يراد ليكون باعثاً على العمل، فلا يقع التفصى عن عهدته ما لم يصير باعثاً، فالعلم بضرر الذنوب إنما اريد ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان، وهو المراد بقول النبى ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»، وما اراد به نفى الايمان بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله، فإن ذلك لا ينافى الزنا والمعاصى، وإنما أراد به نفى الايمان بالله لكون الزنا مبعداً عن الله وموجباً لسخطه، وليس الايمان بابا واحداً، بل هو ـ كما ورد ـ نيف وسبعون بابا، أعلاها الشهادتان وادناها اماطة الأذى عن الطريق، ومثاله قول القائل: ليس الانسان موجوداً واحداً، بل هو نيف وسبعون موجوداً، أعلاها الروح والقلب وادناها اماطة الاذى عن البشرة، بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظفار نقى البشرة عن الخبث، حتى يتميز عن البهائم المرسلة المتلوثة بارواثها، المستكرهة الصور بطول مخالبها واظفارها،

فالايمان كالانسان، وفقد الشهادتين كفقد الروح الذي يوجب البطلان بالكلية، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة ويترك سائر اجزائه من الأعمال، فهو كإنسان مقطوع الاطراف مقفوء العينين، فاقد لجميع اعضائه الظاهرة والباطنة، إلا أصل الروح. وكما أن من هذا حاله قريب من الموت ومزايلة الروح الضعيفة المنفردة التي تخلفت عنها الاعضاء التي تمدها وتقويها، فكذلك من ليس له إلا أصل الايمان وهو مقصر في الأعمال، قريب من أن تنقلع شجرة ايمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده، فكل ايمان لم يثبت في النفس اصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه، لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة، فالمحجوب عن الايمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الايمان الذي هو اصل، كما أن الشخص الفاقد لجميع الاطراف التي هي فروع ليساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل، فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعى وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع، ولكن بقاءه يستدعى وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل، فمساواة العاصى والمطيع في اسم المؤمن كمساواة شجرة القرع وشجرة الصنوبر في اسم الشجرة، وإنما يظهر الفرق إذا عصفت الرياح القوية، فعند ذلك تنقطع اصول شجرة القرع وتتناثر أوراقها، وتبقى شجرة الصنوبر ثابتة على اصلها وفرعها. ومثل العاصى الذي لا يخاف الخلود في النار لأجل معصيته اتكالا على ايمانه بالتوحيد والرسالة، كمثل الصحيح الذي يأكل الأغذية المضرة والسمومات ولا يخاف الموت اتكالا على صحته، فكما يؤدى صحة هذا الصحيح بتناوله السمومات والأغذيه إلى المرض والمرض إلى الموت، فكذلك تؤدى ذنوب العاصى إلى سوء الخاتمة وسوء الخاتمة إلى الخلود في النار، فالمعاصى للايمان كالسمومات والماكولات المضرة للابدان، فكما أن مضرة

السمومات لا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة، فكذلك آثار المعاصى لاتزال تتراكم في النفس حتى يفسد مزاجها فيسلب عنها اصل الايمان، فالخائف من الموت في هذه النشأة القصيرة إذا وجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ترك الذنوب، ومن تناول السم وندم إذا وجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله باخراجه عن المعدة، فمتناول سموم الايمان وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام مهلة التدارك.

فالبدار البدار معاشر اخوانى إلى التوبة! قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح ايمانكم عملا لا ينفع بعده الاحتماء، ويخرج الأمر فيه عن ايدى اطباء القلوب، فلا ينفع حينئذ وعظ الواعظين ونصح الناصحين، وتحق عليكم كلمة العذاب. وتدخلون تحت عموم قوله تعالى:

﴿وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلَىٰ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾(٢)... وغير ذلك من الآيات.

ثم مقتضى الأدلة المذكورة: كون التوبة واجبة على الفور، فيجب على كل مسلم أن يتوب عن دنوبه فوراً، ولا يجوز له التأخير. قال لقمان لابنه: «يا بنى! لا تؤخر التوبة، فإن الموت يأتى بغتة». ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين: ـ احدهما ـ أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير ديناً وطبعاً فلا يقبل المحو. ـ والثانى ـ أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو. ولذلك ورد: أن اكثر صياح أهل النار من التسويف، فما هلك من

(١) يس، الآية: ٩.

(٢) البقرة، الآية: ٧.

هلك إلا بالتسويف.

فصل
(عموم وجوب التوبة)

وجوب التوبة يعم الاشخاص والاحوال، فلا ينبغي أن ينفك عنه احد في حالة، قال الله تعالى:

﴿وَ تُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾(١).

وهو يعم الكل في الكل. ومما يدل على وجوبها على الكل: أن كل فرد من أفراد الناس إذا بلغ سن التمييز والتكليف قام القتال والنزاع في مملكة بدنه، بين الشهوات جنود الشياطين، وبين العقول احزاب الملائكة، إذ لا تكمل غريزة العقل في أحد إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة، وإذا قام القتال بينهما لا بد بحكم العقل والشرع أن يغلب جنود الله على جنود الشيطان. بقمعها بكسر الشهوات، ورد النفس على سبيل القهر والغلبة على الصفات المحمودة والعبادات، ولا معنى لوجوب التوبة إلا هذا. ومما يدل على وجوبها على الدوام وفي كل حال هو أن كل عبد لا يخلو عن معصية بجوارحه، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن رذائل النفس والهم بالذنوب بالقلب، فإن خلا عن ذلك ايضاً فلا يخلو عن وسوسة الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وآثاره، وكل ذلك نقص يجب الرجوع عنه وهو معنى التوبة.

ولعدم خلو احد من الخلق من نوع هذا النقص وأصله في حالة، وان تفاوتوا في المقادير، يلزم وجوب التوبة على كل عبد في كل حالة، ولو خلا عن التوبة عن جميع

---

(١) النور، الآية: ٣١.

الذنوب في لحظة واختطفه الموت، لزم خروج روحه بلا توبة، لعدم انفكاكه قبل موته ولو بلحظة عن فرد من المعاصی المذكورة، فالتوبة واجبة على كل عبد سالك في كل نفس من أنفاسه، قال بعض العرفاء[١]: «لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على فوت ما مضى من عمره في غير طاعة الله، لكان حقيقاً أن يخزيه[٢] ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله». ومن عرف قدر العمر وفائدته، وما يكتسب به من سعادة الأبد، يعلم أن ما يضيع منه في المعصية وغير التوبة أی حسرة وندامة يترتب عليه، فان العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة، فان ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منه أشد، وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، لا يصالها العبد إلى سعادة الأبد وانقاذها اياه من شقاوة السرمد، وأی جوهر انفس من هذا، فمن ضيعها في الغفلة خسر خسرانا مبيناً، ومن صرفها في معصية فقد هلك هلاكا أبديا. وقد قيل: إن الله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام: ـ احدهما ـ إذا خرج من بطن امه يقول له: عبدی! قد اخرجتك إلى الدنيا طاهراً لطيفاً، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقانی. ـ والثانی ـ عند خروج روحه يقول: عبدی! ماذا صنعت في امانتی عندك، هل حفظتها حتى تلقانی على العهد فالقاك على الوفاء؟ أو اضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟. وإليه الاشارة بقوله تعالى:

﴿أَوْفُوا بِعَهْدِيَ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[٣]. وبقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[٤].

---

(١) هو أبو سليمان الدرانی فيما نقل عنه في احياء العلوم: ٤ / ١٠.

(٢) في نسخ جامع السعادات (يجزيه).

(٣) البقرة، الآية: ٤٠.

(٤) المؤمنون الآية ٨ المعارج، الآية: ٣٢.

وقد روى: أن ملك الموت إذا ظهر للعبد عند موته أعلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الحزن والحسرة والأسف ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لأعطاها بدل أن يضم إلى تلك الساعة ساعة اخرى ليتدارك فيها تفريطه، ولا يجد إليها سبيلا. وقد روى ـ ايضاً ـ: أنه إذا كشف الغطاء للعبد قال لملك الموت: أخرنى يوماً اعتذر فيه إلى ربى واتوب، واتزود صالحاً لنفسى، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: أخرنى ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة، فيغرغر بروحه، وتتردد انفاسه في شراسيفه، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك، وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب اصل ايمانه في صدمات تلك الأهوال، فإذا زهقت نفسه، فإن سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد، وذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة ـ والعياذ بالله ـ خرجت روحه على الشك والاضطراب، وذلك سوء الخاتمة.

تذنيب

التوبة عن بعض المعاصى المذكورة ـ أعنى المحرمات وترك الواجبات ـ واجب بفتوى الشرع، بمعنى أن التارك لهذه التوبة والمرتكب لهذه المعاصى يكون معذبا بالنار، وهذا الوجوب يشترك فيه كافة الخلق، وتكليف الجميع به لا يوجب فساداً في النظام الكلى. وأما التوبة عن بعض آخر منها، كالخواطر والهمم الطارية على القلب والقصور عن معرفة كنه جلال الله وعظمته وامثال ذلك، فليس واجباً بهذا المعنى، لمنافاته انتظام العالم. إذ لو كلف الخلق كلهم أن يتقوا الله حق تقاته، لتركوا المعائش ورفضوا الدنيا بالكلية، وذلك يؤدى إلى بطلان التقوى رأساً، لأنه إن فسدت المعايش لم يتفرغ احد للتقوى. فالتوبة عن كل ما هو المرجوح ليست واجبة بهذا الاعتبار، بل هي واجبة بمعنى آخر، وهو ما لا بد منه للوصول به إلى غاية القرب إلى الله، وإلى المقام المحمود والدرجات العالية، فمن رضى باصل النجاة وقنع به لم

تكن هذه التوبة واجبة عليه، ومن طلب الوصول إلى ما ذكر وجبت عليه هذه التوبة وجوبا شرطياً، بمعنى توقف مطلوبه عليه، كما جرت عليه طوائف الأنبياء والأولياء واكابر العرفاء والعلماء، ولأجله رفضوا لذّات الدنيا بالكلية. وعلى هذا فما ورد من استغفار الأنبياء والأوصياء وتوبتهم إنما هو من ترك دوام الذكر وغفلتهم عن مقام الشهود والاستغراق لأجل اشتغالهم بالمباحات. لا عن ذنوب كذنوبنا، لتعاليهم وتقدسهم عن ذلك. قال الصادق عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يتوب إلى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب. ان الله تعالى يخص أولياءه بالمصائب، وليأجرهم عليها من غير ذنب كذنوبنا، فإن ذنب كل أحد إنما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله». وبمضمونه أخبار أخر.

فصل

(لابد من العمل بعد التوبة)

لايكفى في تدارك الشهوات والتوبة عن الذنوب مجرد تركها في المستقبل، بل لا بد من محو آثارها التي انطبعت في جوهر النفس بنور الطاعات، إذ كل شهوة ومعصية صدرت من الانسان ارتفعت منها ظلمة إلى قلبه، كما ترتفع من نفس الانسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فان تراكمت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت رينا، كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً، كما قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

فإذا تراكم الرين صار طبعاً، فيطبع على قلبه، كما أن الخبث في وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وافسده، وصار بحيث لايقبل التصقيل بعده، فالتائب من الذنوب لا بد له من محو تلك الآثار التي انطبعت منها في نفسه،

(١) المطففين، الآية: ١٤.

ولا يكفى مجرد تركها في المستقبل، كما لا يكفى في تصقيل المرآة وظهور الصور فيها قطع الانفاس والبخارات المسوّدة لوجهها في المستقبل، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار، وكما ترتفع إلى النفس ظلمة من المعاصي والشهوات فتظلمها،فكذلك يرتفع نور من الطاعات وترك الشهوات فينورها، ولهذا النور تنمحى ظلمة المعاصى والشهوات، وإليه الاشارة بقوله ﷺ: «اتبع السيئة الحسنة تمحها». فاذن لا يستغنى العبد في حال من أحواله من محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات، بمعنى أن تكون الحسنة التي ترتكب لمحو السيئة مناسبة لتلك السيئة، لقوله ﷺ: «اتق الله حيث كنت»، ولأن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليه من حسنة تضادها، إذ الضد إنما يرتفع بالضد،فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبحضور مجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالعبادة فيه، ويكفر مس المصحف محدثا باكرامه وتقبيله وكثرة قراءته، ويكفر شرب الخمر بالتصدق لكل شراب حلال هو أحب إليه... إلى غير ذلك وليس ذلك ـ أي ايقاع المناسبة ـ شرطاً في المحو، فقد روى: «أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: إني عالجت إمرأة فاصبت منها كل شيء إلا المسيس، فاقض على بحكم الله، فقال: أما صليت معنا؟ قال: بلى! فقال: إن الحسنات يذهبن السيئات».

وينبغي أن تكون التوبة عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها ويمحو آثارها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾[1]: أي عن قرب عهد بعمل السوء. وقال: **﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا**

(١) النساء، الآية: ١٧.

حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾[١].

قال الصادق عليه السلام: «ذلك إذا عاين أمر الآخرة». وقد ورد مثله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ايضاً.

فصل
(فضيلة التوبة)

اعلم أن التوبة أول مقامات الدين، ورأس مال السالكين، ومفتاح استقامة السائلين، ومطلع التقرب إلى رب العالمين، ومدحها عظيم، وفضلها جسيم، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَ يُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له». وقال الباقر عليه السلام: «إن الله تعالى أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها». وقال عليه السلام: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزىء». وقال الصادق عليه السلام: «إن الله يحب من عباده المفتن التواب»: يعنى كثير الذنب كثير التوبة. وقال عليه السلام: «إذا تاب العبد توبة نصوحاً، أحبه الله فستر عليه»، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: «ينسى ملكيه ما كانا يكتبان عليه، ويوحى إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمى عليه ذنوبه، فيلقى الله عز وجل حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب». وقال الصادق عليه السلام: «إن الله عز وجل اعطى التائبين ثلاث خصال لو اعطى خصلة منها جميع أهل السماوات

(١) النساء، الآية: ١٨.

(٢) البقرة، الآية: ٢٢٢.

والأرض لنجوا بها: قوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ...﴾ إلى آخره[١]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ -إلى قوله- وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ -إلى قوله- وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٣].

وقال أبو الحسن عليه السلام: «أحب العباد إلى الله المنيبون التوابون».

فصل

(قبول التوبة)

التوبة المستجمعة لشرائطها مقبولة بالاجماع، ويدل عليه قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٦].

وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»، وبسط اليد كناية عن طلب

---

(١) البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٢) غافر، الآية: ٧ـ ٩.

(٣) الفرقان، الآية: ٦٨ ـ ٧٠.

(٤) الشورى، الآية: ٢٥.

(٥) غافر، الآية: ٣.

(٦) النساء، الآية: ١١٠.

التوبة، وطالب التوبة يقبله ألبتة. وقوله ﷺ: «إن الحسنات يذهبن السيئات، كما يذهب الماء الوسخ». وقوله ﷺ: «لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم، لتاب الله عليكم». وقوله ﷺ «إن العبد ليذنب الذنب فيدخل في الجنة»، قيل: كيف ذلك يا رسول الله!؟ قال: «يكون نصب عينيه تائباً منه فارّاً حتى يدخل الجنة». وقوله ﷺ: «كفارة الذنب الندامة». وقوله ﷺ: «من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته. ثم قال: إن السنة لكثير، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته. ثم قال: إن الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته. ثم قال: إن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته. ثم قال: إن يوماً لكثير، من تاب قبل أن يعاين ملك الموت قبل الله توبته». وقال الباقر عليه السلام لمحمد بن مسلم: «ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له فليعمل المؤمن لمايستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنها ليست إلا لأهل الايمان»، فقال له: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب، وعاد في التوبة، قال: «يا محمد بن مسلم! أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لايقبل الله توبته؟»، قال: فانه فعل ذلك مراراً، يذنب ثم يتوب ويستغفر، فقال: «كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنط المؤمن من رحمة الله». وقوله عليه السلام: «إذا بلغت النفس هذه ـ وأهوى بيده إلى حلقه ـ لم تكن للعالم توبة، وكانت للجاهل توبة». وقوله عليه السلام: «إن آدم ـ صلّى الله عليه ـ قال: يا رب! سلطت عليّ الشيطان، وأجريته مني مجرى الدم، فاجعل لى شيئاً، فقال: يا آدم! جعلت لك: إن من همّ من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة، ومن همّ منهم بحسنة، فإن لم يعملها كتبت له حسنة، فإن هو عملها كتبت له عشراً، قال: يا رب! زدنى، قال: جعلت لك: إن من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له، قال: يا رب! زدنى، قال: جعلت لهم التوبة وبسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه، قال: يا رب! حسبى». وقول الصادق عليه السلام: «إن الرجل ليذنب الذنب فيد خله الله به الجنة»، قيل: يدخله الله بالذنب الجنة؟ قال:

«نعم! إنه ليذنب فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه، فيرحمه الله فيدخله الجنة». وقوله ﷺ: «العبد المؤمن إذا ذنب ذنباً أجّله الله سبع ساعات،فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة، وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، وإن الكافر لينسى من ساعته». وقوله ﷺ: «ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السماوات والأرض ذو الجلال والاكرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب علي، إلاغفرها الله له، ولاخير فيمن يقارف في يومه اكثر من أربعين كبيرة»(١).

وروى: «أن الله تعالى لما لعن ابليس سأله النظرة، فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لأخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: بعزتي لأحجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح». وورد في الاسرائيليات: «أن شابا عبدالله عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة، فرأى الشيب في لحيته، فساءه ذلك، فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت اليك اتقبلني؟ فسمع قائلا يقول: أجبتنا فأجبناك، فتركتنا فتركناك، وعصيتنا فامهلناك، فإن رجعت الينا قبلناك». والأخبار والآثار في هذا المعنى اكثر من أن تحصى، وفي بعض الأخبار المتقدمة دلالة عليه أيضاً.

ثم الناظر بنور البصيرة لا يحتاج في هذا المعنى إلى بيان، إذ يعلم أن التوبة توجب سلامة القلب، وكل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله، ويعلم أن القلب خلق في الأصل سليما صافياً، إذ كل مولود يولد على الفطرة، وإنما مرض واسودّ بامراض الذنوب وظلماتها، ودواء التوبة يزيل هذه الأمراض،

(١) صححنا الاحاديث الواردة في هذا الباب على اصول الكافي: باب الاعتراف بالذنوب، وباب من يهم بالحسنة أو السيئة، وباب التوبة، وباب الاستغفار من الذنوب، وباب فيما اعطى الله عز وجل آدم وقت التوبة.

ونور الحسنات يمحو هذه الظلمات، ولا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، ولكدورة الوسخ مع بياض الصابون والماء الحار. نعم إذ تراكمت الذنوب بحيث صارت ريناً وطبعاً، وافسدت القلب بحيث لا يقبل الصفاء والنورانية بعد ذلك، فمثل هذا القلب لاتفيده التوبة، بمعنى أنه لا يرجع ولا يتوب، وإن قال باللسان تبت، إذ اوساخ الذنوب غاصت في تجاويفه وتراكمت فيه بحيث لايقبل التطهير، ولو بولغ فيه أدى إلى انخراق القلب وهلاكه، ولصيرورة الاوساخ جزءاً من جوهره، كما أن الثوب الذي غاص الوسخ في تجاويفه وخلله وتراكم فيه، لو بولغ في تطهيره بالماء والصابون أدى ذلك إلى انخراقه. وهذا حال اكثر الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله، فانهم لا يرجعون ولايتوبون، لصيرورة ذمائم الأخلاق ورذائلها ملكات راسخة في نفوسهم وغاصت أوساخها في تجاويف قلوبهم، بحيث لايتنبهون ولا يتيقظون حتى يقصدوا التوبة، ولو قصدوها فانما هو بمجرد اللسان، والقلب غافل خال عن الايمان، بل تتعذر عليه التوبة لبطلان حقيقتها.

فصل

(طرق التوبة عن المعاصى)

إعلم أن ما عنه التوبة هي الذنوب التي علمت تفاصيلها في هذا الكتاب، وهي ـكما ذكرناها ـ لا تخلو عن ا لصفات والافعال الشيطانية المتعلقة بالوهم، والصفات والأفعال السبعية المتعلقة بالقوة السبعية، والصفات والافعال البهيمية المتعلقه بالقوة البهيمية. ومن حيث تعلق التوبة بها وكيفية الخروج عنها ينقسم إلى اقسام ثلاثة:

أحدها ـ ترك الطاعات الواجبة: من الصلاة، والصوم، والزكاة، والخمس، والكفارة وغيرها. وطريق التوبة عنها: أن يجتهد في قضائها بقدر الامكان.

وثانيها ـ المحرّمات التي بين العبد وبين الله، أعنى المنهيات التي هي حقوق

الله: كشرب الخمر، وضرب المزامير، والكذب، والزنا بغير ذات بعل. وطريق التوبة عنها: أن يندم عليها، ويوطن قلبه على ترك العود إلى مثلها أبداً.

وثالثها ـ الذنوب التي بينه وبين العباد، وهي المعبر عنها بحقوق الناس، والأمر فيها أصعب وأشكل، وهي إما في المال، أو في النفس، أو في العرض، أو في الحرمة، أو في الدين:

فما كان في (المال): يجب عليه أن يرده إلى صاحبه إن أمكنه، فإن عجز عن ذلك لعدم أو فقر، وجب أن يستحل منه، وإن لم يحله أو عجز عن الايصال لغيبة الرجل غيبة منقطعة أو موته وعدم بقاء وارث له، فليتصدق عنه إن أمكنه وإلا فعليه بالتضرع والابتهال إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة، وعليه بتكثير حسناته وتكثير الاستغفار له، ليكون يوم القيامة عوضاً عن حقه، إذ كل من له حق على غيره لا بد أن ياخذ يوم القيامة عوضاً عن حقه، إما بعض طاعاته أو بتحمل هذا الغير بعض سيئاته.

وما كان في (النفس): فان كانت جناية جرت عليه خطأ وجب أن يعطى الدية، وإن كان عمداً وجب عليه أن يمكن المجنى عليه أو أولياءه مع هلاكه من القصاص حتى يقتص منه، أو يجعل في حل، وإن عجز عن ذلك فعليه بكثرة اعتقاق الرقاب، لأن ذلك نوع احياء وايجاد لا يقدر الانسان على اكثر منه، فيقابل به الاعدام والاماتة، وعليه الرجوع أيضاً إلى الله بالتضرع والابتهال أن يرضيه عنه يوم القيامة.

وما كان في (العرض): بأن شتمه، أو قذفه، أو بهته، أو اغتابه، فحقه أن يكذّب نفسه عند من قال ذلك لديه، ويستحل من صاحبه مع الامكان، إن لم يخف تهديده وزيادة غيظه وهيجان فتنته من اظهاره، فإن خاف ذلك، فليكثر الاستغفار له، ويبتهل إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة.

وما كان في (الحرمة): بأن خان مسلماً في اهله وولده أو نحوهما، فلا وجه للاستحلال، إذ اظهار ذلك يورث الغيظ والفتنة، لأن من له شوب الرجولية لا يمكن أن يحل من خان في حرمته ووطيء زوجته، كيف ولو أحله ورضي بذلك كان فيه

عرق من الدياثة، فاللازم لمثله أن يكثر التضرع والابتهال إلى الله المتعال، ويواظب على الطاعات والخيرات الكثيرة لمن خانه في مقابلة خيانته، وإن كان حياً فليفرحه بالاحسان والانعام وبذل الأموال، ويكرمه بالخدمة وقضاء الحوائج، ويسعى في مهماته واغراضه، ويتلطف به، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه، فربما سمحت نفسه في القيامة بالاحلال، فان أبى أن يكون انعامه وتلطفه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة خيانته، فان كل ظلم وايذاء وحق من حقوق العباد إذا لم يحل صاحبه يوم القيامة يقتص من الظالم في يوم القيامة بالحكم العدل القهرى بأخذ العوض، سواء رضى الظالم أم لا، وسواء امتنع صاحب الحق عن القبول والابراء أم لا، كما أنه يحكم في الدنيا على من اتلف مال غيره باعطاء المثل، ويقهر على ذلك، ويحكم على هذا الغير بقبوله، ويجبر عليه إن امتنع عن الابراء وعن القبول، فكذلك يحكم أحكم الحاكمين وأعدل العادلين في محكمة القيامة، فيقتص من كل ظالم موذ بأخذ حسناته ووضعها في موازين أرباب المظالم، فان لم تف بها حسناته، حمل من سيئات أرباب المظالم، فيهلك المسكين بسيئات غيره. وبذلك يعلم: انه لا خلاص لأحد في القيامة إلا برجحان ميزان الحسنات على ميزان السيئات، ومع الرجحان ـ ولو بقدر مثقال ـ تحصل النجاة، فيجب على كل معتقد بيوم الحساب أن يسعى في تكثير الحسنات وتقليل السيئات، حتى لا ترجح سيئاته يوم القيامة على حسناته ولو بمثقال فيكون من الهالكين، وعلى كل حال لا يغفل عن التضرع والابتهال في اليل والنهار إلى الله سبحانه، لعله بعميم لطفه لا يفضحه يوم تبلى السرائر، ويرضى خصمه بخفى ألطافه.

وما كان في (الدين): بأن نسب مسلماً إلى الكفر أو الضلالة أو البدعة، فليكذب نفسه بين يدى من قال ذلك عنده، ويستحل من صاحبه مع الامكان، وبدونه فليستغفر له ويكثر الابتهال إلى الله ليرضيه عنه يوم القيامة.

ومجمل ما يلزم في التوبة عن حقوق الناس: ارضاء الخصوم مع الامكان،

وبدونه التصدق وتكثير الحسنات والاستغفار، والرجوع إلى الله بالتضرع والابتهال، وليرضيهم عنه يوم القيامة، ويكون ذلك بمشية الله، فلعله إذا علم الصدق من قلب عبده، ووجد ذله وانكساره، ترحم عليه وأرضى خصماءه من خزانة فضله، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من روح الله.

فصل
(تكفير الصغائر ومعنى الكبائر)

اعلم أنّ صاحب الشرع قسم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة، وحكم بأنّ اجتناب الكبائر يكفر الصغائر، وأن الصلوات الخمس لا تكفر الكبائر وتكفر الصغائر، قال الله تعالى:

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[1]. وقال: **﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلاَّ ٱللَّمَمَ﴾**[2].

وقال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة تكفر ما بينهنّ ان اجتنبت الكبائر». واجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها، فيكفّ نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس، فإن مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع أشد تاثيراً في تنوير قلبه من اقدامه على النظر في اظلامه، فهذا معنى تكفيره، فإن كان امتناعه لعجز أو خوف أو نحو ذلك، فلا يصلح للتكفير، فكذلك من لايشتهى الخمر بطبعه ولو ابيح له لما شربه. فاجتنابه لايكفر عن الصغائر التي هي من مقدّماته كسماع الملاهى والأوتار ومثله.

ثم الكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع

---

(١) النساء، الآية: ٣١.

(٢) النجم، الآية: ٣٢.

والعرف، لأن الكبير والصغير من المصافات، وما من ذنب إلا وهو كبير بـالإضافة إلى مادونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه. وقد اختلف العلماء في تعيين الكـبائر اخـتلافاً لا يكاد يرجى زواله واختلفت الروايات فيها أيضاً.

والأظهر بالنظر إلى الروايات وإلى الجمع بينها كون الكـبيرة عـبارة عـما تـوعد بالنار على فعله أو ما ورد في نصّ الكتاب النـهى عـنه، ويـعنى بـوصفه بـالكبيرة: أنّ العقوبة بالنار عظيمة، أو أنّ تخصيصه بالذكر في القرآن يدلّ على عـظمه. ويـمكن أن يقال: إن الشرع لم يعينها، وأبهمها ليكون العباد عـلى وجـل مـنها، فـيجتنبون جـميع الذنوب، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدّ الناس في طلبها، ويواظبوا فـي ليـال مـتعددة على العبادات، وكما أبهم الاسم الأعظم ليواظبوا على جـميع اسـماء الله. والحـاصل: أن كل ما لا يتعلق بـه حكـم فـي الدنـيا جـاز أن يـتطرق إليـه الابـهام والكـبيرة عـلى الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة، فإن موجبات الحـدود مـعلومة بأساميها، وإنـما حكـم الكـبيرة أنّ اجـتنابها يكـفر الصـغائر وأن الصـلوات الخـمس لا تكفرها، وهذا أمر يتعلق بالآخرة، والابهام أليق به، حتى يكون النـاس عـلى وجـل وحذر، فلا يتجرَّؤن على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر.

فصل

(الصغائر قد تكون كبائر)

اعلم أنّ الصغيرة تكبر بأسباب:

احدها ـ الاصرار والمواظبة، ولذلك قال الصادق عليه السلام: «لاصـغيرة مـع الاصـرار، ولاكبيرة مع الاستغفار». والسر فيه: أن الصغيرة لقلة تأثيرها لاتؤثر في القلب باظلامه مرة أو مرتين، ولكن إذا تكررت وتراكمت آثارها الضعيفة صار قـوية وأثـرت عـلى التدريج في القلب، وذلك كما أن قطرات من الماء تقع على الحجر على تـوال فـتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لوصبّ عليه دفعة لم يـؤثر، ولذلك قـال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«خير الأعمال أدومها، وإن قل». وإذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وإن قلت، فكذلك الضار هو السيئة الدائمة وإن قلت. ثم معرفة الاصرار موكول إلى العرف، قال الباقر عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١):

«الاصرار: أن يذنب الذنب، فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الاصرار».

وثانيها ـ استصغار الذنب، فإن العبد كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله، وكلما استصغره كبر عند الله، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهته له، وذلك النفور يمنع من شدة تاثره به، واستصغاره يصدر عن الألف به، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه في الغفلة، لعدم تأثره به. ولذلك ورد في الخبر: «أن المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا المحقرات من الذنوب، فإنها لا تغفر»، قيل: وما المحقرات؟ قال: «الرجل يذنب الذنب، فيقول طوبى لي لو لم يكن غير ذلك». وروى: «أنه صلى الله عليه وآله وسلم نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: ائتونا بالحطب، فقالوا: يا رسول الله! نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال: فليأت كل انسان بما قدر عليه. فجاؤا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: هكذا تجتمع الذنوب، إياكم والمحقرات من الذنوب فإن لكل شيء طالباً، ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبين». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تصغر ما ينفع يوم القيامة، ولا تصغر ما يضر يوم القيامة، فكونوا فيما أخبركم الله كمن عاين». وقال الباقر عليه السلام: «اتقوا المحقرات من الذنوب فإن لها

---

(١) آل عمران، الآية: ١٣٥.

طالباً، يقول أحدكم: أذنب واستغفر الله. إن الله تعالى يقول:

﴿وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ ءَاثَـٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[١]. وقال عز وجل: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[٢].

وقال الصادق عليه السلام: «إن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم، ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير». وقال الكاظم عليه السلام: «لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب، فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من انفسكم النصف»[٣]. والسر في عظم الذنب في قلب المؤمن: كونه عالماً بجلال الله وكبريائه، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغير كبيراً، وقد أوحى الله إلى بعض انبيائه: «لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها». ولذلك قال بعض الصحابة للتابعين: «إنكم تعملون اعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، وكنا نعدها على عهد رسول الله من الموبقات»، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله كبائر.

وثالثها ـ أن يأتي بالصغائر ولا يبالي بفعلها، اغتراراً بستر الله عليه، وحلمه عنه، وإمهاله إياه، ولا يعلم أنه انما يمهل مقتاً ليزداد بالامهال اثماً، فتزهق أنفسهم وهم كافرون، فمن ظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به، فهو جاهل بمكامن الغرور، وآمن من مكر الله الذي لا يأمن منه إلا الكافرون.

ورابعها ـ السرور بالصغيرة واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونها نقمة وسبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها في

(١) يس، الآية: ١٢.

(٢) لقمان، الآية: ١٦.

(٣) صححنا الاحاديث كلها على اصول الكافي (باب التوبة، وباب تفسير الذنوب).

تسويد قلبه، فمن مزق عرض مسلم وفضحه وخجله، أو غبنه في ماله في المعاملة، ثم فرح به، ويقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟ وكيف فضحته؟ وكيف روجت عليه الزيف؟ كانت معصيته أشد مما إذا لم يفرح بذلك وتأسف عليه، إذ الذنوب مهلكات، وإذا ابتلى بها العبد فينبغى أن يتأسف من حيث إن العدو اعنى الشيطان ـ ظفر به وغلب عليه، لا أن يفرح بغلبة العدوعليه، فالمريض الذي يفرح بانكسار إنائه الذي فيه دواؤه لتخلصه من ألم شربه، لا يرجى شفاؤه.

وخامسها ـ أن يذنب ويظهر ذنبه بأن يذكره بعد اتيانه، أو يأتى به في مشهد غيره، فإن ذلك خيانة منه على الله الذي أسد له عليه، وتحريك الرغبة والشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما خيانتان انضمتا إلى خيانته فتغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت خيانته رابعة، وتفاحش الأمر. وهذا لأن من صفات الله أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر، فالاظهار كفران لهذه النعمة، قال رسول الله ﷺ: «المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له». وقال الصادق عليه السلام: «من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه، ومن جاءنا يبدى عورة قد سترها الله فنحّوه».

وسادسها ـ أن يكون الآتى بالصغيرة عالماً يقتدى به الناس، فإذا فعله بحضرة الناس أو بحيث اطلعوا عليه، كبر ذنبه، وذلك كلبسه الذهب والابريسم، وأخذه مال الشبهة، واطلاقه اللسان في أعراض الناس، ونحو ذلك. فهذه ذنوب يقتدى العالم فيها ويتبع عليها، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، وفي الخبر: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء». قال الله تعالى:

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾[(١)].

والآثار: ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل. فعلى العالم وظيفتان: ـ احداهما ـ ترك الذنب، والأخرى ـ اخفاؤه، وكما تتضاعف أوزار العالم على السيئات إذا اتبع فيها، فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتبع.

فصل

(شروط كمال التوبة)

يشترط في تمام التوبة وكمالها بعد تدارك كل معصية بما مر: من طول الندم، وقضاء العبادات، والخروج عن مظالم العباد. وطول البكاء والحزن والحسرة، واسكاب الدموع، وتقليل الأكل، وارتياض النفس، ليذوب عن بدنه كل لحم نبت من الأغذية المحرمة والمشتبهة، قال أمير المومنين عليه السلام لمن قال بحضرته: استغفر الله: «ثكلتك امك! أتدرى ما الاستغفار؟ إن الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معان: أولها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك العود عليه ابداً، والثالث: أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدى حقها، والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ منهما لحم جديد، والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: استغفر الله».

---

(١) يس، الآية: ١٢.

فصل

(هل يصح التبعيض في التوبة)

اعلم أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض ممكن ويصح، بشرط ألا تكون الذنوب التي يتوب عنها مخالفة بالنوع للذنوب التي لايتوب عنها، كأن يتوب عن الكبائر دون الصغائر، أو عن القتل والظلم ومظالم العباد دون بعض حقوق الله، أو عن شرب الخمر دون الزنا أو بالعكس، أو عن شرب الخمر دون أكل أموال الناس بالباطل خيانة وتلبيساً أو غصباً أو قهراً، أو عن بعض الصغائر دون بعض الكبائر، كالذي يتوب عن الغيبة مع اصراره على شرب الخمر. والدليل على امكان ذلك وصحته: أن العبد إذا علم أن الكبائر اعظم اثماً عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها، فلا يبعد أن يتوب عن الأعظم دون الأصغر، وكذا إذا تصور أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله من بعض، فلا يبعد أن يتوب عن الأغلظ دون الأخف، وقد تكون ضراوة أحد بنوع معصية شديدة، فلا يقدر على الصبر عنها، وتكون ضراوته بنوع آخر منها أقل، فيمكنه الترك بسهولة، فيتوب عنه دون الأول، وان كان الأول أغلظ وأشد اثماً، كالذي شهوته بالخمر أشد من شهوته بالغيبة، فيترك الغيبة ويتوب عنها دون الخمر، فالتوبة عن بعض المعاصى دون بعض مع اختلافهما نوعاً بأى نحو كان ممكن وصحيح، ومعها يندفع عنه اثم ما تاب عنه، ويكتب عليه اثم ما لم يتب عنه، بل ربما كان أكثر ما وقع من التوبة من هذا القبيل، إذ كثر التائبون في الأعصار الخالية والقرون الماضية، ولم يكن أحد منهم معصوماً، فيكون كل منهم جازماً بأنه يصدر عنه معصيته البتة. ويدل على الصحة قوله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، حيث لم يقل: التائب من الذنوب. نعم التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تماثلهما غير صحيح وغير معقول، لاستوائهما في حق الشهوة وحق التعرض لسخط الله، فلا معنى للتوبة عن أخذ الخبز الحرام، أو عن أخذ الدرهم الحرام دون الدينار الحرام، أو عن ترك صلاة الظهر دون العصر، اذ لو كان

ذلك صحيحاً لصح أن يتوب عن أخذ هذا الخبز دون ذلك الخبز، أو عن اخذ هذا الدرهم دون ذلك الدرهم... وهكذا. والحاصل: أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تفاوتهما في العقاب واقتضاءالشهوة صحيح، ومع تماثلهما فيها غير معقول. ومن العلماء من قال: إن التوبة عن البعض دون البعض لا تصح مطلقاً، واستدل على ذلك بأن التوبة عبارة عن الندم، وانما يندم على السرقة - مثلاً - لكونها معصية لا لكونها سرقة، ولا يعقل أن يندم عليها دون الزنا ان كان توجعه لأجل المعصية، إذ العلة شاملة لهما، لأن من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين، لأن التوجع انما هو بفوات المحبوب، سواء كان بالسيف أو بالسكين، وكذلك توجع التائب انما هو لفوات المحبوب بالمعصية. سواء عصى بالسرقة أو بالزنا، وجوابه قد ظهر مما ذكرناه.

فصل
(أقسام التائبين)

التائبون بين من سكت نفسه عن الشروع إلى الذنوب فلا يحوم حومها، وبين من بقى في نفسه الشروع إليها والرغبة فيها وهو يجاهد ها ويمنعها: والأول بيّن من سكون النزوع وبطلانه فيه لأجل قوة اليقين وصدق المجاهدة، ومن سكونه وانقطاعه بفتور في نفس الشهوة فقط: والأول من الأول أفضل من الثانى، والثانى منه أدون من الثانى، والوجه ظاهر. وأيضاً التائبون بين من نسى الذنب من دون اشتغال بالتفكر فيه، وبين من جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه. ولا ريب في أن التذكر والاحتراق بالنظر إلى المبتدى ومن يخاف عليه العود أفضل، لأنه يصدّه عنه، والنسيان بالنظر إلى المنتهى السالك والواصل إلى مرتبة الحب والانس الواثق من نفسه انه لا يعود أفضل، لأنه شغل مانع عن سلوك الطريق، وحاجب من الحضور بلا فائدة. ولا ينافيه بكاء الأنبياء وتناجيهم من الذنوب، لأنهم

قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بالأمة، فإنهم بعثوا لارشادهم، فعليهم التلبس بما ينتفع الأمة بمشاهدته، وإن كان نازلاً عن ذروة مقامهم. ولذا قال رسول الله ﷺ: «أما إني لا أنسى، ولكن أنسى لأشرع»[١]. ولا تعجب من هذا، فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشى في كنف الرعاة، والأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصغير ينزل إلى درجة نطق الصبى، والراعى لشاة أو طائر يصوت به رغاء أو صفيراً شبيهاً بالبهيمة والطائر، تلطفاً في تعليمه.

فصل
(مراتب التوبة)

اعلم أن التائب إما يتوب عن المعاصى كلها ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط، ولا يعود إلى ذنوبه، ولا يصدر عنه معصية إلا الزلات التي لا يخلو عنها غير المعصومين، وهذه التوبة هي التوبة النصوح، والنفس التي صاحبها هي النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، أو يتوب عن كبائر المعاصى والفواحش ويستقيم على امهات الطاعات، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تصدر عنه في مجارى احواله غفلة وسهوة وهفوة، لا عن محض العمد وتجريد القصد، وإذا أقدم على ذنب لام نفسه وندم وتأسف، وجدد عزمه على ألا يعود إلى مثله، ويتشمر للاحتراز عن أسبابه التي تؤدى اليه، والنفس التي هذه مرتبتها هي النفس اللوامة التي خيرها يغلب على شرها ولها حسن الوعد من الله تعالى بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[٢].

وإلى مثلها الاشارة بقوله ﷺ: «خياركم كل مفتن توّاب». وفي خبر آخر:

---

(١) الحديث نبوى مروى في احياء العلوم: ٤/ ٣٨.

(٢) النجم، الآية: ٣٢.

«المؤمن كالسنبلة، يفيء أحياناً ويميل أحياناً». وفي خبر آخر: «لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة»[١]: أى الحين بعد الحين. وكل ذلك شاهد صدق على أن هذا القدر من الذنوب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبه بدرجة المصرّين، ومن يؤيس مثل هذا عن النجاة ووصوله إلى درجة التائبين فهو ناقص، ومثله مثل الطبيب الذي يؤيس الصحيح من دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه مرة أو مرتين، ومثل الفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار في أوقات نادرة. ولا ريب في نقصانه، فالعالم حق العالم هو الذي لا يؤيس الخلق من درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات، إذ امثال الفترات وما يصدر عن السهو والغفلات لا يفسد النفس ولا يبطلها بحيث لا يقبل الاصلاح، أو يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب، فيقدم عليه عمداً وقصداً، لعجزه عن قهر الشوة وقمعها، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وتارك لأكثر الذنوب مع القدرة والشهوة، وانما قهره بعض الشهوات بحيث يغفل عند هيجانها ويرتكب مقتضاها من دون مجاهدة وندامة، وعند قضاء هذه الشهوة والفراغ عنها يتندم، ويقول سأتوب عنها، لكنه يسول نفسه ويسوف توبته يوماً بعد يوم، والنفس التي هذه درجاتها هي التي تسمى النفس المسولة المسؤل صاحبها، وإليها الاشارة بقوله تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[٢].

فنجاتها من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما يتعاطاه مرجو، فعسى الله أن يتوب عليها ولكن يخاف عليها من حيث تسويفها وتأخيرها، فربما اختطفها الموت قبل التوبة، ويقع أمرها في المشيئة، فيدخل في زمرة السعداء أو يسلك في

---

(١) صححنا النبويات الثلاث على احياء العلوم: ٤ / ٣٩.

(٢) التوبة، الآية: ١٠٢.

سلك الأشقياء، أو يتوب ويجرى مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب عمداً وقصداً، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف ويتندم، بل ينهمك انهماك الغافل في الذنوب واتباع الشهوات. وهذا معدود من المصرين، ونفسه محسوبة من النفوس الامارة بالسوة الفرارة من الخير، ومثله إن مات على التوحيد وختم له بالحسنى وغلبت طاعاته على سيئاته كان من أهل الجنة، وإن ختم له بالسوء كان من أهل النار، وإن مات على التوحيد ولكن ترجحت سيئاته على حسناته فأمره إلى الله، ولعله يعذب في النار مدة بقدر زيادة سيئاته على حسناته، ثم يخلص منها بعميم لطفه.

فصل

(عدم الثقة بالاستقامة لايمنع من التوبة)

اعلم أن من تاب ولا يثق من نفسه الاستقامة على التوبة فلا ينبغي أن يمنعه ذلك عن التوبة، علماً منه أنه لافائدة فيه، فإن ذلك من غرور الشيطان، ومن أين له هذا العلم، فلعله يموت تائباً قبل أن يعود إلى الذنب.

وأما الخوف من العود، فليتدارك بتجريد القصد وصدق العزم، فإن وفي به فقد نال مطلبه، وإلا فقد غفرت ذنوبه السابقة كلها وتخلص منها، وليس عليه إلا هذا الذنب الذي أحدثه الآن. وهذا من الفوائد العظيمة والأرباح الجسيمة، فلا يمنعك خوف العود من التوبة، فإنك من التوبة أبداً بين احدى الحسنيين: ـ احداهما ـ العظمى: وهي غفران الذنوب السابقة وعدم العود إلى ذنبه في الاستقبال. ـ وثانيتهما ـ وهي الصغرى: غفران الذنوب الماضية، وإن لم يمنع العود إلى الذنب في المستقبل. ثم إذا عاد إلى الذنب ينبغي أن يتوب عنه دفعة، ويتبعه بحسنة لتمحوها، فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. والحسنات المكفرة للذنوب إما متعلقة بالقلب: وهي الندم، والتضرع إلى الله، والتذلل له، واضمار الخير للمسلمين، والعزم

على الطاعات، أو باللسان: وهي الاعتراف بالظلم والاساءة، وكثرة الاستغفار، أو بالجوارح: وهي أنواع الطاعات والصدقات. وينبغي ملاحظة المناسبة بين السيئة التي صدرت عنه والحسنة التي يتبعها لتمحوها. وفي الخبر: ان الذنب إذا اتبع بثمانية اعمال كان العفو عنه مرجواً: أربعة من اعمال القلوب، وهي: التوبة أو العزم على التوبة، وحب الاقلاع عن الذنب، وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة. وأربعة من اعمال الجوارح وهى: أن تصلى عقب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم تتصدق بصدقة، ثم تصوم يوماً. وفي بعض الأخبار: تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين، وفي بعضها: تصلى أربع ركعات. ولا تظنن أن الاستغفار باللسان بدون حل عقدة الاصرار لا فائدة فيه أصلاً، بل هو توبة الكذابين، لما ورد من: أن المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله، لأن الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ولا فائدة فيه أصلاً هو الاستغفار بمجرد اللسان وبحكم العادة وعلى سبيل الغفلة، أى ما يكون مجرد حركة اللسان من دون مدخلية للقلب، كما إذا سمع شيئاً مخوفاً، فيقول على الغفلة: استغفر الله، أو نعوذ بالله، من غير شركة للقلب فيه وتأثره منه، وأما إذا انضاف إليه تضرع القلب وابتهاله في سوال المغفرة عن صدق ارادة وخلوص رغبة وميل قلبى إلى انقلاعه عن هذا الذنب فهى حسنة في نفسها، وإن علم أن نفسه الامارة ستعود إلى هذا الذنب فتصلح هذه الحسنة لأن يدفع بها السيئة، فالاستغفار بالقلب وإن خلا عن حل عقدة الاصرار لا يخلو عن الفائدة، وليس وجوده كعدمه. وقد عرف ارباب القلوب بنور البصيرة معرفة قطعية يقينية لايعتريها ريب وشبهة صدق قوله تعالى:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (١).

---

(١) الزلزلة، الآية: ٧ـ٨.

ولذا جزموا وقطعوا بانه لا تخلو ذرة من الخير عن اثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن اثر، ولو كانت كل شعيرة خالية عن اثر لكان لا يرجح الميزان باجتماع الشعيرات، فميزان الحسنات يترجح بذرات الخيرات ألى أن يثقل فتسل كفة السيئات، فإياك وأن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وتستحقر ذرات المعاصى فلاتتقيها، كالمرأة الخرفاء تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد، وأى غنى يحصل منه، وما وقع ذلك في الثياب، ولا تدرى أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً، وأن اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة، وربما ترتب على عمل قليل ثواب جزيل، فلا ينبغى تحقير شيء من الطاعات. قال الصادق عليه السلام: «إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث: رضاه في طاعته، فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه. وغضبه في معاصيه، فلا تحقروا شيئاً فلعل غضبه فيه. وخبأ ولايته في عباده، فلا تحقروا منهم احداً فلعله ولى الله». فإذاً الاستغفار بالقلب حسنة لايضيع اصلاً، بل ربما قيل: الاستغفار بمجرد اللسان أيضاً حسنة، إذ حركة اللسان بها غفلة خير من السكوت عنه، فيظهر فضله بالنظر إلى السكوت عنه، وإن كان نقصاً بالإضافة إلى عمل القلب، فينبغى ألا تترك حركة اللسان بالاستغفار، ويجتهد في اضافة حركة القلب إليها، ويتضرع إلى الله أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير.

فصل

(علاج الاصرار على الذنوب)

اعلم أن الطريق إلى تحصيل التوبة، والعلاج لحل عقدة الاصرار على الذنوب: أن يتذكر ما ورد في فصلها ـ كما مر ـ ويتذكر قبح الذنوب وشدة العقوبة عليها، وما ورد في الكتاب والسنة من ذم المذنبين والعاصين، ويتأمل في حكايات الأنبياء وأكابر العباد، وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية، بسبب تركهم الأولى وارتكابهم

بعض صغائر المعاصى، وأن يعلم أن كل ما يصيب العبد في الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته ـ كما دل عليه الأخبار الكثيرة ـ ويتذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب: كالخمر، والزنا، والسرقة، والقتل والكبر، والحسد والكذب والغيبة، وأخذ المال الحرام... وغير ذلك من آحاد المعاصى مما لا يمكن حصره، ثم يتذكر ضعف نفسه وعجزها عن احتمال عذاب الآخرة وعقوبة الدنيا، ويتذكر خساسة الدنيا وشرف الآخرة، وقرب الموت ولذة المناجاة مع ترك الذنوب، ولا يغتر بعدم الأخذ الحالى، إذ لعله كان من الاملاء والاستدراج. فمن تأمل في جميع ذلك وعلم ذلك على سبيل التحقيق انبعثت نفسه للتوبة البتة، إذ لو لم ينزعج إلى التوبة بعد ذلك، فهو إما معتوه احمق أو غير معتقد بالمعاد، وينبغى أن يجتهد في قلع اسباب الاصرار من قلبه: اعنى الغرور، وحب الدنيا، وحب الجاه، وطول الأمل... وغير ذلك.

فصل

(الانابة)

اعلم أن الانابة هو الرجوع عن كل شيء مما سوى الله، والاقبال على الله تعالى بالسر والقول والفعل، حتى يكون دائماً في فكره وذكره وطاعته، فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها، إذ التوبة هو الرجوع عن الذنب إلى الله، والانابة هو الرجوع عن المباحات أيضاً إليه سبحانه، فهو من المقامات العالية والمنازل السامية. قال الله سبحانه:

﴿وَ أَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَ مَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ

(١) الزمر، الآية: ٥٤.

يُنِيبُ﴾[١]. وقال: **﴿وَ أُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ وَ جَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾**[٢].

وانابة العبد تتم بثلاثة امور:

الأول ـ أن يتوجه إليه بشراشر باطنه حتى يستغرق قلبه في فكره.

الثاني ـ ألا يكون خالياً عن ذكره وذكر نعمه ومواهبه وذكر أهل حبه وتقربه.

الثالث ـ أن يواظب على طاعاته وعباداته مع خلوص النية.

المحاسبة والمراقبة

(تذنيب) ـ اعلم أن المحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتهما من وجه الاصرار على الذنوب ومثلها في كونهما من ثمرات الخوف والحب وتعلقهما بقوّتي الشهوة والغضب وكونهما من فضائلها، فنحن نشير هنا إلى ما يتعلق بهما من بيان حقيقتهما وفضيلتهما والأعمال التي يتوقف تماميتها عليهما في فصول.

فصل

(المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة)

(المحاسبة): أن يعين في كل يوم وليلة وقتاً يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه، ليعاتب نفسه، ويقهرها لو وجدها في هذا اليوم والليلة مقصرة في طاعة واجبة، أو مرتكبة لمعصية، ويشكر الله سبحانه لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منها معصية، ويزيد الشكر لو صدر منها شيء من الخيرات والطاعات المندوبة.

---

(١) غافر، الآية: ١٣.

(٢) قَ، الآية: ٣١ ـ ٣٥.

(والمراقبة): أن يلاحظ ظاهره وباطنه دائماً، حتى لا يقدم على شيء من المعاصي، ولا يترك شيئاً من الواجبات ليتوجه عليه اللوم والندامة وقت المحاسبة هذا هو المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة، ويأتي اعتبار امور واعمال أخر فيه عرفاً.

فصل

(حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا)

اعلم أن الكتاب والسنة واجماع الأمة دالة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة، وحصول التدقيق والمناقشة في الحساب، والمطالبة بمثاقيل الذرّ من الأعمال والخطرات واللحظات، قال الله سبحانه:

﴿وَ نَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ إِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾(١). وقال: **﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا أَحْصَىٰهُ ٱللهُ وَ نَسُوهُ وَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾**(٢). وقال: **﴿وَ وُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِهَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾**(٣). وقال: **﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَ مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾**(٤). وقال: **﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَ مَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾**(٥). وقال: **﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾**(٦).

---

(١) الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٢) المجادلة، الآية: ٦.

(٣) الكهف، الآية: ٤٩.

(٤) الزلزلة، الآية: ٦ ـ ٨.

(٥) آل عمران، الآية: ٣٠.

(٦) البقرة، الآية: ٢٨١. آل عمران، الآية: ١٦١.

وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان». وورد بطرق متعددة: أن كل أحد في يوم القيامة لا يرفع قدماً عن قدم حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه. والآيات والأخبار الواردة في محاسبة الأعمال والسؤال عن القليل والكثير والنقير والقطمير اكثر من أن تحصى، وبأزائها أخبار دالة على الأمر بالمحاسبة والمراقبة في الدنيا، والترغيب عليها، وعلى كونها سبباً للنجاة والخلاص عن حساب الآخرة، وخطره ومناقشته. فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب، وطالبها في الأنفاس والحركات، وحاسبها في الخطرات واللحظات، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله: خفّ في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه. ومن لم يحاسب نفسه: دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزى سيئاته، قال الله سبحانه:

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[٢].

والمراد بهذا النظر: المحاسبة على الأعمال. وقال رسول الله ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا». وقال الصادق عليه السلام: «إذا أراد أحدكم ألا يسأل ربه شيئاً إلا اعطاه فلييأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله تعالى، فإذا علم الله تعالى ذلك من قبل لم يسأله شيئاً إلا أعطاه، فحاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا عليها، فإن للقيامة خمسين موقفاً، وكل موقف مقام ألف سنة. ثم تلا:

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٣].

وتفريع المحاسبة على الامر باليأس عن الناس والرجاء من الله، يدل على أن

---

(١) الحجر، الآية: ٩٢-٩٣.

(٢) الحشر، الآية: ١٨.

(٣) المعارج، الآية: ٤.

الانسان إنما يرجو الناس من دون الله في عامة أمره وهو غافل عن ذلك، وأن عامة المحاسبات إنما ترجع إلى ذلك، وذكر الوقوف في مواقف يوم القيامة على الأمر بمحاسبة النفس يدل على أن الوقفات هناك إنما تكون للمحاسبات، فمن حاسب نفسه في الدنيا يوماً فيوماً لم يحتج إلى تلك الوقفات في ذلك اليوم، وقال عليه السلام: «لو لم يكن للحساب مهول إلا حياء العرض على الله تعالى وفضيحة هتك الستر على المخفيات، لحقّ للمرء ألا يهبط من رؤس الجبال، ولا يأوى إلى عمران، ولا يأكل، ولا يشرب، ولا ينام، إلا عن اضطرار متصل بالتلف، ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدى الجبار، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة، كأنه إلى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسؤل، قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ[١]﴾[٢].

وقال الكاظم عليه السلام: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسنة استزاد الله تعالى، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه». وفي بعض الأخبار: ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات: ساعة يحاسب فيها نفسه...

فصل

(مقامات مرابطة العقل للنفس)

اعلم أن العقل بمنزلة تاجر في طريق الآخرة، ورأس ماله العمر، وقد استعان في تجارته هذه بالنفس، فهى بمنزلة شريكه أو غلامه الذي يتجر في ماله، وربح هذه التجارة تحصيل الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة الموصلة إلى نعيم الأبد وسعادة

---

(١) الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٢) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: باب ٨٥ ص ١٨٦.

السرمد، وخسرانها المعاصي والسيئات المؤدية إلى العذاب المقيم في دركات الجحيم، أو نقول: رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة مدة العمر، وكما أن التاجر يشارط شريكه اولاً، ويراقبه ثانياً، ويحاسبه ثالثاً، وإن قصر في التجارة ـ بالخيانة والخسران وتضييع رأس المال ـ يعاتبه ويعاقبه ويأخذ منه الغرامة، كذلك العقل يحتاج في مشاركة النفس إلى أن يرتكب هذه الأعمال، ومجموع هذه الأعمال يسمى بـ(المحاسبة والمراقبة) تسمية الكل باسم بعض أجزائه، وقد يسمى (مرابطة) أيضاً.

فأول الأعمال في المرابطة (المشارطة): وهي أن يشارط النفس ويأخذ منها العهد والميثاق في كل يوم وليلة مرّة ألا يرتكب المعاصي، ولا يصدر منها شيء يوجب سخط الله، ولا يقصر في شيء من الطاعات الواجبة، ولا يترك ما تيسر له من الخيرات والنوافل. والأولى أن يكون ذلك بعد الفراغ عن فريضة الصبح وتعقيباتها، فيخاطب النفس ويقول لها: يا نفس! مالى بضاعة سوى العمر، ومهما فنى فنى رأس المال. ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد، وقد أمهلنى الله فيه بعظيم لطفه، ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوماً واحداً لأعمل صالحاً، فاحسبى أنك توفيت ثم رددت، فإياك أن تضيعى هذا اليوم، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، يمكن أن يشترى بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمها أبد الآباد. ويتذكر ما ورد في بعض الأخبار: من أن كل عبد خلقت له بإزاء كل يوم وليلة من عمره اربع وعشرون خزانة مصفوفة، فإذا مات تفتح له هذه الخزائن، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها، فإذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي أطاع الله فيها، يراها مملوة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيناله من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسائل عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الاحساس بألم النار، وإذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي عصى الله فيها، يراها سوداء مظلمة يفوح نتنها

ويتغشأ ظلامها، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لينغص عليهم نعيمها، فإذا فتحت له خزانة بازاء الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا، لم يشاهد فيها ما يسرّه ولا ما يسوؤه، وهكذا يعرض عليه بعدد ساعات عمره الخزائن، وعند ذلك يتحسر العبد على اهماله وتقصيره، ويناله من الغبن ما لا يمكن وصفه،وبعد هذا التذكر يخاطب نفسه ويقول: اجتهدى اليوم في أن تعمرى خزائنك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تركنى إلى الكسل والبطالة فيفوتك من درجات العليين ما يدركه غيرك، فتدركك الحسرة والغبن يوم القيامة إن دخلت الجنة، إذ ألم الغبن والحسرة وانحطاط الدرجة مع وجود ما فوقها من الدرجات الغير المتناهية التي نال إليها أبناء نوعك مما لا يطاق، ثم يستأنف لها وصية في اعضائه السبعة: أعنى العين، والأذن، واللسان، والفرج، والبطن، واليد، والرجل، ويسلمها إليها، لأنها رعايا خادمة لها في التجارة، ولا يتم اعمال هذه التجارة إلا بها، فيوصيها بحفظ هذه الأعضاء عن المعاصى التي تصدر عنها، وباعمال كل منها فيما خلق لأجله، ثم يوصيها بالاشتغال بوظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة، وبالنوافل والخيرات التي تقدر عليها، وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم، لكن إذا اعتادت النفس بتكرر المشارطة والمراقبة بالعمل بها والوفاء بحقها استغنى عن المشارطة فيها، وإن اعتادت بالعمل في بعضها لم تكن حاجة إلى المشارطة فيه، وبقيت الحاجة إليها في الباقى، وكل من يشتغل بشيء من اعمال الدنيا: من ولاية، أو تجارة، أو تدريس، أو أمثال ذلك: لا يخلو كل يوم منه من مهم جديد، وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله فيها حق، فعليه أن يجدد الاشتراط على نفسه بالاستقامة عليها والانقياد للحق في مجاريها، وينبغى أن يوصيها بالتدّبر في عاقبة كل امر يرتكبه في هذا اليوم والليلة. وهذه الوصية عمدة الوصايا ورأسها، وقد روى: «أن رجلاً أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقال: يا رسول الله! أوصنى، فقال له: فهل أنت مستوص إن أنا أوصيتك؟ ـ حتى قال له ذلك ثلاثاً، وفي كلها يقول الرجل: نعم يا

رسول الله! فقال له رسول الله ﷺ: إذا هممت بأمر فتدبّر عاقبته، فإن يك راشداً فامضه، وإن يك غياً فانته». ويظهر من هذا الخبر: أن التأمل في عاقبة كل أمر أعظم ما يحصل به النجاة، فينبغى أن يؤكد العهد والميثاق في ذلك على النفس ويحذرها عن الإهمال، ويعظها كما يوعظ العبد المتمرّد الآبق، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات، مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها، (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فهذا وما يجرى مجراه هو المشارطة، وهو أول مقامات المرابطة.

وثانيها (المراقبة): وهو أن يراقب نفسه عند الخوض في الاعمال، فيلاحظها بالعين الكالئة، فإنها إن تركت طغت وفسدت، ثم يراقب الله في كل حركة وسكون، بأن يعلم أن الله تعالى مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على اعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سرّ القلب في حقه مكشوف، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك، قال الله سبحانه:

﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾[1]. وقال: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ**﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ: «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وفي الحديث القدسي: «إنما يسكن جنات عدن، الذين إذا هموا بالمعاصى ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين انحنت اصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي! إني لأهم بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب». وحكي: «أن زليخا لما خلت بيوسف، فقامت وغطت وجه صنمها، فقال يوسف: ما لك؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيي من مراقبة الملك الجبار؟!». وهذه المعرفة ـ اعني معرفة اطلاع الله على العباد واعمالهم وسرائرهم

---

(١) النساء، الآية: ١.

(٢) العلق، الآية: ١٤.

وكونه رقيباً عليهم ـ إذا صارت يقيناً ـ أى خلت عن الشك ـ ثم استولت على القلب سخرت القلب وقهرته على مراعاة جانب الرقيب وصرفت الهمة اليه، والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين: ـ احداهما ـ مراقبة المقربين، وهي مراقبة التعظيم والاجلال، وهي أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة الجلال، ومنكسراً تحت الهيبة، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير، وهذا هو الذي صارت همه هماً واحداً وكفاه الله سائر الهموم، ـ واخراهما ـ مراقبة الورعين من اصحاب اليمين، وهم قوم غلب عليهم يقين اطلاع الله على ظهورهم وبواطنهم، ولكن لا تدهشهم ملاحظة الجلال والجمال، بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال متسعة للالتفات إلى الأحوال والأعمال والمراقبة فيها، وغلب عليهم الحياء من الله، فلا يقدمون ولا يجمحون إلا بعد التثبت، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله مطلعاً عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة. ثم ينبغي للعبد ألا يغفل عن مراقبة نفسه والتضييق عليها في لحظة من حركاتها وسكناتها وخطراتها وأفعالها.

وحالاته لا تخلو عن ثلاثة، لأنه إما أن تكون في طاعة، أو معصية، أو مباح. فمراقبته في الطاعة: بالقربة، والاخلاص والحضور، والاكمال، وحراستها عن الآفات، ومراعاة الأدب. ومراقبته في المعصية: بالتوبة، والندم، والاقلاع، والحياء، والاشتغال بالتكفير. ومراقبته في المباح: بمراعاة الأدب، بأن يأكل بعد التسمية، وغسل اليدين، وسائر الآداب المقررة في الشرع للأكل، ويقعد مستقبل القبلة، وينام بعد الوضوء على اليد اليمنى مستقبل القبلة وبالصبر عند ابتلائه ببلية ومصيبة، وبالشكر عند كل نعمة، ويتذكر شهود المنعم وحضوره. ويكفّ النفس عن الغضب وسوء الخلق عند حدوث أمر تميل النفس عنده إلى الغضب والتضجر والتكلم بما لا يحسن من الأقوال، فإن لكل واحد من أفعاله وأقواله حدوداً لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه. وينبغي ألا يخلو عند اشتغاله بالمباحات عن عمل هو الأفضل، كالذكر والفكر وتخليص النية، فإن الطعام الذي

يتناوله من عجائب صنع الله، فلو تفكر فيه وتدبر في فوائده وحكمه وما فيه من غرائب قدرة الله لكان ذلك أفضل من كثير من اعمال الجوارح، والناس عند الأكل على أقسام: (قسم) ينظرون فيه بعين التبصر والاعتبار، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به، وكيفية تقدير الله لأسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الآلات المسخرة للشهوة وأمثال ذلك، وهؤلاء هم أولو الألباب. (وقسم) ينظرون فيه بعين المقت والكراهة، ويلاحظون وجه الاضطرار إليها، ويتمنون الاستغناء عنه، وعدم كونهم مقهورين مسخرين بشهوته، وهؤلاء هم الزهاد. (وقسم) يرون فيه خالقه، ويشاهدون في الصنع الصانع، ويترقون منه إلى صفات الخالق، من حيث إن كل معلول اثر من العلة، ورشحة من رشحات ذاته وصفاته، فمشاهدته تذكر العلة، بل التأمل يرشدك إلى أن دلالة كل ذرة ترى من ذرات العالم على ربك وخالقك وايجابها لحضوره عندك وظهوره لديك وتوجهه اليك وقربه منك أشد وأقوى من دلالة مشاهدتك بدن زيد وصورته وحركاته وسكناته على وجوده وحضوره عندك، وسر ذلك ظاهر واضح. وهؤلاء المشاهدون الصانع في كل مصنوع، والخالق في كل مخلوق، هم العرفاء المحبون، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وتصنيفه وآثاره وما ينتسب إليه اشتغل قلبه بالمحبوب، وكل ما يتردد العبد فيه وينظر إليه من الموجودات هو صنع الله تعالى، فله في النظر منها إلى الصانع مجال إن فتحت له أبواب الملكوت. (وقسم) ينظرون فيه بعين الحرص والشهوة، وليس نظرهم إلى الطعام إلا من حيث يوافق شهوتهم وتلتذ به ذائقتهم، ولذلك يذمونه لو لم يوافق هواهم، وهؤلاء اكثر أهل الدنيا.

وثالثها ـ أي ثالث مقامات المرابطة واعمالها ـ هو (المحاسبة) بعد العمل، فإن العبد كما يختار وقتاً في أول كل يوم ليشارط فيه النفس على سبيل التوصية بالحق، ينبغي له أن يختار وقتاً في آخر كل يوم ليطالب النفس فيه بما أوصى به، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في آخر كل سنة مع الشركاء. وهذا

أمر لازم على كل سالك لطريق الآخرة معتقد للحساب في يوم القيامة، وقد ورد في الأخبار: أن العاقل ينبغي أن يكون له اربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر في صنع الله، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب. ولذلك كان الصدر الأول من الخائفين ومن تقدّمنا من سلفنا الصالحين في غاية السعي والاهتمام في محاسبة النفس، بحيث كانت عندهم من الطاعات الواجبة، وكانوا أشد محاسبة لنفوسهم من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح،ويعتقدون أن العبد لا يكون من أهل التقوى والورع حتى يحاسب نفسه اتم من محاسبة شريكه، وأن من لا يحاسب نفسه إما معتوه أحمق أو لا يعتقد بحساب يوم القيامة، إذ العاقل المعتقد به مع أهواله وشدائده وما يوجبه من الخجلة والحياء والافتضاح، إذا علم أن محاسبة النفس في الدنيا تسقطه أن توجب خفته، كيف يجوز له أن يتركها؟

ثم كيفية المحاسبة بعد العمل: أن يطالب نفسه اولاً بالفرائض التي هي بمنزلة رأس ماله، فإن ادتها على وجهها شكر الله عليها ورغبها في مثلها، وإن فوتتها من اصلها طالبها بالقضاء، وإن ادتها ناقصة كلفها بالجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها، واستوفى منها ما يتدارك به ما فرط، كما يصنع التاجر بشريكه. وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط والنقير والقطمير، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها، كذلك ينبغي أن يفتش عن أفعال النفس ويضيق عليها، وليتق غائلتها وحيلتها، فإنها خداعة مكارة ملبسة، فليطالبها اولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب قبل أن يتولاه غيره في صعيد القيامة، ثم بتصحيح الجواب عن جميع افعاله واحواله: من نظره، وقيامه، وقعوده، ونومه، وأكله، وشربه، حتى عن سكوته لم سكت، وعن سكونه لم سكن، وعن خواطره، وافكاره، وصفاته النفسية، وأخلاقه القلبية، فإن خرجت عن عهدة الجواب عن الجميع، بحيث أدت

الحق في الجميع، ولم تترك شيئاً مما يجب عليها، ولم ترتكب شيئاً من المعاصي: حصل لها الفراغ من حساب هذا اليوم، ولم يكن شيئاً باقياً عليها، وإن أدت الحق في البعض دون البعض، كان قدر ما أدت الحق فيه محسوباً لها، ويبقى غيره باقياً عليها فيثبته عليها، وليكتب على صحيفة قلبه كما يكتب الباقى على شريكه على قلبه وعلى جريدته. ثم النفس غريم يمكن أن تستوفى منها الديون، أما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقق الحساب وتمييز الباقى من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء.

ورابعها ـ وهو آخر مقامات المرابطة ـ (معاتبة النفس) ومعاقبتها على تقصيرها، والمجاهدة بتكليفها الطاعات الشاقة، وإلزامها الرياضات الشديدة، فإنه إذا حاسب نفسه، فوجدها خائنة في الأعمال، مرتكبة للمعاصى، مقصرة في حقوق الله، متوانية بحكم الكسل والبطالة في شيء من الفضائل، فلا ينبغى أن يهملها، إذ لو أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى، وانس بها بحيث عسر بعد ذلك فطامها عنها. فينبغى للعاقل أن يعاتبها أولاً، ويقول: أف لك يا نفس! أهلكيتنى وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والأشرار، فيا ايتها النفس الأمارة الخبيثة! أما تستحيين وعن عيبك لا تنتهين؟! فما اعظم جهلك وحماقتك! أما تعرفين أن بين يديك الجنة والنار وأنت صائرة إلى احداهما عن قريب؟ فما لك تضحكين وتفرحين وباللهو والعصيان تشتغلين؟ أما علمت أن الموت يأتى بغتة من غير إخبار، وهو أقرب اليك عن كل قريب؟ فما لك لا تستعدين له؟ أما تخافين من جبار السماوات والأرض، ولا تستحيين منه؟ تعصين بحضرته وأنت عالمة بأنه مطلع عليك؟! ويحك يا نفس! جرأتك على معصية الله إن كانت لاعتقادك أنه لا يراك فما اعظم كفرك، وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياؤك، وما أعجب نفاقك، وكثرة دعاويك الباطلة! فإنك تدعين الايمان بلسانك، وأثر النفاق ظاهر عليك! فتنبهى عن

رقدتك وخذى حذرك! لو أن يهودياً أخبرك في ألذ اطعمتك بأنه يضرك لصبرت وتركتيه! ولو أخبرك طفل بعقرب في ثوبك نزعتيه! فقول الله وقول انبياءه المؤيدين بالمعجزات وقول الأولياء والحكماء والعلماء أقل تأثيراً عندك من قول يهودى أو طفل؟!... فلا يزال يكرر عليها أمثال هذه المواعظ والتوبيخات والمعاتبات، ثم يعاقبها ويلزمها ما يشق عليها من وظائف العبادات والتصدق بمايحبه، جبراً لما فات منها وتداركا لما فرط فيها، فإذا أكل لقمة مشتبهة ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم يعاقب العين بمنع النظر، وإذا اغتاب مسلماً يعاقب اللسان بالصمت والذكر مدة كثيرة، وكذلك يعاقب كل عضو من اعضائه إذا صدرت منه معصية بمنعه من شهواته، وإذا استخف بصلاة ألزم نفسه بصلاة كثيرة بشرائطها وآدابها. وإذا استهان بفقير اعطاه صفو ماله، وهكذا الحال في سائر المعاصى والتقصيرات.

وطريق العلاج في إلزام النفس ـ بعد تقصيرها في العمل على هذه العقوبات وربطها على تلك الطاعات الشاقة والرياضات ـ أمران:

الأول ـ تذكر ما ورد في الأخبار من فضيلة رياضة النفس ومخالفتها، والاجتهاد في الطاعة والعبادة ووظائف الخيرات، قال الصادق عليه السلام: «طوبى لعبد جاهد في الله نفسه وهواه! ومن هزم جند هواه ظفر برضاء الله، ومن جاوز عقله نفسه الامارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزاً عظيماً، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى، وليس لقتلهما وقطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله، والخشوع، والجوع والظماء بالنهار، والسهر بالليل، فإن مات صاحبه مات شهيداً وإن عاش واستقام اداه عاقبته إلى الرضوان الأكبر، قال الله عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١].

وإذا رأيت مجتهداً ابلغ منك في الاجتهاد، فوبخ نفسك ولمها وعيرها، تحثيثاً على الازدياد عليه، واجعل لها زماماً من الأمر، وعناناً من النهى، وسقها كالرابض للفارة الذي لا يذهب عليه خطوة من خطواته إلا وقد صح اولها وآخرها، وكان رسول الله ﷺ يصلى حتى تورمت قدماه، ويقول: (أفلا أكون عبداً شكوراً)، أراد أن يعتبر به امته. فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبد والرياضة بحال. ألا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله، ورأيت بركاتها، واستضأت بنورها، لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت ارباً ارباً، فما أعرض عنها من اعرض إلا بحرمان فوائد السلف من العصمة والتوفيق»[٢]. قيل لربيع بن خثيم: مالك لاتنام بالليل؟ قال: «لأني اخاف البيات». والأخبار الواردة في فضل السعي والاجتهاد ومخالفة النفس والهوى اكثر من أن تحصى.

الثاني ـ مصاحبة أهل السعي، والاجتهاد في العبادة، ومجالسة المجاهدين المرتاضين الذين لا ينفكون ساعة من مشاق الطاعات والعبادات وإلزام نفوسهم على ضروب النكال والعقوبات، فملاحظة احوالهم ومشاهدة أعمالهم أقوى باعث للاقتداء بآثارهم وافعالهم، حتى قال بعضهم: «إذا اعترتني فترة في العبادات، نظرت إلى بعض العبّاد واجتهاده في العبادة فكنت بعد ذلك اعمل اسبوعاً». إلا أن ذلك غير مرجو في أمثال زماننا، إذ لم يبق في عباد الله من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين،وليس فينا من تقرب عبادته عبادة ادنى رجل من سلفنا الصالحين. فينبغي أن يعدل عن المشاهدة إلى سماع احوالهم، ومطالعة حكاياتهم واخبارهم، ومن لاحظ حكاياتهم وسمع احوالهم واطلع عن كيفية اجتهادهم في طاعة الله، يعلم أنهم عباد

---

(١) العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) الحديث بطوله مروى عن (مصباح الشريعة): باب ٨١ ص ١٨٤، مع اختلاف يسير هنا، فصححناه عليه كماكان هناك.

الله واحباؤه وأنهم ملوك الجنة، قال بعض اصحاب أمير المؤمنين - عليه الصلاة والسلام -: «صلينا خلفه الفجر، فلما سلم انتقل إلى يمينه وعليه كآبة، فمكث حتى طلعت الشمس، ثم قلب يده وقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئاً شبههم، وكانوا يصبحون شعثاً غبرا صفرا، فقد باتوا لله سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله عز وجل، ويراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانو إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت اعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين». وكان اويس القرنى يقول في بعض الليالى: «هذه ليلة الركوع»، فيحيى الليل كله في ركعة، ويقول في بعضها: «هذه ليلة السجود» فيحيى الليل كله في سجدة. وقال ربيع بن خثيم: «أتيت أويساً فوجدته جالساً قد صلى الفجر، فجلست موضعاً، وقلت: لا أشغله عن التسبيح. فمكث مكانه حتى صلى الظهر ولم يقم حتى صلى العصر، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب، ثم ثبت حتى صلى العشاء، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح، ثم جلس فغلبته عيناه، فقال: أللهم إنى أعوذ بك من عين نوامة وبطن لا تشبع». وروى: «أن رجلاً من العباد كلم امرأة ووضع يده على فخذها، ثم ندم فوضع يده في النار حتى نشت[١] عقوبة لها. وبعضهم نظر إلى إمرأة فجعل على نفسه ألايشرب الماء البارد طول حياته، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش. ومر بعضهم بغرفة فقال: متى بنيت هذه الغرفة؟ ثم اقبل على نفسه وقال: تسألين عما لا يعنيك؟! لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها». وروى: «أن أبا طلحة الأنصارى شغل قلبه في الصلاة طين في الحائطة، فتصدق بالحائطة جبراً لما فاته من الحضور في الصلاة». وكان بعضهم اعتلت احدى قدميه فيصلى على قدم واحدة حتى يصلى الصبح بوضوء العشاء. وكان بعضهم يقول: «ما اخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين صلاة الليل». وحكى رجل: «أنه نزل بعض أهل الله

---

(١) النشيش: صوت غليان الماء.

عندنا بالمحصب[١] وكان له أهل وبنات، وفي كل ليل يقوم ويصلى إلى السحر، فـإذا كان السحر ينادى بأعلى صوته: ايها الركب المـعرسون![٢] أكـل هـذا الليـل تـنامون فكيف ترحلون؟ فيسمع صوته كل من كان بـالمحصب، فـيتواثـبون بـين بـاك وداع، وقارىء ومتوضىء وإذا طلع الفجر نادى بأعـلى صـوته عـند الصـباح يـحمد القـوم السرى». وهكذا كان عمل عمال الله، وسلوك سالكى طريق الآخرة، وحكاياتهم غـير محصورة خارجة عن الاحصاء، اشرنا إلى انموذج منها ليـعلم الطـالبون كـيفية سـيرة الرجال في مرابطة النفس ومراقبتها، ويعلمون ان عباد الله ليسوا امـثالنا، بـل هـم قـوم آخرون. قال بعض الحكماء: «ان لله عـباداً أنـعم عـليهم فـعرفوه، وشـرح صـدورهم فأطاعوه، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر اليـه، فـصارت قـلوبهم مـعادن لصـفاء اليقين، وبيوتاً للحكمة، وتوابيت للعظمة، وخزائن للقدرة، فهم بين الخلائق مـقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت، وتلوز[٣] بحجب العيوب، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ما لا يمكن لواصف أن يـصفها، فـهم فـي بـاطن أمـورهم كالديباج حسناً، وفي الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً، وطريقهم لا يـبلغ إليها بالتكليف، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء». فعليك يا حبيبى بمطالعة أحوالهم وحكـاياتهم، ليـنبعث نشـاطك وتـزيد رغـبتك، وإيّـاك أن تـنظر إلى أهـل عـصرك، ولعمرى! قلّ في أمثال زماننا من يذكرك الله رؤيته، ويعينك في طريق الدين صحبته، فإن تطع اكثر من في بلدك وعصرك يضلوك عن سبيل الله.

ومنها:

---

(١) المحصب ـ بالمهملتين وضم الميم وتشديد الصاد ـ: موضع بمكة على طريق منى ويسمى (بطحاء).

(٢) التعريس: نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة، من قولهم: عرس القوم.

(٣) في القاموس: اللوز ـ بالزاى ـ: الملاذ والملجأ.

الغفلة

وهي فتور النفس عن الالتفات والتوجه إلى ما فيه غرضها ومطلبها، إما عاجلاً أو آجلاً. وضدها: النية، وترادفها: الارادة والقصد، وهي انبعاث النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها ومطلبها حالاً أو مآلاً. والموافق لغرض النفس إن كان خيراً لها وسعادة في الدنيا أو الدين، فالغفلة عنه وعدم انبعاث النفس إلى تحصيله رذيلة، والنقصان والنية له والقصد إليه فضيلة وكمال، وإن كان شراً وشقاوة، فالغفلة عنه وكف النفس منه فضيلة، والنية له وارادته رذيلة. ثم باعث النفس على النية أو الغفلة والكف، إن كان من القوة الشهوية كانت النية أو الغفلة متعلقة بها فضيلة أو رذيلة، وإن كان من قوة الغضب كانت النية أو الغفلة متعلقة بهذه القوة كذلك. فالنية والعزم على التزويج متعلقة بالقوة الشهوية، وعلى دفع كافر يؤذى المسلمين متعلقة بقوة الغضب، والنية في العبادات مع انضمام التقرب إليها تسمى اخلاصاً. ثم المتبادر من الموافق للغرض والمطلوب لما كان ما هو كذلك عند العقلاء وأرباب البصيرة، فيكون المراد منه ما هو مرغوب ومطلوب في نفس الأمر وما تحصيله خير وسعادة، وبهذا الاعتبار تكون الغفلة باطلاقها مذمومة والنية ممدوحة، فلو ذمت الغفلة باطلاقها ومدحت النية كذلك، كان بهذا الاعتبار. والآيات والأخبار الواردة في ذم الغفلة خارجة بهذا الاعتبار، كما وصف الله الغافلين وقال:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(١). وقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٢).

(**تنبيه**): الغفلة بالمعنى المذكور أعم من أن يكون فتور النفس وخمودها عن الانبعاث الا ما يراه موافقاً للغرض مع الجهل بالموافق والملائم، أو مع العلم به ومع النسيان عنه، أو مع التذكر له، وربما خص في عرف أهل النظر بصورة الذهول وعدم

(١) الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢) الأعراف، الآية: ١٧٩.

التذكر. ثم الكسالة والبطالة قريب من الغفلة بالمعنى العام، وربما فرق بينهما ببعض الاعتبارات.

تتميم
(الغفلة موجبة للحرمان)

الغفلة والكسالة عما ينبغى تحصيله من أمور الدنيا والدين توجب الحرمان عن سعادة الدارين، وتؤدى إلى شقاوة النشأتين، إذ الاهمال في رعاية أمر المعيشة ومصالحها يؤدى إلى هلاكة الشخص وانقطاع النوع، والغفلة عن اكتساب المعارف والأخلاق الفاضلة وعن اداء الفرائض والنوافل تنجر إلى ابطال غاية الايجاد ـ اعنى بلوغ كل شخص إلى كماله المستعدله ـ، وهو مع كونه صريح المضادة والمنازعة لخالق العباد يوجب الهلاكة والشقاوة أبد الآباد.

وصل
(ضد الغفلة: النية)

ضد الغفلة النية ـ تأثير النية على الاعمال ـ النية روح الاعمال والجزاء بحسبها ـ عبادة الاحرار والاجراء والعبيد ـ نية المؤمن من العمل ـ النية غير اختيارية ـ الطريق في تخليص النية.

* * *

قد عرفت أن ضد الغفلة النية، وهي انبعاث النفس وتوجهها إلى ما يراه موافقاً لغرضها، وقد عرفت ايضاً ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهي واسطة بين العلم والعمل، إذ ما لم يعلم أمر لم يقصد، وما لم يقصد لم يفعل، فالعلم مقدم على النية وشرطها، والعمل ثمرتها وفرعها، إذ كل فعل وعمل يصدر عن فاعل مختار فإنه لايتم إلا بعلم وشوق وارادة وقدرة، إذ كل انسان خلق

بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه، ويخالفه بعض الأمور، فاحتاج إلى جلب الموافق ودفع المخالف المنافى، وهو موقوف على ادراك الملائم النافع، والمنافى الضار، إذ ما لم يعرف الشيء لم يعقل طلبه أو الهرب عنه، وهو العلم، وعلى الميل والرغبة والشهوة الباعثة عليه، وهو الشوق، إذ من أدرك الغذاء، أو النار لايكفيه ذلك للتناول والهرب، ما لم يكن شوق إلى التناول والهرب، وعلى القصد والشروع والتوجه اليه، وهو النية، إذكم مشاهد للطعام راغب فيه شائق إليه لايريده لكونه مؤذياً أو حراماً أو لعذر آخر، وعلى القدرة المحركة للأعضاء إليه أى إلى جلب الملائم أو دفع المضار ـ وبها يتم الفعل، فهى الجزء الأخير للعلة التامة التي بهايتم فعل الفاعل المختار، فالأعضاء لا تتحرك إلى جانب الفعل ولا توجده إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر النية، والنية تنتظر الداعية الباعثة ـ اعنى الشوق ـ، والشوق ينتظر العلم أو الظن بكون ما يفعل موافقاً له، فإن كان الشوق صادراً عن القوة البهيمية، بأن يكون الفعل مما تقتضيه هذه القوة: كأكل، وشرب، وجماع، وكسب مال، وأمثال ذلك من الالتذاذات الشهوية، كانت النية والقصد أيضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها أو رذائلها، وإن كان مما تقتضيه القوة السبعية: من دفع موذ، أو طلب الاستعلاء، أو تفوق، وامثال ذلك، كانت النية أيضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلهما أو رذائلهما. وقد ظهر بما ذكر: أن المحرك الأول هو الغرض المطلوب ـ أعنى المقصود المنوى بعد تعلق العلم به ـ وهو الباعث الأول، وينبعث منه الشوق وهو الباعث الثانى، ويتولد منه القصد والنية وهو الباعث الثالث المحرك للقدرة الباعث لانتهاضها على تحريك الأعضاء إلى جانب العمل.

فصل
(تأثير النية على الأعمال)

العمل غرضه الباعث، أى باعثه الأول، إما واحد: كالقيام للاكرام، أو للهرب من

السبع المتهجم عليه، أو متعدد مع استقلال كل واحد بالباعثية متساوياً أو متفاوتاً: كالتصدق للفقر والقرابة بالنظر إلى من ينتهض فيه كل واحد بانفراده سبباً للاعطاء، أو بدون استقلال واحد لو انفرد، بل المستقل المجموع، كالمثال المذكور بالنظر إلى من يعطى ماله قريبه الفقير ويمتنع عند الانفراد، أي لا يعطيه قريبه الغنى، ولا الأجنبى الفقير، أو مع استقلال بعض دون بعض: بأن يكون للثانى تأثير بالاعانة والتسهيل دون البعث والتحصيل، ثم يتعدد الجزاء بتعدد البواعث، إن خيراً فخير: كالدخول في المسجد لزيارة الله، ولانتظار الصلاة، والاعتكاف والانزواء والتجرد للذكر. وترك الذنوب، وملاقاة الاتقياء واخوانه المؤمنين، واستماع المواعظ واحكام الدين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن شراً فشرّ: كالقعود فيه للتحدث بالباطل، وملاحظة النساء، والمناظرة للمباهاة والمراآة، وربما كان بعض البواعث خيراً وبعضها شراً: كالتصدق للثواب والرياء، ودخول المسجد لبعض البواعث الأول، وبعض البواعث الثانية، والعمل الذي باعثه من هذا القسم قد ظهر حكمه في باب الاخلاص. ثم باعث العمل المباح إن كان خيراً بجعله عبادة، كالتطيب يوم الجمعة لاقامة السنة، وتعظيم المسجد واليوم، ودفع الأذى بالنتن، والأكل لقوة العبادات، والجماع للولد وتطييب خاطر الزوجة، والترفه بنومة أو دعابة مباحة لرد نشاط الصلاة، وإن كان شراً بجعله معصية، كالتطيب للتفاخر باظهار الثروة، والتزين للزنا، ولا يؤثر في الحرام، فلا يباح شرب الخمر لموافقة الأقران والاخوان، فالمعاصى لا تتغير موضوعاتها بالنية بخلاف الطاعات والمباحات، فانها بالنية الصحيحة تصير أقرب القربات، وبالفاسدة، تصير أعظم المهلكات، فما أعظم خسران من يغفل عن النية، ويتعاطى الأعمال تعاطى البهائم المهملة على قصد حظوظ النفس أو على السهو والغفلة، وقد كانت غاية سعى السلف أن يكون لهم في كل شيء نية صحيحة، حتى في أكلهم وشربهم ونومهم ودخولهم الخلاء.

ولا ريب في إمكان تصحيح النية في كل مباح، بحيث يترتب عليه الثواب، بل

يمكن تصحيح النية في كل نقصان مالى وعرضى، فإن من تلف له مال، فإن قال: هو في سبيل الله، كان له أجر، وإن سرقه أحد أو غصبه يمكن أن ينوى كونه من ذخائر الآخرة، وإذا بلغه اغتياب غيره له فيمكن أن يطيب خاطره بأنه سيحمل عليه سيئاته وينقل إلى ديوانه حسناته، فايّاك أن تستحقر شيئاً من نياتك وخطرات قلبك، ولا تقدم على عمل إلا بنية صحيحة، فإن لم تحضرك النية توقف، إذ النية لا تدخل تحت الاختيار،وقد قيل: «إن من دعا أخاه إلى طعام بدون رغبة باطنة في اجابته، فإن أجابه فعليه وزران: النفاق، وتعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه، وان لم يجبه ولم يأكل فعليه وزر واحد هو النفاق!». فلابد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون، لأنه إذا لم يكن كذلك كان غافلاً، والغافلون قد وصفهم الله تعالى فقال:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

وصاحب خالص النية صاحب القلب السليم، قال الصادق عليه السلام: «صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأنه سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله في الأمور كلها، قال الله عز وجل:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2].

ثم النية تبدومن القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الأوقات في معنى قوته وضعفه، وصاحب النية الخالصة نفسه وهواه مقهورتان تحت سلطان تعظيم الله تعالى والحياء منه، وهو من طبعه وشهوته ومنيته نفسه، في تعب، والناس منه في راحة»[3].

---

(١) الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢) الشعراء الآية: ٨٨ ـ ٨٩.

(٣) هذا بعض الحديث المذكور في مصباح الشريعة ـ الباب الرابع ص ١٣٥ ـ، وفي البحار ـ الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر، باب النية وشرائطها ومراتبها، ص ٧٧، ط أمين الضرب ـ. لكن المذكور في

فصل

(النية روح الأعمال، والجزاء بحسبها)

النية روح الأعمال وحقيقتها، والجزاء يكون حقيقة عليها، فإن كانت خالصة لوجه الله تعالى كانت ممدوحة، وكان جزاؤها خيراً وثواباً، وإن كانت مشوبة بالأغراض الدنيوية كانت مذمومة، وكان جزاؤها شراً وعقاباً، قال الله سبحانه:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾(١).

والمراد بالارادة: النية، لترادفهما ـ كما تقدم ـ وأوحى الله إلى داود: «يا داود! لا تطاول على المريدين، ولو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها، يا داود! لئن تخرج مريداً من كربة هو فيها تستعده، كتبتك عندي حميداً، ومن كتبته حميداً لا يكون عليه وحشة ولافاقة إلى المخلوقين». وقال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرىء مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه»، وإنما قال ذلك حين قيل له: إن بعض المهاجرين إلى الجهاد ليست نيته من تلك الهجرة إلا أخذ الغنائم من الأموال والسبايا أو نيل الصيت عند الاستيلاء، فبين ﷺ: أن كل أحد ينال في عمله ما يبغيه، ويصل إلى ما ينويه، كائناً ما كان، دنيوياً كان أو أخروياً. وهذا الخبر مما يعده المحدثون من المتواترات وهو أول ما يعلمونه أولادهم، وكانوا يقولون: انه نصف العلم. وقال ﷺ: «ان الله لا ينظر إلى صوركم واموالكم، وانما ينظر إلى قلوبكم واعمالكم، وانما ينظر إلى القلوب لأنها مظنة النية». وقال ﷺ: «ان العبد ليعمل اعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختتمة، فتلقى بين يدى الله تعالى، فيقول: القوا هذه

☜ البحار فيه اختلاف يسير عما في المصباح، فصححناه على البحار، لكون المذكور في البحار أصح مما في المصباح.

(١) الأنعام، الآية: ٥٢.

الصحيفة، فإنه لم يرد بما فيها وجهى، ثم ينادى الملائكة: اكتبوا له كذا وكذا، فيقولون: يا ربنا! انه لم يعمل شيئاً من ذلك، فيقول الله تعالى: انه نواه». وقال ﷺ: «الناس أربعة: رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يتخبط بجهله في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الوزر سواء، ألا ترى كيف شاركه بالنية في محاسن عمله ومساويه؟!». ولما خرج ﷺ إلى غزوة تبوك، قال: «ان بالمدينة اقواماً، ما قطعنا وادياً، ولا وطأنا موطئاً يغيظ الكفار، ولا انفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة، إلاشاركونا في ذلك وهم في المدينة»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله، وليسوا معنا؟! فقال: «حسبهم العذر، فشاركونا بحسن النية». وفي الخبر: «أن رجلا من المسلمين قتل في سبيل الله بايدى بعض الكفار، وكان يدعى بين المسلمين قتيل الحمار، لأنه قاتل رجلا من الكافرين نية أن يأخذ حماره وسلبه، فقتل على ذلك فاضيف إلى نيته. وهاجر رجل إلى الجهاد مع اصحاب النبى ﷺ، وكانت نيته من المهاجرة أن يأخذ امرأة كانت في عساكر الكفار ويتزوجها ـ وتسمى أم قيس ـ فاشتهر هذا الرجل عند اصحاب النبى بمهاجر أم قيس». وفي أخبار كثيرة: «من همّ بحسنة ولم يعملها كتب له حسنة» كما تقدم، وقد ورد: أنه إذا التقى المسلمان بسيفهما، فالقاتل في النار، وكذا المقتول، لأنه أراد قتل صاحبه. وقال ﷺ: «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم: فلان يقاتل للدنيا، فلان يقاتل حمية، فلان يقاتل عصبية، ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله إلا لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا». وقال ﷺ: «من تزوّج امرأة على صداق وهو لاينوى اداءه فهو زان، ومن استدان ديناً وهو لا ينوى قضاءه فهو سارق، ومن تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة»[1]، وكل ذلك

(١) صححنا النبويات كلها على احياء العلوم: ٤/ ٣١٠، ٣١١، ٣١٧، باب فضيلة النية.

مجازاة على حسب النية. وقال الصادق عليه السلام: «إن العبد المؤمن الفقير ليقول: يا رب! ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البر ووجوه الخير، فإذا علم الله عز وجل ذلك منه بصدق النية كتب له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله، إن الله واسع كريم». وسئل عليه السلام عن حدّ العبادة التي إذا فعلها فاعلها كان مؤديا، فقال: «حسن النية بالطاعة». وقال عليه السلام: «وإنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله تعالى ابداً، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلى قوله تعالى:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[1].

قال: على نيته[2] وأمثال هذه الأخبار أكثر من أن تحصى. وأي شبهة في أن عماد الأعمال النيات، والعمل مفتقر إلى النية ليصير خيراً، والنية في نفسها خير وأن تعذر العمل، وعون الله تعالى للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره، فرب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية، ولذلك كان السلف يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل، ونقل: «أن بعض المريدين كان يطوف على العلماء ويقول: من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملا لله تعالى فإني لا أحب أن تأتي عليّ ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله تعالى. فقال له بعض العلماء: أنت قد وجدت حاجتك، فاعمل الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركته فهم بعمله، إذ من هم بعمل الخير كمن يعمل به». ثم السر في مجازاة الأعمال على حسب النية، وكون النية حقيقة العمل وعماداً وروحاله: إن العمل من حيث هو عمل لافائدة فيه، وإنما فائدته للأثر الذي يصل منه إلى النفس

---

(١) الإسراء، الآية: ٨٤

(٢) صححنا الأخبار كلها على أصول الكافي الجزء الثاني، باب النية ـ.

من النورانية والصفاء ولايزال يتكرر وصول هذا الأثر من الأعمال إليها حتى تحصل لها غاية الضياء والصفاء، فيحصل لها التجرد التام وينخرط في سلك الملائكة، ولا ريب في أن وصول هذا الأثر من الأعمال إنما هو مع صحة النية وخلوصها، وكونها لله سبحانه من دون شوب الأغراض، بل التأمل يعطى أن هذا الأثر إنما هو حقيقة من محض النية، وإن كانت حادثة لأجل العمل.

فصل
(عبادة الاحرار والأجراء والعبيد)

قد ظهر مما ذكر: أنه لا يحسب من عبادة الله ولا يعد من طاعة الله بحيث يترتب عليه الأجر في الآخرة إلا ما يراد التقرب إلى الله والدار الآخرة أى يراد به وجه الله من حيث هو، من دون غرض آخر من الأغراض الدنيوية، أو يراد به التوصل إلى ثوابه، أو الخلاص من عقابه، فمن أراد بعبادته محض وجه الله، واخلصها له لكونه أهلا للعبادة، ولمحبته له لما عرفه بجلاله وجماله وعظمته ولطف فعاله، فاحبه واشتاق اليه، ولا يريد سواه، ولا يبتهج بغير حبه وانسه والاستغراق في لجة شهوده، فيفرح بعبادته وتوجيه قلبه إليه بطاعته: فجزاؤه أن يحبه الله ويجتبيه، ويقربه إلى نفسه وبدنه قرباً معنويا ودنواً روحانياً، كما قال في حق بعض من هذا صفته:

﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[1].

وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «إلهى ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك».

وأما من غرضه نيل الثواب والخلاص من العقاب، نظراً إلى أنه لم يعرف من الله سوى كونه إلهاً صانعاً للعالم قادراً قاهراً عالماً، وأن له جنة ينعم بها المطيعين، ناراً

(١) ص، الآية: ٢٥، ٤٠.

يعذب بها العاصين، فعبده ليفوز بجنته أو يتخلص من ناره: فجزاؤه بمقتضى نيته أن يدخله جنته، وينجيه من ناره، لأن جزاء الأعمال على حسب النيات، كما اخبر الله تعالى عنه في غير موضع من كتابه، فان لكل امرىء مانوى، ولا تصغ إلى قول من ذهب إلى بطلان العبادة إذا قصد بفعلها الثواب أو الخلاص من العقاب زعماً منه أن هذا القصد مناف للاخلاص الذي هو ارادة وجه الله وحده، وأن من قصد ذلك إنما قصد جلب النفع إلى نفسه، ودفع الضرر عنها، لا وجه الله سبحانه، فإن هذا قول من لا معرفة له بحقائق التكاليف ومراتب الناس فيها، بل ولا معرفة له بمعنى النية وحقيقتها، فإن حقيقة النية عبارة عن انبعاث النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها ومطلبها، إما عاجلاً أو آجلاً، لا مجرد قول الناوى عند العبادة: أفعل كذا قربة إلى الله، ومجرد تصور هذا القول بخاطره وملاحظته بقلبه وإن لم يكن لنفسه انبعاث إلى التقرب، هيهات هيهات! إنما هذا تحريك لسان وحديث نفس، وما ذلك إلا كقول الشبعان: اشتهى هذا الطعام، قاصداً حصول الاشتهاء، وهذا الانبعاث إذا لم يكن حاصلا للنفس لا يمكنها اختراعه واكتسابه بمجرد القول والتصور، واكثر الناس تتعذر منهم العبادة ابتغاء لوجه الله وتقربا اليه، لأنهم لا يعرفون من الله تعالى إلا المرجو والمخوف، فغاية مرتبتهم أن يتذكروا النار ويحذروا انفسهم عقابها، ويتذكروا الجنة ويرغبوا انفسهم ثوابها، وخصوصاً من كان ملتفتاً إلى الدنيا، فإنه قلما تنبعث له داعية إلى فعل الخيرات لينال بها ثواب الآخرة، فضلا عن عبادته على نية اجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية، فانه قلّ من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها، فلو كلف بها لكان تكليفاً بما لا يطاق، وليس معنى الاخلاص في العبادة إلا عدم كونها مشوبة بشوائب الدنيا والحظوظ العاجلة للنفس، كمدح الناس، ونيل المال، والخلاص من النفقة لعتق العبد ونحو ذلك، وظاهر أنه لا تنافيه ارادة الجنة والخلاص من النار بما وعد في الآخرة، وإن كان من جنس المألوف في الدنيا، ولو كان مثل هذه النيات مفسدة للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثاً، إذ كل ما

وعد به الجنة وأوعد عليه النار مما رغب ووعد به ورهب وأوعد عليه، وما ورد في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى، قال الله سبحانه:

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾(١).

ثم كيف يمكن للعبد الضعيف الذليل المهين الذي لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياتاً ولا شيئاً مما ينفعه ويؤذيه، أن يستغني عن جلب النفع لنفسه أو دفع الضرر عنها من مولاه. ومن تأمل يجد أن القائل ببطلان العبادة بإحدى النيتين ترجع نيته الصحيحة في عبادته إلى إحداهما وهو لا يشعر به.

ومما يدلّ صريحاً على ما ذكرناه قول الصادق عليه السلام: «العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله عز وجل خوفا، فتلك عبادة العبيد. وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب، فتلك عبادة الاجراء. وقوم عبدوا الله عز وجل حباً له، فتلك عبادة الأحرار، وهي افضل العبادة»(٢). وهذا يدلّ على أن العبادة على الوجهين الأولين لا تخلو من فضل ايضاً، فضلاً عن أن تكون صحيحة. نعم، لا ريب في أن العبادة على الوجه الأخير لا نسبة لمنزلتها ودرجتها إلى درجة العبادة على الوجهين الأولين، فإن من تنعم بلقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم، يسخر ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجه الحور العين بالملتفت إلى الصور المصنوعة من الطين، وكما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجوه النساء الجميلة بالخنفساء التي تعرض عن النظر إلى وجوههن وتلتفت إلى صاحبتها وتألف بها، بل هذه أمثلة أوردناها من باب الاضطرار، إذ التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين أو النسوان الجميلة أعظم كثيراً من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين

---

(١) الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٢) صححنا الرواية على اصول الكافي: الجزء الثاني، باب العبادة.

وبين جمال النسوان الجميلة والخنفساء، كيف والتفاوت في الثاني متناه وفي الأول غير متناه، وأي نسبة للمتناهى إلى غير المتناهى؟

فصل

(نية المؤمن خير من العمل)

لما عرفت أن النية روح العمل وحقيقته، وتوقف نفع العمل عليها دون العكس، وكون الغرض الأصلى من العمل تأثير القلب بالميل إلى الله تعالى وتوقفه على النية، فهى خير من العمل، بمعنى أن العمل إذا حلل إلى جزئيه يكون جزؤه القلبى ـ اعنى النية ـ خيراً من جزئه الجسمانى ـ اعنى ما يصدر من الجوارح ـ، والثواب المترتب عليه أكثر من الثواب المترتب عليه، ولذا قال الله سبحانه:

﴿لَنْ يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَ لَا دِمَآؤُهَا وَ لَـٰكِنْ يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾[1].

فإن المقصود من اراقة دم القربان ميل القلب عن حب الدنيا، وبذلها ايثاراً لوجه الله، دون مجرد الدم واللحم، وميل القلب إنما يحصل عند جزم النية والهم، وإن عاق عن العمل عائق، (فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم)، والتقوى صفة القلب، ولذا ترى أن المجامع امرأته على قصد أنها غيرها آثم، بخلاف المجامع غيرها على أنها امرأته، ولذا ورد: أن من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى، وهو غاية الأعمال الحسنة، وإنما الاتمام بالعمل يزيدها تأكيداً. وبما ذكر ظهر معنى الحديث المشهور: «نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله». وكل عامل يعمل على نيته.

وحاصله: أن كل طاعة تتضمن نية وعملا، وكل منهما من جملة الخيرات، وله

---

(١) الحج، الآية: ٣٧.

أثر في المقصود، وتكون النية خيراً من العمل وأثرها أكثر من أثره. والغرض: أن للمؤمن اختياراً في النية وفي العمل، فهما عملان، والنية من الجملة خيرهما، أي النية التي هي جزء من طاعته خير من عمله الذي هو جزؤها الآخر.

فإن قيل: ما ذكرت لا يفيد أزيد من أن العمل إذا كان مع النية يكون كل من العمل والنية خيراً وذا ثواب وإذا كان بدونها لا يكون خيراً ولا يكون له ثواب، والمقصود كون النية خيراً من العمل في الصورة الاولى وكون ثوابها اعظم، ولم يظهر وجه الخيرية مما ذكرت.

قلت: ذلك وإن ظهر اجمالا، إلا أنه لا بد لتوضيحه لتظهر جلية الحال، فنقول:

الوجه في كون النية خيراً من العمل وراجحة عليه في الثواب: أنه لا ريب في أن المقصود من الطاعات شفاء النفس وسعادتها في الآخرة وتنعمها بلقاء الله سبحانه، والوصول إلى اللقاء موقوف على معرفة الله وحبه وانسه، وهي موقوفة على دوام الفكر والذكر الموجبين لانقطاع النفس من شهوات الدنيا وتوجهها إلى الله سبحانه، فإذا حصل بمجرّد المعرفة الحاصلة من الفكر ميل وتوجه إلى الله تعالى كان ضعيفاً غير راسخ، وانما يترسخ ويتأكد بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح، لأن بين النفس وبين الجوارح علاقة يتأثر لأجلها كل واحد منها عن الآخر، فيرى أن العضو إذا أصابته جراحة تتألم بها النفس، وأن النفس إذا تألمت بعلمها بموت عزيز أو بهجوم أمر مخوف تأثرت الأعضاء وارتعدت الفرائص، فالطاعات التي هي فعل الجوارح إنما شرعت للتوصل بها إلى صفة النفس ـ اعني التوجه والميل إلى الله سبحانه، فالنفس هو الأصل والمتبوع والأمير، والجوارح كالخدم والأتباع، وصفات القلب هي المقصودة لذاتها، وافعال الجوارح هي المطلوبة بالعرض، لكونها مؤكدة وموجبة لرسوخ النفس ـ اعنى الميل والنية والتوجه ـ ولا ريب في أن ما هو المقصود بالذات خير مما هو مقصود بالعرض، وثوابه أعظم من ثوابه.

ومن المعاني الصحيحة للحديث: أن المؤمن بمقتضى ايمانه ينوي خيرات كثيرة لا يوفق لعملها، إما لعدم تمكنه من الوصول إلى أسبابها، أو لعدم مساعدة الوقت على عملها، أو لممانعة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصول إلى اسبابها، كالذي ينوي إن آتاه الله ما لا ينفقه في سبيله، ثم لما آتاه يمنعه البخل عن الانفاق، فهذا نيته خير من عمله، وايضا المؤمن ينوي دائماً أن تقع عباداته على أحسن الوجوه، لأن ايمانه يقتضي ذلك. ثم إذا اشتغل بها لا يتيسر له ذلك. ولا يأتي بها كما يريد، فما ينويه دائماً خير مما يعمل به في كل عبادة. وإلى هذا أشار الباقر عليه السلام حيث قال: «نية المؤمن خير من عمله». وذلك لأنه ينوي الخير ما لا يدركه ونية الكافر شرّ من عمله، وذلك لأن الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه». وقيل للصادق عليه السلام: سمعتك تقول: نية المؤمن خير من عمله، فكيف تكون النية خيراً من العمل؟ قال عليه السلام: «لأن العمل إنما كان رياء للمخلوقين، والنية خالصة لرب العالمين، فيعطي عز وجل على النية ما لا يعطي على العمل»، ثم قال: «إن العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل فتغلبه عينه فينام، فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة». وبعض الأخبار المتقدّمة يعضد ذلك ويؤكده ايضاً. وقيل: معنى الحديث: «إن النية بمجردها خير من العمل بمجرده بلانية». وفيه: أن العمل بدون النية لا يتصف بالخيرية أصلاً فلا معنى للترجيح في الخيرية، وقيل: سبب الترجيح: «إن النية سرّ لا يطلع عليه الا الله، والعمل ظاهر، وفعل السرّ أفضل». وهذا وإن كان في نفسه صحيحاً، إلا أنه ليس مراداً من الحديث، لأنه لو نوى أحد أن يذكر الله تعالى بقلبه أو يتفكر في مصالح المؤمنين، كانت نيته بمقتضى عموم الحديث خيراً من العمل الذي هو الذكر والتفكر، مع اشتراك النية والعمل في السرية، وبداهة كون الذكر والتفكر خيراً من نيتهما.

فصل
(النية غير اختيارية)

النية غير داخلة تحت الأختيار، وذلك لما عرفت من أنها انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ملائم ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا أو آجلا، وهذا الميل إذا لم يكن حاصلا للنفس لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإخطار بالبال والاجراء على اللسان، بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن اشتهى الطعام وأميل اليه، أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلاناً وأحبه، فلا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه، إلا باكتساب اسبابه، وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وإنما قد تنبعث النفس إلى الفعل اجابة للغرض الباعث، الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه قصده نحوه، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده دائماً، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه، وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعى والصوارف لها اسباب كثيرة بها، تجتمع وتختلف ذلك بالاشخاص والأحوال والأعمال، فإذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد لم يمكنه أن يتزوج على نية الولد، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة، إذ النية اجابة الباعث، ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوى الولد، ولذا كان أهل السلوك من السلف كثيراً ما يمتنعون عن جملة من الطاعات إذا لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون: ليس تحضرنى نية وذلك لعلمهم بأن النية روح الأعمال وقوامها، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وسبب مقت لا سبب قرب. وروى: «أنه اتى الصادق عليه السلام مولى له فسلم عليه وجلس، فلما انصرف عليه السلام انصرف معه الرجل، فلما انتهى إلى باب داره دخل وترك الرجل، فقال له ابنه اسماعيل: يا أبه! ألا كنت عرضت عليه الدخول؟ فقال: لم يكن من شأنى ادخاله، قال: فهو لم يكن يدخل، قال: يا بنى! إنى اكره أن يكتبنى الله عراضاً».

تتميم
(الطريق في تخليص النية)

الطريق في تخليص النية في الطاعات تقوية ايمانه بالشرع، وتقوية ايمانه بعظم ثواب الطاعات مع خلوص النية، وإذا قوى ايمانه فربما انبعث من نفسه رغبة إلى فعل الطاعة مع خلوص النية. مثلا من لم تكن له نية الولد في النكاح، بل كانت نيته فيه مجرد قضاء الشهوة، فينبغى له أن يقوى ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير امة محمد ﷺ ويدفع عن نفسه جميع المنفردات عن الولد، كثقل المؤونة وطول المتعب وغيره، وإذا فعل ذلك انبعثت من نفسه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب.

ومنها:

الكراهة

وهي نفرة الطبع عما لا يخلو عن ايلام واتعاب، فإذا قويت سميت مقتاً. وضدها الحب، وهو ميل الطبع إلى الشيء الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقاً.

اعلم أن عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد امور متناسبة مترتبة بعضها على بعض، وكذا اضدادها ـ اعنى الشوق والنية والحب والانس ـ امور متناسبة يترتب بعضها على بعض، فنحن هنا نشير اجمالا إلى معانيها والفرق بينها، ثم نذكرها مفصلة على الترتيب.

فنقول: قد عرفت أن الغفلة والنية ضدان، وهما عبارتان عن عدم انبعاث النفس وانبعاثها إلى ما فيه غرضها الملائم إما عاجلا أو آجلا، وأما عدم الرغبة والشوق فهما أيضاً ضدان ومبدآن للغفلة والنية.

بيان ذلك: أن معنى عدم الرغبة ظاهر، والشوق عبارة عن الرغبة إلى الشيء الذي لم يصل إليه وكان مفقوداً عنه بوجه، فالشوق لا يخلو عن ألم المفارقة، ولو

زالت المفارقة وحصل الوصال انتفى الشوق. ثم فرق الشوق عن النية ظاهر، فان الشوق مجرد الرغبة إلى الشيء من دون اعتبار انبعاث النفس إلى طلبه في مفهومه، والنية هي الانبعاث المذكور، فالشوق مبدأ النية، والنية مترتبة عليه، وبذلك يظهر الفرق بين ضديهما ايضاً ـ اعنى عدم الرغبة والغفلة.

وأما (الكراهة والحب): فقد عرفت أنهما عبارتان عن نفرة الطبع عن المؤلم، وعن ميله إلى الملذ، سواء انبعثت النفس عن طلبه أم لا، وبهذا يفترق الحب عن النية، فان النية هي انبعاث النفس، وهو مغاير لمجرد الميل، بل الميل منشأ للانبعاث وسواء حصل الوصول إلى الملذ أم لا، وبهذا يفترق عن الشوق، فإن الشوق يعتبر في مفهومه عدم الوصول، فالشوق والنية والارادة لاينفكان عن الحب، والحب يكون مقارنا لهما ألبتة، فإذا حصل الوصول إلى المطلوب زال الشوق والارادة وبقى الحب بدونهما. وبما ذكر يظهر الفرق بين الكراهة وبين عدم الرغبة والغفلة.

وأما (الانس): فهو عبارة عن استبشار النفس بما يلاحظه من المطلوب المحبوب بعد الوصول واستحكامه ورسوخه، والبعد عبارة عن عدم الوصول إلى المحبوب أو الوصول إلى ما لا يستبشر ولا يبتهج بملاحظته، لعدم الرغبة إليه أو للتنفر عنه، فالحب منشأ الأنس، والأنس يترتب عليه، وهو غاية المحبة، فلا يخلو انس عن المحبة، والمحبة قد تكون بدونه، ثم المطلوب المحبوب قد يكون مطلوبا للقوة العاقلة، كالعلم بحقائق الأشياء، وقد يكون مطلوبا للقوة الغضبية، كالاستيلاء والغلبة، وقد يكون مطلوبا للقوة الشهوية، كالمال والأزواج، وعلى كل تقدير تكون الامور المذكورة ـ أعنى عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد ـ وأضدادها ـ اعنى الشوق والارادة والحب والانس ـ متعقلة بتلك القوة، معدودة من رذائلها أو فضائلها. ثم المحبوب إن كان مما يستحسن حبه وطلبه شرعا وعقلا، كان ما يتعلق به من الشوق والارادة والحب والانس من الفضائل واضدادها من الرذائل، وإن كان مما يذم حبه وطلبه شرعا وعقلا كان بالعكس.

فصل
(الشوق)

الشوق ـ افضل مراتب الشوق الشوق إلى الله ـ تعلق الحب بجميع القوى ـ أقسام الحب بحسب مباديه ـ لا محبوب حقيقة إلا الله ـ الشهود التام هو نهاية درجات العشق ـ سريان الحب في الموجودات ـ رد المنكرين لحب الله ـ معرفة الله اقوى سائر اللذات ـ تحقيق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه ـ الطريق إلى الرؤية واللقاء ـ تفاوت المؤمنين في محبة الله ـ الواجب اظهر الموجودات ـ علائم محبة الله ـ معنى حب الله لعبده ـ الحب في الله والبغض في الله ـ الوفاء في الحب ـ الانس ـ الانس قد يثمر الادلال.

❋ ❋ ❋

قد تقدم تفصيل الكلام في النية والغفلة.

وأما الشوق، فنقول في بيانه: قد عرفت أن الشوق عبارة عن الميل والرغبة إلى الشيء عند غيبته، فان الحاصل الحاضر لا يشتاق إليه، إذ الشوق طلب يسوق إلى نيل امر، والموجود لا يطلب، فالشوق لا يتصور إلا إلى شيء ادرك من وجه ولم يدرك من وجه، فما لا يدرك أصلا لا يشتاق اليه، إذ لا يتصور أن يشتاق أحد إلى شخص لم يره ولم يسمع وصفه، وما ادرك بكماله لا يشتاق إليه ايضاً، إذ المداوم لمشاهدة المحبوب والوصل إليه من جميع الوجوه لا يتصور أن يكون له شوق، فالشوق يختص تعلقه بما ادرك من وجه دون وجه، وهذا إنما يكون باحد وجهين:

(احدهما) أن يتضح الشيء اتضاحا ما، ولم يستكمل الوضوح، فاحتاج إلى استكماله فيكون الشوق إلى ما بقى من المطلوب مما لم يحصل. مثال ذلك: أن من غاب عنه معشوقه، وبقى في قلبه خياله، يشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية، ومن رأى معشوقه في ظلمة، بحيث لا تنكشف له حقيقة صورته، يشتاق إلى استكمال رؤيته باشراق الضوء عليه، فلو رآه بتمام الرؤية انتفى الشوق، كما انه لو انمحى عن

قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يعقل وجوده.

(ثانيهما) أن يدرك بعض كمالات المحبوب، ووصل اليه، وعلم اجمالا أن له كمالات أخر، ولم يدركها ولم يصل إليها، فيكون له شوق إلى ادراك تلك الكمالات. مثال ذلك: أن يرى وجه محبوبه، ولا يرى شعره ولا سائر اعضائه، فيشتاق إلى رؤية ذلك.

فصل

(أفضل مراتب الشوق الشوق إلى الله)

افضل مراتب الشوق هو الشوق إلى الله سبحانه وإلى لقائه، وهي المظنة إلى الوصول اليه، وإلى حبه وانسه والتقرب لديه، وهو رأس مال السالكين، ومفتاح أبواب السعادة للطالبين، والوجهان الموجبان للشوق متصوران في حق الله، بل هما ثابتان وملازمان لجيمع العارفين، فلا يخلو عارف من الشوق إلى الله:

أما الوجه الأول، فلأن ما اتضح للعارفين من الأمور الالهية وإن بلغ غاية الوضوح، فكأنه من وراء ستر رقيق، فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح، بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات المكدرة للمعلومات والمانعة عن ظهورها اليقينى، (لا) سيما إذا انضاف إليها شواغل الدنيا، فكمال الوضوح في الأمور الإلهية إنما هو بالمشاهدة واشراق التجلى، ولا يكون ذلك في هذا العالم، بل يكون في الآخرة، فهذا أحد الموجبين لشوق العارفين إلى الله سبحانه، وهو الشوق إلى استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما.

وأما الثانى، فلأن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما ينكشف لكل عارف بعضها، وتبقى امور غير متناهية خفية عنه، والعارف اجمالا وجودها، وكونها معلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غاب من علمه من المعلومات اكثر مما حضر، فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له من المعلومات المتعلقة بعظمة الله وجلاله وصفاته وأفعاله بما

لا يعرفها اصلا، لا مع الوضوح ولا مع الابهام والاجمال. والشوق الأول ربما انتهى في الآخرة إذا حصل الشهود واللقاء المعنوى لأجل استخلاص النفس من موانع الطبيعة وقشوراتها وحصول التجرد التام لها، وأما الشوق الثانى فلا يمكن أن ينتهى في الدنيا ولا في الآخرة، إذ نهاية ذلك أن ينكشف للعبد في الآخرة من عظمة الله وكبريائه وجلاله وصفاته واحكامه وافعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال، إذ معلومات الله المتعلقة بذاته وصفاته وافعاله غير متناهية قوة وشدة وعدة، فتمتنع احاطة الانسان بها، فلا يزال العبد عالماً بأنه قد بقى من جلال الله وعظمته ومن صفته وفعله ما لم يتضح له، فلا يسكن قط شوقه، وما من عبد إلا ويرى فوق درجته درجات كثيرة لا نهاية لها، فيشتاق إليها ألبتة، وإذا كان اصل الوصال واللذة حاصلا، فربما كان الشوق إلى المراتب التي فوق مرتبتها شوقا لذيذاً لا يظهر فيه ألم، وربما كانت لطائف الكشف والبهجة ودرجاتهما متوالية إلى غير النهاية، وتحصل للعبد هذه الدرجات في الآخرة على التدريج، فلا يزال العبد يتصاعد ويترقى إليها، ولا يزال النعيم واللذة تتزايد له أبد الآباد من غير انقطاع له، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلا له عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل له المه، فإن امكن في الآخرة حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا، لكان حصول المعارف والابتهاجات والانوار وتجددها في الآخرة ممكناً، وإن لم يكتسب اصلها في الدنيا فيتجدد ويتوارد على العبد في الآخرة على الدوام والاستمرار من دون أن ينتهى إلى حد وربما كان قوله تعالى:

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾(١):

اشارة إلى هذا المعنى، ويكون المراد به اتمام النور في عين ما استنار في الآخرة استنارة محتاجة إلى الظهور، ثم إلى زيادة الاستكمال والاشراق، وإن اختص

(١) التحريم، الآية: ٨

حصول نعم الآخرة وانوارها وابتهاجاتها على النعم التي تزود من أصلها ولم يحصل للعبد ما لم يكتسب في الدنيا أصله من الأنوار والابتهاجات، فيكون ترقى العبد في الآخرة في ازدياد الابتهاج والاشراق فيما حصل له اصله، وعلى هذا، فربما انتهى إلى حد ووقف هناك ولا يتضاعف، وقوله تعالى: «نورهم يسعى... إلى آخر الآية» يحتمل لهذا المعنى ايضاً، بأن يكون المراد طلب اتمام نور تزود من الدنيا أصله. (قيل): وقوله تعالى:

﴿أُنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾[1]:

يدل على أن الأنوار لا بد أن يتزود أصلها في الدنيا، ثم يزداد في الآخرة اشراقاً، فأما أن يتجدد نور لم يكتسب أصله في الدنيا فلا.

ثم لا يخفى أن تعيين الأصل والفرع للأنوار والابتهاجات ومراتب الآخرة عندنا مشكل، وليس لنا طريق إلى القطع بأن أى شيء أصل لأى نور وبهجة، وربما كان المظنون عندنا: أن أصل كل نور وسعادة وبهجة هو اليقين القطعى الاجمالى بأن الواجب سبحانه في غاية العظمة والجلال والقدرة والكمال، وأنه تام فوق التمام، وكل ما سواه من الماهيات الموجودة صادرة عنه على أشرف انحاء الصدور وأقواها وأدلها على العظمة، وأنه لا موجود ولا شيء إلا الواجب وصفاته وأفعاله، وأن ذاته الاقدس ذات لا يمكن أن يكون لذهن من الأذهان العالية، ولا لمدرك من المدارك المتعالية، عقلاً كان أو نفساً أو غيرهما، لو أمكن أن يكون مدركاً، أن يدرك في لحاظ التعقل ذاتاً يمكن أن تكون فوقه أو مثله، بل كلما تصور اجمالا فهو فوقه، وكذا صفاته الكمالية وافعاله، وأن صفاته الكمالية: من عظمته، وجلاله، وقدرته، وجماله، وعلمه، وحكمته، وغيرذلك غير متناهية وليس لها حدّ وغاية، وما تعلق به علمه من مخلوقاته لا نهاية له كثرة وقوّة وكمالا، وأن له من المراتب الغير المتناهية من العظمة

---

(١) الحديد، الآية: ١٣.

والجلال ما لا يطيق اشرف الموجودات واقواها لادراك أولها، فمن عرف ذلك وتيقن به، وعلم ان هذا العالم وما فيه لا نسبة له إلى عالم الآخرة ومافيه، وأن ألطافه ومزاياه إلى عباده الذين عرفوا نسبتهم اليه، وتيقنوا بأن لا شرافة ولا كمال للنفوس والعقول فوق معرفة ربهم والتقرب إليه والوصول إلى حبه وانسه، فقد وصل إلى أصل كل سعادة ونور وبهجة، لا سيما إذا دفع عن نفسه ذمائم الأخلاق واتصف بفضائلها. وقد ظهر مما ذكر: أنه لا ريب في ثبوت الشوق للعباد إلى الله سبحانه، والعجب ممن انكر حقيقة الشوق إلى الله سبحانه لانكاره المحبة له ـ كما يأتي ـ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب، وقد عرفت ثبوته من حيث النظر والاعتبار. ولا ريب في ثبوته ـ ايضاً ـ من الآيات والأخبار: قال الله سبحانه:

﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِ...**﴾ إلى آخر الآية(١).

فإن الرجاء لا ينفك عن الشوق. وقال رسول الله ﷺ في دعائه: «أللهم إني اسألك الرضاء بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم، وشوقاً إلى لقائك». وفي بعض الكتب السماوية: «طال شوق الأبرار إلى لقائى، وأنا إلى لقائهم لأشدّ شوقاً». وفي اخبار داود عليه السلام: «إني خلقت قلوب المشتاقين من نوري، ونعمتها بجلالي». وفيها ايضاً: «انه تعالى اوحى إلى داود: يا داود! إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إليّ ؟ قال: يا رب! من المشتاقون اليك؟ قال: إن المشتاقين إليّ الذين صفيتهم من كل كدر، ونبهتهم بالحذر، وخرقت من قلوبهم إليّ خرقا ينظرون إلي، وإني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي، ثم ادعو بملائكتي، فإذا اجتمعوا سجدوني، فأقول: اني لم اجمعكم لتسجدوني، ولكن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين اليّ، وأباهي بهم اياكم، فإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض، يا داود! اني خلقت قلوب

---

(١) الكهف، الآية: ١١٠.

المشتاقين من رضوانی، ونعمتها بنور وجهی، فاتخذتهم لنفسی محدثين، وجعلت ابدانهم موضع نظری إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به اليّ، يزدادون في كل يوم شوقاً». واوحى الله إليه ايضاً: «يا داود! لو يعلم المدبرون عنی كيف انتظاری لهم ورفقی بهم وشوقی إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقاً إلی، وتقطعت اوصالهم عن محبتی». وفي بعض الأخبار القدسية: «ان لی عباداً يحبوننی واحبهم، ويشتاقون إلی واشتاق اليهم، ويذكروننی واذكرهم، واول ما اعطيتهم ان اقذف من نوری في قلوبهم، فيخبرون عنی كما اخبر عنهم، ولو كانت السماوات والأرض وما فيهما في موازينهم لاستعد بها لهم، واقبل بوجهی عليهم، لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه». وقال الصادق عليه السلام: «المشتاق لا يشتهی طعاماً ولا يلتذ شراباً، ولا يستطيب رقاداً، ولا يأنس حميماً، ولا يأوی داراً، ولا يسكن عمراناً، ولا يلبس ثياباً، ولا يقر قراراً، ويعبد الله ليلاً ونهاراً، راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق اليه، ويناجيه بلسان الشوق معبراً عما في سريرته، كما أخبر الله تعالى عن موسى بن عمران في ميعاد ربه بقوله: (وعجلت اليك رب لترضى)، وفسر النبی صلى الله عليه وآله وسلم عن حاله: (أنه ما أكل ولا شرب ولانام، ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه اربعين يوماً شوقاً إلى ربه)، فإذا دخلت ميدان الشوق، فكبر على نفسك ومرادك من الدنيا، وودع جميع المألوفات، واصرفه عن سوى مشوقك، ولب بين حياتك وموتك: لبيك اللهم لبيك! أعظم الله أجرك، ومثل المشتاق مثل الغريق، ليس له همة إلا خلاصه، وقد نسی كل شیء دونه»[1]. وما ورد في الأدعية المعصومية من طلب الشوق أكثر من أن يحصى، والظواهر الآتية المثبتة للمحبة والانس تثبت الشوق أيضاً.

وأما (الكراهة والبغض وضدهما ـ اعنی الحب ـ) فنقول: قد عرفت أن الكراهة والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، والحب الذي هو ضدهما عبارة

(١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: باب ٩٩، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

عن ميل الطبع إلى الملائم الملذ.

وتوضيح ذلك: أنه لا يتصور حب إلا بعد معرفة وادراك، وكذلك لا يتصف بالحب جماد ولا يحب الانسان ما لا يعرفه ولم يدركه، فالحب من خاصية الحى الدارك، بعد حصول الادراك بالفعل.

ثم لما كانت المدركات منقسمة إلى ما يوافق طبع المدرك ويلذّه، وإلى ما يخالفه ويؤلمه، وإلى ما لا يؤثر فيه بإلذاذ وايلام، فالقسم الأول يكون مرغوباً عند المدرك، ويسمى رغبة، وميله إليه حباً، والقسم الثانى يكون منفوراً عنده، وتسمى نفرته عنه كراهة وبغضاً، والثالث لا يوصف بميل وكراهة، فلا يوصف بكونه محبوباً، ولا مكروهاً. ثم اللذة لما كانت عبارة عن ادراك الملائم الملذ ونيله، فالحب الذي هو الميل والرغبة إليه لا يخلو عن لذة محققة أو خيالية، وعلى هذا فيمكن أن تعرف المحبة بأنها ابتهاج النفس بادراك الملائم ونيله، هذا فإنك قد عرفت أن المدرك إن كان مما يستحسن حبه شرعاً وعقلاً، كان كراهته وبغضه من الرذائل وحبه من الفضائل، وإن كان مما يذم حبه، كان بالعكس من ذلك.

فصل

(تعلق الحب بجميع القوى)

الحب والكراهة لما كانا تابعين للادراك، فينقسمان بحسب انقسام القوة المدركة، التي هي الحواس الظاهرة، والحواس الباطنة، والقوة العاقلة. فمن الحب ما يتعلق بالحواس الظاهرة، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها، كالصور الجميلة المرئية، والنغمات الموزونة، والروائح الطيبة، والمطاعم النفيسة، والملبوسات اللينة بالنظر إلى الخمس الظاهرة. ومنه ما يتعلّق بالحواس الباطنة، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها، كالصور الملائمة، الخيالية، والمعانى الجزئية الملائمة بالنسبة إلى المتخيلة والواهمة. ومنه ما يتعلق بالعاقلة،

بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها، كالمعانى الكلية، والذوات المجردة. ولا ريب في أن العقلى من الحب واللذات أقوى اللذات وابلغها، إذ البصيرة الباطنة أقوى من البصيرة الظاهرة والعقل أقوى إدراكاً وأشد غوصاً ونفوذاً في حقائق الأشياء وبواطنها من الحس، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة الحسنة، فتكون لذة العقل وحبه بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي جلت عن ادراك الحواس اتم وابلغ، ولذا جعل رسول الله ﷺ الصلاة أبلغ المحبوبات عنده في الدنيا، حيث قال: «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء وجعلت قرة عينى في الصلاة»، فإن الإلتذاذ بالصلاة لذة عقلية، كما أن الالتذاذ بالطيب لذة شمية، وبالنساء نظرية ولمسية.

فإن قيل: حقيقة الانسان نفسه الناطقة، ولها ثلاث قوى، وهى: العاقلة، والشهوية، والغضبية، وقوى اخرى هى: الحواس الظاهرة والحواس الباطنة وشأن العاقلة -كما ذكرت- ادراك المعانى الكلية، والحقائق المجردة، وشأن الحواس الظاهرة ادراك المبصرات والمسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات، وشأن الحواس الباطنة ادراك المعانى الجزئية، والصور المدركة بالحواس الظاهرة وضبطها، ومن جملة ما يدرك بالحواس ما يتعلق بقوتى الغضب والشهوة، من الغلبة والاستيلاء والوصول إلى المناكح والمطاعم وضدهما، فالمحب لهذه المدركات والملتذ بها ماذا من النفس وقواها المذكورة، وهل المحب والملتذ هو المدرك بعينه أو غيره؟

قلنا: المحب والملتذ أولاً في كل من هذه المدركات هو المدرك، وثانياً وبالواسطة هو النفس، إذ كل ادراك يتعلق بإحدى القوى، ليصل بالآخرة إلى النفس، فيحدث فيها ما يقتضيه من اللذة والألم، إلا أن ما يدرك بالحواس مما يتعلق بقوتى الشهوة والغضب لابد أن يصل اليهما ايضاً، فيحصل لهما اللذة أو الألم، وبواسطتهما يصل إلى النفس، فالمدرك أولا للغلبة أو العجز هو الوهم، فيلتذ أو يتألم، ثم يصل منه

أثر الادراك والالتذاذ والألم إلى القوة الغضبية،ويصل منها الأثر إلى النفس فيلتذ أو يتألم، والمدرك للطعم والريح واللين والنعومة هي الذائقة والشامة واللامسة، فالالتذاذ والتألم لها أولا وبواسطتها للقوة الشهويه، وهذا إن كانت الشهوية قوة على حدة سوى الذائقة والشامة واللامسة وسائر الحواس الظاهرة، وإن كانت معنى جنسياً شاملاً لجميعها فالأمر ظاهر. وبما ذكر ظهر وجه تعلق الحب بجميع القوى.

فصل
(أقسام الحب بحسب مباديه)

اعلم أن اسباب الحب ومباديها لما كانت متعددة مختلفة فينقسم الحب لأجلها على أقسام:

الأول ـ حب الانسان وجود نفسه وبقاءه وكماله، وهو أشد اقسام الحب واقواها، لأن المحبة إنما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة ولا شيء أشد ملاءمة لأحد من نفسه، ولا هو بشيء اقوى معرفة منه بنفسه، ولهذا جعلت معرفة نفسه مفتاحا لمعرفة ربه[1]. وكيف لا يكون حب الشيء لذاته أقوى المراتب، مع أن الحب كلما صار أشد جعل الاتحاد بين المحب والمحبوب أوكد وأبلغ؟ وأي اتحاد اشد من الوحدة ورفع الاثنينية بالمرة، كما بين الشيء ونفسه، فالمحبّ والمحبوب واحد، وسبب الحب غريزة في الطباع بحكم سنة الله:

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلًا﴾[2]

ومعنى حبه لنفسه كونه محباً لدوام وجوده، ومكرها لعدمه وهلاكه، فالبقاء ودوام الوجود محبوب، والعدم ممقوت، ولذا يبغض كل احد الموت، لا بمجرد ما

---

(١) كما قال امير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

(٢) الاحزاب، الآية: ٦٢. الفتح، الآية: ٢٣.

يخافه بعده، أو لمجرد ما يلزمه من سكراته، بل لظنه أنه يوجب انعدام كله أو بعضه، ولذا لو اختطف من غير الم وتعب، وأميت من غير ثواب وعقاب، كان كارهاً لذلك، وكما أن دوام الوجود محبوب فكذلك كمال الوجود محبوب، لأن فاقد الكمال ناقص: والنقص عدم بالاضافة إلى القدر المفقود، فالوجود محبوب في اصل الذات وبقائه وفي صفات كماله، والعدم ممقوت فيها جميعاً.

والتحقيق: أن المحبوب ليس إلا الوجود، والمبغوض ليس إلا العدم، وجميع الصفات الكمالية راجعة إلى الوجود، وجميع النقائص راجعة إلى العدم، إلا أن كل فرد من الموجود لما كان له نحو خاص من الوجود، وكانت تمامية نحو وجوده بوجود بعض الصفات الكمالية التي هي من مراتب الموجودات، فكان وجوده مركب من وجودات متعددة، فإذا فقد بعضها فكأنه فاقد لبعض اجزاء وجوده، وبذلك يظهر: أن الموجود كلما كان أقوى وكان نحو وجوده أتم، كان اجمع لمراتب الوجودات في القوة والشدة والعدة، وكانت صفاتة الكمالية اقوى واكثر، لكونها من مراتب الوجودات، فالوجود الواجبى الذي هو التام فوق التمام والقائم بنفسه المقوم لغيره ينطوى فيه جميع الوجودات، ويكون محيطاً بالكل، ثم محبة الأولاد من التحقيق يرجع إلى هذا القسم، لأن الرجل إنما يحب ولده ويتحمل المشاق لأجله، وإن لم يصل منه إليه نفع وحظ، لعلمه بأنه خليفته في الوجود بعد عدمه، فكأن بقاءه نوع بقاء له، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وبمنزلة جزء منه، لما عجز من الطمع في بقاء نفسه، ولعدم كون بقائه هو بقاؤه بعينه يكون بقاء نفسه أحب إليه من بقاء ولده لو كان طبعه باقياً على اعتداله، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه فانه يرى نفسه كبيراً قويا لأجلهم، متجملا بسببهم، إذ العشيرة كالجناح المكمل الانسان(١).

---

(١) كما قال أمير المؤمنين ـ عليه الصلاة والسلام ـ في جملة ما أوصى به ولده الامام المجتبى ـ عليهما السلام

الثاني ـ حبه لغيره لأجل انه يلتذ منه لذة حيوانية، كحب كل من الرجل والمرأة للآخر ولأجل الجماع، وحب الانسان المأكولات والملبوسات، والسبب الجامع في هذا القسم هو اللذة، وهو سريع الحصول وسريع الزوال، واضعف المراتب، لخساسة سببه وسرعة زواله.

الثالث ـ حبه للغير لأجل نفعه واحسانه، فان الانسان عبد الاحسان، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، ولذا قال رسول الله ﷺ: «أللهم لا تجعل لفاجر عليّ يداً فيحبه قلبي». فالسبب الجامع في هذا القسم هو النفع والاحسان، وهذان القسمان عند التحقيق يرجعان إلى القسم الأول، لأن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود، وسبب اللذة باعث لحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود.

والفرق أن الأعضاء، والصحة، والعلم، والطعام، والشراب، والجماع: محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال، وأما الطبيب الذي هو سبب الصحة، والعالم الذي هو سبب العلم، ومعطى الطعام والشراب والمرأة التي هي آلة الوقاع: محبوبة لا لذواتها، بل من حيث إنها وسائل إلى ما هو محبوب لذاته، فاذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة، والكل يرجع إلى محبة الانسان نفسه، فمن أحب المحسن لاحسانه فما احب ذاته تحقيقاً، بل أحب احسانه، ولو زال احسانه زال حبه مع بقاء ذاته، ولو نقص نقص الحب، ولو زاد زاد. وبالجملة: يتطرق إلى حبه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه.

الرابع ـ أن يحب الشيء لذاته، لا لحظ يناله منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقى البالغ الذي يوثق به، وذلك كحب الجمال والحسن،

الصلاة والسلام ـ: «واكرم عشيرتك، فانهم جناحك الذي به تطير، واصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول». نهج البلاغة: ٣/ ٦٣، مطبعة الاستقامة، القاهرة.

فإن كل جمال محبوب عند مدركه، وذلك لعين الجمال، لأن ادراك الجمال عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظنن أن حب الصورة الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة حيوانية، قد يحب الانسان الصور الجميلة لأجلها، وادراك نفس الجمال لذة اخرى روحانية، يكون محبوبا لذاتها، ولا ريب في أن حب الصور الجميلة بالجهة الأولى مذموم، وبالجهة الثانية ممدوح، والعشق الذي يقع لبعض الناس من استحسان الصور الجميلة يكون مذموماً إن كان سببه اللذة الشهوية الحيوانية، ويكون ممدوحا إن كان سببه الابتهاج بمجرد ادراك الجمال، ولأجل التباس السبب في هذا العشق اختلف العقلاء في مدحه وذمه، وكيف ينكر حب الصور الجميلة لنفس جمالها من دون قصد حظ آخر، مع أن الخضرة والماء الجارى محبوبان لا لتؤكل الخضرة ويشرب الماء، أو ينال منهما حظ سوى نفس الرؤية، وقد كان رسول الله ﷺ تعجبه الخضرة والماء الجارى والطباع الصافية السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الانوار والازهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النفس المناسبة الشكل، حتى الانسان لتنفرج عنه الغموم بمجرد النظر إليها من دون قصد حظ آخر منها. وبما ذكرناه ظهر ضعف ظن بعض ضعفاء العقول، حيث زعموا أنه لا يتصور أن يحب الانسان غيره لذاته، ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى ادراك ذاته، ولم يعلموا أن الحسن والجمال ليس مقصوراً على مدركات البصر، ولا على تناسب الخلقة، إذ يقال: هذا صوت حسن، وهذا طعم حسن، وهذا ريح طيب، وليس شيء من هذه الصفات مدركة بالبصر، وكذا ليس الحسن والجمال مقصوراً على مدركات الحواس، لوجودهما في غيرها، فإن اكثر خصال الخير يدرك بالعقل بنور البصيرة الباطنة، إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة، ولا يدرك شيء من هذه الصفات بالحواس، بل يدرك بالبصيرة الباطنة، وكل هذه الخصال المدركة حسنها بالعقل محبوبة بالطبع، والموصوف بها أيضاً محبوب عند من عرف صفاته.

ومما يدل على تحقق الجمال المدرك بالعقل وكونه محبوبا: أن الطباع السليمة مجبولة على حب الأنبياء والأئمة عليهم السلام مع أنهم لم يشاهدوهم، حتى أن الرجل قد تجاوز حبه لصاحب مذهبه حد العشق، فيحمله ذلك على أن ينفق جميع امواله في نصرة مذهبه والذب عنه، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه أو متبوعه، مع أنه لم يشاهد قط صورته ولم يسمع كلامه، فما حمله على الحب هو استحسانه بصفاته الباطنة: من الورع، والتقوى، والتوكل، والرضا وغزارة العلم، والاحاطة لمدارك الدين، وانتهاضه لافاضة علم الشرع، ونشره هذه الخيرات في العالم، وجملتها ترجع إلى العلم والقدرة، إذ جميع الفضائل لا تخرج عن معرفة حقائق الأمور والقدرة على حمل نفسه عليها بقهر الشهوات، وهما ـ اعنى العلم والقدرة ـ غير مدركين بالحواس، مع أنهما محبوبان بالطبع. ومن الشواهد على المطلوب: أن الناس لما وصفوا (حاتماً) بالسخاء و(انوشيروان) بالعدالة، أحبهما القلوب حباً ضرورياً، من دون نظرهم إلى صورهما المحسوسة، ومن غير حظ ينالونه منهما، بل كل من حكى عنه بعض خصال الخير وصفات الكمال غلب على القلوب حبه، مع عدم مشاهدته ويأس المحبين من انتشار خيره واحسانه اليهم، ومن كانت بصيرته الباطنة أقوى من حواسه الظاهرة، ونور العقل اغلب عليه من آثار الحواس الحيوانية، كان حبه للمعانى الباطنة اكثر من حبه للمعانى الظاهرة فشتان بين من يحب نقشاً على الحائط لجمال صورته الظاهرة، وبين من يحب سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم لجمال صورته الباطنة.

الخامس ـ محبته لمن بينه وبينه مناسبة خفية، أو مجانسة معنوية، فرب شخصين تتأكد المحبة بينهما من غير ملاحظة جمال، ولا طمع في جاه ومال، بل بمجرد تناسب الأرواح، كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «الارواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

السادس ـ محبته لمن حصل بينه وبينه الألف والاجتماع في بعض المواضع،

لا سيما إذا كان من المواضع الغريبة، كالسفن والاسفار البعيدة. والسبب فيه: كون افراد الانسان مجبولة على المؤانسة مع التلاقي والاجتماع، ولكون المؤانسة مركوزة في طبيعة الانسان سمى انساناً، فهو مشتق من الانس دون النسيان ـ كما ظن ـ، والمؤانسة لا تنفك عن المحبة، وربما كان حصول المؤانسة والحب بين أهل البلد، أو بينهم وبين أهل القرى، أو بين أهل البلاد المتباعدة والمواضع المختلفة، من جملة اسرار الأمر بالجمعة والجماعة، وصلاة العيدين، والحج الباعث لاجتماع عموم الخلائق في موقف واحد.

السابع ـ محبته لمن يشاركه في وصف ظاهر، كميل الصبى إلى الصبى لصباه، والشيخ إلى الشيخ لشيخوخته، والتاجر إلى التاجر لتجارته، وهكذا... فإن كل شخص مائل إلى من يشاركه في وصفه وصنعته وشغله وحرفته، والسبب الجامع فيه هو الاشتراك في الوصف والصنعة.

الثامن ـ حب كل سبب وعلة لمسببه ومعلوله وبالعكس، فإن المعلول لما كان مثالا من العلة، ومترشحاً عنها ومنبجساً منها، ومناسباً لها لكونه من سنخها، فالعلة تحبه لأنه فرعها وبمنزلة بعض اجزائها التي كانت منطوية فيها، والمعلول يحبها لأنها اصله وبمنزلة كله الذي كان محتويا عليه فكان كلاً منهما في حبه للآخر يحب نفسه.

ثم السبب إن كان علة حقيقية موجدة، تكون سببية أقوى في حصول المحبة والاتحاد مما إذا كان علة معدة. فأقوى اقسام المحبة ما يكون للواجب سبحانه بالنسبة إلى عباده، وبعد ذلك لا محبة أقوى من محبة العباد العارفين بالنسبة إليه سبحانه، فإن محبتهم له من حيث كونه موجداً مخرجاً لهم من العدم الصرف إلى الوجود، ومعطياً لهم ما احتاجوا إليه في النشأتين، ومن حيث انه تعالى تام فوق التمام في الذات والصفات الكمالية، والنفس بذاتها مشتاقة إلى الكمال المطلق، وهذه المحبة فرع المحبة ولا تحصل بدونها، ولذا قال سيد الرسل ﷺ: «ما اتخذ الله ولياً جاهلا قط». وحب الأب لابنه وبالعكس نسبة هذا القسم، من حيث إن الأب

سبب ظاهر لوجود الابن، وإن لم يكن سبباً حقيقياً، بل علة معدة له، فيحبه لأنه يراه بمنزلة نفسه، ويظنه مثالاً من ذاته، ونسخة نقلتها الطبيعة من صورته، ويعد وجوده بعده بمنزلة البقاء الثاني لنفسه، فيظنه أنه جزؤه وفي الخلق والخلق مثله، وكذا كل ما يريد لنفسه من الكمالات يريد أفضله له، ويفرح بترجيحه عليه، وتفضيله عليه عنده بمثابة أن يقال: إنه في الآن أفضل من السابق، ومما يؤكد محبته له: أنه يرجو منه انجاح مقاصده ومطالبه في حياته ومماته، وليست محبة الابن للأب كمحبة الأب للابن، بل هو أضعف، لفقد بعض الأسباب الباعثة له، ولذا أمر الأولاد في الشريعة بحب الآباء دون العكس، وكذا المحبة التي بين المعلم والمتعلم من هذا القسم، لأن المعلم كالسبب القريب للحياة الروحانى للمتعلم وافاضة الصورة الانسانية عليه، كما أن الأب كالسبب لحياته الجسمانية ورتبته الصورية، فهو والد روحانى له، وبقدر شرافة الروح على الجسم يكون المعلم أشرف من الأب، وعلى هذا ينبغى أن تكون محبة المعلم أدون من محبة الموجد الحقيقى وأكثر من محبة الأب، وقد ورد في الحديث: «أن آباءك ثلاثة: من ولّدك، ومن علّمك، ومن زوّجك، وخير الآباء من علّمك». وسئل من ذى القرنين: أن أباك أحب اليك أم معلمك؟ قال: «معلمى أحب إليّ، لأنه سبب لحياتى الباقية، وأبى سبب لحياتى الفانية». وقال امير المؤمنين ﷺ: «من علمنى حرفاً فقد صيرنى عبداً». وعلى هذا ينبغى أن يكون حب النبى ﷺ وأوصياؤه الراشدين عليهم السلام أوكد من جميع أقسام الحب بعد محبة الله سبحانه، لأنه المعلم الحقيقى والمكمل الأول، ولذا قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وولده».

التاسع ـ محبة المتشاركين في سبب واحد بعضهم لبعض، كمحبة الاخوان والأقارب. وكلما كان السبب أقرب كانت المحبة أوكد، ولذا تكون محبة الأخوين أشدّ من محبة أبناء الأعمام مثلاً، ومن عرف الله وانتساب الكل اليه، وبلغ مقام التوحيد، وعرف النسبة والربط الخاص الذي بين الله وبين مخلوقاته، يحب جميع

الموجدات من حيث اشتراكه معها في الموجد الحقيقى. ثم قد يجتمع بعض اسباب المحبة أو أكثرها في شخص واحد، فيتضاعف الحب، كما لو كان لرجل ولد جميل الصورة، حسن الخلق، كامل العلم،حسن التدبير، محسن إلى والده وإلى الخلق، كان حب والده له في غاية الشدة، لاجتماع أكثر أسباب الحب فيه، وربما أحب شخصاً آخر لوجود بعض أسباب الحب فيه، من دون عكس، لعدم تحقق سبب من أسباب الحب فيه، وقد تختلف فيهما أسباب الحب، فيحب كل منهما الآخر من جهة، وتكون قوة الحب بقدر قوة السبب، فكلما كان السبب أكثر واقوى كان الحب أشد وأوكد.

فصل
(لا محبوب حقيقة إلا الله)

اعلم انه لا مستحق للحب غير الله سبحانه، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا هو، ولو كان غيره تعالى قابلاً للحب وموضعاً له فإنما هو من حيث نسبته إليه تعالى، فمن أحب غيره تعالى لا من حيث نسبته اليه، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله، وكيف يكون غيره سبحانه من حيث هو، لا من جهة انتسابه اليه، مستحقاً للحب، وهو في نفسه مع قطع النظر عنه تعالى وعن انتسابه إليه ليس إلا العدم، والعدم كيف يصلح للحب، فينبغى أن يكون حبه لعموم الخلق بعموم النسبة، أى من حيث إنها منه تعالى، وآثاره، ومعلولاته، أضواؤه واظلاله، ولخصوص بعض الخواص الذين لهم خصوصية نسبة إليه تعالى، كالحب، والانس، والمعرفة، والإطاعة لخصوص النسبة ايضاً.

ومما يوضح المطلوب: أن جميع اسباب الحب مجتمعة في حق الله تعالى، ولا توجد في غيره حقيقة، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل ومجاز محض لا حقيقة له.

أما السبب الأول ـ اعنى محبة النفس: فمعلوم أن وجود كل أحد فرع لوجود ربه وظل له، ولا وجود له من ذاته، بل هو من حيث ذاته ليس محض وعدم صرف، فوجوده وداوم وجوده وكمال وجوده من الله وبالله وإلى الله، فهو الموجد المخترع له، وهو المبقى له، وهو المكمل لوجوده بايجاد صفات الكمال فيه، فهو صرف العدم لولا فضل الله عليه بالايجاد وهالك بعد وجوده لولا فضله عليه بالابقاء، وناقص بعد بقائه لولا فضله عليه بالتكميل، فليس، في الوجود شيء له قوام بنفسه إلا القيوم المطلق الذي هو قائم بذاته ومقوم لغيره. وحينئذ، فمحبة كل شيء لنفسه ترجع إلى محبة ربه، وإن لم يشعر المحب به، وكيف يتصور أن يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟ مع أن من أحب الظل أحب بالضرورة الاشجار التي بها قوام الظل، ومن أحب النور أحب لا محالة الشمس التي بها قوام النور، وكل ما في الوجود بالاضافة إلى قدرة الله تعالى كالظل بالاضافة إلى الشجر والنور بالاضافة إلى الشمس، إذ الكل من آثار قدرته، ووجوده تابع لوجوده، كما أن وجود الظل تابع لوجود الشخص، ووجود النور تابع لوجود الشمس، بل هذا المثال إنما هو للتفهم، وبالاضافة إلى أوهام العوام، حيث يتوهمون أن الظل والنور تابعان للشخص والشمس وفايضان عنهما، وعند التحقيق ليس الظل والنور أثرين للشخص والشمس وموجودين بهما، بل هما فايضان من الله تعالى، موجودان به بعد حصول الشرائط، كما أن أصل الشخص والشمس وشكلهما وصورتهما وسائر صفاتهما منه تعالى.

وأما السبب الثاني والثالث ـ اعنى الإلتذاذ والاحسان، سواء كان متعدياً إلى المحب أم لا: فمعلوم أنه لا لذة ولا احسان إلا من الله تعالى، ولا محسن سوى الله، فإنه خالق الإحسان وذويه، وفاعل اسبابه ودواعيه، وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسن فعاله، وقطرة من بحار كماله وافضاله.

وأما الرابع ـ اعنى الحسن والجمال والكمال: فلا ريب في أنه تعالى هو الجميل بذاته والكامل بذاته، وهو الجمال الخالص، والكمال المطلق، وحقيقتهما منحصرة

به تعالى، وما يوجد في غيره تعالى من الجمال والكمال لا يخلو عن شوائب الخلل والنقصان، إذ النقص شامل لجميع الممكنات، وانما تتفاوت في درجات النقص. وقد عرفت أن الجمال المعنوى اقوى من الجمال الصورى، ومن كان من أهل البصيرة والكمال يكون حبه للجمال الباطن المعنوى أكثر واقوى من حبه للجمال الصورى، وحقيقة الجمال المعنوى الذي هو وجوب الوجود، وكمال العلم والقدرة، والاستيلاء على الكل، واستناد الجميع اليه، منحصر بالله تعالى فإذا كان الجمال المشوب بالنقص محبوباً، فكيف لايكون الجمال الخالص البحت الذي لا يتصور جمال فوقه محبوباً، بل المحبوب حقيقة ليس إلا هو.

بادۀ خاك آلودتان مجنون كند صاف اگر باشد ندانم چون كند[1]

على أن كل جميل بالجمال الظاهر الصورى، أو بالجمال الباطن المعنوى، رشحة من رشحات جماله، وكل كامل فكماله فرع كماله، فكل من احب جميلا أحب خالقه، وما احب احداً غير الله تعالى، لكنه احتجب عنه تحت وجوه الاحباب واستار الاسباب، هذا مع أن عمدة جمال المخلوقين إنما هو علمهم بالله وبصفاته وافعاله، وقدرتهم على اصلاح نفوسهم بازالة الرذائل والخبائث الشهوية المانعة عن التقرب إلى الله تعالى، وباتصافهم بمعالى الصفات وشرائفها المقربة إلى الله، وعلى اصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة، ومعلوم أن هذه الامور اضافات إلى الله سبحانه، فحبها يرجع إلى حبه تعالى.

وأما الخامس ـ أعنى المناسبة الخفية والمجانسة المعنوية: فلا ريب في أن للنفس الناطقة الانسانية مناسبة مجهولة خفية مع باريها وموجدها، إذ هي شعلة من شعلات جلاله، وبارقة من بوارق جماله، ولذا قال الله سبحانه:

---

(١) إن خمركم الملوث بالغبار يجننى!! فلست أدرى ما هو مفعوله إن كان صافياً!!؟

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[١]. وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢].

اذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة، وبهذه المناسبة ينقطع العبد إلى ربه، ويعرفه عند ابتلائه بمصيبة وبلية، وهذه المناسبة لا تظهر ظهوراً تاما إلا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض، كما قال الله تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به». وهذا موضع تزل فيه الاقدام، حتى وقع قوم في التشبيه الظاهر، وآخرون في الحلول والاتحاد، وأهل الحق الذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والاتحاد، وفساد طرفي التفريط والافراط، واتضحت لهم حقيقة السر، وعرفوا تلك المناسبة واستقاموا عليها: هم الاقلون. ثم من المناسبة الظاهرة التي بين العبد وبين ربه هو قرب العبد من الله في الصفات الربوبية والاخلاق الإلهية: كالعلم، والبر، والاحسان، واللطف. وافاضة الخير والرحمة على الخلق، وارشادهم إلى الحق... إلى غير ذلك من الصفات الإلهية، ولذا قيل: تخلقوا باخلاق الله. ولا ريب في أن كل ذلك يقرب العبد إلى الله، ويصيره مناسباً له وأما العلية والمعلولية فالأمر فيه ظاهر، وباقي الأسباب أسباب ضعيفة نادرة، اعتبارها في حق الله نقص.

وقد ظهر مما ذكر: أن أسباب الحب بجملتها متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقاً لا مجازاً، وفي أعلى الدرجات لا أدناها، ثم كل من يحب أحداً من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته اياه في السبب. والشركة نقصان في الحب، لا يتصف احد بوصف محبوب إلا ويوجد شريك له فيه، والله سبحانه هو الذي لا يشاركه غيره في اوصاف الكمال والجمال، لا وجوداً ولا امكانا، فلا جرم لا يكون في حبه شركة، فلا يتطرق إليه نقصان، كما لا تتطرق الشركة والنقصان إلى

---

(١) الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) البقرة، الآية: ٣٠.

أوصاف كماله، فهو المستحق لأصل المحبة وكمالها، ولا متعلق للمحبة إلا هو، إلا أنه لا يعرف ذلك إلا العارفون من أوليائه وأحبائه، كما قال سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة بقوله: «وأنت الذي ازلت الاغيار عن قلوب أحبائك، حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك».

تكميل
(الشهود التام هو نهاية درجات العشق)

قد صرح اساطين الحكمة: (أن الأشياء المختلفة لا يمكن أن يحصل بينها تشاكل وتآلف تام حتى يحصل بينها الاتحاد والمحبة، وأما الأشياء المتماثلة المتشاكلة فيشتاق بعضها إلى بعض ويسر بعضها ببعض، ويحصل بينها التآلف والحب والوحدة والاتحاد).

والتوضيح: أن الجواهر البسيطة لتشاكلها وتماثلها يحن بعضها إلى بعض فيحصل بينها التآلف التام، والتوحد الحقيقى في الذوات والحقائق، بحيث يرتفع عنها التغاير والاختلاف، إذ التغاير من لوازم المادية. وأما الماديات فلا يمكن أن يحصل بينها هذا التآلف والتوحد، ولو حصل بينهما تآلف وشوق، فإنما هو بتلاقى السطوح والنهايات دون الحقائق والذوات، وليس يمكن أن يبلغ مثل هذه الملاقاة إلى درجة الاتحاد والاتصال فيحصل بينها الانفصال. فالجوهر البسيط المودع في الانسان ـ أعنى النفس الناطقة ـ إذا صفى عن الكدورات الطبيعية، وتطهر عن الأخباث الجسمانية، وتخلى عن حب الشهوات والعلائق الدنيوية، انجذب بحكم المناسبة إلى عالم القدس، وحدث فيه شوق تام إلى اشباهه من الجواهر المجردة، ويرتفع منها إلى ما هو فوق الكل ومنبع جميع الخيرات، فيستغرق في مشاهدة الجمال الحقيقى، ومطالعة جمال الخير المحض، وينمحى في انوار تجلياته القاهرة، ويصل إلى مقام التوحيد الذي هو نهاية المقامات، فيفيض عليه من انواره ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على خاطر، فيحصل له من البهجة واللذة ما

يضمحل عنده كل بهجة ولذة، والنفس التي بلغت هذا المقام لا يتفاوت حالها كثيراً في حالتى التعلق بالبدن والتجرد عنه، إذ استعمال القوى البدنية لا يصدها عن ملاحظة الجمال المطلق، وما يحصل لغيرها من السعادة في الآخرة يحصل لها في هذه النشأة:

امروز در آن كوش كه بينا باشى
حيران جمال آن دلارا باشى
شرمت بادا چو كودكان در شب عيد
تا چند در انتظار فردا باشى؟[١]

نعم، الشهود التام، والابتهاج الصافي عن الشوب، يتوقف على تجردها الكلى عن البدن، فانها وإن لاحظت بنور البصيرة في هذه النشأة جمال الوحدة الصرفة، إلا أن ملاحظتها لا تخلو عن شوائب الكدرة الناشية من الطبيعة، فالصفاء التام يتوقف على التجرد الكلى، ولذا تشتاق أبداً إلى رفع هذا الحجاب، ويقول:

حجاب چهرهٔ جان مى‌شود غبار تنم
خوشا دمى كه از اين چهره پرده بر فكنم
چنين قفس نه سراى چو من خوش الحانى است
روم بروضهٔ رضوان كه مرغ آن چمنم[٢]

وهذه المحبة نهاية درجات العشق، وغاية الكمال المتصورة لنوع الانسان،

---

(١) اسع سعيك اليوم لتكون على بصيرة
ولتكون متلهفا لجمال ذلك الحبيب الفتان!
أما تستحيى انك على غرار الأطفال في ليلة العيد؟!!
إلى متى تتنظر اليوم الغد؟!!

(٢) ان غبار الجسد يكون حجابا لروحى ونقابا!
فما أحلى اللحظة التي أطرح فيها عن وجهى هذاالستار!!
ان هكذا قفصاً لا يليق لذى تغريد بهيج مثلى!!
سأذهب إلى (روضة الرضوان)... فانى من طيور ذلك المرج والبستان!!

وذروة مقامات الواصلين، وغاية مراتب الكاملين، فما بعدها مقام إلا وهو ثمرة من ثمراتها، كالانس والرضا والتوحيد، ولا قبلها مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالصبر والزهد وسائر المقامات. وهذا العشق هو الذي افرط العرفاء وارباب الذوق في مدحه، وبالغوا في الثناء عليه نثراً ونظما، وصرحوا بأنه غاية الاتحاد والكمال المطلق، ولا كمال إلا هو، ولا سعادة إلا به، كما قيل:

عشق است هر چه هست بگفتيم وگفته‌اند
عشقت بوصل دوست رساند بضرب دست(١)

وقيل:

جز محبت هر چه بردم سود در محشر نداشت
دين ودانش عرض كردم كس بچيزى برنداشت(٢)

فصل
(سريان الحب في الموجودات)

اكثر اقسام المحبة فطرية طبيعية، كمحبة المتناسبين والمتجانسين، والعلة والمعلول، ومحبة الجمال وغير ذلك، والارادى الكسبى منها قليل، كمحبة المتعلم للمعلم، وربما أمكن ارجاعه ايضاً إلى الطبيعي. وإذا كان الحب طبيعياً، فالاتحاد الذي من مقتضياته يكون ايضاً طبيعياً، فيكون لذلك افضل من العدالة التي تقتضى الاتحاد الصناعى. ثم مع وجود المحبة لا حاجة إلى العدالة، إذ هي فرع الكثرة المحوجة إلى الاتحاد القشرى، فمع وجود الاتحاد الطبيعى لا يقع الاحتياج اليه،

(١) كل ما يكون هو العشق ـ كما قالوا وقلنا ـ...
فعشقك يوصلك إلى الحبيب بالجهد والشطارة!!
(٢) سوى الحب لم يفد في الحشر مما صحبته!!
عرضت الدين والعلم فلم يعرهما احد اهتماماً!!!

وقد صرّح قدماء الحكمة بأن قوام الموجودات وانتظامها بالمحبة، والمحبة الفطرية ثابتة بينها، وليس شيء من الموجودات خالياً عنها، كما أنه ليس شيء منها خالياً عن الوجود والوحدة، وقد صرّحوا بأنه كل الوحدة، فهو سار في جميع الكائنات: من الافلاك والعناصر والمركبات، إذ الحب والشوق إلى التشبه بالفاعل رقص الافلاك، وأدار رحاها، (بسم الله مجراها ومرساها)، والحب هو سبب ميل العناصر إلى اجسادها الطبيعية، وميل المركبات بعضها إلى بعض:

سرّ حب ازلى بر همه اشيا ساريست ورنه بر گل نزدى بلبل بيدل فرياد[1]

ثم لما كانت المحبة التي هي ظل الوحدة مقتضية للبقاء والكمال، وضدها موجباً للفساد والاختلال، ولكل منهما مراتب ودرجات، فتختلف الموجودات بحسبها في درجات الكمال والنقصان. والمتأخرون خصصوا الحب بذوى العقول، فلا يطلقون اسم الحب على ميل العناصر إلى مراكزها، وميل المركبات بعضها إلى بعض، كميل الحديد إلى المغناطيس، ولا اسم الكراهة والبغض على المنافرة التي بينها، كمنافرة الحجر الباغض الحل من الحل، بل يسمونها بالميل والهرب، وكذا الموافقة والمعاداة اللتين بين العُجم من الحيوانات، لا يطلقون عليها اسم الحب والبغض، بل يسمونها بالألف والنفرة.

فصل

(رد المنكرين لحب الله)

قد ظهر مما ذكر: ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والانس لله تعالى، وأنه المستحق للحب دون غيره، وبذلك ظهر فساد زعم من أنكر امكان حصول

(١) ان (سر الحب الازلى) لسار في جميع الموجودات!
وإلا لم تغرد البلابل على الازهار والاوراد!!

محبة العبد لله تعالى وقال: (لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثل).

ولما انكروا المحبة، انكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه، ويدل على فساد هذا القول ـ مضافا إلى ما ذكر ـ اجماع الامة على كون الحب لله ولرسوله فرضاً، وما ورد في الآيات والأخبار والآثار من الأمر به والمدح عليه، واتصاف الأنبياء والأولياء به، وحكايات المحبين، وقد بلغت من الكثرة والصراحة حداً لا يقبل الكذب والتأويل، فمن شواهد القرآن قوله تعالى:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[١]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ...﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ إلى آخر الآية[٣].

وأما الأخبار الواردة والآثار، فقد قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما». وقال ﷺ: «الحب من شروط الايمان». وقال ﷺ: «احبوا الله لما يغدوكم به من نعمة، احبونى لحب الله». وقد نظر ﷺ إلى بعض اصحابه مقبلاً وعليه إهاب كبش، فقال ﷺ: «انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون». وقال ﷺ في دعائه: «أللهم ارزقنى حبك وحب من يحبك وحب من يقربنى إلى حبك، واجعل حبك أحب إليّ من الماء البارد». وفي الخبر المشهور: «أن ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت، إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلا يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى اليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت! الآن فاقبض». وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «يا ابن عمران! كذب من زعم

---

(١) المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) البقرة، الآية: ١٦٥.

(٣) التوبة، الآية: ٢٤.

أنه يحبنى فإذا جنه الليل نام عنى، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه، ها أنا ذا يـا ابـن عمران مطلع على احبائى، إذا جنهم الليل حولت ابصارهم إلى مـن قـلوبهم، ومـثلت عقوبتى بين اعينهم، يخاطبونى عـن المشـاهدة، ويكـلمونى عـن الحـضور، يـا ابـن عمران! هب لى من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع في ظلم الليل، فإنك تجدنى قريباً». وروى: «أن عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قـد نـحلت ابـدانـهم وتغيرت ألوانهم، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النـار. فـقال: حقّ على الله أن يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثـلاثة اخـرى، فـإذا هـم أشـدّ نـحولاً وتغيراً، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الشوق إلى الجنة، فقال: حق عـلى الله أن يعطيكم ما ترجون. ثم جاوزهم إلى ثلاثة اخرى، فإذا هم أشد نـحولاً وتـغيراً، كأن على وجوههم المرايا من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: حب الله عز وجل، فقال: انتم المقربون». وفي بعض الروايات: «أنه عليه السلام قـال للـطائفتين الأولـيـين: مخلوقاً خفتم، ومخلوقاً رجوتم. وقال للـطائفة الثـالثة: أنـتم اوليـاء الله حـقاً، مـعكم أمرت ان اقيم». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن شعيباً عليه السلام بكى من حب الله عز وجل حتى عمى، فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمى، فرد الله عليه بصره، فلما كـانت الرابـعة أوحى الله اليه: يا شعيب! إلى متى يكون هذا أبداً منك، إن يكن هـذا خـوفاً مـن النـار فقد اجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد ابحتك. فـقال: إلهـي وسـيدى! أنت تـعلم أنى ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شـوقاً إلى جـنتك، ولكـن عـقد حـبك عـلى قـلبى، فلست أصبر أو أراك. فأوحى الله: أما إذا كان هذا هكذا سأخدمك كـليمى مـوسى بـن عمران». وروى: «أنه جاء اعرابى إلى النبى صلى الله عليه وآله فـقال: يـا رسـول الله! مـتى السـاعة؟ فقال صلى الله عليه وآله: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صـيام، إلا أنـى أحب الله ورسـوله، فـقال له النـبى: المـرء مع مـن احب». وفـي أخـبار داود: «قـل لعـبادى المتوجهين إلى محبتى: ما ضركم إذا احتجبتم عن خلقى إذ رفعت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلي بعيون قلوبكم، ومـا ضـركم مـا زويت عـنكم مـن الدنـيا إذ

بسطت دينى لكم، وما ضركم مسخطة الخلق إذ التمستم رضاى». وفيها ايضاً: «يا داود! انك تزعم انك تحبّنى، فإن كنت تحبنى فاخرج حب الدنيا عن قلبك، فإن حبى وحبها لا يجتمعان في قلب». وقال أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: «فهبنى يا إلهى وسيدى ومولاى وربى صبرت على عذابك، فكيف اصبر على فراقك». وقال عليه السلام: «إن لله تعالى شراباً لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم»[١]. وقال سيد الشهداء في دعاء عرفة: «أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب احبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك». وقال عليه السلام: «يا من أذاق احباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين». وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة إلى سيد الساجدين عليه السلام: «وعزتك! لقد أحببتك محبة استقرت في قلبى حلاوتها، وانست نفسى ببشارتها، ومحال في عدل أقضيتك أن تسد أسباب رحمتك عن معتقدى محبتك». وفي مناجاته الأخرى: «إلهى فاجعلنا من الذين توشحت اشجار الشوق اليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم»... ثم قال: «والحقنا بعبادك الذين هم بالبدار اليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، واياك في الليل والنهار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون، الذين صفيت لهم المشارب، وبلغتهم الرغائب، وانجحت لهم المطالب، وقضيت لهم من وصلك المآرب، وملأت لهم ضمائرهم من حبك، ورويتهم صافي شرابك، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا، ومنك على أقصى مقاصدهم حصلوا»... ثم قال: «فقد انقطعت اليك همتى، وانصرفت نحوك رغبتى، فأنت لا غيرك مرادى، ولك لا سواك سهرى وسهادى، ولقاؤك قرة عينى، ووصلك منى نفسى، واليك شوقى، وفي محبتك

---

(١) لم نعثر على مصدر لهذه الرواية في كتب اصحابنا الامامية ـ رضوان الله عليهم ـ.

ولهى، وإلى هـواك صـبابتى، ورضـاك بـغيتى، ورؤيـتك حـاجتى، وجـوارك طـلبى، وقربك غاية مسألتى، وفي مناجاتك روحـى وراحـتى، وعـندك دواء عـلتى، وشـفاء غلتى، وبرد لوعتى، وكشـف كـربتى»... ثـم قـال: «ولا تـقطعنى عـنك، ولا تـباعدنى منك، يا نعيمى وجنتى! ويا دنياى وآخرتى!». وقال عليه السلام ايضاً: «إلهى! مـن ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عـنك حـولا، إلهـى! فاجعلنى ممن اصطفيته لقربك وولايـتك، وأخـلصته لودك ومـحبتك، وشـوقته إلى لقائك، ورضيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعـذته مـن هجرك»... ثم قال: «وهيمت قلبه لارادتك، واجتبيته لمشـاهدتك، وأخـليت وجـهه لك، وفرغت فؤاده لحـبك»... ثـم قـال: «أللـهم اجـعلنا مـمن دأبـهم الارتـياح اليك والحنين، ودهرهـم الزفرة والأنين، وجباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم سـاهرة فـي خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك» وقلوبهم معلقة بمحبتك، وافئدتهم مـنخلعة من مهابتك، يا من أنوار قدسه لأبصار مـحبيه رائـقة، وسـبحات نـور وجـهه لقـلوب عارفيه شائقة! يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المـحبين! اسألك حـبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصل إلى قـربك، وأن تـجعلك أحب إلي مـمن سـواك». وقال عليه السلام ايضاً: «إلهى! ما ألذ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب، ومـا أحـلى المسير اليك في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبك، وما أعذب شرب قربك». وقـال عليه السلام ايضاً: «وغلتى لا يبردها إلا وصلك، ولوعتى لا يطفيها إلا لقاؤك، وشوقى اليك لا يبله إلا النظر إلى وجهك، وقرارى لا يقر دون دنوى مـنك، ولهـفتى لا يـردها إلا روحك، وسقمى لا يشفيه إلا طبك، وغمى لا يزيله إلا قربك، وجرحى لا يـبرؤه إلا صـفحك، ورين قلبى لا يـجلوه إلا عـفوك، ووسـواس صـدرى لا يـزيحه إلا أمـرك»[1]. وقـال الصادق عليه السلام: «حب الله إذا أضاء على سرعبد أخلاه عن كـل شـاغل وكـل ذكـر سـوى

---

(١) صححنا فقرات المناجاة الانجيلية والمناجاة الأخرى على (البحار): باب ادعية المـناجاة: مـج ١٩ / ١٠٧ ـ ١١٤، ط امين الضرب.

الله، والمحب أخلص الناس سراً لله، وأصدقهم قولاً، وأوفاهم عهداً، وأزكاهم عملاً، وأصفاهم ذكراً، وأعبدهم نفساً، تتباهى الملائكة عند مناجاته، وتفتخر برؤيته، وبه يعمر الله بلاده، وبكرامته يكرم الله عباده، ويعطيهم إذا سألوه بحقه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، ولو علم الخلق ما محله عند الله ومنزلته لديه ما تقربوا إلى الله إلا بتراب قدميه». وقال أمير المومنين عليه السلام: «حب الله نار لا يمر على شيء إلا احترق، ونور الله لا يطلع على شيء إلا اضاء، وسماء الله ما ظهر من تحته شيء إلا غطاه، وريح الله ما تهب في شي إلا حركته، وماء الله يحيى به كل شيء، وأرض الله ينبت منها كل شيء، فمن احب الله أعطاه كل شيء من الملك والملك». وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أحب الله عبداً من امتى قذف في قلوب اصفيائه وأرواح ملائكته وسكان عرشه محبته ليحبوه، فذلك المحب حقاً، طوبى له ثم طوبى له! وله عند الله شفاعة يوم القيامة»[1]، إلى هنا كلام الصادق عليه السلام وما ورد في الحب من الأخبار والأدعية المعصومية أكثر من أن يحصى، وحكايات العشاق والمحبين لم تبلغ من الكثرة والتواتر حداً يمكن انكاره، وقد روى: «أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه بعض أهل محبته، فقال له: ائت جبل لبنان، فإن فيه أربعة عشر نفساً، فيهم شبان وكهول ومشايخ،وإذا أتيتهم فاقرأهم مني السلام، وقل لهم: يقول ربكم: ألا تسألوني حاجة، فانكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم واسارع إلى محبتكم. فاتاهم داود، فوجدهم عند عين من العيون، يتفكرون في عظمة الله وملكوته، فلما نظروا إلى داود، نهضوا ليتفرقوا عنه، فقال لهم داود: أنا رسول الله اليكم، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم. فاقبلوا نحوه، والقوا أسماعهم نحو قوله، والقوا أبصارهم إلى الأرض، فقال داود: ربكم يقرؤكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألوني حاجة، ألا تنادوني فاسمع صوتكم وكلامكم؟ فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم وأسارع إلى

---

(١) صححنا الاحاديث الثلاثة على (مصباح الشريعة) ـ الباب السابع والتسعون، ص ١٩٣ ـ.

محبتكم، وانظر اليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة. ولما قال داود ذلك جرت الدموع على خدودهم وسبح الله كل واحد منهم ومجده، وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحب والشوق».

فصل
(معرفة الله اقوى سائر اللذات)

قد عرفت أن الحب هو الميل إلى الشيء الملذ الملائم للمدرك والابتهاج بادراك الملائم ونيله، واللذة هي نفس ادراك الملائم الملذ ونيله، وهذا الادراك إن كان متعلقاً بالقوة العاقلة ـ أى ان كان المدرك هو القوة العاقلة ـ عبر عنه بالعلم والمعرفة، وقد عرفت أنه اقوى واشد واشرف من الادراكات الحسية، التي هي الابصار والاستماع والذوق والشم واللمس.

ثم هذا الادراك ـ أعنى العلم والمعرفة ـ يختلف أيضاً في الشرافة والكمال بحسب شرافة المدرك، أى المعلوم، فكلما كان المدرك أجل وأشرف كان الادراك ـ أى المعرفة به ـ أجل وأعلى. ولا ريب في أن الواجب سبحانه أشرف الموجودات وأجلها، فالمعرفة به اعلى المعارف واشرفها، ويثبت من ذلك: أن أجلّ اللذات واعلاها هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم، ولا يتصور أن يؤثر عليها لذة اخرى إلا من حرم هذه اللذة . وبيان ذلك بوجه أوضح: أن اللذات تابعة للادراكات، والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذة، ولذتها عبارة عن نيلها مقتضى طبعها الذي خلقت له، فغريزة الغضب لما خلقت للتشفى والانتقام، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام، وغريزة الشهوة لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، فلا جرم لذتها في نيل الغذاء وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الاستماع والإبصار والاستشمام، وغريزة العقل المسماة بالبصيرة الباطنية خلقت لتعلم بها حقائق الأشياء كلها، فلذتها في العلم والمعرفة، والعلم لكونه منتهى الكمال وأخص

صفات الربوبية، يكون اقوى اللذات والابتهاجات، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم، لأنـه يستشعر عـند سـماع الثـناء كـمال ذاتـه وجـمال عـلمه، فيعجب بنفسه، ويلتذ به.

والتحقيق: أن الادراك والنيل الذي هو الكمال ليس إلا العلم، وسائر الادراكات - اعنى نيل الغلبة والغذاء والاسماع والإبصار والاستشمام - لا تعد كمالات، ثـم ليست لذة كل حلو واحدة، فإن لذة العلم بالحراثة والخـياطة والحـياكـة ليست كـلذة العـلم بسياسة الملك وتدبير أمور الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر والتواريخ كلذة العلم بالله وبصفاته وملائكته ومـلكوت الـسماوات والأرض، بـل لذة العـلم بـقدر شـرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، فإن كان فـي المـعلومات مـا هـو الأشـرف والأجل والأعظم والأكمل، فالعلم به ألذ العـلوم واشـرفها واكـملها واطـيبها، وليت شعرى هل في الوجود شيء أعلى وأجمل وأشرف وأكمل مـن خـالق الأشـياء كـلها وقيومها، ومكملها ومربيها، ومبدئها ومعيدها، ومـدبرها ومـرتبها، وهـل يـتصور أن يكون أحد في الملك والكمال والعظمة والجلال والقدرة والجمال والكبرياء والبهاء أعظم ممن ذاته في صفات الكمال ونعوت الجـلال فـوق التـمام، وقـدرته وعـظمته وملكه وعلمه غير متناهية، فان كنت لا تشك فـي ذلك، فـينبغى ألا تشك فـي أن لذة المعرفة به أقوى من سائر اللذات لمن له البصيرة الباطنة وغريزة المعرفة، فان اللذات مختلفة بالنوع أولاً، كمخالفة لذة الوقـاع ولذة السـماع، ولذة المـعرفة ولذة الرئـاسة، وكل نوع مختلف بالضعف والقوة، كمخالفة لذة الشبق المغتلم[1] من الجـماع، ولذة الفاتر الشهوة مـنه، وكـمخالفة لذة النـظر إلى الوجـه الجـميل ولذة النـظر إلى الوجـه الأجمل، ومخالفة لذة العلم باللغات ولذة العـلم بـالسماويات، وإنـما يـعرف اقـوى اللذتين من اضعفهما، بأن يؤثر عليه، فان المخير بين النظر إلى صـورة جـميلة وبـين

---

(١) الغلمة -وزان غرفة -: شدة الشهوة. وغلم غلماً: من باب تعب، إذا اشتد شبقه. المغتلم: المنقاد للشهوة.

استنشاق روايح طيبة، إذا اختار الأول كان عنده ألذ من الثانى، والمخير بين الأكل واللعب بالشطرنج، إذا اختار الثانى كانت لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل، وهذا معيار في الكشف عن ترجيح اللذات.

وحينئذ نقول: لا ريب في أن المعانى واللذات الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة، فلوخيرالرجل بين لذة اكل المطاعم الطيبة ولذة الرئاسة والاستيلاء، فان كان عالى الهمة كامل العقل، اختار الرئاسة وترك الأكل، وصبر على الجوع أياماً كثيرة فضلا عن مدة قليلة، نعم، إن كان خسيس الهمة ميت القلب، ناقص العقل والبصيرة، كالصبى والمعتوه، ربما اختار لذة الأكل، وفعل مثله ليس حجة. ثم كما أن لذة الرئاسة والكرامة اغلب وارجح من اللذات الحسية عند من جاوز نقصان الصبى والسفاهة، فكذلك لذة المعرفة بالله ومطالعة جمال الحضرة الربوبية الذ عنده من لذة الرئاسة، بشرط أن يكون ممن ذاق اللذتين وأدركهما، فلو كان ممن لم يذق لذة المعرفة بالله لم يكن أهلا للترجيح ومحلا للكلام، لاختصاص لذة المعرفة ممن نال رتبتها وذاقها، ولا يمكن اثبات ذلك عند من ليس له قلب، كما لا تثبت لذة الابصار عند الأعمى، ولذة الاستماع عند الأصم، ولذة الوقاع عند العنين، ولذة الرئاسة عند الصبى والمعتوه، وليت شعرى من لا يفهم إلاحب المحسوسات كيف يؤمر بلذة النظر إلى وجه الله تعالى، وليس له شبه وشكل وصورة، فحقيقة الحال كما قيل: (من ذاق عرف)، فمن ذاق اللذتين يترك لذة الرئاسة قطعاً، ويستحقر أهلها لكونها مشوبة بالكدورات ومقطوعة بالموت، ويختار لذة المعرفة بالله، ومطالعة صفاته وافعاله، ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فإنها خالية عن الانقطاع والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق بكثرتهم دائماً، وعرضها من حيث التفهيم والتمثيل أعظم من السماوات والأرض، ومن حيث الواقع ونفس الأمر فلانهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها ومشاهدتها في جنة غير متناهية

الأطراف والأقطار، يرتع في رياضها، ويكرع[١] في حياضها، ويقطع من أثمارها، وهو آمن من انقطاعها، إذ ثمارها غير مقطوعة ولا ممنوعة، بل هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت، إذ الموت لا يهدم النفس الناطقة التي هي محل المعرفة، وإنما يقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من جنسها، فإذن جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض، بل أقطار عالم الربوبية التي هي غير متناهية، ميدان للعارفين، يتبوؤن منها حيث يشاؤن، من غير حاجة إلى حركة اجسامهم، ومن غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة ميادينهم بحسب تفاوتهم في اتساع الأنظار وسعة المعارف:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾[٢].

ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم، ومن عرف هذه اللذة انمحت همومه وشهواته، وصار قلبه مستغرقا بنعيمها، ولا يشغله عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغله عنه لذات الدنيا وعلائقها، وكان في الدنيا والآخرة مشغولا بربه، فلو ألقى في النار لم يحسّ به لاستغراقه، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية، ولعل سيد الرسل ﷺ عبر عن هذه اللذة ـ أي لذة مطالعة جمال الربوبية ـ حيث قال حاكياً عن الله سبحانه: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، وهذه اللذة هي المرادة من قوله تعالى:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٣].

وربما تعجل بعض هذه اللذات لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية، ومع ذلك لا يخلو عن توسط بعض الحجب المانعة عن الوصول إلى كنهها، مالم يحصل التجرد

---

(١) كرع ـ من باب نفع ـ: هو الشرب بفيه من موضعه.

(٢) الأنعام، الآية: ١٣٢، الأحقاف، الآية: ١٩.

(٣) السجدة، الآية: ١٧.

الكلى وخلع البدن العنصرى، ولذلك قال بعضهم: إنى أقول: «يا رب يا الله! فأجد ذلك اثقل على قلبى من الجبال، لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليساً ينادى جليسه»، ثم من عرف الله وعرف حقيقة هذه اللذة، عرف أن اللذات المقرونة بالشهوات المختلفة منطوية تحت هذه اللذة، كما قيل:

كانت لقلبى أهواء مفرقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين اهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

فصل
(تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه)

اعلم أن معرفة الله إذا حصلت في الدنيا لم تكن خالية عن كدرة ما ـ كما اشير إليه إلا أنه إذا اكتسب أصلها في الدنيا فيزيدها في الآخرة انكشافا وجلاء بقدر صفاء القلوب وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية، إلى أن يصير أجلى وأظهر من المشاهدة بمراتب، فالاختلاف بين ما يحصل في الدنيا من المعرفة وما يحصل في الآخرة من المشاهدة واللقاء إنما هو بزيادة الانكشاف والجلاء.

مثال ذلك: أن من رأى انسانا، ثم غض بصره، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر، ادرك تفرقة بين حالتي غض العين وفتحها، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بيِّن بين الصورتين، لا تحادهما، بل الافتراق إنما هو بمزيد الكشف والوضوح، فالصورة المتخيلة صارت بالرؤية أتم انكشافا، فاذاً الخيال أول الادراك، والرؤية استكمال لادراك الخيال، وهي غاية الكشف، لا لأنها في العين، بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المتجلى في الصدر أو الجبهة أو أى عضو فرض، استحق أن يسمى رؤية. وإذا فهمت هذا في المتخيلات ـ أى المدركات التي تدخل في الخيال من الصور والأجسام ـ فقس عليه الحال في المعلومات ـ أى

ما يدرك بالعقل -، ولا يدخل في الخيال كذات البارى، وكل ما ليس بجسم، كالعلم والقدرة والارادة وغيرها، فإن لمعرفتها وادراكها أيضاً درجتين: احداهما: أولى، والثانية: استكمال لها، وبينهما من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئى، فتسمى الثانية بالاضافة إلى الأولى لقاء ومشاهدة ورؤية، وهذه التسمية حق، لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف، وكما أن سنة الله جارية بأن تطبق الاجفان يمنع من تمام الكشف الذي هو الرؤية في المتخيلات، فكذلك سنته أن النفس ما دامت محجوبة بالبدن وعوارضه وشهواته، لم يحصل لها تمام الكشف الذي هي المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجية عن الخيال، فإذا ارتفع بالموت حجاب البدن، وخلصت النفس، لم يكن بعد في غاية التنزه عن كدورات الدنيا، بل كانت ملوثة بها، إلا أن النفوس مختلفة في ذلك: فمنها: ما تراكم عليه الخبث والصدى، فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها، فلا تقبل الاصلاح والتصقيل، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم ابد الآباد، نعوذ بالله من ذلك، ومنها: ما لم ينته إلى حد الرين والطبع، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل، وهذه النفوس غير متناهية الدرجات والمراتب، إذ المتلوث بالكدورات عرض عريض في (الواقع) بين الرين والطبع، وبين التزكية التامة والتجرد الكلى الذي لم يكن فيه شوب من الكدورات، وهذه النفوس المتلوثة على اختلاف درجاتها ومراتبها تحتاج إلى التطهير لتستعد للمشاهدة واللقاء بتجلى الحق فيها، وتطهيرها إنما هو بنوع عقوبة من العقوبات الأخروية، وهي كمراتب التلوث غير متناهية الدرجات، أولها سكرة الموت، وآخرها الدخول في النار، وما بينهما عقوبات البرزخ واهوال القيامة بانواعها، فكل نفس لا بد لها من عقوبة من هذه العقوبات لتتطهر من كدورتها: فمنها: ما يتطهر بمجرد سكرة الموت وشدة النزع، ومنها:ما يتطهر بها، وينقص عقوبات البرزخ، ومنها: ما لا يتطهر إلا بأن يذوق بعض عقوبات الآخرة، ومنها ما لا يحصل تطهيره إلا بالعرض على النار عرضاً يقمع منها الخبث الذي تدنست به، فربما كان

ذلك لحظة حقيقة، وربما كان سبعة آلاف سنه ـ كما وردت به الأخبار ـ وربما كان اقل أو اكثر، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا الله سبحانه والمحجوبون الذين بلغوا حدّ الرين والطبع يكونون مخلدين في النار.

ثم النفوس القابلة للتطهير إذا اكمل الله تطهيرها وتزكيتها، وبلغ الكتاب أجله، استعدت حينئذ لصفائها ونقائها عن الكدورات لأن تتجلى فيها جلية الحق، فتتجلى فيها تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علمته وعرفته كانكشاف تجلى المرئيات بالاضافة إلى المتخيلات، وهذه المشاهدة والتجلى تسمى رؤية، لأنه في الظهور والجلاء والوضوح والانكشاف كالرؤية بالبصر، بل هو فوقه بمراتب شتى، إذ الرائى في الأول العقل، وفي الثانى البصر، وشتان ما بينهما، فإن الاختلاف في مراتب الادراك والرؤية بحسب اختلاف نورية المدرك، وأى نسبة لنورية البصر إلى نورية العقل واشراقه، وما للعقل من النفوذ في حقائق الأشياء وبواطنها أنى يكون للبصر.

وقد ظهر مما ذكر: أنه لا يفوز بدرجة الرؤية والمشاهدة إلا العارفون في الدنيا، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة، كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعا، ومن لا نواة له كيف يحصل له النخل، ومن لم يلق البذر كيف يحصد الزرع، فمن لم يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة، ومن لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في العقبى، إذ لا يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا، فلا يحصد المرء إلا ما زرع، ولا يحشر إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه.

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة، يكون التجلى أيضاً على درجات متفاوتة، فاختلاف التجلى بالاضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالاضافة إلى اختلاف البذور إذ يختلف لا محالة: بكثرتها، وقلتها، وجودتها، ورداءتها، وضعفها. ثم كلما كان التجلى والمشاهدة أقوى، كان ما يترتب عليه من حب الله والانس به أشد وأقوى، وكلما كان الحب والانس أزيد، كان ما يترتب عليه من البهجة

واللذة أعلى وأقوى، وتبلغ هذة اللذة مرتبة لا تأثر عليها لذة اخرى من نعيم الجنة، بل ربما بلغت حداً تتأذى من كل نعيم سوى لقاء الله ومشاهدته، فالنعمة والبهجة في الجنة بقدر حب الله، وحب الله بقدر معرفته، فاصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنه بـ(الايمان).

فإن قيل: اللقاء والمشاهدة إن كانت زيادة كشف للمعرفة حتى تتحق بين لذة الرؤية ولذة المعرفة نسبة، لكانت لذة اللقاء والرؤية قليلة، وإن كانت أضعاف لذة المعرفة، إذ هي في الدنيا ضعيفة، فتضاعفها إلى أى حدّ فرض لاينتهى في القوة، إلا أن يستحقر في جنبها سائر لذات الجنة ونعيمها.

قلنا: هذا الاستحقار والتقليل للذة المعرفة باعثه عدم المعرفة أو ضعفها، فإن من خلا عن المعرفة، أو كانت له معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا، لا يدرك لذتها، فمن كملت معرفته وصفت عن علائق الدنيا سريرته، قويت بهجته واشتدت لذته بحيث لا توازنها لذة، فإن للعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله عز وجل ابتهاجات ولذات لو عرضت عليهم الجنة ونعيمها في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوها بها، ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً إلى لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته، ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الطيبة إلى ذوقها وأكلها، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع.

ومما يوضح ذلك، أن لذة النظر إلى وجه المعشوق تتفاوت بامور:

احدها ـ كمال جمال المعشوق ونقصانه.

وثانيها ـ كمال قوة الحب والشهوة وضعفه.

وثالثها ـ كمال الادراك وضعفه، فإن الإلتذاذ برؤية المعشوق في ظلمة، أو من بعد، أو من وراء، ستر رقيق ليس كالإلتذاذ برؤيته على قرب من غير ستر عند كمال الضوء.

ورابعها ـ عدم الآلام الشاغلة والعوائق المشوشة ووجودها، فإن التذاذ

الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق ليس كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم، أو المشغول قلبه بمهم من المهمات، فلو كان العاشق ضعيف الحب، ناظراً إلى معشوقه على بعد ومن وراء ستر رقيق، مشغول القلب بمهمات، مجتمعة عليه حيات وعقارب تؤذيه وتلذعه، لم يكن خالياً عن لذة ما في هذه الحالة من مشاهدة معشوقه، إلا أنه إذا فرض ارتفاع الستر واشراق الضوء، وا ندفاع الحيات والعقارب المؤذية، وفراغ قلبه من المهمات، وحدوث عشق مفرط، وشهوة قوية، بحيث بلغت أقصى الغايات، تضاعفت لذته، بحيث لم تكن للذته الأولى نسبة إليها بوجه، فكذلك الحال في نسبة لذة المعرفة في الدنيا مع حجاب البدن والاشتغال بمهماته، ومع تسلط حيات الشهوات وعقاربها: من الجوع، والعطش والشبق، والغضب، والحزن، والهم، ومع ضعف النفس وقصورها ونقصانها في الدنيا عن التشوق إلى الملأ الأعلى، لإلتفاتها إلى أسفل السافلين إلى لذة اللقاء والمشاهدة التي يندفع فيها جميع ذلك عن النفس، فالعارف لعدم خلوه في الدنيا عن هذه العوائق والمشوشات وإن قويت معرفته لا يمكن أن تكمل لذته وتصفو بهجته، وإن ضعفت عوائقه ومشوشاته في بعض الأحوال وبقي سالماً، لاح له من جمال المعرفة ما تعظم لذته وبهجته ويدهش عقله، بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته، إلا أن ذلك كالبرق الخاطف، ولا يمكن أن يدوم، إذ الخلو عن العوائق والمشوشات ليس يمكن أن يدوم، بل هو آنيّ، ويعرض بعد الآن من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينقصه، وهذه ضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية، فلا تزال هذه اللذة منقصة إلى الموت، وانما الحياة الطيبة بعده، وإنما العيش عيش الآخرة، فإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون، ولذا كل عارف كملت معرفته في الدنيا وأحب لقاء الله يحب الموت ولا يكرهه، إلا من حيث ارادة زيادة استكمال في المعرفة، فان المعرفة -كما عرفت- بمنزلة البذر، وكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته، قويت المشاهدة واشتدت، وكثر النعيم في الآخرة وعظم، كما أنه كلما كثر

البذر وحسن كثر الزرع وحسن. ولا ريب في أنّ المعرفة لا تنتهى إلى مرتبة لا تكون فوقها مرتبة، إذ بحر المعرفة لا ساحل له، والاحاطة بكنه جلال الله محال، فالعارف وإن قويت معرفته، ربما أحب طول العمر، وكره الموت لتزداد معرفته.

ثم أهل السنة قالوا: «إنّ الرؤية في الآخرة مع تنزهها عن التخيل والتصور والتقدير بالشكل والصورة والتحديد بالجهة والمكان: تكون بالعين دون القلب»: (وهو عندنا باطل): إذ الرؤية بالعين محال في حق الله تعالى، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة، فكما لا تجوز رؤية الله سبحانه في الدنيا بالعين والبصر، فكذلك لا تجوز في الآخرة، وكما تجوز رؤيته في الآخرة بالعقل والبصيرة لأهل البصائر ـ أعنى غاية الانكشاف والوضوح بحيث تتأدى إلى المشاهدة واللقاء ـ فكذلك تجوز رؤيته في الدنيا بهذا المعنى، والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلة المعرفة دون الجسد، فإن العارفين وأولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع احوالهم ومنصرفاتهم، وإن كان الحاصل في الآخرة أزيد انكشافاً وأشد انجلاء بحسب زيادة صفاء النفوس وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية ـ كما تقدم مفصلا ـ، وقد ثبت ذلك من أئمتنا الراشدين العارفين بأسرار النبوة، روى شيخنا الأقدم (محمد بن يعقوب الكليني) وشيخنا الصدوق (محمد بن علي بن بابويه) باسنادهما الصحيح عن الصادق عليه السلام: «أنه سئل عما يروون من الرؤية، فقال: الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزء من نور الستر، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من نور الشمس ليس دونها سحاب». وباسنادهما عن أحمد بن اسحاق قال: «كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس، فكتب: لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائى والمرئى هواء ينفذه البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرائى والمرئى لم تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه، لأن الرائى متى ساوى المرئى في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب

الاشـتباه وكـان ذلك التشـبيه، لأن الاسباب لا بـد مـن اتـصالها بـالمسبّبات، وعـن أبى بصير عن الصادق عليه السلام قال: «قلت له: اخبرنى عن الله عز وجل هل يـراه المـؤمنون يوم القيامة؟ قال: نعم! وقد رأوه قبل يوم القيامة. فـقلت: مـتى؟ قـال: حـين قـال لهـم: ألست بربكم، قالوا: بلى... ثم سكت ساعة، ثم قال: وإن المؤمنين ليـرونه فـي الدنـيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقتك هذا؟! قال أبو بـصير: فـقلت له: جـعلت فـداك! فاحدث بهذا عنك؟ فقال: لا! فـإنك إذا حـدثت بـه فـانكره مـنكر جـاهل بـمعنى مـا تقوله، ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر، وليست الرؤية بالقلب كـالرؤية بـالعين، تـعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون». وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: «هـل رأيت ربك حـين عبدته؟ فقال: ويلك! ما كنت أعبد رباً لم أره. قيل: وكيف رأيته؟ قال: ويلك! لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكـن رأتـه القـلوب بـحقائق الايـمان»[١]. وقـال سـيد الشهداء عليه السلام: «كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك، أيكون لغـيرك مـن الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التـي تـوصل اليك، عـميت عـين لا تـراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل من حبك نصيباً»، وقال عليه السلام ايضاً: «تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء»، وقال: «وأنت الذي تعرفت إليّ في كل شـيء، فـرأيـتك ظاهراً في كل شيء، وأنت الظاهر لكـل شـيء»[٢]. وأمـثال ذلك مـما ورد عـنهم عليهم السلام أكثر من أن تحصى.

---

(١) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافى): الجزء الأول، باب ابطال الرؤية. وعـلى (الوافـى): ١/ ٦٩، باب ابطال الرؤية.

(٢) صححنا فقرات دعاء عرفة على (مفاتيح الجنان): ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤، طبعة الكراوري.

فصل

(الطريق إلى الرؤية واللقاء)

الطريق إلى تحصيل محبة الله وتقويتها ثم استعداد الرؤية واللقاء امران:

احدهما ـ تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلائقها، والتبتل إلى الله بالذكر والفكر، ثم اخراج حب غير الله من القلب، إذ القلب مثل الاناء الذي لا يسع الماء ـ مثلا ـ ما لم يخرج منه الخل. وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وكمال الحب في أن يحب الله بكل قلبه، وما دام يلتفت إلى غيره، فزاوية من قلبه مشغولة بغيره، وبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله، إلا أن يكون إلتفاته إلى الغير من حيث إنه صنع الله تعالى وفعله، ومظهر من مظاهر اسماء الله تعالى، وإلى هذا التجريد والتفريد الاشارة بقوله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾(١).

وثانيهما ـ تحصيل معرفة الله وتقويتها وتوسيعها وتسليطها على القلب، والأول، اعنى قطع العلائق، بمنزلة تنقية الأرض من الحشائش، والثانى، أى المعرفة، بمنزلة البذر فيها، ليتولد منه شجر المحبة.

ثم لتحصيل المعرفة طريقان:

احدهما ـ الأعلى، وهو الاستدلال بالحق على الخلق، وذلك بأن يعرف الله بالله، وبه يعرف غيره، أى افعاله وآثاره. وإلى هذا اشير في الكتاب الألهى بقوله:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٢).

وهذا الطريق غامض، وفهمه صعب على الأكثرين. وقد اشرنا إلى كيفيته في بعض كتبنا الإلهيات.

(١) الأنعام، الآية: ٩١.

(٢) فصلت، الآية: ٥٣.

وثانيهما ـ وهو الادنى، الاستدلال بالخلق على الحق سبحانه، وهذا الطريق في غاية الوضوح، واكثر الافهام يتمكن من سلوكه، وهو متسع الاطراف، ومتكثر الشعوب والاكناف، إذ ما من ذرّة من أعلى السماوات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات وغرائب بينات، تدل على وجود الواجب وكمال قدرته وغاية حكمته ونهاية جلاله وعظمته، وذلك مما لا يتناهى.

﴿قُلْ لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾[(١)].

وعدم وصول بعض الافهام من هذا الطريق إلى معرفة الله مع وضوحه، إنما هو للاعراض عن التفكر والتدبر والاشتغال بشهوات الدنيا وحظوظ النفس. ثم سلوك هذا الطريق، أي الاستدلال على الله تعالى وعلى كمال قدرته وعظمته، لتفكير في الآيات الآفاقية والأنفسية، خوض في بحار لا ساحل لها، إذ عجائب ملكوت السماوات والأرض مما لا يمكن أن تحيط به الأفهام، فإن القدر الذي تبلغه افهامنا القاصرة من عجائب حكمته الباهرة تنقضي الاعمار دون ايضاحه، ولا نسبة لما احاط به علمنا إلى ما احاط به علم العلماء، ولا نسبة له إلى ما احاط به علم الأنبياء، ولا نسبة له إلى ما احاط به الخلائق كلهم، ولا نسبة له إلى ما استأثر الله بعلمه، بل كلما عرفه الخلائق جميعاً لا يستحق أن يسمى علماً في جنب علم الله، ونحن قد اشرنا إلى لمعة يسيرة من عجائب حكمته المودعة في بعض مخلوقاته في مبحث التفكر.

(١) الكهف، الآية: ١٠٩.

فصل

(تفاوت المؤمنين في محبة الله)

اعلم أن المؤمنين جميعاً مشتركون في اصل محبة الله لاشتراكهم في أصل الايمان، ولكنهم متفاوتون في قدرها، وسبب تفاوتهم امران:

احدهما ـ اختلافهم في المعرفة وحب الدنيا، فإن أكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلا ما قرع اسماعهم من كونه متصفاً بصفات كذا وكذا، من دون وصول إلى حقيقة معناها، وإلى اعتقادهم بأن الموجودات المشاهدة صادرة عنه، من غير تدبر في عجائب القدرة وغرائب الحكمة المودعة فيها. وأما العارفون: فلهم الخوض في بحر التفكر والتدبر في انواع المخلوقات، واستخراج ما فيها من الحكم الخفية، والمصالح العجيبة، التي كل واحد منها كمشعلة في ازالة ظلمة الجهل، والهداية إلى كمال عظمة الله، ونهاية جلاله وكبريائه، فمثل الأكثرين كمثل عامى أحب عالماً بمجرد استماعه أنه حسن التصنيف، من دون علم ودراية بما في تصانيفه، فتكون له معرفة مجملة، ويكون له بحسنه ميل مجمل، ومثل العارفين كمثل عالم فتش عن تصانيفه، واطلع على ما فيها من دقائق المعاني وبلاغة العبارات. ولا ريب في أن العالم بجملته صنع الله وتصنيفه، فمن عرف ذلك مجملا تكون له بحسبه محبة مجملة، ومن وقف على ما فيه من عجائب القدرة ودقائق الحكمة تكون له غاية الحب، وكلما ازدادت معرفته بوجوه الحكم والمصالح المودعة في كل مخلوق ازداد حبه، فمن اعتقد أن ما تبنيه النحل من البيوت المسدسة إنما هو بالهام الله تعالى اياها، من غير استعداد لفهم الحكمة في اختيار الشكل المسدس على سائر الأشكال، لا يكون في معرفة الله وادراك عظمته وحكمته كمن يفهم ذلك ويتيقنه. ثم كما أن دقائق الحكم وعجائب القدرة غير متناهية، ولا يمكن لأحد أن يحيط بها، وإنما ينتهى كل إلى ما يستعدله، فينبغى أن تكون مراتب الحب أيضاً غير متناهية، وكل عبد ينتهى إلى مرتبة تقتضيها معرفته.

وثانيهما ـ اختلافهم في الأسباب المذكورة للحب، فان من يحب الله لكونه منعما عليه ومحسناً اليه، ضعفت محبته لتغيرها بتغير الانعام والاحسان، ولا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرجاء والنعماء. وأما من يحبه لذاته، أو بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته، فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه.

فصل
(الواجب اظهر الموجودات)

عجباً لأقوام عميت قلوبهم عن معرفة الله سبحانه مع أن الله تعالى أظهر الموجودات وأجلاها، لأن البديهة العقلية قاضية بأنه يجب أن يكون في الوجود موجود قائم بذاته، أي ما هو صرف الوجود، ولولاه لم يتحقق موجود أصلا، فتحقق صرف الوجود القائم بذاته المقوم لغيره أظهر وأجلى من تحقق كل موجود بغيره عند البصيرة الصافية، قال الله سبحانه:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١].

والنور هو الظاهر لنفسه المظهر لغيره، ومبدأ الادراك من المدرك إنما هو الوجود، فكلما ادركته إنما تدرك أولا وجوده، وإن لم تشعر بذلك. ولا ريب في أن الظاهر لنفسه أظهر من الظاهر بغيره، وأيضاً كل موجود سوى الله سبحانه يعلم وجوده بقليل من الآثار، فان وجود الحياة لزيد ـ مثلا ـ لا يدل عليه إلا حركته وتكلمه وبعض آخر من اعراض نفسه، ولا يدل عليه شيء آخر من سائر الموجودات، وكذا وجود السماء ـ مثلا ـ لا يدل عليه سوى وجود ظهور جسمها وحركتها، ولا يدل عليه شيء آخر من الموجودات التي تحتها وفوقها.

وأما وجود الواجب تعالى فيدل عليه كل شيء، إذ ليس في الوجود مدرك

---

(١) النور، الآية: ٣٥.

محسوس أو معقول، وحاضر أو غائب، إلا وهو شاهد ومعرف لوجوده، فالسبب في خفائه مع كونه أجلى وأظهر من كل شيء غاية وضوحه وظهوره، فان شدة ظهور الشيء قد يكون سبباً لخفائه، لأنه يكل المدارك ويحسرها، فشدة ظهوره سبحانه بلغت حداً بهرت العقول وادهشتها، فضعفت عن ادراكه. وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، بل لشدة ظهوره وضعف بصر الخفاش، فإن بصره ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرق، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج بالضوء الظلام وضعف ظهوره، فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الألهية في نهاية الاشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول، حتى لم تشذ عن ظهوره ذرّة من ملكوت السماوات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب باشراق نوره، واختفى عن العقول والبصائر بشدة ظهوره! ولا تتعجب من اختفاء شيء بسبب شدة ظهوره، فإن الأشياء إنما تستبان باضدادها، وما عم وجوده حتى لا ضدّ له عسر اداركه، فلو اختلفت الأشياء، فدل بعضها على الله تعالى دون بعض، ادركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد، اشكل الأمران، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض، ويزول عند غيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها، لكنا نظن أن لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها، وهي السواد والبياض وغيرهما، وأما الضوء فلا تدركه وحده، لكن لما غابت الشمس واظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالتين، فعلمنا أن الاجسام قد استضاءت بضوء فارقها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في النور والظلام. هذا مع أن النور أظهر المحسوسات، إذ به تدرك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر في نفسه مظهر لغيره انظر كيف استبهم امره بسبب ظهوره لولا طريان ضده، فاذن واجب الوجود لذاته هو اظهر الأشياء، وبه

ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير، لانهدت السماوات والأرض، وبطل الملك والملكوت، وادركت التفرقة بين الحالتين، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به، وبعضها موجوداً بغيره، لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالتة عامة في الأشياء على نسق واحد، ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أورثت شدة ظهوره خفاء كما قيل:

خفى لافراط الظهور تعرضت ... لادراكه أبصار قوم أخافش
وحظ عيون الزرق من نور وجهه ... لشدته حظ العيون العوامش

قال أمير المومنين عليه السلام: «لم تحط به الأوهام، بل تجلى لها بها، وبها امتنع منها». وقال عليه السلام: «ظاهر في غيب، وغائب في ظهور». وقال عليه السلام: «لا تجنه البطون عن الظهور،ولا تقطعه الظهور عن البطون، قرب فنأى، وعلا فدنا، وظهر فبطن، وبطن فعلن، ودان ولم يدن»: أي ظهر وغلب، ولم يغلب، ومن هناك قيل: «عرفت الله بجمعه بين الأضداد».

فصل

(علائم محبة الله)

محبة العبد لله سبحانه له علامات:

الأولى ـ أن يحب لقاءه بطريق المشاهدة والعيان في دار السلام، ولتوقفه على الموت يحب الموت ويتمنيه، إذ كل من يحب شيئاً يحب لقاءه ووصله، وإذا علم أنه يمتنع الوصول إليه إلا بالارتحال من الدنيا بالموت لأحب الموت لا محالة، وكيف يثقل على المحب أن يسافر من وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته، ولذا قال (حذيفة) عند موته: «حبيب جاء على فاقة، لا أفلح اليوم من ندم». قال بعض الأكابر: «لا يكره الموت إلا مريب، لأن الحبيب لا يكره لقاء الحبيب على كل حال».

ثم من يكره الموت، فان كانت كراهته له لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل

والأولاد والأموال، وكان حبه للدنيا وتأسفه على مفارقتها في غاية الكمال بحيث لم يحب الموت ولم يسر قلبه اصلا بما يترتب عليه من لقاء الله تعالى، ولم يجد في قلبه شوقا إليه مطلقاً، فلا ريب في كون مثل هذه الكراهة منافياً لأصل الحب، ولو لم يكن حبه للدنيا في غاية الكمال، بحيث لم يجد في قلبه ميلاً إلى ما يترتب على الموت من لقاء الله، بل كان محباً للدنيا، إلا أنه كان له شوق إلى لقاء الله تعالى أيضاً، أو كان لذلك كراهته للموت ضعيفة، فمثل هذا الحب للدنيا ينافي كمال حب الله، لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، ولا يبعد أن تكون معه شائبة ضعيفة من حب الله، فان الناس متفاوتون في حب الله، فمنهم من يحبه بكل قلبه، ومنهم من لا يحبه بكل قلبه، بل يحب معه غيره أيضاً من الأهل والولد والمال، فلا جرم يكون فرحه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وكراهته لفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها، وإن كانت كراهته للموت لأجل ارادته الاستعداد والتهيؤ للقاء الله، ومشاهدته بتحصيل زيادة العلم والعمل، لا لحب الأهل والمال، ولا للتأسف على فراق الدنيا، فهو لا يدل ضعف الحب ولا ينافي اصله، وهو كالمحب الذي وصل إليه خبر قدوم حبيبه، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليعمر داره ويفرشها ويهيء أسبابها، ليلقاه فارغ القلب عن الشواغل، وعلامة ذلك: الجد في العمل، واستغراق الهم في تحصيل المعرفة، والاستعداد للآخرة.

الثانية ـ أن يؤثر مراد الله سبحانه على مراده، إذ المحب لا يخالف هوى محبوبه لهوى نفسه، كما قيل:

أريد وصاله ويريد هجرى فاترك ما أريد لما يريد

فمن كان محباً لله: يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه، ويحترز عن اتباع الشهوات، ويدع الكسالة والبطالة، ولا يزال مواظباً على طاعته وانقياده، ويكون مبتهجاً متنعماً بالطاعة ولا يشغلها، ويسقط عنها تعبها. وقد روى: «أن زليخا لما آمنت، وتزوج بها يوسف عليه السلام، انفردت عنه، وتخلت للعبادة، وانقطعت إلى الله تعالى، وكان يوسف

يدعوها إلى فراشه نهاراً فتدافعه إلى الليل، وإذا دعاها ليلاً سوفت إلى النهار، فعاتبها في ذلك، فقالت: يا رسول الله! إنما كنت أحبك قبل أن أعرف ربك، فأما إذ عرفته فلا أؤثر على محبته محبة من سواه، وما أريد به بدلا». ثم الحق أن العصيان يضاد كمال المحبة لا أصلها، ولذا قد يأكل الرجل المريض ما يضره ويزيد في مرضه مع أنه يحب نفسه، ويحب صحته، والسبب ضعف المعرفة، وغلبة الشهوة، فيعجز عن القيام بحق المحبة.

الثالثة ـ ألا يغفل عن ذكر الله سبحانه، بل يكون دائماً مستهتراً بذكره، إذ من أحب شيئاً أكثر ضرورة ذكره وذكر ما يتعلق به، فمحب الله لا يخلو عن ذكر الله وذكر رسوله وذكر القرآن وتلاوته، لأنه كلامه، ويكون محباً للخلوة ليتفرد بذكره وبمناجاته، ويكون له كمال الأنس والإلتذاذ بمناجاته، وفي اخبار داود: «كذب من ادعى محبتي وإذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه، فها أنا ذا موجود لمن طلبني».

الرابعة ـ ألا يحزن ولا يتألم عن فقد شيء، ولا يفرح بوجود شيء، سوى ما يقرّبه إلى الله أو يبعده عنه، فلا ينبغي أن يحزن ويجزع في المصائب، ولا يسر بنيل المقاصد الدنيوية، ولا يتأسف على ما يفوته إلا على ما فات منه من طاعة مقربة إلى محبوبه، أو على صدور معصية مبعدة، أو على ساعة خلت عن ذكر الله والانس به.

الخامسة ـ أن يكون مشفقاً رؤفاً على عباد الله، رحيماً على اوليائه وشديداً على اعداء الله، كارهاً لمن يخالفه ويعصيه، إذ مقتضى الحب الشفقة والمحبة لأحباء المحبوب والمنسوبين اليه، والبغض لأعدائه ومخالفيه.

السادسة ـ أن يكون في حبه خائفاً متذللا تحت سلطان العظمة والجلال، وليس الخوف مضاداً للحب، كما ظن، إذ ادراك العظمة يوجب الهيبة، وادراك الجمال يوجب الحب، ولخصوص المحبين خوف الاعراض، وخوف الحجاب، وخوف الابعاد، وخوف الوقوف، وسلب المزيد. وقال بعض العرفاء: «من عبدالله بمحض

المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومن عبده من طريقهما أحبه الله، فقربه ومكنه وعلمه».

السابعة ـ كتمان الحب والشوق من اظهاره ومن اظهار الوجد واجتناب الدعوى، تعظيماً للمحبوب واجلالاً له، وهيبة منه وغيرة على سره، فإن الحب سر من اسرار المحبوب، فلا ينبغي افشاؤه، ولأنه ربما يدخل في الدعوى ما يجاوز حد الواقع، فيكون من الافتراء، وتعظم به العقوبة في العقبى والبلية في الدنيا. نعم، ربما غشيته سكرة في حبه، حتى يدهش فيها، وتضطرب احواله، فيظهر عليه حبه من دون اختيار وتمحل. فمثله معذور، لأنه تحت سلطان المحبة مقهور، ومن عرف أن حصول حقيقة المعرفة والمحبة التي تنبغي أن تكون في حق الله يستحيل أن يحصل لأحد، وأن يطلع على ما اعترف عظماء الانسان ـ أعنى الأنبياء والأولياء ـ من العجز والقصور وإن صنفاً واحداً من الأصناف الغير المتناهية من ملائكته ملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء، هم أهل المحبة لله، ما خطر على قلوبهم مذ خلقهم الله ـ وهو ثلاث مائة ألف سنة قبل خلق العالم ـ سوى الله سبحانه، وما ذكروا غيره، لاستحيى منه حق الحياء أن يعدّ ما عليه من المعرفة والمحبة معرفة ومحبة، وخرس لسانه عن التظاهر بالدعوى. وروى في بعض الأخبار: «ان بعض أهل الله سأل بعض الصديقين أن يسأل الله تعالى أن يعطيه ذرة من معرفته، ففعل ذلك، فحار عقله، وذهل لبه، ووله قلبه، وهام في الجبال، وبقى شاخصا سبعة ايام، لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء، فسأل له الصديق ربه أن ينقص بعض الذرة من المعرفة التي اعطاه، فأوحى الله تعالى اليه: (إنا اعطيناه جزءاً من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة، وذلك ان مائة ألف عبد سألونى شيئا من المحبة في الوقت الذي سألنى هذا، فأخرت اجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما اعطيته، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد، فهذا ما أصابه من ذلك). فقال:

سبحانك سبحانك! أقنصه مما أعطيته، فأذهب الله عنه جملة ما أعطاه، وأبقى فيه عشر معشاره، وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه، وسكن، وصار كسائر الكمل من العارفين»[١].

والحق أن حقائق الصفات الإلهية أجل وأعظم من ادراك العقول البشرية، ولا يطيق أحد من الكمل أن يتحمل لفهم جزء من الأجزاء الغير المتناهية منها، فالوصول إلى ما عليه الحضرة الربوبية من العظمة والجلال وسائر صفات الكمال في حيز المحال، (وما قيل أو يقال فيه) وهم أو خيال، فأين يحصل لأحد ما يليق به من المعرفة والمحبة؟ فلو امكن أن تدخل أمثال هذه العوالم المخلوقة من السماوات والأرضين وما فوقهما وأضعافهما بقدر غير متناه في جوف خردلة، لأمكن أن تدخل في أعظم العقول ذرة من عظمته وجلاله، وغاية المعرفة أن يعرف عظمته وقدرته وجلاله وعزته وسائر اوصافه الكمالية بأمثال هذه العنوانات والتمثيلات، وهي أيضاً لو ضوعفت إلى غير النهاية في أزمنة غير متناهية، لكانت بيانات قاصرة، بل وهمية خيالية، فسبحان من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته! ومن علامات المحبة الأنس والرضا ـ كما يأتي ـ. وقد جمع بعض العارفين علامات المحب في ابيات، فقال:

لا تخدعن فللمحب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمرّ بلائه ... وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر اكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه ... طوع الحبيب وان ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما ... لكلام من يحظى لديه سائل

---

(١) صححنا الرواية على (احياء العلوم): ٤ / ٢٨٨.

ومن الدلائل أن يرى متقشفا متحفظا عن كل ما هو قائل
ومن الدلائل أن تراه مشمراً في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه خوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه باكيا أن قدر رآه على قبيح فاعل
ومن الدلائل أن تراه راضيا بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل زهده فيما ترى من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى والقلب محزون كقلب الثاكل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً نحو الجهاد وكل فعل فاضل

فصل
(معنى حب الله لعبده)

اعلم أن شواهد الكتاب والسنة ناطقة بأن الله سبحانه يحب العبد، كقوله تعالى: **﴿يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ﴾**[١]. وقوله تعالى: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ﴾**[٢]. وقوله تعالى: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَ يُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾**[٣]. وقوله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾**[٤].

وقال رسول الله ﷺ: «ان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الايمان الامن يحب». وقال ﷺ: «إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب». وقال ﷺ: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فان صبر اجتباه، وان رضى اصطفاه». وقال ﷺ: «من أكثر ذكر الله أحبه الله». وقال ﷺ حاكيا عن الله: «لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى

---

(١) المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) الصف، الآية: ٤.

(٣) البقرة، الآية ٢٢٢.

(٤) آل عمران، الآية: ٣١.

أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به». وقال ﷺ: «إذا أحب الله عبدا، جعل له واعظاً من نفسه، وزاجراً من قلبه، يأمره وينهاه»... وأمثال ذلك اكثر من أن تحصى.

ثم حقيقة الحب ـ وهو الميل إلى موافق ملائم ـ غير متصور في حق الله تعالى، بل هذا انما يتصور في حق نفوس ناقصة، والله سبحانه صاحب كل جمال وكمال وبهاء وجلال وكل ذلك حاضر له بالفعل أزلا وأبدا، اذ لا يتصور تجدده وزواله، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث انه غير، بل ابتهاجه بذاته وصفاته وافعاله. وليس في الوجود إلا ذاته وصفاته وافعاله، ولذلك قال بعض العرفاء ـ لما قرىء قوله تعالى: (يحبهم ويحبونه) ـ: «نحن نحبهم، فانه ليس يحب إلا نفسه»، على معنى انه الكل، وانه في الوجود ليس غيره. فمن لا يحب إلا ذاته، وصفات ذاته، وافعال ذاته، وتصانيف ذاته، فلا يجاوز حبه وذاته وتواضع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته، فهو اذاً لا يحب إلا ذاته. وليس المراد من محبة الله لعبده هو الابتهاج العام الذي له تعالى بافعاله له، إذ المستفاد من الآيات والأخبار: أن له تعالى خصوصية محبة لبعض عباده ليست لسائر العباد والمخلوقات، فمعنى هذه المحبة يرجع إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وإلى تمكينه اياه من القرب اليه، وإلى ارادته ذلك به في الأزل، وإلى تطهير باطنه عن حلول الغير به، وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه، حتى لا يسمع إلا بالحق ومن الحق، ولا يبصر إلا به، ولا ينطق إلا به ـ كما في الحديث القدسي ـ، فيكون تقربه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه، وارتفاع الحجاب عن قلبه، وحصوله في درجة القرب من ربه، وكل ذلك من فضل الله تعالى ولطفه به.

ثم قرب العبد من الله لا يوجب تغيراً وتجدداً في صفات الله تعالى، إذ التغير عليه سبحانه محال، لأنه لا يزال في نعوت الكمال والجلال والجمال على ما كان عليه في ازل الآزال، بل يوجب مجرد تغير العبد بترقيه في مدارج الكمال، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية، فكلما صار أكمل صفة وأتم علما واحاطة

بحقائق الأمور، وأثبت قوة في قهر الشياطين وقمع الشهوات، وأظهر نزاهة عن الرذائل، وأقوى تصرفا في ملكوت الأشياء، صار أقرب إلى الله، ودرجات القرب غير متناهية، لعدم تناهي درجات الكمال، فمثل تقرب العبد إلى الله ليس كتقرب احد المتقاربين إلى الآخر إذا تحركا معاً، بل كتقرب أحدهما مع تحركه إلى الآخر الذي كان ساكنا، اوكتقرب التلميذ في درجات الكمال إلى استاذه، فان التلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى بقاع العلم، ويطلب القرب من استاذه في درجات العلم والكمال، والأستاذ ثابت واقف، وان كان التلميذ يمكن ان يصل إلى مرتبة المساواة لاستاذه لتناهى كمالاته، وأما العبد، كائنا من كان، لا يمكن أن يصل إلى كمال يمكن أن يكون له نسبة إلى كمالاته سبحانه، لعدم تناهى كمالاته شدة وقوة وعدة، وعلامة كون العبد محبوبا عند الله: أن يكون هو محباً له تعالى، مؤثرا اياه على غيره من المحاب، وأن يرى من بواطن اموره وظواهره انه تعالى يهيء له اسباب السعادة فيها، ويرشده إلى ما فيه خيره، ويصده عن المعاصى باسباب يعلم حصولها منه سبحانه، انه تعالى يتولى امره، ظاهره وباطنه، وسره وجهره، فيكون هو المشير عليه، والمدبر لأمره، والمزين لأخلاقه، والمستعمل لجوارحه، والمسدد لظاهره وباطنه، والجاعل لهمومه هما واحد، والمبغض للدنيا في قلبه، والموحش له من غيره، والمونس له بلذة المناجاة في خلواته، والمكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته.

تذنيب
(الحب في الله والبغض في الله)

اعلم ان الأخبار متظاهرة في مدح الحب في الله والبغض في الله وعظم فضيلته وثوابه، ومعناه لا يخلو عن ابهام، فلابد أن نشير إلى بعض هذه الأخبار، ثم نبين حقيقته ونكشف عن معناه:

أما الأخبار: كقول النبي ﷺ: «ودّ المؤمن للمؤمن في الله أعظم شعب الايمان، ألا ومن أحب في الله وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فهو من اصفياء الله». وقال ﷺ لأصحابه: «أي عرى الايمان أوثق؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم ـ فقال بعضهم: الصلاة، وقال بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصيام، وقال بعضهم: الحج والعمرة، وقال بعضهم الجهاد ـ فقال رسول الله ﷺ: «لكل ما قلتم فضل وليس به، ولكن أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله، وتوالى اولياء الله والتبرى من اعداء الله». وقال ﷺ: «المتحابون في الله يوم القيامة على ارض زبرجدة خضراء في ظل عرشه عن يمينه ـ وكلتا يديه يمين ـ وجوههم أشد بياضا وأضوأ من الشمس الطالعة، يغبطهم بمنزلتهم كل ملك مقرب وكل نبى مرسل، يقول الناس: من هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المتحابون في الله». وقال سيد الساجدين عليه السلام: «إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين، قام مناد فنادى ليسمع الناس، فيقول: أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عنق من الناس، فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنة بغير حساب. قال: فتلقاهم الملائكة، فيقولون: إلى اين؟ فيقولون: إلى الجنة بغير حساب، فيقولون: أى حزب انتم من الناس؟ فيقولون: نحن المتحابون في الله. فيقولون: وأى شيء كانت اعمالكم؟ قالوا: كنا نحب في الله ونبغض في الله. قال: فيقولون: نعم اجر العاملين». وقال الباقر عليه السلام: «إذا اردت أن تعلم أن فيك خيرا، فانظر إلى قلبك، فان كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك، وإذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك. والمرء مع من أحبه». وقال عليه السلام: «لو ان رجلا أحب رجلا لله، لأثابه الله على حبه اياه، وان كان المحبوب في علم الله من أهل النار، ولو ان رجلا أبغض رجلا لله، لأثابه الله على بغضه اياه، وان كان المبغض في علم الله من أهل الجنة».

وقال الصادق عليه السلام: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، فهو ممن كمل ايمانه». وقال عليه السلام: «ان المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور، قد اضاء نور

وجوههم ونور اجسادهم ونور منابرهم كل شيء، حتى يعرفوا به، فيقال: هؤلاء المتحابون في الله». وقال عليه السلام: «وهل الايمان إلا الحب في الله والبغض في الله؟ ثم تلا هذه الآية:

﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[1].

وقال عليه السلام: «ما التقى المؤمنان قط إلا كان افضلهما اشدهما حبا لأخيه». وقال عليه السلام: «من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له». والأخبار بهذه المضامين كثيرة»[2].

وإذا عرفت ذلك، فلنشر إلى معنى الحب في الله والبغض في الله فنقول:

الحب الذي بين انسانين، اما يحصل بمجرد الصحبة الاتفاقية، كالصحبة بحسب الجوار، اوبحسب الاجتماع في سوق، أو مدرسة، أو سفر، أو باب سلطان، أو امثال ذلك، ومعلوم ان مثل هذا الحب ليس من الحب في الله، بل هو الحب بحسب الاتفاق، أو لا يحصل بمجرد ذلك، بل له سبب وباعث آخر، وهذا على أربعة اقسام:

الأول ـ أن يحب انسان انسانا لذاته، لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه، بأن يكون هو في ذاته محبوبا عنده، بمعنى انه يلتذ برؤيته ومعصوميته ومشاهدة اخلاقه، لاستحسانه له، فان كل جميل لذيذ في حق من ادرك جماله، وكل لذيذ محبوب، واللذة تتبع الاستحسان، والاستحسان يتبع المناسبة والموافقة والملائمة بين الطباع. ثم ذلك المستحسن، اما أن يكون جمال الصورة، وكمال العقل، وغزارة العلم، وحسن الأخلاق والافعال، وكل ذلك يستحسن عند الطباع السليمة، وكل

(١) الحجرات، الآية: ٧.

(٢) صححنا الأحاديث كلها على (اصول الكافى): ج ٢، باب الحب في الله والبغض في الله. وعلى (الوافى): ٣/ ٣٤٤، باب الحب في الله والبغض في الله.

مستحسن مستلذ به ومحبوب، ومن هذا القسم أن يحبه لأجل مناسبة خفية معنوية بينهما، فانه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير حسن في خلق وخلق، ومن دون ملاحة في صورة، ولا غيرها من الأعضاء، بل المناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة والمحبة، فان شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، والأشياء الباطنة خفية، ولها اسباب دقيقة ليس في قوة البشر أن يطلع عليها، وإلى هذا القسم من الحب والموافقة أشار رسول الله ﷺ بقوله: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». فالحب نتيجة التناسب الذي هو التعارف، والبغض نتيجة التناكر. ومعلوم ان هذا القسم من الحب لا يدخل في الحب لله، بل هو حب بالطبع وشهوة النفس، لذا يتصور ممن لا يؤمن بالله، إلا انه ان اتصل به غرض مذموم صار مذموماً، وإلا فهو مباح لا يوصف بمدح وذم.

الثاني ـ أن يحبه لا لذاته، بل لينال منه محبوبا وراء ذاته، وكانت لهذا المحبوب فائدة دنيوية ولا ريب في أن كلما هو وسيلة إلى المحبوب محبوب، وعدم كون هذا الحب من جملة الحب في الله ظاهر.

الثالث ـ أن يحبه لا لذاته، بل لغيره، وذلك الغير راجع إلى حظوظه في الآخرة دون الدنيا، وذلك كحب التلميذ للأستاذ، لأن يتوسل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل، ومقصوده من العلم والعمل سعادة الآخرة. وهذا الحب من جملة الحب في الله، وصاحبه من محبى الله، وكذلك حب للأستاذ للتلميذ، لأنه يتلقف منه العلم، وينال بواسطته مرتبة التعليم، ويترقّى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء. قال عيسى عليه السلام: «من علم وعمل وعلّم، فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء». ولا يتم التعليم إلا بمتعلم، فهو اذن آلة في تحصيل هذا الكمال، فان احبه لأنه آلة إذ جعل صدره مزرعة لحرثه»، فهو محب لله.

بل التحقيق: أن كل من يحب احداً لصنعته، أو فعله الذي يوجب تقربه إلى الله، فهو من جملة المحبين في الله، كحب من يتولى له ايصال الصدقة إلى المستحقين،

وحب طباخ يحسن صنعته في الطبخ لأجل طبخه لمن يضيفه تقربا إلى الله، وحب من ينفق عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع مقاصده التي يقصده في الدنيا، ومقصوده من ذلك الفراغ لتحصيل العلم والعبادة، وحب من يخدمه بنفسه من غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه وأمثال ذلك من حيث أنه يفرغه لتحصيل العلم والعمل... وقس على ما ذكر امثاله، والمعيار أن كل من احب غيره من حيث توسله لأجله إلى فائدة اخروية فهو محب لله وفي الله.

الرابع ـ أن يحبه لله وفي الله، لا لينال منه علماً أو عملاً، أو يتوسل به إلى امر وراء ذاته، وذلك بأن يحبه من حيث أنه متعلق بالله ومنسوب اليه، إما بالنسبة العامة التي ينتسب بها كل مخلوق إلى الله، أو لأجل خصوصية النسبة أيضاً، من تقربه إلى الله، وشدة حبه وخدمته له تعالى. ولا ريب في أن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق به ويناسبه، ولو من بعد، فمن أحب انسانا حباً شديداً، أحب محب ذلك الانسان وأحب محبوبه ومن يخدمه ومن يمدحه ويثنى عليه أو يثنى عليه محبوبه، وأحب أن يتسارع إلى رضاء محبوبه، كما قيل:

أمرّ على الديار ديار ليلى أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا

وأما البغض في الله، فهو أن يبغض انسان انسانا لأجل عصيانه لله ومخالفته له تعالى، فإن من يحب فى الله لا بد ان يبغض في الله، فانك إن أحببت انسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عنده، فإن عصاه لا بد أن تبغضه، لأنه عاص فيه وممقوت عند الله، قال عيسى عليه السلام: «تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصى، وتقربوا إلى الله بالتباعد عنهم، والتمسوا رضاء الله بسخطهم». وروى: «أنه تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة، وأما انقطاعك إليّ فقد تعززت بى، ولكن هل عاديت فيّ عدوّاً، أو واليت وليأ؟».

ثم للمعصية درجات مختلفة، فإنها قد تكون بالاعتقاد، كالكفر والشرك

والبدعة، وقد تكون بالقول والفعل، وهذا إما أن يكون مما يتأذى به غيره، كالقتل والغضب والضرب وشهادة الزور وسائر انواع الظلم، أولا يكون مما يتأذى به غيره، وهذا إما يوجب فساد الغير، كالجمع بين الرجال والنساء، وتهيئة أسباب الشر والفساد على ما هو دأب صاحب الماخور، أولا يوجب فساد الغير، كالزنا وشرب الخمر، وهذا أيضاً إما كبيرة أو صغيرة. واظهار البغض أيضاً له درجات مختلفة، كالتباعد والهجران، وقطع اللسان عن المكالمة والمحادثة، والتغليظ في القول، والاستخفاف والاهانة، وعدم السعى في إطاعته، والسعى في اساءته وافساد مآربه، وبعض هذا أشد من بعض، كما أن درجات الفسق والمعصية أيضاً كذلك. فينبغى أن يكون الأشد من درجات البغض بازاء الأشد من درجات المعصية وا لفسق، والوسط بازاء الوسط، والأضعف بازاء الأضعف. وينبغى ألا يترك أولا النصيحة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتغليظ القول في الوعظ والارشاد، لا سيما إذا كان العاصى ممن بينه وبينه صحبة متأكدة. ثم العاصى إن كان ممن له صفات محمودة، كالايمان والعلم والسخاء والعبادة والطاعة أو امثال ذلك، ينبغي أن يكون مبغوضاً لأجل معصيته ومحبوبا لأجل صفته المحمودة، وهذا كما أن من وافقك في غرض وخالفك في آخر تكون معه على حالة متوسطة بين التردد إليه والتوحش عنه، فلا تبالغ في اكرامه مبالغتك في اكرام من يوافقك في جميع اغراضك، ولا تبالغ في اهانته مبالغتك في اهانة من خالفك في جميع اغراضك.

تتميم
(الوفاء في الحب)

اعلم أن من تمام الحب للاخوان في الله (الوفاء)، وهو الثبات على الحب ولوازمه وادامته إلى الموت وبعده مع اولاده واصدقائه، وضده (الجفاء)، وهو قطع الحب أو بعض لوازمه في أيام الحياة اوبعد الموت بالنسبة إلى أولاده وأحبته، ولولا

الوفاء في الحب لما كانت فيه فائدة، اذ الحب إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت لضاع السعى وحبط العمل، ولذلك قال رسول الله في السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة: «واخوان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه». وروى: «أنه ﷺ كان يكرم بعض العجائز كلما دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الدين». فمن الوفاء مراعاة جميع الأصدقاء والأقارب والمتعلقين، ومراعاتهم أوقع في القلب من مراعاة الأخ المحبوب في نفسه، فان فرحه بتفقد من يتعلق به اكثر من فرحه بتفقد نفسه، إذ لا تعرف قوة المحبة والشفقة إلا بتعديها من المحبوب إلى كل من يتعلق به، حتى أن من قوى حبه لأخيه تميز في قلبه كلبه الذي على باب داره من سائر الكلاب. ولا ريب في أن المحبة التي تنقطع ـ ولو بعد الممات ـ لا تكون محبة في الله، إذ المحبة في الله دائمة لا انقطاع لها. فما قيل من أن (قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره حال الحياة) إنما هو لدلالته على كون الحب في الله. وبالجملة: الوفاء بالمحبة تمامها. ومن آثار الوفاء أن يكون شديد الجزع من مفارقته، وألا يسمع بلاغات الناس عليه، وأن يحب صديقه ويبغض عدوه وليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين بل من الوفاء المخالفة له وارشاده إلى الحق.

هذا وأما البعد والأنس، فقد عرفت ان الأنس عبارة عن استبشار القلب بمايلاحظه من المحبوب بعد الوصول، والبعد خلافه، والأنس والخوف والشوق، كلها من آثار المحبة وكل واحد منها يرد على المحب بحسب نظره، ومما يغلب عليه في وقته، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال، واستشعر قصوره من الاطلاع على كنه الجلال، انبعثت النفس وانزعجت له، وهاجت اليه، فسميت هذه الحالة في الانزعاج (شوقا)، وهو بالاضافة إلى امر غايب، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف، وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف، غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد،

استبشر القلب بما يلاحظه فيه، فيسمى استبشاره (أنساً)، وإن كان نظره إلى صفات العز والجلال والاستغناء وعدم المبالاة، واستشعر امكان الزوال والبعد، تألم قلبه بهذا الاستشعار، فيسمى تألمه (خوفا)، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات، فإن غلب الأنس وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال، عظم نعيمه ولذّته، وغلب عليه الأنس بالله، ولم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، وذلك لأن الانس بالله يلازمه التوحش من غير الله، بل كلما يعوق من الخلوة يكون أثقل الأشياء على القلب، كما روى: «أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه، مكث دهراً لا يسمع كلامه أحد من الخلق إلا أخذه الغشيان»، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره، فيخرج عن القلب عذوبة ما سواه، فان خالط الناس كان كمنفرد في جماعة، ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة، وغائب في حضور، ومخالط بالبدن، متفرد بالقلب المستغرق في عذوبة الذكر، قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصفهم: «هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بابدان أرواحها متعلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في ارضه، والدعاة إلى دينه».

فصل
(الأنس بالله)

من أنكر وجود الحب والشوق أنكر وجود الأنس أيضاً، ظناً أنه يدل على التشبيه، وهو ناش عن الجهل بالابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية، وعن القصور في طريق المعرفة والجمود على احكام الحس، والغفلة عن عالم العقل والبصيرة، وقد ظهر ثبوت الأنس من بعض الأخبار السابقة، ويدل عليه ما ورد في اخبار داود: «ان الله عز وجل أوحى اليه: يا داود! ابلغ أهل ارضى: انى حبيب لمن احبنى،

وجليس لمن جالسنی، ومؤنس لمن أنس بذكری وصاحب لمن صاحبنی، ومختار لمن اختارنی، ومطيع لمن اطاعنی، ما احبنی عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسی، واحببته حباً لا يتقدمه احد من خلقی، من طلبنی بالحق وجدنی، ومن طلب غيری لم يجدنی، فارفضوا يا اهل الأرض ما انتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتی ومصاحبتی ومجالستی، وآنسوا بی أؤانسكم، واسارع إلى محبتكم».

فصل

(الأنس قد يثمر الادلال)

قال أبو حامد الغزالی: «الأنس إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينغصه خوف البعد والحجاب فإنه يثمر نوعا من الانبساط في الأقوال والافعال والمناجاة مع الله سبحانه، وقد يكون منكراً بحسب الصورة، لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة، ولكنه محتمل ممن اقيم في مقام الأنس، ومن لم يقم في ذلك المقام وتشبه بهم في الفعل والكلام، هلك واشرف على الكفر. ومثاله مناجاة (برخ الأسود) الذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقی لبنی اسرائيل، بعد أن قحطوا سبع سنين، وخرج موسى في سبعين الفاً، فاوحى الله عز وجل اليه: كيف استجيب لهم وقد اظلت عليهم ذنوبهم؟ سرائرهم خبيثة، يدعوننی على غير يقين، ويأمنون مكری، ارجع إلى عبد من عبادی يقال له (برخ)، فقل له: يخرج حتى استجيب له. فسأل عنه موسى، فلم يعرف، فبينا موسى ذات يوم يمشی في طريق، إذا بعبد اسود قد استقبله، بين عينيه تراب من اثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى بنور الله عز وجل، فسلم عليه وقال له: ما اسمك؟ فقال: اسمی برخ، قال: فانت طلبتنا منذ حين، اخرج فاستسق لنا، فخرج، فقال في كلامه: ما هذا من فعالك، ولا هذا من حلمك، وما الذي بدا لك؟ أتعصت عليك غيومك؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك؟ أم نفد ماعندك؟ أم اشتد غضبك على المذنبين؟ ألست

كنت غفاراً قبل خلق الخاطئين؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعفو، أم ترينا انك ممتنع؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة؟!... قال: فما برح حتى أخضل بنو اسرائيل بالمطر، وأنبت الله عز وجل العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب، ثم رجع (برخ)، فاستقبله موسى، فقال كيف رأيت حين خاصمت ربي، كيف أنصفني؟! فهمَّ به موسى، فأوحى الله اليه: إن برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات».!![1].

ولا ريب في أن امثال هذه الكلمات الصادرة عن الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون البعض، فمن انبساط الأنس قول موسى:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾[2].

وقوله في التعلل والاعتذار، لما قيل له:

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[3]: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾[4]. وقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾[5]. وقوله: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾[6].

وهذا من غير موسى سوء الأدب، لأن الذي اقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره، كيف ولم يحتمل من يونس النبي عليه السلام ما دون هذا الحال، اقيم مقام القبض والهيبة، فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، فنودي عليه إلى يوم الحشر، لولا أن تداركته نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم، ونهى نبينا أن يقتدى به، فقيل له:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[7].

---

(١) هذا من عجائب المنقولات الخرافية، والغريب من (أبي حامد الغزالي) ان يركن إلى مثله، وقد أشار المصنف قدس سره إلى بطلان ما نقله بقوله: (ولا ريب).

(٢) الأعراف، الآية: ١٥٥.

(٣) طه، الآية: ٢٤. النازعات، الآية ١٧.

(٤) الشعراء، الآية: ١٤.

(٥) الشعراء، الآية: ١٣.

(٦) طه، الآية: ٤٥.

(٧) القلم، الآية ٤٨.

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف المقامات والأحوال، وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد، قال الله سبحانه:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[١]. فالأنبياء والأولياء مختلفون في الصفات والأحوال، ألا ترى أن عيسى بن مريم عليه السلام كان في مقام الانبساط والادلال، ولإدلاله له سلم على نفسه، فقال:

﴿وَ ٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوم أُبْعَثُ حَيًّا﴾[٢].

وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس. وأما يحيى عليه السلام فإنه اقيم مقام الهيبة والحياء، فلم ينطق حتى سلم عليه خالقه، فقال:

﴿وَ سَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[٣].

وانظر كيف احتمل لاخوة يوسف ما فعلوا به، وقد قال بعض العلماء: «قد عددت من أول قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾[٤].

إلى رأس العشرين آية من اخباره تعالى عنهم، فوجدت به نيفاً واربعين خطيئة، بعضها أكبر من بعض، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع، فغفر لهم وعفى عنهم، ولم يحتمل لعزير في مسألة واحدة سأل عنها في القدر، حتى قيل: لئن عاد محى اسمه عن ديوان النبوة». ومن فوائد هذه القصص في القرآن: أن تعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرآن شيء إلا وفيه اسرار وانوار يعرفها الراسخون في العلم.

---

(١) البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) مريم، الآية: ٣٣.

(٣) مريم، الآية: ١٥.

(٤) يوسف، الآية: ٨.

تذنيب
(العزلة)

اعلم أن من بلغ مقام الأنس، غلب على قلبه حب الخلوة والعزلة عن الناس، لأن المخالطة مع الناس تشغل القلب عن التوجه التام إلى الله. فلابد لنا من بيان أن الأفضل من العزلة والمخالطة أيهما، فإن العلماء في ذلك مختلفون، والأخبار أيضاً في ذلك مختلفة، ولكل واحد منها أيضاً فوائد ومفاسد، فنقول: الظاهر من جماعة: تفضيل العزلة على المخالطة مطلقاً والظاهر من الاخرى: عكس ذلك.

نظر الأولين إلى اطلاق ما ورد في مدح العزلة، وإلى فوائدها وما ورد في مدحها، كقول النبي ﷺ: «ان الله يحب العبد التقى الخفى»، وقوله ﷺ: «أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب»، وقوله ﷺ لمن سأله عن طريق النجاة: «ليسعك بيتك، وامسك عليك دينك، وابك على خطيئتك»، وقول الصادق عليه السلام: «فسد الزمان، وتغير الاخوان، وصار الانفراد اسكن للفؤاد»، وقوله عليه السلام: «اقلل معارفك، وانكر من تعرف منهم»، وقوله عليه السلام: «صاحب العزلة متحصن بحصن الله تعالى، ومتحرس بحراسته، فيا طوبى لمن تفرد به سراً وعلانية! وهو يحتاج إلى عشر خصال: علم الحق والباطل، وتحبب الفقر، واختيار الشدة، والزهد، واغتنام الخلوة، والنظر في العواقب، ورؤية التقصير في العبادة مع بذل المجهود، وترك العجب، وكثرة الذكر بلا غفلة، فان الغفلة مصطاد الشيطان ورأس كل بلية وسبب كل حجاب، وخلوة البيت عما لا يحتاج إليه في الوقت. قال عيسى بن مريم عليهما السلام: (اخزن لسانك لعمارة قلبك، وليسعك بيتك، واحذر من الرياء وفضول معاشك، واستح من ربك، وابك على خطيئتك، وفرّ من الناس فرارك من الأسد والافعى، فإنهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء، ثم الق الله متى شئت)». قال ربيع بن خثيم: «إن استطعت أن تكون اليوم في موضع لا تعرف ولا تُعرف فافعل، ففى العزلة صيانة الجوارح، وفراغ القلب، وسلامة العيش، وكسر

سلاح الشيطان، والمجانبة من كل سوء، وراحة القلب، وما من نبي ولا وصي إلا واختار العزلة في زمانه، إما في ابتدائه، وإما في انتهائه»(١).

وأما فوائد العزلة فكالفراغ للعبادة، والذكر، والفكر، والاستيناس بمناجاة الله، والاشتغال باستكشاف اسرار الله في ملكوت السماوات والأرض، والتخلص عن المعاصي التي يتعرض الانسان لها غالباً بالمخالطة: كالغيبة، والرياء، وسائر آفات اللسان، ومسارقة الطبع الأعمال الخفية، والأخلاق الردية من الناس، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاستخلاص من الفتن والخصومات وأخطارها، أو من شر الناس وايذائهم قولاً وفعلاً، وقطع طمعه عن الناس، وقطع طمعهم عنه، والخلاص من مشاهدة الظلمة، والفسقة، والجهال، والثقلاء، والحمقى، ومقاساة أخلاقهم.

ونظر الآخرين - اعنى القائلين بتفضيل المخالطة على العزلة - إلى اطلاق الظواهر الواردة في مدح المخالطة والمؤالفة والمؤانسة وإلى فوائدها، أما ما ورد في مدحها، كقول النبي ﷺ: «المؤمن إلف مألوف، ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف»، وقوله ﷺ: «من فارق الجماعة مات ميتة الجاهلية»، وكالأخبار الواردة في ذم الهجرة عن الاخوان، وقوله ﷺ: «إياكم والشعاب، وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد».

وأما فوائد المخالطة: كالتعليم، والتعلم، وكسب الأخلاق الفاضلة من مجالسة المتصفين بها، واستماع المواعظ والنصائح، ونيل الثواب بحضور الجمعة والجماعة والجنازة، وعيادة المرضى، وزيارة الاخوان، وقضاء حوائج المحتاجين، ورفع الظلم عن المظلومين، وادخال السرور على المؤمنين، والاستيناس بالاخوان، وبأهل الورع

---

(١) صححنا هذا القول، وكذا الحديث السابق، على (مصباح الشريعة): باب ٢٤، وعلى (البحار): - باب العزلة عن شرار الخلق -: مج ١٥: ٢/ ٥١ ط أمين الضرب.

والعبادة والتقوى، وهو يروّح القلب، ويهيج داعية النشاط في العبادة وايصال النفع إلى المسلمين بالمال والجاه واللسان، واستفادة مزيد الأجر والثواب بتحصيل المعاشّ والكد على العيال، وارتياض النفس بمقاساة الناس في تحمل أذاهم، وكسر النفس وشهواتها، وادراك صفة التواضع لتوقفه على معاشرة الناس ومخالطتهم، وعدم حصوله في الوحدة، واستفادة التجارب والكياسة في مصالح الدنيا والدين، فانها لا تحصل إلا من مخالطة الخلق ومشاهدة مجارى أحوالهم. هذه هي فوائد كل من العزلة والمخالطة، وفوائد كل منهما مفاسد وغوائل للآخر. وأنت ـ بعدما عرفت فوائد كل منهما وغوائله ـ تعلم أن الحكم بترجيح أحدهما على الآخر على الاطلاق خطأ. كيف يجوز أن يقال: ان العزلة أفضل لشخص جاهل لم يتعلم شيئاً من اصوله وفروعه، ولم يقرع سمعه علم الأخلاق، ولم يميز بين فضائل الصفات ورذائلها، فضلا عن أن تحصل له التخلية والتحلية، ومع ذلك يمكن أن يحصل ذلك بالمخالطة مع العلماء وأولى الأخلاق الفاضلة؟ وكيف يجوز أن يقال: إن المخالطة أفضل لمن حصل ما في وسعه وقدرته من العلم والعمل، ووصل إلى مرتبة الابتهاج والإلتذاذ بالطاعات والمناجاة، ولم يترتب على مخالطته مع الناس شيء من الفوائد الدينية والدنيوية، بل تترتب عليه المفاسد الكثيرة؟

فالصحيح أن يقال: إن الأفضلية فيهما تختلف بالنظر إلى الأشخاص والأحوال والأزمان والأمكنة. فينبغي أن ينظر إلى كل شخص وحاله، وإلى خليطه، وإلى باعث مخالطته، وإلى ما يحصل بمخالطته من فوائد المخالطة، وما يفوت لأجلها من فوائد العزلة، ويوازن بين ذلك، حتى يظهر الأفضل والأرجح. ولإختلاف ذلك في حق الأشخاص، بملاحظة الأحوال والفوائد والآفات وربما يظهر ـ بعد التأمل ـ أن الأفضل لبعض الخلق العزلة التامة، ولبعضهم المخالطة، ولبعضهم الاعتدال في العزلة والمخالطة. وبما ذكر يظهر أن الأفضل لمن بلغ مقام الانس والاستغراق: الخلوة والعزلة، إذ لا ريب في أن المخالطة توجب السقوط عن مرتبة الشهود والانس،

ولا يتصور من فوائدها شيء يقاوم ذلك. ولذلك كان المحبون المستأنسون بالله يعتزلون عن الخلق ويؤثرون الخلوة. قال أويس القرني: «ماكنت أرى أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره»، وقال بعضهم: «إذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس»، وقال بعضهم: «سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه». وقال بعض الصالحين: «رأيت في بعض البلاد عابداً خرج من بعض قلل الجبال، فلما رآني تنحى عني وتستر بشجرة، فقلت له: سبحان الله! أتبخل علي بالنظر اليك؟ فقال: يا هذا! اني قمت في هذا الجبل دهراً طويلا اعالج قلبي في الصبر عن الدنيا واهلها، فطال في ذلك تعبي، وفني فيه عمري، فسألت الله تعالى أن يعطيني ذلك، فسكن قلبي عن الاضطراب، وألف الوحدة والانفراد، فلما نظرت اليك خفت ان اوقع في الأول، فإني اعوذ من شرّك برب العالمين، وحبيب القانتين، ثم صاح وقال: واغماه من طول المكث في الدنيا!، ثم حول وجهه عني، وقال: سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخلود، وحلاوة الانقطاع اليه!، ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان، وعن الحور الحسان». وقال بعض الأكابر: «إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلوّ ذاته عن الفضيلة، فبملاقاة الناس ومخالطتهم يفرح ويطرد الوحشة من نفسه، فإذا كانت ذاته فاضلة، طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة». ومن هنا قيل: (الاستيناس بالناس من علامات الافلاس). فمن تيسر له منزلة بدوام الذكر والانس بالله، وبداوم الفكر والتحقيق في معرفة الله، فالتجرد والخلوة أفضل له من كل ما يتعلق بالمخالطة، فإن غاية العبادات وثمرة المجاهدات أن يموت الانسان محباً لله، عارفاً بالله، ولا محبة إلا بالانس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلا بدوام الفكر، وفراغ القلب شرط لكل منهما، ولا فراغ مع المخالطة.

فإن قلت: لا منافاة بين المخالطة مع الناس والانس بالله، ولذا كان الأنبياء مخالطين للناس مع غاية استغراقهم في الشهود والانس.

قلنا: لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهراً، والاقبال التام على الله سراً، إلا

قوة النبوة. فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه، فيطمع في ذلك. ثم، بما ذكرناه يظهر وجه الجمع بين الأخبار الواردة من الطرفين، فان ما ورد في فضيلة العزلة إنما هو بالنظر إلى بعض الناس، وما ورد في فضيلة المخالطة إنما هو بالنظر إلى بعض آخر.

ومنها:

السخط

السخط فيما يخالف هواه من الواردات الإلهية والتقديرات الربانية، ويرادفه الانكار والاعتراض، وهو من شعب الكراهة لأفعال الله، وهو ينافي الايمان والتوحيد. وما للعبد العاجز الذليل المهين الجاهل بمواقع القضاء والقدر، والغافل عن موارد الحكم والمصالح، والاعتراض والانكار، والسخط لافعال الخالق الحكيم العليم الخبير، وانى للعبد ألا يرضى بما يرضى به ربه، ولعمرى! أن من يعترض على فعل الله فهو اشد الجهلاء، ومن لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء. وقد ورد في الخبرا القدسى: «خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه، وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف!». وفي خبر قدسى آخر: «أنا الله لا إله إلا أنا، من لم يصبر على بلائى، ولم يشكر على نعمائى، ولم يرض بقضائى، فليتخذ رباً سواى». وفي مناجاة موسى: «أى رب! أىّ خلقك أحب اليك؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى. قال: فأى خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرنى في الأمر، فإذا قضيت له سخط قضائى». وفي الخبر القدسى: «قدّرت المقادير، ودبّرت التدبير، وأحكمت الصنع، فمن رضى فله الرضا منى حين يلقانى، ومن سخط فله السخط منى حين يلقانى». وقال الباقر عليه السلام: «ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء، وأحبط الله أجره». وقال الصادق عليه السلام: «كيف يكون المؤمن مؤمناً، وهو يسخط قسمته، ويحقر منزلته، والحاكم عليه الله، وأنا الضامن لمن لم يهجس في قلبه إلّا الرضا أن يدعو الله فيستجاب له». وفي بعض

الأخبار: «أن نبياً من الأنبياء شكى الله عز وجل الجوع والفقر والعرى عشر سنين، فما أجيب اليه، ثم اوحى الله تعالى اليه: كم تشكو؟ وهكذا كان بدؤك عندى في ام الكتاب قبل ان اخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك منى، وهكذا قضيت عليك قبل ان اخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من اجلك؟ أم تريد أن ابدّل ما قدرته عليك، فيكون ما تحب فوق ما احب، ويكون ما تريد فوق ما اريد؟ وعزتى وجلالى! لئن تلجلج هذا في صدرك مرة اخرى، لأمحونك من ديوان النبوة»(١). وروى انه: «اوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: تريد واريد وإنما يكون ما اريد، فان اسلمت لما اريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما اريد اتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلّا ما اريد»(٢).

وبالجملة: من عرف أن العالم بجميع اجزائه، من الجواهر والاعراض، صادرة عنه على وجه الحكمة والخيرية، وأنها النظام الأصلح الذي لا يتصور فوقه نظام، ولو تغير جزء منه على ما هو اختلت الأصلحية والخيرية، وعرف الله بالربوبية، وعرف نفسه بالعبودية، يعلم أن السخط والإعراض وعدم الرضا بشيء مما يرد، ويكون غاية الجهل والخطر، ولذلك لم يكن احد من الأنبياء أن يقول قط في أمر: ليت كان كذا، حتى قال بعض اصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «خدمت رسول الله صلى الله عليه وآله عشر سنين، فما قال لى لشيء فعلته: لم فعلت، ولا لشيء لم افعله: لم لم تفعله، ولا قال في شيء كان: ليته لم يكن، ولا في شيء لم يكن: ليته كان، وكان إذا خاصمنى مخاصم من أهله، يقول دعوه، لو قضى شيء لكان». وروى: «أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون، ويجعل أحدهم رجليه على اضلاعه كهيئة الدرج، فيصعد إلى رأسه، ثم ينزل على اضلاعه كذلك، وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق،

(١) صححنا هذا الحديث، وكذا الأخبار القدسية السابقة، على (احياء العلوم): ٤ / ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٢) صححنا هذا الحديث، وكذا ما روى قبله عن أهل البيت عليهم السلام على (اصول الكافى): ج ٢ ـ باب الرضا بالقضاء. وعلى (سفينة البحار): ١ / ٢٢٤.

ولا يرفع رأسه، فقال له بعض ولده: يا أبت! أما ترى ما يصنع هـذا بك؟ لو نـهيته عـن هذا، فقال: يا بني! إني رأيت ما لم تروا، وعلمت مـا لم تـعلموا، إنـي تـحركت حـركة واحدة فأهـبطت مـن دار الكـرامـة إلى دار الهـوان، ومـن دار النـعيم إلى دار الشـقاء، فاخاف أن أتحرك حركة اخرى فيصيبني ما لا اعلم»[1].

فصل

(الرضـا)

الرضا ـ فضيلة الرضا ـ رضا الله ـ رد انكار تحقيق الرضـا ـ هـل يـناقض الدعـاء ونحوه الرضا ـ طريق تحصيل الرضا ـ التسليم.

❊ ❊ ❊

ضد السخط (الرضا)، وهو ترك الاعتراض والسخط باطناً وظاهراً، قولا وفعلا، وهو من ثمرات المحبة ولوازمها، إذ المـحب يسـتحسن كـلما يـصدر عـن مـحبوبه، وصاحب الرضا يستوى عنده الفقر والغنى، والراحة والعناء، والبـقاء والفـناء، والعـز والذل، والصحة والمرض، والموت والحياة، ولا يرجح بعضها على بعض، ولا يـثقل شيء منها على طبعه، إذ يرى صدور الكل من الله سبحانه، وقد رسخ حـبه فـي قـلبه، بحيث يحب افعاله، ويرجح على مراده مراده تعالى، فـيرضى لكـل مـا يكـون ويـرد. وروى: «أن واحداً من ارباب الرضا عمر سبعين سنة، ولم يقل في هذه المـدة لشـيء كان: ليته لم يكن، ولا لشيء لم يكن: ليته كان». وقيل لبعضهم: «ما وجـدت مـن آثـار الرضا في نفسك؟ فقال: ما فيّ رائحة من الرضا، ومع ذلك لو جعلني الله جسـراً عـلى جهنم، وعبر عليه الأولون والآخرون من الخلائق ودخلوا الجنة، ثم يلقوني في النار، وملأ بي جهنم، لأحببت ذلك من حكمه، ورضيت به من قسمه، ولم يختلج ببالي أنه

(١) صححنا الحديث على (احياء العلوم): ٤ / ٢٩٥.

لم كان كذا، وليت لم يكن كذا، ولم هذا حظى وذاك حظهم». وصاحب الرضا ابداً في روح وراحة، وسرور وبهجة، لأنه يشاهد كل شيء بعين الرضا، وينظر في كل شيء إلى نور الرحمة الإلهية، وسر الحكمة الأزلية، فكأن كل شيء حصل على وفق مراده وهواه. وفائدة الرضا، عاجلاً، فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم، وآجلاً، رضوان الله والنجاة من غضبه تعالى.

فصل
(فضيلة الرضا)

الرضا بالقضاء أفضل مقامات الدين، وأشرف منازل المقربين، وهو باب الله الأعظم، ومن دخله دخل الجنة. قال الله سبحانه:

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[1].

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنه سأل طائفة من اصحابه: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون، فقال: ما علامة ايمانكم؟ فقالوا: نصبر على البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضى بمواقع القضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة!»، وفي خبر آخر، قال: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا انبياء». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضى اصطفاه». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اعطوا الله الرضا من قلوبكم، تظفروا بثواب فقركم». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذاكان يوم القيامة، أنبت الله تعالى لطائفة من امتى اجنحة، فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها، ويتنعمون فيها كيف شاؤا، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فتقول لهم: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً، فتقول لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من امة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فتقول: ناشدناكم الله!

(١) المائدة، الآية: ١١٩. التوبة، الآية: ١٠٠. المجادلة، الآية: ٢٢. البينة، الآية: ٨.

حدثونا ما كانت اعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحيي أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا». وقال الصادق عليه السلام: «إن الله بعدله وحكمته وعلمه، جعل الروح والفرح في اليقين والرضا عن الله تعالى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط». وروى: «أن موسى عليه السلام قال: يا رب! دلني على امر فيه رضاك. فقال تعالى: إن رضاي في رضاك بقضائي». وروى: «ان بني اسرائيل قالوا له عليه السلام: سل لنا ربك امراً إذا نحن فعلناه يرضى عنا، فقال موسى عليه السلام: إلهي! قد سمعت ما قالوا، فقال: يا موسى! قل لهم يرضون عني حتى ارضى عنهم»[1]. وقال سيد الساجدين عليه السلام: «الصبر والرضا رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضى عليه فيما احب اوكره، لم يقض الله عز وجل له فيما أحب اوكره إلا ما هو خير له». وقال ـ صلوات الله عليه ـ: «الزهد عشرة اجزاء، أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا». وقال الباقر عليه السلام: «أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله عز وجل، من عرف الله عز وجل ومن رضي بالقضاء، أتى عليه القضاء وعظم الله أجره». وقال الصادق عليه السلام: «أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله». وقال عليه السلام: «قال الله عز وجل: عبدي المؤمن، لا أصرفه في شيء إلا جعلته خيراً له، فليرض بقضائي، وليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، اكتبه يا محمد من الصديقين عندي». وقال عليه السلام: «عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاء إلا كان خيراً له، إن قرض بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له». وقال عليه السلام: «إن فيما أوحى الله عز وجل إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى بن عمران! ما خلقت خلقاً أحب إليّ من عبدي المؤمن، وإني إنما ابتليته لما هو خير له، واعافيه لما هو خير له،

---

(١) صححنا الأحاديث على (احياء العلوم): ٤/ ٢٩٥ـ٢٩٦.

وازوى عنه لما هو خير له، وأنا اعلم بما يصلح عليه عبدى، فليصبر على بلائى، وليشكر نعمائى، وليرض بقضائى، اكتبه في الصديقين عندى، إذا عمل برضاى واطاع امرى». وقيل له عليه السلام: بأىّ شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن؟ قال: «بالتسليم لله، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط». وقال الكاظم عليه السلام: «ينبغى لمن غفل عن الله، ألا يستبطئه في رزقه، ولا يتهمه في قضائه»[١].

فصل

(رضا الله)

قد ظهر من بعض الأخبار المذكورة: أن رضا الله سبحانه من العبد يتوقف على رضا العبد عنه تعالى، فمن فوائد رضا العبد بقضاء الله وثمراته رضا الله سبحانه عنه، وهو اعظم السعادات في الدارين، وليس في الجنة نعيم فوقه، كما قال سبحانه:

﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٢].

وفي الحديث: «إن الله يتجلى للمؤمنين في الجنة، فيقول لهم: سلونى، فيقولون: رضاك يا ربنا!»، فسؤالهم الرضا بعد التجلى، يدل على أنه أفضل كل شيء. وورد في تفسير قوله تعالى: «ولدينا مزيد»: أنه يؤتى لأهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها:

احداها: هدية الله، ليس عندهم في الجنان مثلها، وذلك قوله تعالى:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٣].

والثانية: السلام عليهم من ربهم، فتزيد ذلك على الهدية، وهو قوله تعالى:

---

(١) صححنا الأحاديث على (اصول الكافى) ج ٢ ـ باب الرضا بالقضاء. وعلى (سفينة البحار): ١ / ٥٢٤.

(٢) التوبة، الآية: ٧٢.

(٣) السجدة، الآية: ١٧.

﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[١].

والثالثة: يقول الله تعالى: «إني عنكم راض»، وهو أفضل من الهدية والتسليم وذلك قوله تعالى:

﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[٢]: أي من النعيم الذي هم فيه.

ومعنى رضا الله عن العبد قريب من معنى حبه له، إلا أنه في الآخرة سبب لدوام النظر والتجلي في غاية ما يتصور من اللقاء والمشاهدة. ولهذا ليست رتبة في الجنة فوقه. ويروه أهل الجنة اقصى الأماني،وغاية الغايات.

فصل

(رد انكار تحقق الرضا)

من الناس من أنكر امكان تحقيق الرضا في انواع البلاء وفيما يخالف الهوى، وقال المتمكن فيهما: هو الصبر دون الرضا، وهو إنما اتى من ناحية انكار المحبة، إذ بعد ثبوت امكان الحب لله واستغراق الهم به لا يخفى ايجابه للرضا بافعال المحبوب. وذلك يكون من وجهين:

أحدهما ـ أن يوجب الاستغراق في الحب ابطال الاحساس بالألم، حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس به، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها. ولا تستبعدن ذلك، فان المحارب عند خوضه في الحرب، وعند شدة غضبه أو خوفه، قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها، فإذا رأى الدم استدل به على الجراحة، بل الذي يعدو في شغل مهم قد تصيبه شوكة في قدمه، ولا يحس بألمها لشغل قلبه. والسر: أن القلب إذا صار مستغرقا بامر من الأمور، لم يدرك ما عداه. فالعاشق المستغرق الهم بمشاهدة

---

(١) يس، الآية: ٥٨.

(٢) التوبة، الآية: ٧٢.

المعشوق أو بحبه، قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم، لولا عشقه، ولا يدرك ألمه وغمه لاستيلاء الحب على قلبه، وهذا إذا اصابه من غير حبيبه، فكيف إذا اصابه من حبيبه. ولا ريب في أن حب الله تعالى أشد من كل حب، وشغل القلب به اعظم الشواغل، إذ جمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال، فمن ينكشف له شيء منها، فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه، ولا يحس بما يجرى عليه.

وثانيهما ـ الا يبلغ الاستغراق في الحب بحيث لا يحس بالألم ولا يدركه، ولكن يكون راضياً به، بل راغباً فيه، مريداً له بعقله، وان كان كارهاً له بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة، فإنه يدرك ألمه، إلا أنه راض به وراغب فيه. فالمحب الخالص لله، إذا اصابته بلية من الله، وكان على يقين بأن ثوابها الذي ادّخر له فوق ما فاته، رضي بها ورغب فيها، وأحبها وشكر الله عليها. هذا إن كان نظره إلى الثواب والأجر الذي يجازى به على ابتلائه بالمصائب والبلايا. وربما غلب الحب بحيث يكون حظ المحب ولذته وابتهاجه في مراد حبيبه ورضاه لا لمعنى آخر، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا، وكل ذلك مشاهد محسوس في حب الخلق، فضلا عن حب الخالق والجمال الأزلى الأبدى الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط والخطأ، فإن القلوب إذا وقفت بين جماله وجلاله، فإذا لاحظوا جلاله هابوا، وإذا لاحظوا جماله تاهوا.

ويشهد بذلك حكايات المحبين، على ما هو في الكتب مسطور، وفي الألسنة والأفواه مذكور. فان للحب عجائب، من لم يذق طعمها لا يعرفها. وقد روينا: أن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه، فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع. بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك، وهو قطع النسوة ايديهنّ لاستهتارهن بملاحظة جماله، حتى ما أحسسن بذلك. وروى: «أن عيسى عليه السلام مرّ برجل اعمى وابرص، مقعد مفلوج، وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافانى مما ابتلى به كثيراً من

الناس! فقال عيسى: يا هذا! أي شيء من البلاء تراه مصروفا عنك؟ فقال: يا روح الله! اناخير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته، فقال: صدّقت! هات يدك، فناوله يده، فإذا هو أحسن الناس وجهاً، وافضلهم هيئة، قد اذهب الله عنه ما كان به، وصحب عيسى وتعبد به».

فصل

(هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا)

اعلم أن الدعاء غير مناقض للرضا، وكذلك كراهية المعاصي، ومقت أهلها، وحسم اسبابها، والسعي في ازالتها بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي. وقد زعمت طائفة من أهل البطالة والغرور: أن جميع ذلك يخالف الرضا، إذ كل ما يقصد رده بالدعاء وانواع المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره، فيجب للمؤمن أن يرضى به. وقد رأوا السكوت على المنكرات مقاماً من مقامات الرضا، وسموه حسن الخلق، وهذا جهل بالتأويل، وغفلة عن أسرار الشريعة ودقائقها.

أما الدعاء، فلا ريب في أنا قد تعبدنا به، وقد كثرت ادعية الانبياء والأئمة، وكانوا على أعلى مقامات الرضا، وتظاهرت الآيات، وتواترت الأخبار في الأمر بالدعاء وفوائده وعظم مدحه، واثنى الله سبحانه على عباده الداعين، حيث قال: **﴿وَ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَ رَهَبًا﴾**[1]. وقال: **﴿ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾**[2]. وقال: **﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾**[3].

وهو يوجب صفاء الباطن، وخشوع القلب، ورقة النظر، وتنوّر النفس وتجليها.

---

(١) الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٢) غافر، الآية: ٦٠.

(٣) البقرة، الآية: ١٨٦.

وقد جعله الله تعالى مفتاحا للكشف، وسبباً لتواتر مزايا اللطف والاحسان. وهو أقوى الأسباب لإفاضة الخيرات والبركات من المبادى العالية.

فإن قيل: ما يرد على العبد من المكاره والبلايا يكون بقضاء الله وقدره، والآيات والأخبار ناطقة بالرضا بقضاء الله مطلقاً، فالتشمر لرده بالدعاء يناقض الرضا.

قلنا: إن الله سبحانه بعظيم حكمته، أوجد الأشياء على التسبيب والترتيب بينهما، فربط المسببات بالأسباب، ورتب بعضها على بعض وجعل بعضها سبباً وواسطة لبعض آخر، وهو مسبب الأسباب. والقدر عبارة عن حصول الموجودات في الخارج من اسبابها المعينة بحسب أوقاتها، مطابقة لما في القضاء، والقضاء عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء في العالم العقلى على الوجه الكلى، مطابقة لما في العناية الألهية المسماة بالعناية الأولى، والعناية عبارة عن احاطة علم الله تعالى بالكل على ما هو عليه احاطة تامة، فنسبة القضاء إلى العناية كنسبة القدر الى القضاء. ثم، من جملة الأسباب لبعض الأمور الدعاء والتصدق وأمثالهما، فكما أن شرب الماء سبب رتبه مسبب الاسباب لازالة العطش، ولو لم يشربه لكان عطشه باقياً إلى أن يؤدى إلى هلاكه، وشرب المسهل سبب لدفع الاخلاط الردية، ولو لم يشربه لبقيت على حالها،وهكذا في سائر الاسباب، وكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى لدفع البلايا ورفعها، ولو لم يدع لنزل البلاء ولم يندفع.

فلو قيل: لو كان في علم الله تعالى وفي قضائه السابق، أن زيداً ـ مثلا ـ يدعو الله، أو يتصدق، عند ابتلائه ببلية كذا، وتندفع به بليته لدعاء أو تصدق، ودفع بليته، ولو كان فيهما أنه لا يدعو الله ولا يتصدق ويبتلى بتلك البلية ولم يدع الله، ولم يتصدق لم تندفع عنه البلية. والحاصل: ان كل ما تعلقت به العناية الكلية والقضاء الأزلى يحصل مقتضاه في الخارج وعالم التقدير، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فأى فائدة في سعى العبد واجتهاده؟

قلنا: هذه من جملة شبهات الجبرية على كون العبد مجبوراً في فعله ونفى

الاختيار عنه، ولا مدخلية لها بكون الدعاء غير مناقض للرضا، وكونه من جملة الأسباب المرتبة منه تعالى لحصول مسبباتها، كالتزويج لتحصيل الولد، والأكل والشرب لدفع الجوع والعطش، ولبس الثياب لدفع الحر والبرد، وغير ذلك. ثم الجواب من الشبهة المذكورة وأمثالها مذكور في موضعها.

وأما انكار المعاصي وكراهتها، والفرار من أهلها ومن البلد الذي شاعت فيه، فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا بها، فقال:

﴿وَ رَضُوا بِالْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ ٱطْمَأَنُّوا بِهَا﴾[1]. وقال: **﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ ٱللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾**[2].

وفي بعض الأخبار: «من شهد منكراً ورضى به فكأنه قد فعله». وفي آخر: «لو أن عبداً قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر بالمغرب، كان شريكا في قتله». وفي آخر: «إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه»، قيل وكيف ذلك؟ قال: «فيبلغه فيرضى به».

وأما بعض الكفار والفجار والفساق، ومقتهم والانكار عليهم، فما ورد فيه من شواهد الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى. قال الله سبحانه:

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾[3].وقال: **﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَ ٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾**[4].

وفي الخبر: «إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق». وقال ﷺ: «أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله». وقد تقدمت جملة من شواهد هذا في باب الحب في الله والبغض في الله.

---

(١) يونس، الآية: ٧.

(٢) التوبة، الآية: ٨٧ ٩٣.

(٣) آل عمران، الآية: ٢٨.

(٤) المائدة، الآية: ٥١.

فان قيل: المعاصى إن لم تكن بقضاء الله وقدره فهو محال وقادح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله مطلقاً فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله. والآيات والأخبار مصرحة بوجوب الرضا بقضاء الله مطلقاً، وذلك تناقض، فكيف السبيل إلى الجمع؟ وأنى يتأتى الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟

قلنا: المقرر عند بعض الحكماء: «أن الشرور الواقعة في العالم، من المعاصى وغيرها، راجعة إلى الأعدام دون الموجودات، فلا تكون مرادة له تعالى، ولا داخلة في قضائه، وعند بعضهم أنها داخلة في قضائه بالعرض لا بالذات، ولا ضير في كراهة ما ليس في قضاء الله تعالى بالذات. وعند بعضهم: أنها شرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلى هذا، فينبغى أن تكون مكروهة من حيث ذاتها، وبهذه الحيثية لا تكون من قضاء الله والرضا به، وفرضه من حيث كونها باعثة لخيرات كثيرة. والتحقيق: أن الأوصاف الثلاثة ثابتة للشرور الواقعة في العالم، اعنى أنها راجعة إلى الأعدام وداخلة في قضائه تعالى بالعرض، وشرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلى هذا فوجه الجمع أظهر. ثم، لأبى حامد الغزالى هنا وجه جمع آخر، لا يروى الغليل ولا يشفى العليل.

فإن قيل: بغض اهل المعاصى ومقتهم موقوف على ثبوت الاختيار لهم وتمكنهم من تركهم، واثبات ذلك مشكل.

قلنا: لا اشكال فيه، إذ البديهة قاضية بثبوت نوع اختيار للعباد في افعالهم ولا سيما فيما يتعلق به التكليف والخوض في هذه المسألة مما لا ينبغى. فالأولى فيها السكوت، والتأدب بآداب الشرع، والرجوع إلى ما ورد من العترة الطاهرة. وما يمكن أن يقال فيها قد ذكرناه في كتابنا المسمى بـ(جامع الأفكار).

فصل

(طريق تحصيل الرضا)

الطريق إلى تحصيل الرضا، أن يعلم أن ما قضى الله سبحانه له هو الأصلح بحاله، وإن لم يبلغ فهمه إلى سيره فيه. مع أن السخط والكراهة لا يفيد شيئاً ولا يتبدل به القضاء. فإن ما قدر يكون، وما لم يقدر لم يكن، وحسرة الماضي وتدبير الآتي يذهبان بتركه الوقت بلا فائدة، وتبقى تبعة السخط عليه. فينبغي أن يدهشه الحب لخالقه عن الاحساس بالألم، كما للعاشق، وأن يهون عليه العلم بعظم الثواب التعب والعناء ـ كما للمريض والتاجر المتحملين شدة الحجامة والسفر ـ فيفوض امره إلى الله، إن الله بصير بالعباد.

تتميم

(التسليم)

اعلم أن التسليم، ويسمى تفويضاً ايضاً، قريب من الرضا، بل هو فوق الرضا، لانه عبارة عن ترك الأعراض في الأمور الواردة عليه، وحوالتها باسرها إلى الله، مع قطع تعلقه عليها بالكلية، بمعنى ألا يكون طبعه متعلقاً بشيء منها. فهو فوق الرضا، إذ في مرتبة الرضا كلما يفعل الله به يوافق طبعه، فالطبع ملحوظ ومنظور له، وفي مرتبة التسليم يجعل الطبع وموافقته ومخالفته كلها موكولة إلى الله سبحانه، وفوق مرتبة التوكل أيضاً، إذ التوكل ـ كما يأتي ـ عبارة عن الاعتماد في اموره على الله، فهو بمنزلة توكيل الله في اموره، وكأنه يجعل الله تعالى بمثابة وكيله. فيكون تعلقه باموره باقياً، وفي مرتبة التسليم يقطع العلاقة من الأمور المتعلقة به بالكلية.

ومنها:

الحزن

وهو التحسر والتألم، لفقد محبوب، أو فوت مطلوب. وهو أيضاً، كالاعتراض والانكار، مترتب على الكراهة للمقدرات الإلهية.

والفرق: أن الكراهة في الاعتراض أشد من الكراهة في الحزن، كما أن ضد الكراهة ـ أعنى الحب في ضدهما ـ بعكس ذلك، أى ظهوره في السرور الذي ضد الحزن اشد من ظهوره في الرضا الذي هو ضد الاعتراض. فإن الرضا هو منع النفس في الواردات من الجزع مع عدم كراهة وفرح، والسرور هو منعها فيها عن الجزع مع الابتهاج والانبساط. فالسرور فوق الرضا في الشرافة، كما أن الحزن تحت الاعتراض في الخسة والرذالة، وسبب الحزن وشدة الرغبة في المشتهيات الطبيعية، والميل إلى مقتضيات قوتى الغضب والشهوة، وتوقع البقاء للامور الجسمانية. وعلاجه، أن يعلم أن ما في عالم الكون والفساد من: الحيوان، والنبات، والجماد، والعروض والاموال، في معرض الفناء والزوال، وليس فيها ما يقبل البقاء، وما يبقى ويدوم هو الامور العقلية، والكمالات النفسية المتعالية عن حيطة الزمان وحوزة المكان وتصرف الاضداد وتطرق الفساد. وإذا تيقن بذلك زالت عن نفسه الخيالات الفاسدة، والامانى الباطلة. فلا يتعلق قلبه بالأسباب الدنيوية، ويتوجه بشراشره إلى تحصيل الكمالات العقلية، والسعادات الحقيقية الموجبة للاتصال بالجواهر النورية الباقية، والمجاورة للانوار القادسة الثابتة، فيصل إلى مقام البهجة والسرور، ولا تلحقه احزان عالم الزور، كما اشير إليه في الكتاب الإلهى بقوله:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

وفي أخبار داود عليه السلام: «يا داود! ما لاوليائى والهمّ بالدنيا؟ إن الهمّ يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم، إن محبى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لا يغتمون».

---

(١) يونس، الآية: ٦٢.

والحاصل: أن حب الفانيات والتعلق بما من شأنه الفوات خلاف مقتضى العقل، وحرام على العاقل أن يفرح بوجود الأمور الفانية، أو يحزن بزوالها. ولقد قال سيد الأوصياء ـ عليه آلاف التحية والثناء ـ: «ما لعليّ وزينة الدنيا؟ وكيف افرح بلذة تفنى، ونعيم لا يبقى؟!». بل ينبغي أن يرضى نفسه بالموجود، ولا يغتم بالمفقود، ويكون راضياً بما يرد عليه من خير وشر. وقد ورد في الآثار: «أن الله تعالى بحكمته وجلاله، جعل الروح والفرح في الرضا واليقين»، ومن رضى بالموجود ولا يحزن بالمفقود، فقد فاز بأمن بلا فزع، وسرور بلا جزع، وفرح بلا حسرة، ويقين بلا حيرة، وما لطالب السعادة أن يكون أدون حالا من سائر طبقات الناس، فإن كل حزب بما لديهم فرحون، كالتاجر بالتجارة، والزارع بالزراعة، بل الشاطر بالشطارة، والقواد بالقيادة، مع أن ما هو السبب والموجب المفرّح في الواقع ونفس الامر ليس إلا لأهل السعادة والكمال، وما لغيرهم محض التوهم ومجرد الخيال. فينبغي لطالب السعادة أن يكون فرحانا بما عنده من الكمالات الحقيقية، والسعادات الأبدية ولا يحزن على فقد الزخارف الدنيوية، والحطام الطبيعية، ويتذكر ما خاطب الله به نبيه ﷺ:

﴿وَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰ﴾(١).

ومن تصفح فرق الناس، يجد أن كل فرقة منهم فرحهم بشيء من الأشياء، وبه اهتزازهم وقوامهم ونظام أمرهم. فالصبيان فرحهم باللعب وتهيئة اسبابه، وهو في غاية القبح والركاكة عند من جاوز مرتبتهم. والبالغون حد الرجولية، بعضهم فرحان بالدرهم والدينار، وبعضهم بالضياع والعقار، وآخر بالاتباع والأنصار، وفرقة بالنسوان والأولاد، وطائفة بالحرف والصنايع، وبعضهم بالحسب والنسب، والآخر بالجاه والمنصب، وبعضهم بالقوة الجسمانية، وآخر بالجمال الصوري، وطائفة بالكمالات

(١) طه، الآية: ١٣١.

الدنيوية: كالخط، والشعر، وحسن الصوت، والطب، والعلوم الغريبة، وغير ذلك، حتى ينتهى إلى من لا يفرح إلا بالكمالات النفسية والرياسات المعنوية، وهم أيضاً مختلفون، فبعضهم غاية فرحه بالعبادة والمناجاة، وآخر بمعرفة حقائق الأشياء، حتى يصل إلى من ليس فرحه إلا بالأنس بحضرة الربوبية، والاستغراق في لجة أنواره، وسائر المراتب عنده فيء زائل وخيال باطل. ولا ريب في أن العاقل يعلم أن ما ينبغى أن يفرح ويبتهج به حصول هذه المرتبة وسائر الأمور، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. فلا ينبغى للعاقل أن يحزن بفقدها ويفرح بوجودها. ثم، من تأمل، يجد أن الحزن ليس أمراً وجوديا لازماً، بل هو أمر اختيارى يحدثه الشخص في نفسه بسوء اختياره. إذ كلما يفقد من شخص ويحزن لأجله ليس موجوداً لكثير من الناس، بل ربما لم يملكوه في مدة عمرهم أصلا، ومع ذلك لا تجدهم محزونين على عدمه، بل فرحون راضون، ولو كان الحزن لازماً لفقد هذا الأمر، لكان كل من فقده محزوناً، وليس كذلك. وأيضاً كل حزن يعرض لأجل مصيبته يزول بعد زمان ويتبدل بالسرور، ولو كان الحزن لأجلها امراً ضرورياً لازماً لما زال أصلا.

ثم العجب من العاقل أن يحزن من فقد الأمور الدنيوية، مع أنه يعلم أن الدنيا دار الفناء، وزخارفها متنقلة بين الناس، ولا يمكن بقاؤها لأحد، وجميع الأسباب الدنيوية ودائع الله ينتقل إلى الناس على سبيل التبادل والتناوب. ومثلها مثل شمامة تدار في مجلس بين أهله على التناوب، يتمتع بها في كل لحظة واحد منهم، ثم يعطيها غيره. فطامع البقاء للحطام الدنيوية كمن طمع في ملكية الشمامة واختصاصها به، إذا وصلت إليه نوبة الاستمتاع، وإذا استردت منه عرض له الحزن والخجلة. وما المال والأهلون إلا ودائع، ولا بد يوماً أن ترد الودائع. فلا ينبغى للعاقل أن يغتم ويحزن لأجل ردّ الوديعة، كيف والحزن بردها كفران للنعمة؟ إذ أقل مراتب الشكر أن تردّ الوديعة إلى صاحبها على طيب النفس، لا سيما إذا استرد الأخس ـ أعنى الخبائث الدنيوية ـ، وبقى الأشرف ـ اعنى النفس وكمالاتها العلمية والعملية ـ

فينبغي لكل عاقل ألا يعلق قلبه بالأمور الفانية، حتى لا يحزن بفقدها. قال سقراط: «إني لم أحزن قط، إذ ما أحببت قط شيئاً حتى أحزن بفوته، ومن سرّه ألا يرى ما يسوؤه، فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقداً».

ومنها:

عدم الاعتماد

أو ضعفه في اموره على الله، والوثوق بالوسائط، والنظر إليها فيها. وسببه: إما ضعف اليقين، أو ضعف القلب، أو كلاهما. فهو من رذائل قوتى العاقلة والغضب. ولا ريب في أنه من المهلكات العظيمة، وينافى الايمان، بل هو من شعب الشرك. ولذا ورد في ذمه من الآيات والأخبار ما ورد، قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(١). وقال: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِنْدَ ٱللهِ ٱلرِّزْقَ وَ ٱعْبُدُوهُ﴾**(٢). وقال: **﴿وَ لِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾**(٣).

وفي أخبار داود عليه السلام: «ما اعتصم عبد من عبادى بأحد من خلقى عرفت ذلك من نيته، إلا قطعت اسباب السماوات من يديه، واسخطت الأرض من تحته، ولم ابال بأى واد هلك». قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من اغتر بالعبيد أذله الله». وقيل: «مكتوب في التوراة: ملعون من ثقته بانسان مثله». فينبغي للمؤمن أن يتخلى عنه باكتساب ضده، أعنى التوكل، كما يأتى.

---

(١) الأعراف، الآية: ١٩٤.

(٢) العنكبوت، الآية: ١٧.

(٣) المنافقون، الآية: ٧.

وصل

(التوكل)

التوكل ـ فضيلة التوكل ـ درجات التوكل ـ السعى لا ينافى التوكل ـ الأسباب التي لا ينافى السعى إليها التوكل ـ اعقل وتوكل ـ درجات الناس في التوكل ـ تفنيد زعم ـ طريق تحصيل التوكل.

* * *

التوكل اعتماد القلب في جميع الأمور على الله، وبعبارة اخرى: حوالة العبد جميع أموره على الله، وبعبارة اخرى: هو التبرى من كل حول وقوة، والاعتماد على حول الله وقوته. وهو موقوف على أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لا فاعل إلا الله، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته عناية. فمن اعتقد ذلك اتكل قلبه لا محالة على الله وحده،ولم يلتفت إلى غيره، ولا إلى نفسه اصلاً. ومن لم يجد ذلك من نفسه، فسببه إما ضعف اليقين، أو ضعف القلب، ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه. فإن القلب الضعيف ينزعج تبعاً للوهم، وطاعة له من غير نقصان في اليقين، كانزعاجه أن يبيت مع ميت في قبر أو فراش، مع يقينه بأنه جماد في الحال لا يتصور منه إضرار، فلا ينبغي أن يخاف منه ويفرّ عنه، كما لا يفر من سائر الجمادات. وكذا من كان ضعيف القلب وتناول العسل ـ مثلا ـ، فشبه العسل بين يديه بالعذرة، فربما نفر طبعه لضعف قلبه، وتعذّر عليه أن يتناوله، مع يقينه بأنه عسل ولا مدخلية للعذرة فيه. فالتوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوّة القلب جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته. فالسكون في القلب شيء آخر، واليقين شيء آخر. فكم من يقين لا طمأنينة معه، كما قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ: بَلَىٰ! وَ لَـٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[1].

فالتمس أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله، فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به، ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمره إلى أن تبلغ درجة النفس المطمئنة، وذلك لا يكون في البداية. وكم من مطمئن لا يقين له، كأرباب الملل والمذاهب الباطلة. فإن اليهودى مطمئن القلب إلى تهوّده، وكذا النصرانى، ولا يقين لهما أصلا، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس. وإذا توقف التوكل على اليقين وقوة القلب، وارتفع بضعف احدهما، يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتى العاقلة والغضبية معاً، وضده ـ اعنى عدم التوكل ـ من رذائل احدهما أو كليهما. ثم، إنك قد عرفت في باب التوحيد، أن عماد التوكل وما يبتنى عليه، هو المرتبة الثالثة من التوحيد، وهي أن تنكشف للعبد باشراق نور الحق، بأنه لا فاعل إلا هو، وأن ما عداه من الاسباب والوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الازلية. فطالب التوكل يلزم عليه أن يحصل هذه المرتبة من التوحيد ليحصل له التوكل. وقد عرفت ـ ايضاً ـ أن المرتبة الثانية منه ـ اعنى التوحيد الاعتقادى ـ إذا قويت ربما أورثت حال التوكل، إلا أن التوكل كما ينبغى موقوف على المرتبة الثالثة منه.

فصل
(فضيلة التوكل)

التوكل منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين، بل هو أفضل درجات الموقنين. ولذا ورد في مدحه وفضله وفي الترغيب فيه ما ورد من الكتاب والسنة، قال الله تعالى:

---

(١) البقرة، الآية: ٢٦٠.

﴿وَ عَلَى ٱللهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١]. وقال: ﴿وَ عَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٢]. وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٣]. وقال: ﴿وَ مَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٤]. وقال: ﴿وَ مَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ فَإِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٥]:

أي عزيز لا يذلّ من استجار به، فلا يضع من لاذ بجنابه، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره. وقال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله، كفاه الله كل مؤنة، ورزقه من حيث لا يحتسب. ومن انقطع إلى الدنيا، وكله الله إليها». وقال ﷺ: «من سرّه أن يكون أغنى الناس، فليكن بما عند الله اوثق منه بما في يده». وقال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقتم كما ترزق الطيور، تغدوخماصاً وتروح بطانا». وعن على بن الحسين عليه السلام قال: «خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط، فاتكأت عليه، فإذا رجل عليه ثوبان ابيضان ينظر في تجاه وجهى، ثم قال: يا على بن الحسين! ما لى أراك كئيباً حزيناً؟ أعلى الدنيا؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر. قلت: ما على هذا أحزن، وإنه لكما تقول. قال: فعلى الآخرة؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر قادر. قلت: ما على هذا أحزن، وإنه لكما تقول. فقال: مم حزنك؟ قلت: مما نتخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه للناس. قال: فضحك، ثم قال: يا على بن الحسين! هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه؟ قلت: لا! قال: فهل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه؟ قلت: لا! قال: فهل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا!... ثم غاب عنى»، ولعل الرجل كان هو الخضر ـ على نبينا وعليه السلام ـ. قال

---

(١) المائدة، الآية: ٢٣.

(٢) آل عمران، الآية: ١٢٢، ١٦٠. المائدة، الآية: ١١. التوبة، الآية: ٥١. ابراهيم، الآية: ١١. المجادلة، الآية: ١٠. التغابن، الآية: ١٣.

(٣) آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٤) الطلاق، الآية: ٣.

(٥) الأنفال، الآية: ٤٩.

الصادق عليه السلام: «اوحى الله إلى داود: ما اعتصم بى عبد من عبادى دون أحد من خلقى، عرفت ذلك من نيته، ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن، إلا جعلت له المخرج من بينهن». وقال عليه السلام: «إن الغنى والعز يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل اوطنا». وقال عليه السلام: «من أعطى ثلاثاً لا يمنع ثلاثاً: من أعطى الدعاء أعطى الاجابة، ومن اعطى الشكر أعطى الزيادة، ومن أعطى التوكل اعطى الكفاية. ثم قال: أتلوت كتاب الله عز وجل (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، وقال: (ولئن شكرتم لأزيدنكم)، وقال: (ادعونى استجب لكم)؟». وقال عليه السلام: «أيما عبد أقبل قبل ما يحب الله تعالى اقبل الله قبل ما يحب، ومن اعتصم بالله عصمه الله، ومن اقبل على الله قبله وعصمه، لم يبال لو سقطت السماء على الأرض، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فتشملهم بلية، كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية، أليس الله تعالى يقول: (إن المتقين في مقام أمين)؟». وقال عليه السلام: «إن الله تعالى يقول: وعزتى وجلالى ومجدى وارتفاعى على عرشى! لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس في غيرى باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس، ولأنحينه من قربى، ولأبعدنه من وصلى، أيؤمل غيرى في الشدائد والشدائد بيدى؟ ويرجو غيرى؟ ويقرع بالفكر باب غيرى، وبيدى مفاتيح الابواب وهي مغلقة؟ وبابى مفتوح لمن دعانى، فمن ذا الذي املنى لنوائبه فقطعته دونها، ومن ذا الذي رجانى لعظيمة فقطعت رجاءه منى؟ جعلت آمال عبادى عندى محفوظة، فلم يرضوا بحفظى، وملأت سماواتى ممن لا يمل من تسبيحى، وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بينى وبين عبادى، فلم يثقوا بقولى، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبى أنه لا يملك كشفها احد غيرى إلا من بعد اذنى؟ فما لى اراه لاهياً عنى؟ اعطيته بجودى ما لم يسألنى، ثم انتزعته عنه فلم يسألنى رده، وسأل غيرى، أفترانى ابدأ بالعطاء قبل المسألة؟ ثم اسأل فلا اجيب سائلى؟ أبخيل أنا فيبخلنى عبدى؟ أو ليس الجود والكرم لى؟ أو ليس العفو والرحمة بيدى؟ أو لست أنا محل الآمال؟ فمن يقطعها دونى؟ أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيرى؟ فلو أن اهل سماواتى واهل

أرضى أملوا جميعاً، ثم اعطيت كل واحد منهم مثل ما امل الجميع، ما انتقص من ملكى مثل عضو ذرة، وكيف ينقص ملك انا قيمه؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتى! ويا بؤساً لمن عصانى ولم يراقبنى!»(١).

فصل

(درجات التوكل)

للتوكل في الضعف والقوة ثلاث درجات:

الأولى ـ أن يكون حاله في حق الله والثقة بعنايته وكفالته كحاله بالثقة بالوكيل، وهذا اضعف الدرجات، ويكثر وقوعها ويدوم مدة مديدة، ولا ينافي اصل التدبير والاختيار، بل ربما زاول كثيراً من التدبيرات بسعيه واختياره. نعم ينافي بعض التدبيرات، كالتوكل على وكيله في الخصومة، فإنه يترك تدبيره من غيره جهة الوكيل، ولكن لا يترك التدبير الذي اشار إليه وكيله، ولا التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون تصريح اشارته.

الثانية ـ أن تكون حاله مع الله كحال الطفل مع امه، فإنه لايعرف غيرها، ولا يفزع إلا إليها، ولا يعتمد إلا عليها. فإن رآها تعلق في كل حال بذيلها، وإن ورد عليه امر في غيبتها كان اول سابق لسانه يا أماه!. والفرق بين هذا وسابقه، أن هذا متوكل قد فنى في موكله عن توكله، أي ليس يلتفت قلبه إلى التوكل، بل التفاته إنما هو إلى المتوكل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه. وأما الاول فتوكل بالكسب والتكلف، وليس فانياً عن توكله، اى له التفات إلى توكله، وذلك شغل صارف عن

(١) صححنا الاحاديث على (اصول الكافى): ج ٢، باب التفويض إلى الله والتوكل عليه. وعلى (البحار): باب التوكل والتفويض والرضا: مج ١٥: ٢ / ١٥٣، ط (امين الضرب). وللعلامة (المجلسى) ﷺ في الموضع المذكور، في الحديث الخامس، تحقيق دقيق وبيان لطيف، لايسع المقام ذكره هنا، فمن اراد الوقوف عليه، فعليه بمراجعة الموضع المذكور.

ملاحظة المتوكل عليه وحده. وهذا أقل وقوعاً ودواماً من الاول، إذ حصوله إنما هو للخواص، وغاية دوامه أن يدوم يوماً أو يومين، وينافي التدبيرات، إلا تدبير الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال، كتدبير الطفل في التعلق بامه فقط.

الثالثة ـ وهي أعلى الدرجات، أن يكون بين يدى الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل، بأن يرى نفسه ميتاً، وتحركه القدرة الأزلية كما يحرك الغاسل الميت. وهو الذي قويت نفسه، ونال الدرجة الثالثة من التوحيد. والفرق بينه وبين الثانى، أن الثانى لا يترك الدعاء والتضرع، كما أن الصبى يفزع إلى امه، ويصيح ويتعلق بذيلها، ويعدوخلفها، وهذا ربما يترك الدعاء والسؤال ثقة بكرمه وعنايته، فهذا مثال صبى علم أنه إن لم يرص بامه، فالأم تطلبه، وإن لم يتعلق بذيلها فهى تحمله، وإن لم يسأل اللبن فهى تسقيه. ومن هذا القسم توكل ابراهيم الخليل عليه السلام لما وضع في المنجنيق ليرمى به إلى النار، واشار إليه روح الأمين بسؤال النجاة والاستخلاص من الله سبحانه فقال: «حسبى من سؤالى علمه بحالى». وهذا نادر الوقوع، عزيز الوجود، فهو مرتبة الصديقين، وإذا وجد فدوامه لا يزيد على صفرة الوجل، أو حمرة الخجل، وهو ينافي التدبيرات ما دام باقياً، إذ يكون صاحبه كالمبهوت. ثم، توكل العبد على الله قد يكون في جميع اموره، وقد يكون في بعضها. وتختلف درجات ذلك بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقلتها. وقال الكاظم عليه السلام في قوله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(١).

«التوكل على الله درجات، منها أن تتوكل على الله في امورك كلها، فما فعل بك كنت عنه راضياً، تعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلا، وتعلم أن الحكم في ذلك له، فتوكل على الله بتفويض ذلك اليه، وثق به فيها وفي غيرها». ولعل سائر درجات التوكل أن

(١) الطلاق، الآية: ٣.

يتوكل على الله في بعض اموره دون بعض، وتعدد الدرجات حينئذ بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقلتها.

فصل
(السعى لاينافي التوكل)

اعلم أن الأمور الواردة على العباد إما أن تكون خارجه عن قدرة العباد ووسعهم، بمعنى أنه لا تكون لها اسباب ظاهرة قطعية أو ظنية لجلبها أو دفعها، أو تكون لها اسباب جالبة لها أو دافعة اياها، إلا أن العبد لا يتمكن منها.

فمقتضى التوكل فيها ترك السعى بالتمحلات والتدبيرات الخفية، وحوالتها على رب الأرباب، ولو دبر في تغييرها بالتمحلات والتكلفات، لكان خارجا عن التوكل رأساً، أو لا تكون خارجة عن قدرتهم، بمعنى أن لها أسباباً قطعية أو ظنية يمكن للعبد أن يحصلها ويتوصل بها إلى جلبها أو دفعها. فالسعى في مثلها لا ينافي التوكل، بعد أن يكون وثوقه واعتماده بالله دون الأسباب. فمن ظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالعقل رأساً، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، فقد أبعد عن الحق، لأن ذلك محرم في الشرع الأقدس. فإن الشارع كلف الانسان بطلب الرزق بالاسباب التي هداه الله إليها، من زراعة، أو تجارة، أو صناعة، أو غير ذلك مما أحله الله، وبابقاء النسل بالتزويج، وكلفه بأن يدفع عن نفسه الأشياء المؤذية بالتوسل إلى الأسباب المعينة لدفعها. وكما أن العبادات أمور أمر الله تعالى عباده بالسعى فيها، ليحصل لهم بها التقرب إليه والسعادات في دار الآخرة، فكذلك طلب الحلال ودفع الضرر والالم عن النفس والأهل والعيال امور امرهم الله تعالى، ليحصل لهم بها التوسل إلى العبادات ومايؤدى إلى التقرب والسعادة. ولكنه سبحانه كلفهم ايضاً بألا يثقوا إلا به، ولا يعتمدوا على الأسباب. كما أنه سبحانه كلفهم بألا يتكلوا على أعمالهم الحسنة، بل على فضله ورحمته. فمعنى التوكل المأمور به في

الشريعة: اعتماد القلب على الله في الأمور كلها، وانقطاعه عما سواه. ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يسكن إليها، وكان سكونه إلى الله سبحانه دونها مجوزاً في نفسه أن يؤتيه الله مطلوبه من حيث لا يحتسب، دون هذه الأسباب التي حصلها، وأن يقطع الله هذه الأسباب عن مسبباتها.

فصل

(الأسباب التي لا ينافي السعى إليها التوكل)

الأسباب التي لا ينافى تحصيلها ومزاولتها للتوكل، هي الأسباب القطعية أو الظنية، وهي التي يقطع أو يظن بارتباط المسببات بها بتقدير الله ومشيته ارتباطاً مطرداً لا يتخلف عنها، سواء كانت لجلب نفع أو لدفع ضر منتظر أو لإزالة آفة واقعة، وذلك كمد اليد إلى الطعام للوصول إلى فيه، وحمل الزاد للسفر، واتخاذ البضاعة للتجارة، والوقاع لحصول الأولاد، وأخذ السلاح للعدو، والادّخار لتجدد الاضطرار، والتداوى لازالة المرض، والتحرز عن النوم في ممر السيل ومسكن السباع وتحت الحائط المائل، وغلق الباب وعقل البعير، وترك الطريق الذي يقطع أو يظن وجود السارقين أو السباع الضارة فيه... وقس عليها غيرها.

وأما الأسباب الموهومة، كالرقية، والطيرة والاستقصاء في دقائق التدبير، وابداء التمحلات لأجل التبديل والتغيير، فيبطل بها التوكل، لأن امثال ذلك ليست باسباب عند العقلاء، وليست مما أمر الله تعالى بها، بل ورد النهى عنها، على أن المأمور به الاجمال في الطلب وعدم الاستقصاء. قال رسول الله ﷺ: «ألا ان الروح الأمين نفث في روعى: أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله تعالى، واجملوا في الطلب». وقال ﷺ: «ما أجمل في الطلب من ركب البحر». وقال الصادق عليه السلام: «ليكن طلب المعيشة فوق كسب المضيع، ودون طلب الحريص، الراضى بدنياه، المطئمن إليها، ولكن أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف،

ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف، وتكتسب ما لا بد منه، إن الذين اعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم». وقال عليه السلام: «إذا فتحت بابك، وبسطت بساطك، فقد قضيت ما عليك».

فصل

(إعقل وتوكل)

اعلم أن التوكل لا يبطل بالاسباب المقطوعة والمظنونة، مع أن الله قادر على اعطاء المطلوب بدون ذلك، لأن الله سبحانه ربط المسببات بالأسباب، وأبى أن يجرى الأشياء إلا بالأسباب. ولذا لما اهمل الاعرابى بعيره، وقال: توكلت على الله، وقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «إعقلها وتوكل». وقال الصادق عليه السلام: «اوجب الله لعباده أن يطلبوا منه مقاصدهم بالاسباب التي سببها لذلك وأمرهم بذلك». وقال الله تعالى: ﴿**خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾[(١)]. وقال في كيفية صلاة الخوف: ﴿**وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ**﴾[(٢)]. وقال: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ**﴾[(٣)]. وقال لموسى: ﴿**فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا**﴾[(٤)]. والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء دفعاً للضرر.

وفي الاسرائيليات: «أن موسى بن عمران عليه السلام اعتل بعلة، فدخل عليه بنو اسرائيل، فعرفوا علته، فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرئت، فقال: لا اتداوى حتى يعافينى الله من غير دواء. فطالت علته، فاوحى الله اليه: وعزتى وجلالى! لا ابرؤك حتى تتداوى بما ذكره لك. فقال لهم: داوونى بما ذكرتم. فداووه، فبرىء. فاوجس

---

(١) النساء، الآية: ٧١.

(٢) النساء، الآية: ١٠٢.

(٣) الانفال، الآية: ٦٠.

(٤) الدخان، الآية: ٢٣.

في نفسه من ذلك، فاوحى الله تعالى اليه: أردت أن تبطل حكمتى بتوكلك على، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيرى؟». وروى: «أن زاهداً من الزهاد، فارق الأمصار وأقام في سفح جبل، فقال: لا اسأل احداً شيئاً حتى يأتينى ربى برزقى. فقعد سبعاً، فكاد يموت، ولم يأته رزق، فقال: يا رب! إن احييتنى فأتنى برزقى الذي قسمت لى، وإلا فاقبضنى اليك. فاوحى الله تعالى اليه: وعزتى وجلالى! لا أرزقك حتى تدخل الأمصار، وتقعد بين الناس. فدخل المصر فأقام، فجاء هذا بطعام، وهذا بشراب، فاكل وشرب. فاوجس في نفسه ذلك، فاوحى الله اليه: أردت أن تذهب حكمتى بزهدك في الدنيا، أما علمت انى ارزق عبدى بايدى عبادى احب الي من أن ارزقه بيد قدرتى؟».

فصل

(درجات الناس في التوكل)

اعلم أن درجات الناس -كما عرفت- في التوكل مختلفة، بحسب تفاوت مراتبهم في قوة اليقين وضعفه، وفي قوة التوحيد وضعفه:

فمنهم: من كمل ايمانه ويقينه، بحيث سقط وثوقه عن الأسباب بالكلية، وتوجه بشراشره إلى الواحد الحق، ولا يرى مؤثراً إلا هو، وليس نظره إلى غيره اصلا، وقلبه مطمئن ساكن بعنايته، بحيث لا يختلج بباله احتمال أن يكله ربه إلى غيره، ولا يعترى نفسه اضطراب اصلا. فلا بأس لمثله أن يعرض عن الأسباب المقطوعة أو المظنونة بالكلية، لأن الله سبحانه يحفظه ويحرسه ويصلح اموره، ويرزقه من حيث لا يحتسب، سواء حصل الأسباب أم لا، وسواء كسب أم لم يكتسب، إلا أنه ربما لم يترك السبب والكسب ويتبع امرالله فيه، إلا أنه ليس وثوقه إلا بالله دون السبب والكسب. وما ورد من حكايات بعض الكمل من الأولياء، من أنهم يسافرون في البوادى التي لا يطرقها الناس بغير زاد ثقة بالله، ويصل اليهم الرزق، أو لا يتحرزون من

السباع الضارة، أو يغلظون القول بالنسبة إلى أهل الاقتدار من الملوك والسلاطين من دون خوف ومبالاة، اعتماداً على الله، والله سبحانه ينجيهم منهم، كانوا منهم: أى من الكاملين في التوكل. قال الصادق عليه السلام: «أبى الله عز وجل أن يجعل ارزاق المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون». وإنما خصه بالمؤمنين، لأن كمال الايمان يقتضى ألا يثق صاحبه بالأسباب وأن يتوكل على الله عز وجل وحده. وكمال الايمان إنما يكون لصاحب العلم المكنون من الأنبياء والأولياء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومنهم: من لم يبلغ قوة ايمانه ويقينه حداً تغيب عن نظره الأسباب والوسائط، ويكون مقصور الالتفات إلى جناب الحق. فهذا هو الذي لا ينبغى له أن يعرض عن الأسباب ويتركها، لأن مثله ليس له المظنة التي توصله إلى المقصد بدون الوسائط: اعنى قوة التوكل على الله واليقين به سبحانه.

فصل
(تفنيد زعم)

بعض الناس زعم: أن حق التوكل أن يكتفى بالأسباب الخفية عن الأسباب الجلية، كأن يسافر في البوادى التي لا يطرقها الناس بغير زاد، بعد أن راض نفسه على جوع الأسبوع وما يقاربه، بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب، واضطراب نفس، وتشويش خاطر، وفتور في ذكر الله، وبعد أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق له، وأن يوطن نفسه على أنه إن مات جوعا كان خيراً له في الآخرة.

وكأن يجلس في مسجد أو بيته ويترك الكسب، ويتفرغ للعبادة، والفكر والذكر، واستغرق وقته بها، بحيث لايستشرف نفسه إلى الناس في انتظاره ومن يدخل فيحمل إليه شيئاً، بل يكون قوى القلب في الصبر والاتكال على الله. وهذا محض الخطأ، إذ من جاهد نفسه وراضها بحيث يصبر على جوع الاسبوع، ويمكنه التقوت

بالحشيش، صارت الأسباب له جلية. فإن عدم الحاجة احد الغنائين. ثم إن كان اعتماده - حينئذ - على صبره وتمكنه من التقوت بالحشيش، فاين التوكل؟ وإن كان وثوقه بالله وحده، فليقم في بلده مع الأسباب، كما أمر الله به في الشرع. وأما توطين نفسه باختياره على الموت، فممنوع عقلا، ومحرم شرعا. قال الله سبحانه:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1].

وأما الجالس في بيته، التارك لكسبه، يعبدالله من دون طلب، فهو أيضاً قد ترك متابعة امر الله. قال الصادق عليه السلام: «إن من يقوته أشد عبادة منه». وربما يكون مثله كلا على الناس، فإن حاله ينادى بالبؤس واليأس، بل هو ضرب على تواطن الناس وتعرض للذل. وبالجملة لا مدخل لخفاء الأسباب وجلائها في التوكل، بعد ما تقرر أن معناه الثقة بالله وحده، لا بالاسباب، فسواء وجود الأسباب وفقدها وجلاؤها وخفاؤها.

فصل
(طريق تحصيل التوكل)

الطريق إلى تحصيل التوكل - بعد تقوية التوحيد والاعتقاد، بأن الأمور بأسرها مستندة إليه سبحانه، وليس لغيره مدخلية فيها - أن يتذكر الآيات والأخبار المذكورة الدالة على فضيلته ومدحه، وكونه باعث النجاة والكفاية، ثم يتذكر أن الله سبحانه خلقه بعد أن لم يكن موجوداً، واوجده من كتم العدم، وهيأ له ما يحتاج اليه، وهو أرأف بعباده من الوالدة بولدها، وقد ضمن بكفاية من توكل عليه، فيستحيل أن يضيعه بعد ذلك ولا يكفيه مؤنته، ولا يوصل إليه ما يحتاج اليه، ولا يدفع عنه مايؤذيه، لتقدسه من العجز والنقص والخلف والسهو. وينبغى أن يتذكر الحكايات

---

(١) البقرة، الآية: ١٩٥.

التي فيها عجائب صنع الله في وصول الأرزاق إلى صاحبها، وفي دفع البلايا والاسواء عن بعض عبيده، والحكايات التي فيها عجائب قهر الله في اهلاك اموال الأغنياء واذلال الأقوياء، وكم من عبد ليس له مال وبضاعة ويرزقه الله بسهولة، وكم من ذى مال وثروة هلكت بضاعته أو سرقت وصار محتاجا، وكم من قوى صاحب كثرة وعدة وسطوة صار عاجزاً ذليلا بلا سبب ظاهر، وكم من ذليل عاجز صار قوياً واستولى على الكل. ومن تأمل في ذلك، يعلم أن الامور بيد الله، فيلزم الاعتماد عليه والثقة به. والمناط أن يعلم أن الأمور لوكانت بقدرة الله سبحانه من غير مدخلية للاسباب والوسائط فيها، فعدم التوكل عليه سبحانه والثقة بغيره غاية الجهل، وإن كانت لغيره سبحانه من الوسائط والاسباب مدخلية، فالتوكل من جملة أسباب الكفاية وإنجاح الامور، إذ السمع والتجربة شاهدان بأن من توكل على الله وانقطع إليه كفاه الله كل مؤنة. فكما أن شرب الماء سبب لازالة العطش، وأكل الطعام سبب لدفع الجوع، فكذا التوكل سبب رتبه مسبب الاسباب لإنجاح المقاصد وكفاية الامور. وعلامة حصول التوكل، ألا يضطرب قلبه، ولا يبطل سكونه بفقد اسباب نفسه وحدوث اسباب ضره. فلو سرقت بضاعته، أو خسرت تجارته، أو تعوق أمر من اموره، كان راضياً به، ولم تبطل طمأنينته، ولم تضطرب نفسه، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً. فإن من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب بفقده، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه واطمأن به.

ومنها:

الكفران
(وضده الشكر)

الشكر ـ فضيلة الشكر ـ الشكر نعمة يجب شكرها ـ المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه ـ اقسام النعم واللذات ـ الأكل ـ لا فائدة في الغذاء مالم يكن بشهوة وميل

ـ عجائب المأكولات ـ حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب ـ تسخير الله التجار لجلب الطعام ـ نعم الله في خلق الملائكة للانسان ـ الأسباب الصارفة للشكر ـ طريق تحصيل الشكر ـ الصحة خير من السقم.

* * *

وبعد ما تعرف حقيقة الشكر، وكونه متعلقاً باى القوى، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران وكونه من رذائل القوى.

فنقول: الشكر هو عرفان النعمة من المنعم، والفرح به، والعمل بموجب الفرح باضمار الخير، والتحميد للمنعم. واستعمال النعمة في طاعته. أما المعرفة، فبأن تعرف أن النعم كلها من الله، وأنه هو المنعم، والوسائط مسخرات من جهته. ولو انعم عليك أحد، فهو الذي سخره لك، وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطراً إلى الايصال اليك، فمن عرف ذلك، حصل أحد اركان الشكر لله، وربما كان مجرد ذلك شكراً، وهو الشكر بالقلب. كما روى: «أن موسى قال في مناجاته: إلهي! خلقت آدم بيدك، وأسكنته جنتك، وزوجته حواء أمتك، فكيف شكرك؟ فقال: علم أن ذلك مني، فكانت معرفته شكراً».

ثم هذه المعرفة فوق التقديس وفوق بعض مراتب التوحيد، وهما داخلان فيها. إذ التقديس تنزيهه سبحانه عن صفات النقص، والتوحيد قصر المقدس عليه، والاعتراف بعدم مقدس سواه، وهذه المعرفة هي اليقين بأن كل ما في العالم موجود منه، والكل نعمة منه، فينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله، فله عشر حسنات، ومن قال: لا اله الا الله، فله عشرون حسنة، ومن قال: الحمد لله، فله ثلاثون حسنة». فسبحان الله: كلمة تدل على التقديس، ولا إله إلا الله: كلمة تدل على التوحيد، والحمد لله: كلمة تدل على معرفة النعم من الواحد الحق. ولا تظنن أن هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير عقد القلب بمعانيها، بل هي بازاء

الاعتقاد بمعانيها التي هي المعارف المعدودة من أبواب الايمان واليقين. واما الفرح بالمنعم، مع هيئة الخضوع والتواضع، فهو ايضاً من اركان الشكر. بل كما أن المعرفة شكر قلبي برأسه، فهو ايضاً في نفسه شكر بالقلب، وانما يكون شكراً إذا كان فرحه بالمنعم أو بالنعمة لا من حيث إنه نعمة ومال ينتفع به ويلتذ منه في الدنيا، بل من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب من المنعم، والنزول في جواره، والنظر إلى وجهه على الدوام، وأمارته ألايفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة الآخرة ومعينه عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصده عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لذاتها، بل من حيث إنها توصله إلى مجاورة المنعم وقربه ولقائه. وأما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم، فهو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه، وهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح. أما المتعلق بالقلب فقصده الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما المتعلق باللسان فإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه. وأما المتعلق بالجوارح، فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى أن من جملة شكر العينين أن يستر كل عيب يراه من مسلم، ومن جملة شكر الاذنين أن يستر كل عيب يسمعه من مسلم، فيدخل هذا وامثاله في جملة شكر نعمة هذه الأعضاء. بل قيل: من كفر نعمة العين ولم يستعملها فيما خلقت لأجله كفر نعمة الشمس أيضاً، إذ الابصار انما يتم بها، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، ويقى بهما ما يضره فيهما. بل المراد من خلق السماء والأرض وخلق الدنيا واسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله، ولا وصول إليه إلا بمحبته والانس به في الدنيا، والتجافي عن الدنيا وغرورها ولذاتها وعلائقها، ولا انس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الذكر والفكر إلا ببقاء البدن، ولا يبقى البدن إلا بالارض والماء والهواء والنار، ولا يتم ذلك إلا بخلق الارض والسماء وخلق سائر الاشياء، وكل ذلك لاجل البدن. والبدن مطية النفس. والنفس الراجعة إلى الله هي المطمئنة بطول العبادة

والمعرفة. فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الاسباب التي لا بد منها لاقدامه على تلك المعصية. وإذا عرفت حقيقة الشكر، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران، فإنه عبارة عن الجهل بكون النعم من الله، أو عدم الفرح بالمنعم والنعمة من حيث ايصالها إلى القرب منه، أو ترك استعمال النعمة فيما يحبه المنعم. أو استعمالها فيما يكرهه.

ثم بما ذكرناه وإن ظهر أن حقيقة الشكر ملتئمة من الأمور الثلاثة، إلا أنه قد يطلق الشكر على كل واحد ايضاً، كما قال الصادق عليه السلام: «شكر كل نعمة، وإن عظمت، أن تحمد الله»، وقال عليه السلام: «شكر النعم اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين». وسئل عنه عليه السلام: «هل للشكر حدّ إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال: نعم! قيل: ما هو؟ قال: يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال، وإن كان فيما انعم عليه في ماله حق أدّاه. ومنه قوله عز وجل:

﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾[1]. ومنه قوله تعالى: **﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾**[2]. وقوله: **﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾**[3].

وقال عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ورد عليه أمر يسرّه، قال: الحمدلله على هذه النعمة. وإذا ورد عليه أمر يغتم به، قال: الحمد لله على كل حال». وقال عليه السلام: «إذا أصبحت وأمسيت، فقل عشر مرات: اللهم ما أصبحت بى من نعمة أو عافية في دين أو دنيا، فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر بها عليّ يا رب، حتى ترضى وبعد الرضا. فإنك إذا قلت ذلك، كنت قد أديت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة». وفي رواية: «كان نوح عليه السلام يقول ذلك إذا أصبح، فسمى

(١) الزخرف، الآية: ١٣.

(٢) المؤمنون، الآية: ٢٩.

(٣) الإسراء، الآية: ٨٠

بذلك عبداً شكوراً». وقال عليه السلام: «إذا ذكر أحدكم نعمة الله، فليضع خده على التراب شكراً لله، فإن كان راكباً فلينزل وليضع خده على التراب، وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه[١]، وإن لم يقدر فليضع خده على كفه، ثم ليحمد الله على ما انعم عليه». وروى: «أن الصادق عليه السلام قد ضاعت دابته، فقال لئن ردها الله عليّ لأشكرن الله حق شكره». قال الراوي: فما لبث أن أوتى بها، فقال: «الحمدلله». فقال قائل له: جعلت فداك! أليس قلت لأشكرن الله حق شكره؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: «ألم تسمعني قلت: الحمدلله؟»[٢]. ثم الشكر باللسان لاظهار الرضا من الله، ولذا أمر به. وقد كان السلف يتساءلون بينهم، ونيتهم استخراج الشكر لله، ليوجر كل واحد من الشاكر والسائل. وقد روى: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل: كيف أصبحت؟ فقال: بخير. فأعاد عليه السؤال، فأعاد عليه الجواب، فأعاد السؤال ثالثة، فقال: بخير أحمد الله وأشكره. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: هذا الذي أردت منك».

(تنبيه) لا ريب في أن الجزء الأول من الشكر ـ اعنى معرفة النعم من الله ـ من متعلقات العاقلة وفضائلها. والثانى ـ اعنى إلفرح للنفس ـ إن كان من النعم العقلية الروحانية، يكون متعلقاً بالعاقلة ايضاً، وإن كان لأجل وصول نعمة الغلبة والاستيلاء ـ مثلا ـ على عدوّ ظالم، يكون متعلقاً بالقوة الغضبية، وإن كان من نعمة المال والأولاد، يكون متعلقاً بالقوة الشهوية.

والجزء الثالث ـ اعنى العمل بمقتضى الفرح الحاصل من معرفة المنعم ـ فهو من ثمرات الحب للمنعم والخوف من زوال نعمته. وبهذا يظهر: أن الشكر والكفران من متعلقات القوى الثلاث، والأول من فضائلها إذا امتزجت وتسالمت، والثانى من رذائلها.

---

(١) القربوس ـ بفتحتين ـ: حنو السرج، أى قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره.

(٢) هذه الرواية مذكورة في (اصول الكافى): ج ٢ ـ باب الشكر. وفي (الوافى): ٣/ ٣٢٤ ـ باب الشكر. إلا أن المنقول في نسخ (جامع السعادات) فيه اختلاف كثير عما في الموضعين، فصححناها عليهما.

فصل

(فضيلة الشكر)

الشكر أفضل منازل الأبرار، وعمدة زاد المسافرين إلى عالم الأنوار، وهو موجب لدفع البلاء وازدياد النعماء. وقد ورد به الترغيب الشديد، وجعله الله سبباً للمزيد. قال الله سبحانه:

﴿مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾(١). وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٢). وقال: ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾(٣). وقال: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٤).

ولكونه غاية الفضائل والمقامات، ليس لكل سالك أن يصل اليه، بل ليس الوصول إليه إلا لأوحدى من كمل السالكين. ولذا قال الله رب العالمين:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾(٥).

وكفى به شرفاً وفضلاً، أنه خلق من اخلاق الربوبية، كما قال الله سبحانه:

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾(٦). وهو فاتحة كلام أهل الجنة وخاتمته، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾(٧). وقال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٨).

وقال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر، له من الاجر كأجر الصائم المحتسب.

---

(١) النساء، الآية: ١٤٧.

(٢) ابراهيم، الآية: ٧.

(٣) البقرة، الآية: ١٥٢.

(٤) آل عمران، الآية: ١٤٥.

(٥) سبأ، الآية: ١٣.

(٦) التغابن، الآية: ١٧.

(٧) الزمر، الآية: ٧٤.

(٨) يونس، الآية: ١٠.

والمعافي الشاكر، له من الاجر كأجر المبتلى الصابر. والمعطى الشاكر، له من الاجر كأجر المحروم القانع». وقال ﷺ: «إن للنعم أوابد كأوابد الوحش، فقيدوها بالشكر». وقال ﷺ: «ينادى مناد يوم القيامة: ليقوم الحمادون! فيقوم زمرة. فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة». فقيل: من الحمادون؟ فقال: «الذين يشكرون الله على كل حال». وقال السجاد عليه السلام: «إن الله سبحانه يحب كل عبد حزين، ويحب كل عبد شكور». وقال الباقر عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله! لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة! ألا أكون عبداً شكوراً؟... قال: وكان يقوم على أطراف اصابع رجليه، فأنزل الله تعالى: طه! ما انزلنا عليك القرآن لتشقى». وقال الصادق عليه السلام: «ما انعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه، فتم كلامه، حتى يؤمر له بالمزيد». وقال عليه السلام: «ثلاث لا يضر معهن شيء: الدعاء عند الكرب، والاستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة»(١). وقال عليه السلام: «في كل نفس من انفاسك شكر لازم لك، بل ألف أو أكثر، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله تعالى من غير علة يتعلق القلب بها دون الله عز وجل، أو الرضا بما اعطى، وألا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من امره ونهيه بسبب نعمته. فكن لله عبداً شاكراً على كل حال، تجد الله رباً كريماً على كل حال، ولو كان عند الله تعالى عبادة تعبد بها عباده المخلصون أفضل من الشكر على كل حال، لاطلق لفظة منهم عن جميع الخلق بها، فلما لم يكن أفضل منها، خصها من بين العبادات، وخص أربابها، فقال: (وقليل من عبادى الشكور). وتمام الشكر الاعتراف بلسان السرّ، خاضعاً لله بالعجز عن بلوغ أدنى شكره، لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها، وهي اعظم قدراً وأعز وجوداً من النعمة التي من أجلها وفقت

---

(١) صححنا الأحاديث على (اصول الكافى): ج ٢، باب الشكر. وعلى (البحار): مج ١٥: ١٣٢/ـ ١٣٥، باب الشكر.

له، فيلزمك على كل شكر شكر اعظم منه، إلى ما لا نهاية له، مستغرقاً في نعمه، قاصراً عاجزاً عن درك غاية شكره، وأنى يلحق العبد شكر نعمة الله، ومتى يلحق صنيعه بصنيعه، والعبد ضعيف لا قوة له أبداً إلا بالله عز وجل، والله غنى عن طاعة العبد قوى على مزيد النعم على الأبد، فكن لله عبداً شاكراً على هذا الأصل، ترى العجب»[١]. ثم كما أن الشكر من المنجيات الموصلة إلى سعادة الأبد وزيادة النعمة في الدنيا، فضده ـ اعنى الكفران ـ من المهلكات المؤدية إلى شقاوة السرمد وعقوبة الدنيا وسلب النعم. قال الله سبحانه:

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٣].

وقال الصادق عليه السلام: «اشكر من أنعم عليك، وانعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت. الشكر زيادة في النعم، وأمان من الغير، أي من التغيير».

فصل
(الشكر نعمة يجب شكرها)

لما كانت حقيقة الشكر عبارة عن عرفان كل النعم من الله مع صرفها في جهة محبة الله، فالشكر على كل نعمة أن تعرف كونها من الله وتصرفها من جهة محبته. ولا ريب في أن هذه المعرفة والصرف أيضاً نعمة من الله، إذ جميع ما نتعاطاه باختيارنا نعمة من الله، لأن جوارحنا، وقدرتنا، وارادتنا، ودواعينا، وافاضة المعارف علينا، وسائر الأمور التي هي أسباب حركاتنا، بل نفس حركاتنا، من الله. وعلى هذا،

---

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب السادس وعلى (سفينة البحار): ١/ ٧١٠.

(٢) النحل، الآية: ١١٢.

(٣) الرعد، الآية: ١٢.

فالشكر على كل نعمة نعمة أخرى من الله يحتاج إلى شكرآخر، وهو أن يعرف أن هذا الشكر ايضاً نعمة من الله سبحانه، فيفرح به ويعمل بمقتضى فرحه. وهذه المعرفة والفرح تحتاج إلى شكرآخر. وهكذا، فلابد من الشكر في كل حال، وليس يمكن أن تنتهى سلسلة الشكر إلى ما لا يحتاج إلى شكر. فغاية شكر العبد أن يعرف عجزه عن اداء حق شكره تعالى، إذ عرفان عجزه مسبب عن عرفان جميع النعم، حتى شكره من الله، وهذا غاية ما يمكن للعبد. ويشهد بذلك ما روى: «أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام: يا موسى! اشكرنى حق شكرى. فقال: يا رب! كيف اشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت انعمت به علي؟ قال: يا موسى! الآن شكرتنى، حيث علمت أن ذلك منى». وكذلك أوحى ذلك إلى داود، فقال: «يا رب! كيف اشكرك وانا لا استطيع أن اشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك». وفي لفظ آخر: «وشكرى لك نعمة اخرى منك، ويوجب علي الشكر لك، فقال: إذا عرفت هذا فقد شكرتنى». وفي خبر آخر: «إذا عرفت أن النعم منى، رضيت عنك بذلك شكراً». وروى: «أن السجاد عليه السلام كان إذا قرأ هذه الآية (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يقول: سبحان من لم يجعل في احد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها!». كما لم يجعل في احد من معرفة ادراكه اكثر من العلم بانه لا يدركه، فشكره تعالى معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره، فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً، كما علم العارفين بأنهم لا يدركونه، فجعله ايمانا، علماً منه أنه فقد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك، فإن شيئاً من خلقه لا يبلغ مدى عبادته، فكيف يبلغ مدى عبادته من لامدى له ولاكيف؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقال أبو الحسن عليه السلام: «من حمد الله على النعمة فقد شكره، وكان الحمد لله افضل من تلك النعمة»[1]، يعنى أنه نعمة فوق

---

(١) صححنا الروايات الثلاث على (اصول الكافى): ج ٢، باب الشكر. وعلى (الوافى): ٣/ ٣٢٤، باب الشكر.

تلك النعمة، يستدعى شكراً آخر.

فصل

(المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه)

لما عرفت أن الشكر عبارة عن استعمال نعم الله فيما يحبه، والكفران عبارة عن نقيض ذلك ـ اعنى ترك استعمالها فيه أو استعمالها فيما يكرهه ـ، فلابد من معرفة ما يحبه وما يكرهه، وتمييز محابه عن مكارهه، حتى يتمكن من اداء الشكر وترك الكفران، لتوقفهما على معرفتهما وتمييزهما. وهذا التمييز والتعريف له مدركان:

احدهما ـ الشرع، فإنه كشف عن جميع ما يحبه وما يكرهه، وعبر عن الاول بالواجبات والمندوبات، وعن الثانى بالمحرمات والمكروهات. فمعرفة ذلك موقوفة على معرفة جميع احكام الشرع في افعال العباد، فمن لم يطلع على حكم الشرع في جميع افعاله، لم يمكنه القيام بحق الشكر.

وثانيهما ـ العقل والنظر بعين الاعتبار، فإن العقل متمكن ـ في الجملة ـ من أن يدرك بعض وجوه الحكم في بعض الموجودات. فإن الله سبحانه ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكم كثيرة، وتحت كل حكمة مقصود ومصلحة، وهذا المقصود والمصلحة هو محبوب الله تعالى. فمن استعمل كل شيء على النحو الذي يؤدى إلى المقاصد المطلوبة وعلى الجهة التي خلق لها فقد شكر نعم الله تعالى، وإن استعمل شيئاً على النحو الذي لم يؤد إلى المقصودة منه أو في جهة غير الجهة التي خلق لها، فقد كفر نعمة الله.

ثم العقل لا يتمكن من معرفة كل حكمة مطلوبة من كل شيء، إذ الحكم المقصودة من الأشياء، إما جلية أو خفية. أما الجلية: كحكمة حصول الليل والنهار في وجود الشمس، وحكمة انتشار الناس وسكونهم في وجود الليل والنهار، وحكمة انشقاق الأرض بانواع النبات في وجود الغيم ونزول الأمطار، وحكمة الإبصار في

العين، والبطش في اليد، والمشى في الرجل، وحصول الأولاد، وبقاء النسل في آلات التناسل وخلق الشهوة، وحكمة المضغ والطحن في خلق الأسنان وأمثال ذلك.
وأما الحكم الخفية: كالحكم التي في خلق الكواكب السيارة والثابتة، واختصاص كل منها بقدر معين وموضع خاص، والحكم التي في بعض الاعضاء الباطنية للحيوان، من الامعاء والمرارة والكلية واحاد العروق والاعصاب والعضلات، وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظة وغير ذلك. فهذه الحكم وأمثالها لا يعرفها كل أحد، ومن يعرف منها شيئاً فلا يعرف إلا قدراً يسيراً. فإن جميع اجزاء العالم، سماءه وكواكبه، وما فيها من الأوضاع والحركة والاختصاصات، وعناصره من كثرة النار والهواء والماء والارض، وما فيها من البحار والجبال والرياح، والمعادن والنبات والحيوان، لا تخلو ذرة من ذراته من حكم كثيرة من عشرة إلى الف أو اكثر، وقليل منها جلية، واكثرها دقيقة خفية، وبعضها متوسط في الجلاء والخفاء يعرفها المتفكرون في خلق السماوات والأرض، واكثر الحكم الدقيقة مما لا يعرفها غير خالقها وموجدها. ثم ما عدا الانسان من الاشياء المجردة والمادية والروحانية والجسمانية، جارية على وفق الحكمة، ومستعملة ذواتها واجزاؤها وما يتعلق بها على الوجه الذي هو مقتضى المصلحة المقصودة منها. وأما الانسان، فلكونه محل الاختيار ومجراه، فقد يجرى ويستعمل الأشياء التي يتمكن من استعمالها على خلاف ذلك، فيكون كافراً بنعمة الله سبحانه. فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة الله في اليد، إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه، ويأخذ ما ينفعه، لا ليهلك به غيره. ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين، لانها خلقت ليبصر بها ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقى بها ما يضره فيهما. ومن ادّخر الدراهم والدنانير وحبسهما فقد كفر نعمة الله فيهما، لانهما حجران لا منفعة ولاعوض في أعيانهما، وإنما خلقهما الله تعالى ليكونا حاكمين يحصل بهما التعديل والمساواة والتقدير بين سائر الاموال من الاعيان المتنافرة المتباعدة، فهما عزيزان في أنفسهما. ولا غرض

في اعينهما. ونسبتهما إلى سائر الاموال نسبة واحدة. فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء، لاكمن ملك ثوباً، فانه لا يملك إلا الثوب. فان احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب، إذ لا غرض له في ذاته، بخلاف النقدين، فانهما من حيث الصورة كأنهما ليسا بشيء، ومن حيث المعنى كأنهما كل الشيء. والأشياء إنما تستوى نسبتها إلى المختلفات ـ إذا لم يكن لهاصورة خاصة تقيدها بخصوصها ـ كالمرآة لا لون لها وتحكى كل لون، وكالحرف لا معنى لها في نفسها، بل تظهر لها المعانى في غيرها، وكذلك النقدان، لا غرض فيهما مع كونهما وسيلة إلى كل غرض. فالحكمة في خلقهما أن يحكما بين الأموال بالعدل، وتعرف بهما المقادير المختلفة، وتقوم بهما الأشياء المتباينة، ويحصل التوسل بهما إلى سائر الأموال. فيلزم اطلاقهما لتداولهما الأيدى، وتحصل بهما التسوية في تبادل الأعيان والمنافع المتخالفة، فمن ادخرهما وحبسهما فقد ظلمهما، وأبطل الحكمة فيهما، وكفر نعمة الله فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن، ومن لم يدخرهما ولم يتصرف أزيد مما يحصل به التوصل إلى ما يحتاج، وانفق الزائد في سبيل الله، فهو الذي استعملهما على وفق الحكمة وشكر نعمة الله فيهما. ولما عجز أكثر الناس عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحاتهما في فائدتهما وحكمتهما بخط إلهى لا حرف فيه ولا صوت، أخبرهم الله عن ذلك بقوله:

﴿وَ ٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَ ٱلْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١).

وبما ذكرنا من وجه الحكمة فيهما، يظهر أن من اتخذ الأوانى منهما فقد كفر نعمة الله فيهما ايضاً، وكذا من عامل معاملة الربا فيهما فقد كفر النعمة وظلم، لأنهما إنما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما، اذ لا غرض في عينهما، فإذا اتجر في عينهما فقد

(١) التوبة، الآية: ٣٤.

اتخذهما مقصوداً لأنفسهما على خلاف وضع الحكمة. وكذلك الحكمة في خلق الاطعمة أن يغتذى بها، فلا ينبغى أن تصرف عن جهتها وتقيد في الايدى، بل اللازم أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج. ولذا ورد في الشرع حرمة الاحتكار والمنع عن معاملة الربا في الاطعمة، لان ذلك يوجب صرفها عن الحكمة المقصودة منها. وإذا عرفت ذلك، فقس عليه جميع افعالك واعمالك وحركاتك وسكناتك، فإن كل فعل يصدر منك إما شكر أو كفران لا يتصور أن ينفك عنهما، مثلا لو استنجيت باليمين، فقد كفرت نعمة اليدين، إذ خلق الله اليدين وجعل إحداهما أقوى، واستحق الاقوى لرجحانه التفضيل، وتفضيل الناقص عليه عدول عن العدل، وهذا التفضيل إنما يتصور بأن تصرف الاقوى في الافعال الشريفة، كأخذ المصحف وأكل الطعام، وتصرف الاضعف في الاعمال الخسيسة، كازالة النجاسة، فمن خالف ذلك فقد عدل عن العدل وأبطل الحكمة وكفر النعمة. وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت، لان الخف وقاية للرجل، فللرجل فيه حظ، والبداء في الحظوظ ينبغى أن تكون بالاشرف، وهو العدل والعمل على وفق الحكمة، فخلافه ظلم وكفران. وكذلك إن استقبلت القبلة عند قضاء الحاجة، فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم، لانه خلق الجهات متعددة متسعة، وشرّف بعضها بأن وضع فيه بيته، فينبغى استقباله بالأفعال الشريفة، كالصلاة والجلوس للذكر والاغتسال والوضوء، دون الافعال الخسيسة، كقضاء الحاجة ورمى البزاق، فمن قضى حاجته أو رمى بزاقه إلى جهة القبلة فقد ظلمها وكفر نعمة الله. وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة مهمة، ومن غير غرض صحيح، فقد كفر نعمة الله في خلق الاشجار وفي خلق اليد. أما اليد فلأنها لم تخلق للعبث، بل للطاعة المعينة عليها. وأما الشجر، فلان الله تعالى خلقه، وخلق له العروق وساق إليه الماء، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده، مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدالة. نعم إن كان

له غرض صحيح في كسره فله ذلك. إذ الشجر والحيوان جعلا فداءين لاغراض الانسان، فإنهما جميعاً فانيان هالكان. فافناء الأخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً. وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(١).

ثم هذه الافعال المتصفه بالكفران، بعضها يوجب نقصان القرب وانحطاط المنزلة، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو افق الشياطين. ولذلك يوصف بعضها ـ في لسان الفقه ـ بالكراهة وبعضها بالحضر. وقد سومح في الفقه حيث جعل فيه بعض هذه المكاره مكروهة غير محظورة، مع أن جميعها عدول عن العدل، وكفران للنعمة، ونقصان عن الدرجة المبلغة إلى القرب، لأن الخطاب به إنما هو إلى العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام، وقد انغمسوا في ظلمات اعظم من أن تظهر امثال هذه الظلمات بالاضافة إليها. فإن المعاصى كلها، ظلمات، إلا أن بعضها فوق بعض، فيتمحق بعضها في جنب البعض. ولذا ترى أن السيد يعاتب عبده إذا استعمل سكينه بغير اذنه، ولكن لو قتل بهذا السكين أعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكاية في نفسه. ولذا جميع هذه المكاره موصوفة عند ارباب القلوب بالحظر، ولا يتسامحون في شيء مما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب. حتى نقل: «ان بعضهم جمع أكراراً من الحنطة ليتصدق بها، فسئل عن سببه فقال: لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً، فأريد أن اكفره بالصدقة».

(١) الجاثية، الآية: ١٣.

فصل
(أقسام النعم واللذات)

اعلم أن النعمة عبارة عن كل خير ولذة وسعادة، بل كل مطلوب ومؤثر. وهي تنقسم إلى مؤثر لذاته لا لغيره، أي تكون غاية مطلوبة لذاتها ليس فوقها غاية اخرى، وهي مخصوصة بسعادة الآخرة التي لا انقضاء لها، اعنى لذة النظر إلى وجه الله، وسعادة لقائه، وسائر لذات الجنة، من البقاء الذي لا فناء له، والسرور الذي لا غم فيه، والعلم الذي لا جهل معه، والغنى الذي لا فقر بعده، وغير ذلك. فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية اخرى مقصودة وراءها، بل تطلب لذاتها، وهذه هي النعمة الحقيقية واللذة الواقعية، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة»، وغالب هذه النعمة والسعادة وأقواها وأشرفها هي اللذة والبهجة المرضية العقلية دون الجسمانية ـ كما لا يخفى ـ، فيختص بادراكها العقل، ولا حظّ للسمع والبصر والشم والبطن والفرج فيها. وإلى ما يقصد لغيره، أي تكون مطلوبة لأجل الغاية المطلوبة لذاتها ووسيلة إليها، سواء أكانت مقصودة لذاتها ايضاً أم لا. وهي تنقسم إلى أربعة اقسام:

القسم الاول ـ وهو الأقرب الأخص: الفضائل النفسية المذكورة في هذا الكتاب، ويجمعها العلم والعفة والشجاعة والعدالة، وهذه مع كونها لذيذة في نفسها، تكون وسيلة إلى النعمة التي هي غاية الغايات بلا توسط وسيلة اخرى. ولذلك قلنا: هى اقرب الوسائل وأخصها. وأشرفها العلم، وأشرف أفراد العلم: العلم بالله وصفاته وملائكته ورسله، وأحوال النشأة الآخرة، وسائر أفعاله، وعلم المعاملة الراجع إلى علم الاخلاق، إذ هو الذي يؤدى إلى السعادة الحقيقية بلا توسط شيء آخر، وسائر العلوم إنما هي مقصودة من حيث كونها وسائل إلى هذا العلم، وهذه الفضائل لذيذة في الدنيا والآخرة نافعة فيهما، أي تؤدى إلى الراحة فيهما، وجميلة على الاطلاق، أى تستحسن في جميع الأحوال. وضدهما ـ اعنى الجهل والأخلاق السيئة ـ ضارة

مؤلمة في الدارين، قَبيحة على الاطلاق. وسائر الصفات ليست جامعة لهذه الأوصاف. فإن أكل لذائذ الأطعمة وطيباتها يوجب اللذة والنفع، أى حصول الراحة في الحال، ولكنه ضار في المال، وترك الشهوات بعكس ذلك.

ثم لذة المعرفة وفضائل الأخلاق دائمة لازمة لا تزول أبداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وعقلية يختص بادراكها العقل دون سائر الحواس. وأما غيرها من اللذات، فبعضها مما يشترك فيه الانسان وبعض الحيوانات، كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء، وهذه اللذة موجودة في الأسد والنمر وبعض أخر من الحيوانات. وبعضها مما يشترك فيه الانسان وسائر الحيوانات، كلذة البطن والفرج، وهي أخس اللذات، ولذلك اشترك فيها كل مادبّ ودرج، حتى الديدان والحشرات. فمن جاوز هذه اللذة، تشبثت به لذة الغلبة والاستيلاء، فإن جاوزها أيضاً ارتقى إلى اللذة العقلية، فصار أقرب اللذات عليه لذة المعرفة، لا سيما لذة معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله. وهذه مرتبة الصديقين، ولا ينال تمامها إلا بخروج حب الرئاسة من القلب، وآخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرئاسة والجاه، ولذلك قمعها بالكلية، بحيث لا يقع بها الاحساس قط، يشبه أن يكون خارجا عن مقدرة البشر. نعم ربما غلبت لذة المعرفة في احوال، بحيث لا يقع معها الاحساس بلذة الجاه والرئاسة، إلا أن ذلك لا يدوم، بل تعتريه الفترات، فتعود إلى الحالة البشرية. وعلى هذا، تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام: قلب: لا يحب إلا الله، ولا يستريح إلا إليه، وليس فرحه إلا بزيادة المعرفة والفكر فيه، ولا يسكن إلا بحبه وأنسه. وقلب: أغلب احواله الأنس بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه، ولكن في بعض الأوقات والأحوال يعتريه الرجوع إلى أوصاف البشرية. وقلب: أغلب أحواله التلذذ بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية، وفي بعض الأوقات يتلذذ بالعلم والمعرفة وحب الله والانس به. وقلب: لا يدرى ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله، وإنما لذته بالرئاسات والشهوات. **والأول** ـ إن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية الندور. **والثاني** ـ ايضاً نادر. والسر في ندور هذين

القسمين: أن من انحصرت لذاته بمعرفة الله وحبه وانسه، أو غلب عليه ذلك، فهو من ملوك الآخرة، والملوك هم الأقلون ولا يكثرون. فكما لا يكون الفائق في الملك والاستيلاء في الدنيا إلا نادراً، واكثر الناس دونهم، فكذا في ملك الآخرة فإن الدنيا مرآة الآخرة. إذ الدنيا عالم الشهادة وفي الآخرة عالم الغيب، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة، وهي وإن كانت الثانية في رتبة الوجود، إلا أنها في أمر الرؤية أولى، لأنك ترى صورتك في المرآة أولا، ثم ترى نفسك، فتعرف بالصورة القائمة بالمرآة صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة، فانقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق الرؤية والمعرفة وانقلب المتأخر متقدماً. وهذا النوع من الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم. وكذا عالم الملك والشهادة يحاكى عالم الغيب والملكوت، فمن الناس من لا ينظر في مرآة عالم الشهادة إلا بنظر الاعتبار، فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت، فيسمى عبوره عبرة، وقد أمر الخلق به، فقيل:

﴿فَاعْتَبِرُوا يَـٰأُولِي ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾(١).

ومنهم من عميت بصيرته، فلم يعتبر، فاحتبس في عالم الملك والشهادة، وستفتح إلى حبسه له أبواب جهنم. وأما الثالث ـ فاكثر وجوداً منه. وأما الرابع ـ فدار الدنيا طافحة به، لقصور أكثر الناس عن ادراك لذة العلم، إما لعدم الذوق، إذ من لم يذق لم يعرف ولم يشتق، إذ الشوق فرع الذوق، وذلك إما لقصور فطرتهم وعدم اتصافهم بعد بالصفة التي بها يستلذ العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل، ولا يستلذ إلا باللبن، فهؤلاء ممن يحيى باطنهم بعد كالطفل. وإما لمرض قلوبهم أو موتها بسبب اتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك لذة الشكر، أو الميت الذي سقط عنه الادراك، وهؤلاء كالمرضى أو الأموات بسبب اتباع الشهوات.

---

(١) الحشر، الآية: ٢.

القسم الثاني ـ الفضائل البدنية: وهي أربعة: الصحة، والقوة، وطول العمر، والجمال.

الثالث ـ النعم الخارجة المضيفة بالبدن: وهي: المال، والجاه، والأهل، وكرم العشيرة.

الرابع ـ الأسباب التي تناسب من وجه الفضائل النفسية، ويعبر عنها بالنعم التوفيقية: وهي: هداية الله ورشده، وتسديده، وتأييده. وهذه الجملة مما يتوقف بعضها على بعض، إلى أن ينتهى إلى السعادة التي هي مطلوبة لذاتها. والتوقف إما على سبيل اللزوم والضرورة، كتوقف سعادة الآخرة على الفضائل النفسية والبدنية، وتوقف الفضائل النفسية على صحة البدن، أو على سبيل النفع والاعانة، كتوقف الفضائل النفسية والبدنية على النعم الخارجة. ووجه كونها معينة نافعة في تحصيل العلم وتهذيب الأخلاق وصحة البدن ظاهر. واعانة الجمال في كسب الفضائل النفسية والبدنية مبنى على أن القبيح مذموم، والطباع عنه نافرة، فحاجات الجميل إلى الاجابة أقرب، وجاهه في الصدور أوسع. وأيضاً الغالب دلالة الجمال على فضيلة النفس، لأن نور النفس إذا تم اشراقه تأدى إلى البدن. ولذلك عوّل اصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن. ثم إنا لا نعنى بالجمال ما يحرّك الشهوة، فإن ذلك انوثة، بل نعنى به البراءة عن العيوب والنقص والزيادة، وارتفاع القامة على الاستقامة، مع الاعتدال في اللحم، وتناسب الأعضاء، وتناسب خلقة الوجه، بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه. وأما احتياج الفضائل الخلقية والجسمية والخارجية إلى النعم التوفيقية، فلأن المراد بالتوفيقية هو التآلف بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره، بشرط كون المراد والمقضى سعادة. وبعبارة اخرى: هو توجيه الأسباب نحو المطلوب.

وأما الهداية، فلهامراتب: أوليها: الهداية العامة، وهي إراءة طريق الخير وتعريفه. وثانيتها: الخاصة، وهي الافاضات المتتالية الواردة من الله على بعض

عبيده، نظراً إلى مجاهدتهم. وثالثتها: الهداية المطلقة، وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية، فيهتدى بهما إلى ما لا يهتدى إليه بالعقل. وتوقف تحصيل كل خير وفضيلة، كائناً ما كان، على مساعدة القضاء والقدر، وعلى العلم بطريق الخير، ظاهر.

وأما الرشد، فالمراد به العناية الإلهية، التي تعين الانسان عند توجهه إلى مقاصده، فيقويه على ما فيه صلاحه، ويفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن. وبعبارة اخرى: هو هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها. وقد ظهر احتياج تحصيل الخير والسعادة إليه من مفهومه.

وأما التسديد، فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليصل إليه في أسرع وقت. فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك، والتسديد اعانة ونصرة بتحريك الأعضاء إلى صوب الصواب والسداد. وقد ظهر وجه كون التسديد معيناً في طلب الخير أيضاً من حاق معناه.

وأما التأييد، فإنه جامع للكل، إذ هو عبارةعن تقوية أمره بالبصيرة، فكأنه من داخل، وبقوة البطش ومساعدة الأسباب من خارج. وتقرب منه العصمة، وهي عبارة عن وجود إلهى يسنح في الباطن، يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر، حتى يصير كمانع باطنى غير محسوس يمنع عن الشر. وهو المراد من برهان الرب في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِ﴾[1].

تنبيه

اعلم أن النعم الاخروية، التي هي الغايات المطلوبة لذواتها، وتفصيلها

(١) يوسف، الآية: ٢٤.

وأسبابها وما يتوقف وجودها عليه، إلى أن ينتهى إلى مسبب الأسباب، مما لا يمكن دركها، والعقول البشرية قاصرة عن درك قليلها فضلا عن كثيرها.

وأما الوسائل الأربعة من النعم التي انقسم كل منها أيضاً إلى أربعة أقسام، وصار مجموعها ستة عشر قسما، فيستدعى كل قسم من الستة عشر أسبابا، وتلك الاسباب اسبابا، حتى تنتهى بالآخرة إلى مسبب الأسباب وموجد الكل. والمتفكر يعلم، أن كلا منها يتوقف على نعم وأسباب أخرى متسلسلة خارجة عن حد الاحصاء. فان نعمة الصحة التي من النعم الواقعة في المرتبة المتأخرة تتوقف على أسباب ونعم من جملتها نعمة الأكل، فإن احصاءها وإن لم يكن ممكناً، إلا أنا نشير إلى بعضها على سبيل التلويح دون الاستقصاء، لتقاس عليها البواقى. فنقول:

نعمة الأكل تتوقف على ادراك الغذاء وأسبابه، وعلى شهوة الطعام وميله وارادته وأسبابه، وعلى القدرة إلى تحصيله واسبابه، وعلى وجود أصل الغذاء المأكول وتكوّنه، وعلى اصلاحه بعد وجوده وتكوّنه، وعلى الأسباب الموصلة له إلى كل انسان لو كان بعيداً عنه، وعلى أسباب الطحن والجذب والهضم والدفع وسائر الأفعال الباطنة إلى أن يصير جزء للبدن، وعلى الملائكة الموكلين على فعل من الأفعال المذكورة. فها هي نذكرها اجمالا وتلويحاً في فصول:

فصل
(الأكل)

الأكل يتوقف أولا على ادراك الغذاء المأكول رؤية ولمساً واستشماماً وذوقاً، إذ ما لم يبصره لم يمكنه تمييزه وطلبه، ومالم يلامسه لم يتمكن من درك بعض أوصافه اللازمة في الأكل، وما لم يشمه لم يتشخص ما يكره رائحته عما تطيب رائحته، وربما توقف تحصيله على استشمام رائحته من بعد، لا سيما لبعض الحيوانات، وما لم يذقه لم يدرك أنه موافق أو مخالف له، وبذلك ظهر توقفه على خلق الحواس

المدركة الظاهرة، فخلقها الله سبحانه، ثم، الأسباب التي يتوقف عليها خلق هذه الحواس مما لا تتناهى، فلا نتعرض لبيانها. وبعد ادراك الغذاء ـ على ما ذكر ـ لابد له من قوة أخرى يعرف بها كون الغذاء الذي ذاقه سابقاً ورآه مرة أخرى موافقاً أو مخالفاً، وهذه القوة هي الحس المشترك، الذي يتأدى إليه جميع المحسوسات ويجتمع فيه، فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر ـ مثلا ـ فوجدته مرّاً مخالفاً لك فتركته، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مرّ مالم تذقه، لولا، الحس المشترك، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة، فلابد من حاكم يجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مرّ، فيمتنع عن تناوله ثانياً. وهذه القوة ـ أعنى الحس المشترك ـ يتوقف خلقه على أسباب ونعم لا يمكن احصاؤها، فلتذرها على سنابلها.

ثم الادراك بالحواس الظاهرة والحس المشترك، مما تشترك فيه سائر الحيوانات، ولو انحصر ادراك الانسان أيضاً به لكان ناقصاً. إذ البهيمة تأكل ما تستلذ به في الحال ويضرها في ثانى الحال، فتمرض وتموت، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر، وأما ادراك العواقب فليس لها إليه سبيل. فيتوقف تميز صلاح العواقب وفسادها على قوة أخرى. فخلق الله للانسان العقل، به يدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها في المآل، وبه يدرك كيفية طبخ الأطعمة وتركيبها واعداد أسبابها، فينتفع بعقله في الأكل الذي هو سبب صحته، وهو أخس فوائد العقل وأقل الحكم فيه، إذ الحكم والفوائد المترتبة عليه أكثر من ان تحصى، وأعظم الحكم فيه معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله. والعقل بمنزلة السلطان في مملكة البدن، والحواس الخمس كالجواسيس واصحاب الأخبار والموكلين بنواحي المملكة، وقد وكل كل واحدة منها بامر خاص. فواحدة بأخبار الألوان، واخرى بأخبار الأصوات، وأخرى بأخبار الروائح، وأخرى بأخبار الطعوم، وأخرى بأخبار الحرّ والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة. فهذه الجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة، ويسلمونها

إلى الحس المشترك، وهو قاعد في مقدمة الدماغ، مثل صاحب الكتب والقصص على باب الملك، يجمع القصص والكتب الواردةمن نواحى العالم، ويأخذها ويسلمها إلى العقل الذي هو السلطان مختومة، إذ ليس له إلا أخذها وحفظها، وأما معرفة حقائق ما فيها فليس اليه. ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك، سلم، لأنها آتية إليه مختومة، فيفتشها الملك ويطلع على اسرار المملكة، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها. وبحسب ما يلوح له من الاحكام والمصالح يحرّك الجنود ـ أعنى الأعضاء ـ في الطلب أو الهرب أو إتمام التدبيرات التي تعن له. ثم عجائب حكم العقل والاسباب التي يتوقف خلقه عليها ليس دركها في مقدرة البشر، وهذه ما يتوقف عليه الأكل من الإدراكات وأسبابها.

فصل

(لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل)

إذا أدرك الغذاء، لم يفد فائدة ما لم تكن شهوة له وميل وشوق اليه. إذ لولا الميل إليه لكان ادراكه بأى حس وقوة فرضاً معطلاً. ألا ترى أن المريض يرى الطعام ويدرك أنه أنفع الأشياء له. وقد سقطت شهوته، فلا يتناوله، فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه؟ فيتوقف الاكل على ميل إلى الموافق، ويسمى شهوة، ونفرة عن المخالف، ويسمى كراهة. فخلق الله شهوة الطعام وسلطها على الانسان كالمتقاضى الذي يضطره إلى التناول، وهذه الشهوة لو لم تسكن بعد أخذ قدر الحاجة لأسرفت وأهلكت نفسه، فخلق الله الكراهة عند الشبع لترك الأكل بها، ولم يجعلها كالزرع الذي لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في اسفله حتى يفسد، ولذلك يحتاج إلى آدمى يقدّر غذاءه بقدر الحاجة، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء اخرى. ثم مجرد الميل والشهوة لا يكفى، ما لم تنبعث الداعية إلى تناول الغذاء. فخلق الله تعالى له الارادة ـ أعنى انبعاث النفس إلى تناوله. وربما حصل الاحتياج إلى قوة الغضب ـ ايضاً ـ ليدفع

عن نفسه المؤذى وما يضاده ويخالفه، ومن أراد أن يأخذ منه ما حصله من الغذاء. ثم لكل واحد من الشهوة، والكراهة، والارادة، والغضب، اسباب لا يمكن احصاؤها. ثم بعد ادراك الغذاء وميله وشهوته وارادته، لا يفيد شيئاً من ذلك ما لم يتحقق الطلب والأخذ بالفعل بآلاتهما. فكم من زمن شائق إلى شيء بعيد منه مدرك له مائل إليه مريد له، لا يمكنه أن يمشى إليه لفقد رجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج أو عذر فيهما. فلابد من آلات للحركة، وقدرة في تلك الآلات على الحركة، لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً. فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف اسرارها. فمنها ما هو آلة للطلب، كالرجل للانسان، والجناح للطير، والقوائم للدواب. ومنها ما هو آلة لدفع المؤذى والمانع من طلب الغذاء، كالقرن لبعض الحيوانات، والأنياب لبعض آخر منها، والمخلب لبعض آخر منها، والأسلحة للانسان القائمة مقام هذه الآلة. ومنها ما هو آلة للأخذ والتناول، كاليدين للانسان. ثم لهذه الأعضاء أسباب وحكم خارجة عن الحد والحصر، وقد تقدم قليل من حكمها وعجائبها في باب التفكر.

فصل
(عجائب المأكولات)

عمدة ما يتوقف عليه الأكل وأصله ومناطه، هي الأغذية والأطعمة المأكولة، ولله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى، واسباب متوالية لا تتناهى. والأغذية والادوية من الأطعمة لم يبلغ عددها من الكثرة حداً يمكن احصاؤها وحصرها، فضلا عن بيان عجائبها واسبابها. فنحن نترك الجميع، ونأخذ من جملتها حبة من الحنطة، ونبين بعض أسبابها وحكمها وعجائبها. فنقول:

قد خلق الله في حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك. فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة دون الاغتذاء، لأنه يغتذى بالماء. ولا نتعرض لذكر

آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه، بل نشير إلى لمعة من كيفية اغتذاء الحبة. فنقول:

إن الحبة لا تغتذى بكل شيء، بل يتوقف اغتذاؤها على أرض فيها ماء. ولا بد أن تكون أرضها رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها، فلو تركتها في ارض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء. ثم الهواء لا يتسرّب إليها بنفسه، فلابد من حصول أسباب الريح حتى تحرك الهواء وتضربه وينفذ فيها بقهر وعنف، وإليه الاشارة بقوله تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[1].

وإلقاحها إنما هو ايقاعها الازدواج بين الهواء والماء والأرض. ثم لا يكفى ذلك في إنباته في برد مفرط، فيحتاج إلى حرارة الصيف والربيع. فهذه أربعة اسباب. فإن الماء لا بد أن ينساق إلى ارض الزراعة من البحار والشطوط والأنهار والعيون والسواقى، فانظر كيف خلق الله جميع ذلك. ثم الأرض ربما تكون مرتفعة لا ترتفع إليها مياه العيون والقنوات، فخلق الله الغيوم، وهي سحب ثقال حاملات للماء، وسلط عليها الرياح لتسوقها باذنه إلى أقطار العالم من المرتفعات والمنخفضات، وترسلها مدراراً على الأراضى في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة، ثم خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجاً على قدر الحاجة، ولو خرجت دفعة لغرقت البلاد، وهلك الزرع والمواشى. ونعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته في السحاب والبحار والجبال والأمطار لا يمكن إحصاؤها. وأما الحرارة، فإنها لا يمكن أن تحصل في الماء والأرض، لكونهما باردين. فخلق الله الشمس، وسخرها، وجعلها ـ مع بعدها عن الأرض ـ مسخنة لها في وقت دون وقت، ليحصل الحر عند الحاجة اليه، والبرد عند الافتقار اليه، وهذه أخس حكم الشمس، والحكم

---

(١) الحجر، الآية: ٢٢.

فيها أكثر من أن تحصى. ثم النبات إن ارتفع على الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة، فتفتقر إلى رطوبة تنضجها، فخلق الله القمر، وجعل من خاصيته الترطيب، كما يظهر لك ذلك إذا كشفت رأسك له في الليل، فإنه تغلب على رأسك الرطوبة المعبر عنها بـ(الزكام)، فهو بترطيبه ينضج الفواكه ويرطبها، ويصبغها بتقدير الخالق الحكيم. وهذا ايضاً أخس فوائد القمر وحكمه، وما فيه من الحكم والفوائد لا مطمع في استقصائه، بل كل كوكب في السماء فقد سخر لفوائد كثيرة لاتفى القوى البشرية باحصائها. وكما أنه ليس في اعضاء البدن عضو لا فائدة فيه، فكذلك ليس عضو من اعضاء بدن العالم لا تكون فيه فائدة أو فوائد كثيرة. والعالم كله كشخص واحد، وآحاد أجسامه كالأعضاء له، وهي متفاوتة تفاوت اعضاء البدن، وشرح ذلك ليس في مقدرة البشر، وكلها مسخرات لله سبحانه، وآثار من قدرته الكاملة، ورشحات من أبحر عظمته الباهرة، وليست في انفسها إلا أعدام صرفة. فأرباب القلوب العارفون بالله المحبون له، إذا نظروا إلى ملكوت السماوات والأرض، والآفاق والأنفس، والحيوانات والنباتات، لا ينظرون إليها إلا من حيث إنها آثار قدرة ربهم، ورشحات صفاته، ويكون تفكرهم وسعيهم في العثور على عجائبها وحكمها، وابتهاجهم وشغفهم لأجل ذلك. كما أن من أحب عالماً لم يزل مشغوفاً بطلب تصانيفه، فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له. فكذلك الأمر في عجائب صنع الله، فإن العالم كله من تصنيفه تعالى، بل جميع المصنفين أيضاً من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده. فإن تعجبت من تصنيف، فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتأليفه مما انعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه. كما إذا رأيت لعب المشعوذ[١] يترقص ويتحرك حركات موزونة متناسبة، فلا تتعجب من اللعب، فإنها خرق محركة لا متحركة، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها

(١) المشعوذ: الرجل الحيال، الذي يصنع الشعبذة.

بروابط دقيقة عن الابصار. وقد ظهر أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها، وكذلك تتسلسل الأسباب إلى أن تنتهى إلى مسبب الأسباب وغاية الكل، وليس لنا سبيل إلى ادراك تفاصيلها واستنباط عجائب حكمها ودقائق مصالحها.

فصل

(حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب)

ثم ما ينبت من الأرض من النبات، وما يحصل من الحيوانات، لا يمكن أن تقضم وتؤكل كذلك، بل لا بد في كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف، بالقاء البعض وابقاء البعض، إلى غير ذلك من الأعمال التي لا تحصى، وكل من الاطعمة يتوقف اصلاحها على امور خاصة كثيرة، واستقصاء ذلك في كل طعام طويل. فلنأخذ رغيفاً واحداً، وننظر إلى بعض ما يحتاج إليه حتى يستدير ويصلح للأكل، إذ بيان جميع ما يحتاج إليه حتى يستدير الرغيف الواحد ليس ممكناً، فنقول: أول ما يتوقف عليه هذا الرغيف الأرض، ثم إلقاء البذر فيها، ثم الثور الذي يثير الأرض مع آلاته، كالفدان وغير ذلك، ثم تنقية الأرض من الحشائش، والتعهد بسقى الماء إلى أن يعقد الحب ويبدو صلاحه، ثم الحصاد، ثم الفرك، ثم التنقية والتصفية. ثم الطحن، ثم العجن، ثم الخبز. فتأمل عدد هذه الافعال، واستحضر سائر الافعال التي لم نذكرها، ثم تذكر عدد الاشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيرها. وانظر إلى اعمال الصناع في اصلاح آلات الحراثة والتصفية والطحن والخبز من تجارة وحدادة وغيرهما، واحتياج كل منها إلى آلات كثيرة. ثم انظر كيف ألف الله سبحانه بين قلوب هؤلاء الصناع المصلحين، وسلط عليهم الأنس والمحبة، حتى ائتلفوا واجتمعوا وبنوا المدن والبلاد، ورتبوا

المساكن والدور متجاورة متقاربة، وبنوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع، ولو تفرقت آراؤهم، وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش، لتبددوا وتباعدوا، ولم ينتفع بعضهم ببعض. ثم لما كان في جبلة الانسان الغيظ والعداوة، والحسد والمنافسة، والانحراف عن الحق، وربما زالت المحبة بين البعض لاعراض، فيزدحمون عليها، ويتنافسون فيها، وربما أدى إلى التنافر والتقابل. فبعث الله الأنبياء بالشرائع والقوانين ليرجعوا إليها عند التنازع، فيرتفع نزاعهم. ثم بعث العلماء الذين هم ورثة الأنبياء لحفظ هذه الشرائع والعلم بها. وبعث الله السلاطين حتى يقيموا الناس قهراً عليها لو أرادوا التخلف عنها، فسلط الله السلاطين أولى القوة والعدة على الناس، وألقى رعبهم في قلوبهم، وألهمهم اصلاح العباد، بأن رتبوا الرؤساء والقضاة والحكام والسجن والأسواق، واضطروا الخلق إلى قانون الشرع والعدل، وألزموهم التآلف والتعاون، ومنعوهم عن التفرق والتباغض. فإصلاح الرعايا والصناع بالسلاطين، وإصلاح السلاطين بالعلماء، وإصلاح العلماء بالأنبياء، وإصلاح الأنبياء بالملائكة، واصلاح الملائكة بعضهم ببعض، إلى ان ينتهى إلى حضرة الربوبية، التي هي ينبوع كل نظام، ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف. وقد ظهر مما ذكر: أن من فتش يعلم، أن رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح للاكل ما لم يعمل عليه آلاف ألوف من الملائكة وصناع الإنس.

فصل

(تسخير الله التجار لجلب الطعام)

ثم جميع الأطعمة لما لم يمكن أن يوجد في كل مكان وبلد، إذ لكل واحد شروط مخصوصة لأجلها، لا يمكن إلا أن يوجد في بعض الأماكن دون بعض، والناس منتشرون على وجه الأرض، وقد يبعد عنهم بعض ما يحتاجون إليه من الأطعمة، بحيث تحول بينهم وبينها البراري والبحار، فسخر الله تعالى التجار، وسلط

عليهم حرص المال وشره الربح، حتى يقاسوا الشدائد، ويركبوا الأخطار في قطع المفاوز وركوب البحار، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق. فانظر كيف علمهم الله صناعة السفن وكيفية الركوب فيها، وكيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والركوب في البوادى والجبال، من الجمال وكيفية قطعها البرارى والمراحل تحت الاعباء الثقيلة وصبرها على الجوع والعطش، ومن الخيل وكيفية سرعة سيرها وحركاتها، ومن الحمار وصبره على التعب، وانظر كيف خلق الله ما يحتاج إليه السفن وهذه الحيوانات من الأسباب والغذاء، وينتهى إلى حد لا يمكن تحديده.

فصل

(نعم الله في خلق الملائكة للانسان)

ثم مجرد وجودالغذاء وحضوره واصلاحه لا يفيد فائدة ما لم يؤكل ويصير جزء للبدن. وهذا موقوف على اعمال كثيرة، محتاجة إلى أسباب كثيرة، من الطحن، والجذب، والهضم المعدى والكبدى، وغير ذلك من الأفعال التي يحتاج كل منها إلى أسباب كثيرة. وقد أشرنا إلى لمعة من كيفية ذلك في باب التفكر، فارجع اليه. وهنا نشير إلى انموذج من نعمة الله في خلق الملائكة. فنقول:

إن كثرة الملائكة لم تبلغ حداً يمكن تصوره تفصيلا أو إجمالا. ولهم طبقات وأصناف : منها: طبقات الملائكة الأرضية. ومنها: الملائكة السماوية . ومنها: حملة العرش العظيم. ومنها: المسلسلون. ومنها: المهيمنون... وغير ذلك مما لم نسمع اسمهم ورسمهم، ولا يحيط بهم إلا الله سبحانه فكل صنع من صنائع الله في الأرض والسماء لا يخلو عن ملك أو ملائكة موكلين به. فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع إلى الأكل والإغتذاء الذي كلامنا فيه، دون ما يجاوز، وذلك من صنائع الله وافعاله، ومن الوحى إلى الأنبياء والهداية والارشاد وغيرها، فإن استقصاء ذلك ليس من

مقدورات البشر. فنقول: إن كل جزء من اجزاء بدنك، بل من اجزاء النبات، لا يغتذى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة، هم أقل الأعداد، إلى عشرة إلى مائة، إلى أكثر من ذلك بمراتب.

بيان ذلك: ان معنى الاغتذاء: أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء تلف من بدنك. وهذا موقوف على حركات وتغيرات واستحالات للغذاء، حتى يصير جزءاً للبدن، كالجذب والهضم وصيرورته لحماً وعظما. ومعلوم أن الغذاء والدم واللحم اجسام ليست لها قدرة ومعرفة واختيار حتى تتحرك وتتغير بانفسها، ومجرد الطبع لا يكفى في ترددها في اطوارها. كما أن البُر بنفسه لا يصير طحيناً وعجيناً وخبزاً مطبوخاً إلا بصناع، والصناع في الباطن هم الملائكة، كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد. فالغذاء، بعد وضعه في الفم إلى أن يصير دما، لا بد له من صناع من الملائكة، ولا نتعرض لهم ولبيان عددهم، ونقول: بعد صيرورته دماً إلى أن يصير جزءاً للبدن، يتوقف على سبعة من الملائكة، إذ لا بد من ملك يجذب الدم إلى جوار اللحم والعظم، إذ الدم لا يتحرك بنفسه، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم. ومن رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعرق، ومن خامس يدفع الفضل الزائد من الحاجة، ومن سادس يلصق ما اكتسب صفة اللحم باللحم، وما اكتسب صفة العظم بالعظم، وما اكتسب صفة العرق بالعرق حتى لا يكون منفصلا، ولا بد من سابع يراعى المقادير في الإلصاق، فيلحق بالمستدير على ما لا يبطل استدارته، وبالعريض على ما لا يبطل عرضه، وبالمجوف على ما لا يبطل تجويفه، وهكذا... ويراعى في الالصاق لكل عضو ما يليق به ويحتاج إليه. فلو جمع لانف الصبى ـ مثلا ـ من الغذاء ما يجمع على فخذه، لكبر أنفه، وبطل تجويفه، وتشوهت صورته، بل ينبغي أن يسوق إلى الاجفان مع رقتها، وإلى الأفخاذ مع غلظتها، وإلى الحدقة مع صفائها، وإلى العظم مع صلابته، ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل، ويراعى العدل في القسمة والتقسيط، وإلا

بطلت الصورة، وتشوهت الخلقة، ورق بعض المواضع وضعف البعض. فمراعاة هذه الهندسة مفوضة إلى ملك من الملائكة. وإياك وأن تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه، فإن من أحال هذه الأمور إلى الطبع جاهل ولا يدرى ما يقول. فإن أراد من الطبع قوة عديمة الشعور، ويقول: إن كل فعل من هذه الافعال موكول إلى قوة لا شعور لها، فنقول: ذلك أدل على عظمة الله وحكمته وقدرته، إذ لا ريب في أن ما لا شعور له ليس في نفسه أن يفعل فعلا ما، فضلا عن أن يفعل أفعالا متقنة محكمة، مشتملة على الحكم الدقيقة، والمصالح الجلية والخفية. فتكون هذه شروطاً ناقصة لإيجاد الله سبحانه هذه الأفعال بلا واسطة، أو بواسطة عدد هذه القوى من الملائكة. وعلى أى تقدير، لا بد من سبعة اشخاص من مخلوق الله سبحانه مسخرين في باطنك. موكلين بهذه الأفعال، قد شغلوا بك، وأنت في النوم تستريح، وفي الغفلة تتردد، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم، وكذلك في كل جزء من اجزائك التي لا تتجزأ، حتى يفتقر بعض الأجزاء ـ كالعين والقلب ـ إلى أكثر من مائة ملك. ثم الملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم، لا يحيط بكنهه إلا الله، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش، والمنعم على جميعهم بالتأييد والتسديد والهداية المهيمن القدوس، المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت. ومن أراد أن يعلم ـ اجمالا ـ كثرة الملائكة الموكلين بالسماوات والأرضين، وأجزاء النبات والحيوانات، والسحب والهواء والبحار والجبال والأمطار وغير ذلك، فليرجع في ذلك إلى الأخبار الواردة من الحجج عليهم السلام. ثم لا بد أن يفوض كل فعل من الأفعال السبعة المذكورة إلى ملك من الملائكة. ويكون الموكل به ملكا واحداً على حدة، ولا يمكن أن يفوض جميعها إلى ملك واحد، كما لا يمكن أن يتولى انسان واحد سبعة أعمال في الحنطة، كالطحن وتمييز النخالة، ودفع الفضلة عنه، وصب الماء عليه، والعجن، وقطعها كسرات مدورة، وترقيقها رغفاناً عريضة، والصاقها بالتنور. إذ الملك وحدانى الصفة، ليس فيه خلط وتركيب من المتضادات.

فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد، كما اشير إليه بقوله تعالى:
﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾(١).

ولذلك، ليس بينهم تحاسد وتنافس. ومثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وعدم مزاحمة الآخر له مثال الحواس الخمس، وليس كالانسان الذي يتولى بنفسه اموراً مختلفة، وسبب ذلك اختلاف صفاته ودواعيه، فإنه لما لم يكن وحدانى الصفة لم يكن وحدانى الفعل، ولذلك ترى أنه يطيع الله تارة ويعصيه أخرى. وذلك غير موجود في الملائكة، فإنهم مجبولون على الطاعة لم تتصور في حقهم معصية، ولكل منهم طاعة خاصة معينة. فالراكع منهم راكع أبداً، والساجد منهم ساجد دائماً، والقائم منهم قائم أبداً، لا اختلاف في افعالهم ولا فتور، ولكل واحد منهم مقام معلوم. وإذ قد ظهر لك عدد ما يحتاج إليه بعض افعال مجرد الاغتذاء من الملائكة الأرضية المستمدين من الملائكة السماوية، فقس عليه سائر افعال الاغتذاء، وسائر افعالك الباطنة والظاهرة، فإن بيان ذلك ليس ممكناً. ثم قس على ذلك اجمالا جملة صنائع الله وافعاله الواقعة في عالمى الجبروت والملكوت، وعالم الملك والشهادة فسماواته وارضه وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما، فإن اعداد الملائكة الموكلين بها غير متناهية، كيف ومجامع طبقات الملائكة وانواعهم خارجة عن الاحصاء، فضلا عن الآحاد الداخلة تحت الطبقات؟

وقد ظهر مما عرفت من توقف كل نعمة على نعم كثيرة متسلسلة، إلى أن ينتهى إلى الله، واتصال البعض بالبعض ووقوع الارتباط والترتب بينهما: أن من كفر نعمة الله فقد كفر كل نعمة في الوجود، فمن نظر إلى غير محرم ـ مثلا ـ فقد كفر، ففتح العين نعمة الله في الأجفان، ولا تقوم الأجفان إلا بالعين، ولا العين إلا بالرأس، ولا الرأس إلا بجميع البدن، ولا البدن إلا بالغذاء، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر

(١) الصافات، الآية: ١٦٤.

والغيم والشمس والقمر وسائر الكواكب، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسماوات ولا السماوات إلا بالملائكة. فإن الكل كالشيء الواحد، يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط اعضاء البدن بعضها ببعض. فاذن قد كفر كل نعمة في الوجود، من ابتداء الثرى إلى منتهى الشريا. وحينئذ لا يبقى جماد ولا نبات ولا حيوان، ولا ماء ولا هواء، ولاكوكب ولا فلك ولا ملك، إلا يلعنه. ولذلك ورد في الأخبار: «ان البقعة التي يجتمع فيها الناس، إما تلعنهم إذا تفرقوا، أو تستغفر لهم». وكذلك ورد: «ان الملائكة يلعنون العصاة». وورد: «ان العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في البحر». وأمثال هذه الأخبار الدالة على ما يفيد المراد خارجة بطرفه عن الاحصاء، وكل ذلك اشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة يجني على جميع الملك والملكوت.

ثم جميع ما ذكرناه إنما يتعلق بجزء من المطعم، فاعتبر ما سواه. ثم تأمل هل يمكن أن يخرج أحد عن عهدة الشكر؟ كيف ولله في كل طرفة على كل عبد من عبيده نعم كثيرة خارجة عن الاحصاء؟ فإن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب، ولو لم يخرج لهلك، وبانقباضه يجتمع روح الهواء إلى القلب، ولو لم يدخل نسيم الهواء فيه لانقطع قلبه وهلك. ولما كان اليوم والليلة اربعاً وعشرين ساعة، وفي كل ساعة يوجد الف نفس تخميناً، وإذا اعتبرت ذلك وقست عليه سائر النعم، يكون عليك في كل يوم وليلة آلاف الوف نعمة في كل جزء من اجزاء بدنك، بل في كل جزء من اجزاء العالم، وكيف يمكن احصاء ذلك، ولذلك قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[1].

وورد: «أن من لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه ومشربه، فقد قلّ علمه وحضر عذابه». فالبصير لا تقع عينه في العالم على شيء، ولا يلم خاطره بموجود، إلا

---

(١) ابراهيم، الآية: ٣٤. النحل، الآية: ١٨.

ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه. ولذلك قال موسى بن عمران: «إلهي! كيف أشكرك ولك عليّ في كل شعرة من جسدي نعمتان: أن لينت اصلها، وأن طمست رأسها».

فصل
(الأسباب الصارفة للشكر)

اعلم أن السبب الصارف لأكثر الخلق عن الشكر، إما قصور معرفتهم بأن النعم كلها من الله سبحانه، أو قصور معرفتهم واحاطتهم بصنوف النعم وآحادها، أو جهلهم بحقيقة الشكر وكونه استعمال النعمة في اتمام الحكمة التي اريدت بها، وظنهم أن حقيقة الشكر مجرّد أن يقولوا بلسانهم: الحمد لله، أو الشكر لله، أو الغفلة الناشئة عن غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان، بحيث لا يتنبهون للقيام بالشكر، كما في سائر الفضائل والطاعات، أو عدم احتسابهم للجهل ما يعم الخلق ويشملهم في جميع الأحوال من النعم نعمة. ولذلك لا يشكرون على جملة من النعم، لكونها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع الحالات. فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصاً بها، فلا يعدها نعمة. وتأكد ذلك بألفهم واعتيادهم بها، فلا يتصورون خلاف ذلك، ويظنون أن كل انسان يلزم أن يكون على هذه الأحوال. فلذلك تراهم لا يشكرون الله على روح الهواء، ووفور الماء، وصحة البصر والسمع، وأمثال ذلك. ولو أخذ يمحقهم، حتى انقطع عنهم الهواء، وحبسوا في بيت حمام فيه هواء حار، أو بئر فيها هواء تقبل رطوبة الماء، ماتوا. فإن ابتلى واحد بشيء من ذلك، ثم نجى منه، ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليه. وكذا البصير، إذا عميت عينه، ثم أعيد عليه بصره، عده نعمة وشكره، ولو لم يبتل بالعمى وكان بصيراً دائماً كان غافلاً عن الشكر. وهذا غاية الجهل، إذ شكرهم صار موقوفاً على أن تسلب منهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، مع أن النعمة في جميع الأحوال أولى بالشكر. فلما كانت رحمة الله واسعة قد عمت الخلق في جميع احوالهم لم يعدها الجاهلون نعمة. ومثلهم كمثل العبد

السوء الذي لو لم يضرب بطر وترك الشكر، وإذا ضرب في غالب الأحوال ترك ساعة شكر المولى على ذلك. ومن تأمل يعلم أن نعمة الله عليه في شربة ماء عند عطشه اعظم من ملك الأرض كلها. كما نقل: «ان بعض العلماء دخل على بعض الخلفاء، وفي يده كوز ماء يشربه، فقال له: عظني. فقال: لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل أموالك وملكك كله، ولو لم تعطه بقيت عطشاناً، فهل تعطيه؟ قال: نعم! قال: فكيف تفرح بملك لا يساوى شربة ماء!». هذا مع أن كل عبد لو أمعن النظر في حاله، لرأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصه لا يشاركه فيها أحد، أو يشاركه يسير من الناس، إما في العقل، أو في الخلق، أو في الورع والتقوى، أو في الدين، أو في صورته وشخصه، أو اهله وولده، أو مسكنه وبلده، أو رفقائه وأقاربه، أو عزّه وجاهه، أو طول عمره وصحة جسمه، أو غير ذلك من محابه. بل نقول: لو كان أحد لا يكون مخصوصاً بشيء من ذلك، فلا ريب في أنه يعتقد في نفسه اختصاصه ومزيّته في بعض هذه على سائر الخلق. فإن أكثر الناس يعتقدون كونهم اعقل الناس، أو أحسن أخلاقاً منهم، مع أنّ الأمر ليس كذلك. ولذلك لا يشكون من نقصان العقل كما يشكون من قلة المال، ولا يسألون الله أن يعطيهم العقل كما يسألون منه زيادة المال، ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها، ولا يرى ذلك من نفسه.

وبالجملة: كل أحد يقدّر في نفسه من المحاب وصفة الكمال ما لا يراه في غيره، وإن لم يكن مطابقاً للواقع. ولذلك لو خير بأن يسلب منه ماله ويعطى ما خصص به غيره، لكان لا يرضى به. بل التأمل يعطي: أن كل واحد من أكثر الناس لا يرضى أن يكون في جميع الصفات والأفعال والدين والدنيا مثل شخص آخر من الناس كائناً من كان، بل لو وكل إليه الاختيار، وقيل له: أنت مخير في صيرورتك مثل من شئت وأردت من أفراد الناس، لم يخير إلا نفسه. وإلى هذا أشار الله سبحانه بقوله:

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[١].

وإذا كان الأمر هكذا، فأنى له لا يشكر الله على ذلك مع قطع النظر عن النعم العامة؟ ولو يكن لشخص من نعم الله إلا الأمن والصحة والقوة، لعظمت النعمة في حقه، ولم يخرج عن عهدة الشكر. قال رسول الله ﷺ: «من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، وعنده قوت يومه، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها». ومهما فتشت الناس، لوجدتهم يشكون عن امور وراء هذه الثلاث، مع أنها وبال عليهم. بل لو لم تكن للانسان نعمة سوى الايمان الذي به وصوله إلى النعيم المقيم والملك العظيم، لكان جديراً به أن يستعظم النعمة ويصرف في الشكر عمره. بل ينبغى للعاقل ألا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والايمان. ونحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت ملوك الأرض من الشرق إلى الغرب، من اموال واتباع، وانصار وبلدان وممالك، بدلا عن عشر عشير من علمه لم يأخذه، لرجائه أن نعمة العلم تفضى به إلى قرب الله تعالى في الآخرة. بل لو سلم إليه جميع ذلك عوضاً عن لذة العلم في الدنيا، مع نيله في الآخرة إلى ما يرجوه، لم يأخذه ولم يرض به، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع، وثابتة لا تسرق ولا تغصب، وصافية لاكدورة فيها، بخلاف لذات الدنيا.

فصل

(طريق تحصيل الشكر)

الطريق إلى تحصيل الشكر أمور:

الأول ـ المعرفة والتفكر في صنايعه تعالى، وضروب نعمه الظاهرة والباطنة والعامة والخاصة.

---

(١) المؤمنون، الآية: ٥٣. الروم، الآية: ٣٢.

الثاني ـ النظر إلى الأدنى في الدنيا وإلى الأعلى في الدين.

الثالث ـ أن يحضر المقابر، ويتذكر أن أحب الأشياء إلى الموتى وأهم سؤالهم ودعواهم من الله أن يردوا إلى الدنيا، ويتحملوا ضروب الرياضات ومشاق العبادات في الدنيا، ليتخلصوا في الآخرة من العذاب، أو يزيد ثوابهم وترفع درجاتهم. فليقدر نفسه منهم مع اجابة دعوته وردّه إلى الدنيا، فليصرف بقية عمره فيما يشتهى أهل القبور العود لأجله.

الرابع ـ أن يتذكر بعض ما ورد عليه في بعض أيام عمره من المصائب العظيمة والأمراض الصعبة التي ظن هلاك نفسه بها، فليتصور أنه هلك بها، ويغتنم الآن حياته وماله من النعم، فليشكر الله على ذلك، ولا يتألم ولا يحزن من بعض ما يرد عليه مما ينافى طبعه.

الخامس ـ أن يشكر في كل مصيبة وبلية من مصائب الدنيا من حيث إنه لم تصبه مصيبة أكبر منها، وإنه لم تصبه مصيبة في الدين. ولذلك قال عيسى في دعائه عليه السلام: «اللهم لا تجعل مصيبتى في دينى!». وقال رجل لبعض العرفاء: «دخل اللص في بيتى وأخذ متاعى»، فقال له: «اشكر الله لو كان الشيطان يدخل بدله في قلبك ويفسد توحيدك، ماذا كنت تصنع؟». ومن حيث إن كل مصيبة إنما هي عقوبة لذنب صدر منه، فإذا حلت به هذه العقوبة حصلت له النجاة من عقوبة الآخرة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن العبد إذا أذنب ذنباً فاصابته شدة أو بلاء في الدنيا، فالله اكرم من أن يعذبه ثانياً». وقد ورد هذا المعنى بطرق متعددة من أئمتنا عليهم السلام أيضاً، فليشكر الله على تعجيل عقوبته وعدم تأخيرها إلى الآخرة. ومن حيث إن هذه المصيبة كانت مكتوبة آتية إليه ألبتة، فقد أتيت وفرغ منها. ومن حيث إن ثوابها اكثر منها وخير له، لما يأتى في باب الصبر من عظم مثوبات الإبتلاء بالمصائب في الدنيا. ومن حيث إنها تنقص في القلب حب الدنيا والركون إليها، وتشوّق إلى الآخرة وإلى لقاء الله سبحانه. إذ لا ريب في أن من آتاه النعم في الدنيا على وفق المراد، من غير امتزاج ببلاء

ومصيبة، يورث طمأنينة للقلب إلى الدنيا وأنساً بها، حتى تصير كالجنة في حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يأنس بها، وصارت الدنيا سجناً عليه، وكانت نجاته منها كالخلاص من السجن. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». فمحن الدنيا ومصائبها ورياضاتها توجب انزعاج النفس عنها، والتفاتها إلى عالمها الأصلي، وتشوقها إلى الخروج عنها إليه ورغبتها إلى لقاء الله وما أعد في الدار الآخرة لأهلها.

فان قلت: غاية ما يتصور في البلاء أن يصبر عليه، وأما الشكر عليه فغير متصور، إذ الشكر إنما يستدعى نعمة وفرحا، والبلاء مصيبة وألم، فكيف يشكر عليه؟ وعلى هذا ينبغى ألا يجتمع الصبروالشكرعلى شيء واحد، إذ الصبر يستدعى بلاء وألماً، والشكر يستدعى نعمة وفرحا، فهما متضادان غير مجتمعين، فكيف حكمتم باجتماعهما في المصائب والبلايا الدنيوية؟

قلنا: كل واحد من النعمة والبلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد. فالنعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم والايمان والاخلاق والحسنة في الدنيا، والنعمة المقيدة في الدنيا ـ أى ما هو نعمة وصلاح من وجه وبلاء وفساد من وجه ـ كالمال الذي يصلح الدين من وجه، ويفسده من وجه. والبلاء المطلق، كشقاوة الآخرة والكفر والجهل والأخلاق السيئة والمعاصى في الدنيا، والبلاء المقيد، كمصائب الدنيا، من الفقر والخوف والمرض وسائر أقسام المحن والمصائب، فإنها وإن كانت بلاء في الدنيا، ولكنها نعم في الآخرة. وعند التحقيق لا تخلو عن تكفير الخطيئة، أو رياضة النفس، أو زيادة التجرد، أو رفع الدرجة. فالنعمة المطلقة بازائها الشكر المطلق، ولامعنى لاجتماع الصبر معه، والصبر الذي يجتمع معه لا ينافيه، كما يأتى. والبلاء المطلق لم يؤمر بالصبر عليه، إذ لا معنى للصبر على الكفر والمعصية، بل يجب عدم الصبر عليه والسعى في تركه. وأما البلاء المقيد، فهو الذي يجتمع فيه الصبر والشكر، وليس اجتماعهما من جهة واحدة حتى يلزم اجتماع الضدين، بل الصبر من حيث ايجابه

الاغتمام والألم في الدنيا، والشكر من حيث ادائه إلى سعادة الآخرة وغيرها مما ذكر.

ثم لو لم يصبر على جهة شريفة، ولم يشكر على جهة خيريته، صار بلاء مطلقاً لزم تركه بالرجوع إلى الصبر والشكر. وأما النعمة المقيدة، كالمال والثروة، فإن أدت إلى اصلاح الدين كانت نعمة مطلقة يجب عليها الشكر، ولم يكن محلا للصبر، وإن أدت إلى فساده كانت بلاء مطلقاً واجب الترك، وإن ادت إلى بلاء الدنيا، كأن يصير ماله سبباً لهلاك أولاده، وفساد مزاجه، ويصير فوته باعثاً لابتلائه ببعض المصائب الدنيوية، كان حكمه حكم البلاء المقيد. ثم يأتى في باب الصبر: أن الصبر قد يكون على الطاعة وعلى المعصية، وفيهما يتحقق الشكر والصبر، إذ الشكر ـ كما عرفت ـ هو عرفان النعمة من الله والفرح به، وصرف النعمة إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر ـ كما يأتى ـ هو ثبات باعث الدين، اعنى العقل النظرى، في مقابلة باعث الهوى، اعنى القوة الشهوية. ولا ريب في أنه في اداء الطاعة وترك المعصية يتحقق الثبات المذكور، إذ هو صرف النعمة إلى ما هو المقصود، إذ باعث الدين إنما خلق لحكمة دفع باعث الهوى، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة. وأنت خبير بأنه وان تحقق الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية، إلا أن ما تصبر عليه هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية، إذ الصبر إنما هو عليهما، واما الشكر فعلى باعث الدين، أعنى العقل الباعث لهذه الطاعة وترك هذه المعصية، فالمشكور عليه هو باعث الدين دون نفس الطاعة وترك المعصية، فاختلف فيهما الصبر والشكر في المتعلق، أى ما يصبر عليه ومايشكر عليه، واتحدا في فعل الصبر والشكر، إذ فعل الصبر هو الثبات والمقاومة، وهو عين الطاعة وترك المعصية، وفعل الشكر هو صرف النعمة في مقصود الحكمة، وهو ايضاً عين الطاعة وترك المعصية. ويمكن أن يقال: إن من فعل هذه الطاعة، وترك هذه المعصية، عرف كونهما من الله وفرح به، ويعمل طاعة اخرى شكراً له. وعلى هذا فيتحد متعلقا الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية، أعنى المشكور عليه وما يصبر عليه، إذ هما نفس هذه الطاعة وترك هذه

المعصية بعينها، ويختلف فعلاهما. إذ فعل الصبر هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية، وفعل الشكر تحميد أو طاعة اخرى.

فصل
(الصحة خير من السقم)

لا تظنن مما قرع سمعك من فضيلة البلاء وادائه إلى سعادة الأبد أنه خير من العافية في الدنيا، بل مع ذلك كله العافية في الدنيا خير من البلاء والمصيبة فيها، فاياك أن تسأل من الله البلايا والمصائب في الدنيا، فان رسول الله ﷺ كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة، وكان يقول هو والأنبياء والأوصياء عليهم السلام: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة. وفي الآخرة حسنة»، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وسوء القضاء. وقال ﷺ: «سلوا الله العافية، فما أعطى عبد أفضل من العافية إلا اليقين»، وأشار باليقين إلى عافية القلب من الجهل والشك، وهو أعلى وأشرف من عافية البدن. وقال ﷺ في دعائه: «والعافية أحب إليّ».

وبالجملة: هذا أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد. إذ البلاء إنما يصير نعمة بالإضافة إلى ما هو أكثر منه في الدنيا والآخرة، وبالاضافة إلى ما يرجى به الثواب في الآخرة، ومن حيث يوجب تجرد النفس وانقطاعها من الدنيا وميلها إلى الآخرة. فينبغى أن يسأل تمام النعمة في الدنيا، والثواب في الآخرة على شكر المنعم، والتجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، فانه قادر على اعطاء الكل، وما نقل عن بعض العارفين، من سؤالهم المصائب والبلاء، كما قال بعضهم: «أود أن أكون جسراً على النار يعبر عليّ الخلق كلهم فينجون، وأكون أنا في النار» وقال سمنون المحب: «وليس لى في سواك حب، فكيفما شئت فاختبرنى» فمبناه على غلبة الحب، بحيث يظن المحب بنفسه انه يحب البلاء. ومثل ذلك حالة تعتريه، وليس لها حقيقة. فان من شرب كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في الكلام، ولما زال سكره

علم أن ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة. فما تسمعه من هذا القبيل فهوكلام العشاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه. وقد روى: «ان فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه، فقال: ما الذي يمنعك عنى، ولو أردت ان اقلب لك ملك سليمان ظهراً لبطن لفعلته لاجلك؟ فسمع ذلك سليمان عليه السلام، فطلبه وعاتبه في ذلك، فقال: يا نبى الله كلام العشاق لا يحكى». ونقل: «أن سمنون المحب بعد ما قال البيت المذكور، ابتلى بمرض الحصر، فكان يصيح ويجزع، ويسأل الله العافية، ويظهر الندامة مما قال، ويدور على أبواب المكاتب، ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب». والحاصل: أن صيرورة البلاء أحب عند بعض المحبين من العافية، لاستشعارهم رضا المحبوب لأجله، وكون رضاه عندهم أحب وألذ من العافية إنما يكون في غليان الحب، فلا يثبت ولا يدوم. ومع ذلك كله، فاعلم ان الظاهر من بعض الأخبار الآتية في باب الصبر: ان في الجنان درجات عالية لا يبلغها أحد إلا بالمصائب الدنيوية والصبر والشكر عليها، ويؤيده ابتلاء اكابر النوع، من الأنبياء والأولياء، بالمصائب العظيمة في الدنيا، وما ورد من ان أعظم البلاء موكل بالأنبياء ثم بالأولياء، ثم بالأمثل فالأمثل في درجات العلاء والولاء. وعلى هذا، فالظاهر اختلاف اصلحية كل من البلاء والعافية باختلاف مراتب الناس. فمن كان قوى النفس صابراً شاكراً في البلاء، ولم يصده عن الذكر والفكر والحضور والأنس والطاعات والاقبال عليها، ولم يصر باعثاً لنقصان الحب لله، فالبلاء في حقه افضل في بعض الأوقات، إذ بأزائه في الآخرة من عوالى الدرجات ما لا يبلغ بدونه، ومن كان له ضعف نفس يوجب ابتلاءه بالمصائب جزعاً أو كفراناً، أو منعه عن شيء مما ذكر، فالعافية أصلح في حقه، وربما كان البلاء مما منعه من الوصول إلى المراتب العظيمة، فلا ريب في أن العافية وعدم هذا البلاء أفضل وأعلى منه. فان البصير الذي توسل بعينيه إلى النظر الى عجائب صنع الله، وتوصل به إلى معرفة الله، وتمكن لأجل العينين إلى مطالعة العلوم وتصنيف الكتب الكثيرة من انواع العلوم، وتبقى آثاره العلمية على مر الدهور، وينتفع

من علومه الناس ابداً، وربما بلغ لأجل العينين إلى غاية درجات المعرفة والقرب والحب والانس والاستغراق، ولولا وجود العينين له لم يبلغ إلى شيء من ذلك، فلا ريب في أن وجود البصر لمثله أفضل واصلح من عدمه، ولولا ذلك لكانت رتبة شعيب مثلا ـ وقد كان ضريراً من بين الأنبياء ـ فوق رتبة موسى وابراهيم وغيرهما عليهم السلام لانه صبر على فقد البصر، وموسى لم يصبر عليه، ولكان الكمال في أن يسلب الانسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم. وهذا باطل، فإن كل واحد من الأعضاء آلة في الدين، فيفوت بفواتها ركن من الدين. ويدل على ذلك ماورد في عدة من الأخبار: «أن كل ما يرد على المؤمن من بلاء أو عافية أو نعمة أو بلية، فهو خير له وأصلح في حقه» وما ورد في بعض الأحاديث القدسيه: «إن بعض عبادى لا يصلحه إلا الفقر والمرض، فاعطيته ذلك، وبعضهم لا يصلحه إلا الغنى والصحة، فاعطيته ذلك». وبذلك يجمع بين اخبار العافية واخبار البلاء.

ومنها:

الجزع

وهو إطلاق دواعى الهوى، من الإسترسال في رفع الصوت، وضرب الخدود، وشق الجيوب، أو ضيق الصدر والتبرم والتضجر. وهو وإن كان من نتائج ضعف النفس وصغرها الذي من رذائل القوة الغضبية فقط، إلا أنه لما كان ضده الصبر، وله أقسام بعضها من متعلقات القوة الشهوية ـ كما يأتى ـ فلذلك لم نذكره في متعلقات قوة الغضب فقط، بل ذكرناه هنا. ثم الجزع في المصائب من المهلكات، لأنه في الحقيقة انكار لقضاء الله، وإكراه لحكمه، وسخط على فعله. ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الجزع عند البلاء تمام المحنة، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وان الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط». وفي الخبر القدسى: «من لم يرض بقضائى، ولم يشكر على نعمائى، ولم يصبر على بلائى،

فليطلب رباً سواى». وروى: «ان زكريا لما هرب من الكفار، واختفى في الشجرة، وعرفوا ذلك، جاؤا بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار رأس زكريا، فأنّ أنّة، فأوحى الله اليه: يا زكريا! لئن صعدت منك أنّة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة! فعض زكريا عليه السلام على اصبعه حتى قطع شطرين». وبالجملة: العاقل يعلم ان الجزع في المصائب لا فائدة فيه، إذ ما قدر يكون، والجزع لا يرده. ولا ريب في أنه يترك الجزع بعد مضى مدة، فليتركه أولا حتى لا يضيع أجره. وقد نقل «انه مات ابن لبعض الأكابر، فعزاه مجوسى، وقال له: ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام. فقال: اكتبوه عنه». وقال الصادق عليه السلام: «الصبر يظهر ما في بواطن العباد من النور والصفاء، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة. والصبر يدعيه كل أحد وما يثبت عنده إلا المخبتون، والجزع ينكره كل أحد وهو أبين على المنافقين، لأن نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب. وتفسير الصبر ما يستمر مذاقه، وما كان عن اضطراب لا يسمى صبراً. وتفسير الجزع اضطراب القلب وتحزن الشخص، وتغير اللون والحال. وكل نازلة خلت أوائلها من الإخبات والإنابة والتضرع إلى الله فصاحبها جزوع غير صابر. والصبر ما أوله مر وآخره حلو، من دخله من أواخره فقد دخل، ومن دخله من أوائله فقد خرج. ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر، قال الله تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام: فكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً، فمن صبر كرهاً، ولم يشك إلى الخلق، ولم يجزع بهتك ستره، فهو من العام، ونصيبه ما قال الله عز وجل: وبشر الصابرين: أى بالجنة والمغفرة. ومن استقبل البلاء بالرحب، وصبر على سكينة ووقار، فهو من الخاص، ونصيبه ما قال الله عز وجل: إن الله مع الصابرين»[1].

---

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): باب ٩٢. وعلى (البحار): باب الصبر واليسر بعد العسر، مج ١٥: ٢/ ١٤٣.

فصل

(الصبر)

الصبر ـ مراتب الصبر ـ أقسام الصبر ـ فضيلة الصبر ـ الصبر على السراء ـ اختلاف مراتب الصبر في الثواب ـ طريق تحصيل الصبر ـ التلازم بين الصبر والشكر ـ القانون الكلى في معرفة الفضائل ـ تفضيل الصبر على الشكر.

ضد الجزع (الصبر)، وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب، بأن تقاوم معها، بحيث لا تخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه قبل ذلك من السرور والطمأنينة، فيحبس لسانه عن الشكوى، وأعضاءه عن الحركات الغير المتعارفة. وهذا هو الصبر على المكروه، وضده الجزع. وله أقسام أخر لها اسماء خاصة تعد فضائل اخر: كالصبر في الحروب، وهو من انواع الشجاعة، وضده الجبن. والصبر في كظم الغيظ، وهو الحلم، وضده الغضب. والصبر على المشاق، كالعبادة، وضده الفسق، أى الخروج عن العبادات الشرعية. والصبر على شهوة البطن والفرج من قبائح اللذات، وهي العفة وإليه أشير في قوله سبحانه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(١).

وضده الشره. والصبر عن فضول العيش، وهو الزهد، وضده الحرص. والصبر في كتمان السر، وضده الاذاعة، والأولان، كالصبر على المكروه من فضائل قوة الغضب. والرابع، من نتائج المحبة والخشية. والبواقى، من فضائل قوة الشهوة ـ كما يأتى ـ. وبذلك يظهر: أن من عدّ الصبر مطلقاً من فضائل القوة الشهوية أو القوة الغضبية إنما أراد به بعض أقسامه.

ويظهر من ذلك: أن أكثر أخلاق الايمان داخل في الصبر. ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن الايمان، قال: «هو الصبر، لانه أكثر اعماله وأشرفها»، وكما قال:

(١) النازعات، الآية: ٤٠ ـ ٤١.

«الحج عزم». وقد عرّف مطلق الصبر بأنه مقاومة النفس مع الهوى وبعبارة اخرى: أنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. والمراد بباعث الدين هو العقل النظرى الهادى إلى طريق الخير والصلاح، والعقل العملى المنفذ لأحكامه المؤدية إلى الفوز والفلاح. والمراد بباعث الهوى هو قوة الشهوة الخارجة عن اطاعة العقل. والقتال دائماً بين الباعثين قائم، والحرب بينهما أبداً سجال[١]، وقلب العبد معركته، ومدد باعث الدين من الملائكة الناظرين لحزب الله، ومدد باعث الهوى من الشياطين الناصرين لأعداء الله، فإن ثبت باعث الدين بامداد الملائكة حتى قهر باعث الهوى واستمر على مخالفته، غلب حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاول وضعف حتى غلب باعث الهوى بامداد الشياطين ولم يصبر على دفعه، التحق باتباع الشياطين. وعمدة ما يثبت به باعث الدين هي قوة المعرفة، أى اليقين بكون الهوى عدواً قاطعاً لطريق الوصول إلى الله مضاداً لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة. ثم باعث الدين إما يقهر داعى الهوى بالكلية، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة، فيدوم الصبر، وتستقر النفس في مقام الاطمئنان، وتنادى من وراء سرادقات الجمال بخطاب: (يا أيتها النفس المطمئنة! ارجعى إلى ربك راضية مرضية)، فتدخل في زمرة الصديقين السابقين، وتنسلك في سلك عباده الصالحين. أو يغلب داعى الهوى وينقهر باعث الدين، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة، وييأس عن المجاهدة والمقاومة، فتسلم نفسه الشريفة الملكوتية التي هي سرّ الله ووديعته إلى حزب الشيطان. ومثله مثل من أخذ أعز اولاده المتصف بجميع الكمالات، ويسلمه إلى الكفار من اعدائه، فيقتلونه لديه، ويحرّقونه بين يديه، بل هو أسوء حالا منه بمراتب -كما لا يخفى-. إذ لا يكون لأحدهما الغلبة التامة، بل يكون بينهما تنازع وتجاذب، فتارة يغلب هذا، وتارة يغلب ذاك، فتكون النفس في مقام المجاهدة إلى أن يغلب أحد الباعثين، فتدخل في

---

(١) «الحرب بينهم سجال»: مثل مشهور، أى تارة لهم وتارة عليهم.

حزب الله أو حزب الشيطان. ثم غلبة أحد الباعثين على الآخر إما أن تكون في جميع مقتضياته أو بعضها، وتخرج من القسمين ثلاثة احوال:

الأولى ـ أن يغلب باعث الدين على جميع الشهوات في جميع الأوقات.

الثانية ـ أن يغلب عليه الجميع في الجميع.

الثالثة ـ أن يغلب على بعض دون بعض في الجميع، أو يغلب عليها كلاً أو بعضاً دون بعض.

وقد أشير إلى أهل الحالة الأولى في الكتاب الإلهي بقوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ... إلى آخر الآية **﴾**[١]. وإلى الثانية بقوله: **﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾**[٢]. وإلى الثالثة بقوله: **﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾**[٣].

فصل
(مراتب الصبر)

الصبر على المكروه ومشاق العبادات وعن ترك الشهوات، إن كان بيسر وسهولة فهو الصبر حقيقة، وإن كان بتكلف وتعب فهو التصبر مجازاً. وإذا أدام التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى، تيسر الصبر ولم يكن له تعب ومشقة، كما قال الله سبحانه:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[٤].

ومتى تيسر الصبر وصار ملكة راسخة أورث مقام الرضا، وإذا أدام مقام الرضا

---

(١) الفجر، الآية: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) السجدة، الآية: ١٣.

(٣) التوبة، الآية: ١٠٢.

(٤) الليل، الآية: ٥ ـ ٧.

أورث مقام المحبة. وكما أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا، فكذلك مقام الرضا أعلى من مقام الصبر. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «اعبد الله على الرضا، فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير».

قال بعض العارفين: أهل الصبر على ثلاث مقامات: الأول: ترك الشكوى، وهذه درجة التائبين. الثاني: الرضا بالمقدر، وهذه درجة الزاهدين. الثالث: المحبة لما يصنع به مولاه، وهذه درجة الصديقين». وكأن هذا الانقسام مخصوص بالصبر على المكروه من المصائب والمحن. ثم باعث الصبر إما إظهار الثبات وطمأنينة القلب عند الناس، ليكون عندهم مرضياً، كما نقل عن معاوية: أنه أظهر البشاشة، وترك الشكوى في مرض موته، وقال:

وتجلدى للشامتين أريهم إني لريب الدهر لا أتزعزع

وهذا صبر العوام، وهم الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، أو توقع الثواب ونيل الدرجات الرفيعة في دار الآخرة، وهذا صبر الزهاد والمتقين، وإليه الاشارة بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

أو الالتذاذ والابتهاج بورود المكروه من الله سبحانه. إذ كل ما يرد من المحبوب محبوب، والمحب يشتاق إلى التفات محبوبه، ويرتاح به، وإن كان ما يؤذيه ابتلاءاً وامتحاناً له، وهذا صبر العارفين، وإليه الاشارة بقوله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ أُولَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾(٢).

وقد ورد: أن الإمام محمد بن على الباقر عليه السلام قال لجابر بن عبدالله الأنصارى ـ

(١) الزمر، الآية: ١٠.

(٢) البقرة، الآية: ١٥٥ ـ ١٥٧.

وقد اكتنفته علل وأسقام، وغلبه ضعف الهرم ـ: «كيف تجد حالك؟» قال: أنا في حال الفقر أحب إليّ من الغنى، والمرض أحب إليّ من الصحة، والموت أحب إليّ من الحياة. فقال الأمام عليه السلام: «أما نحن أهل البيت، فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والمرض والصحة والموت والحياة، فهو أحب الينا». فقام جابر، وقبل بين عينيه، وقال: صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال لى: «يا جابر! ستدرك واحداً من أولادى اسمه اسمى، يبقر العلوم بقراً».

تذنيب

(أقسام الصبر)

الصبر باعتبار حكمه ينقسم إلى الأقسام الخمسه، فالصبر عن الشهوات المحرمة وعلى مشاق العبادات الواجبة فرض، وعلى بعض المكاره وأداء المندوبات نفل، وعلى الأذية التي يحرم تحملها حرام، كالصبر على قطع يده، أو يد ولده، أو قصد حريمه بشهوة محظورة، وعلى أذى تناله بجهة مكروهة في الشرع. وبذلك يظهر أن كل صبرليس محموداً، بل بعض أنواعه ممدوح، وبعض انواعه مذموم، والشرع محكم، فما حسنه حسن، وما قبحه قبيح.

فصل

(فضيلة الصبر)

الصبر منزل من منازل السالكين، ومقام من مقامات الموحدين. وبه ينسلك العبد في سلك المقربين، ويصل إلى جوار رب العالمين. وقد أضاف الله أكثر الدرجات والخيرات اليه، وذكره في نيف وسبعين موضعاً من القرآن ووصف الله الصابرين باوصاف، فقال ـ عز من قائل ـ:

﴿وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[١]. وقال: ﴿وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[٢]. وقال: ﴿وَ لَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣]. وقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾[٤]. فما من فضيلة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولذا قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٥]. ووعد الصابرين بأنه معهم، فقال: ﴿وَ ٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٦]. وعلق النصرة على الصبر، فقال: ﴿بَلَىٰٓ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[٧]. وجمع للصابرين الصلوات والرحمة والهدى، فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[٨].

والآيات الواردة في مقام الصبر خارجة عن حد الاستقصاء، والأخبار المادحة له أكثر من أن تحصى. قال رسول الله ﷺ: «الصبر نصف الايمان». وقال ﷺ: «من أقل ما اوتيتم اليقين وعزيمته الصبر، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولئن تصبروا على مثل ما انتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن يفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً، وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه»... ثم قرأ قوله تعالى:

---

(١) السجدة، الآية: ٢٤.
(٢) الأعراف، الآية: ١٣٧.
(٣) النحل، الآية: ٩٦.
(٤) القصص، الآية: ٥٤.
(٥) الزمر، الآية: ١٠.
(٦) الأنفال، الآية: ٤٦.
(٧) آل عمران، الآية: ١٢٥.
(٨) البقرة، الآية: ١٥٧.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[١].

وقال ﷺ: «الصبر كنز من كنوز الجنة». وقال ﷺ: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس». ولا ريب في ان الصبر مما تكرهه النفوس، ولذا قيل: (الصبر صبر). وقال ﷺ: «في الصبر على تكرّه خير كثير». وقال ﷺ: «الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا ايمان لمن لا صبر له». وسئل ﷺ عن الايمان، فقال: «الصبر والسماحة». وقال ﷺ: «ما تجرع عبد قط جرعتين، أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها، ولا قطرت بقطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم اهريقت في سبيل الله، وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى الصلاة الفريضة، وخطوة إلى صلة الرحم». وروى: «أنه تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود! تخلق باخلاقي، وإن من اخلاقي اني أنا الصبور». وروى: «أن المسيح قال للحواريين: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون»[٢]. وقال ﷺ: «ما من عبد مؤمن اصيب بمصيبة فقال ـ كما أمره الله ـ: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اجرني في مصيبتي واعقبني خيراً منها، إلا وفعل الله ذلك». وقال ﷺ: «قال الله عز وجل: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه أن انصب له ميزاناً وانشر له ديواناً»[٣]. وقال ﷺ: «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاث مائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على

---

(١) النحل، الآية: ٩٦.

(٢) صححنا النبويات على (احياء العلوم): ٤ / ٥٣، كتاب الصبر.

(٣) صححنا الرواية على (البحار): مج ١٥: ٢ / ١٤٨، باب الصبر واليسر بعد العسر.

المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش». وقال ﷺ: «سيأتى على الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى، فمن ادرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهويقدر على العز، آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدق بى»(١). وقال ﷺ: «ان الله تعالى قال لجبرئيل: ما جزاء من سلبت كريمته؟ فقال: سبحانك! لا علم لنا الا ما علمتنا. قال: جزاؤه الخلود في دارى، والنظر إلى وجهى». وقال ﷺ لرجل قال له: ذهب مالى وسقم جسمى: «لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه، ان الله إذا احب عبداً ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره». وقال ﷺ: «إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك». وقال ﷺ: «إذا اراد الله بعبد خيراً، واراد أن يصافيه، صب عليه البلاء صباً وثجه عليه ثجا، فإذا دعاه، قالت الملائكة: صوت معروف، وإذا دعاه ثانياً، فقال: يا رب! قال الله تعالى: لبيك عبدى وسعديك! ألا تسألنى شيئاً إلا أعطيتك، أو رفعت لك ما هو خير، وادخرت لك عندى ما هو أفضل منه. فإذا كان يوم القيامة جيء باهل الأعمال فوزنوا أعمالهم بالميزان، أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى باهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا، فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب، فذلك قوله تعالى: إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب». وقال ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب، وهو مقيم على معصيته،

---

(١) صححنا الرواية، وكذا ما قبلها، على (اصول الكافى): ج ٢، باب الصبر. وعلى (الوافى): ٣ / ٣٢١_٣٢٣، باب الصبر.

فاعلموا أن ذلك استدراج»... ثم قرا قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(١).

يعني: لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخيرات، حتى إذا فرحوا بما أوتوا ـ أي بما أعطوا من الخير ـ أخذناهم بغتة. وروى: «أن نبياً من الأنبياء شكى إلى ربه، فقال: يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرضه للبلاء، ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترى على معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا! فاوحى الله تعالى اليه: أن العباد إلي والبلاء لي، وكل يسبح بحمدى. فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فازوى عنه الدنيا واعرض له البلاء، فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني، فاجزيه بحسناته، ويكون الكافر له من الحسنات، فابسط له في الرزق وازوى عنه البلاء، فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فاجزيه بسيئاته»(٢). وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: إني جعلت الدنيا بين عبادى قرضا، فمن اقرضني منها قرضاً اعطيته بكل واحدة منهن عشراً إلى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك، ومن لم يقرضني منها قرضاً فاخذت منه شيئاً قسراً، اعطيته ثلاث خصال لو اعطيت واحدة منهن ملائكتي لرضوا بها مني. قال: ثم تلا أبو عبدالله عليه السلام قوله عز وجل: (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم)، فهذه واحدة من ثلاث خصال، (ورحمة) اثنتان، (وأولئك هم المهتدون) ثلاث. ثم قال أبو عبدالله عليه السلام: هذا لمن أخذ الله منه شيئاً قسراً». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «بنى الايمان على أربع دعائم: اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن جميل، وأحسن من ذلك الصبر عندما حرم الله عز وجل عليك». وقال علي عليه السلام:

---

(١) الأنعام، الآية ٤٤.

(٢) صححنا الاحاديث الاربع على (احياء العلوم): ٤ / ١١٤، باب الصبر.

«الصبر وحسن الخلق والبرّ والحلم من أخلاق الأنبياء». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات، فهو شهيد، وإن ضربه فمات، فهو شهيد»[١]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من اجلال الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله؟» قالوا: بلى! فقرا عليهم:

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[٢].

فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عافاه الله في الدنيا فالله اكرم من ان يعذبه ثانياً وان عفى عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة». وقال الباقر عليه السلام: «الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة. وجهنم محفوفة باللذات والشهوات، فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار». وقال عليه السلام: «مروة الصبر في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى، اكثر من مروة الاعطاء»[٣]. وقال عليه السلام: «لما حضرت أبي على بن الحسين عليهما السلام الوفاة، ضمنى إلى صدره، ثم قال: يا بنى! أوصيك بما أوصانى به أبى حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أن أباه أوصاه به، قال: يا بنى اصبر على الحق وإن كان مراً».وقال الصادق عليه السلام: «إذا دخل المؤمن قبره، كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن يساره، والبر مطل عليه، ويتنحى الصبر ناحيته. فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فانا دونه». وقال عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة. يقوم عنق من الناس، فيأتون باب الجنة، فيضربونه، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون:

---

(١) صححنا الروايات الثلاث على (اصول الكافى): ج ٢، باب الصبر. وعلى (الوافى): ٣ / ٣٢١-٣٢٣، باب الصبر.

(٢) الشورى، الآية: ٣٠.

(٣) قال العلامة (المجلسى) رحمه الله في (بحار الانوار): مج ١٥، ج ٢، في باب الصبر على المصيبة، في ذيل هذا الخبر: «بيان المروة: هي الصفات التي بها تكمل انسانية الانسان».

نحن أهل الصبر، فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصى الله، فيقول الله تعالى: صدقوا! أدخلوهم الجنة. وهو قول الله تعالى: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب». وقال عليه السلام: «من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه، كان له مثل أجر ألف شهيد». وقال عليه السلام: «إن الله عز وجل أنعم على قوم فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالاً، وابتلى قوماً بالمصائب فصبروا، فصارت عليهم نعمة». وقال عليه السلام: «من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز». وقال عليه السلام: «إن من صبر صبر قليلا، وإن من جزع جزع قليلا... ثم قال: عليك بالصبر في جميع امورك، فإن الله عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه وآله فأمره بالصبر والرفق، فقال:

﴿وَ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ ٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[١].

وقال أبو الحسن عليه السلام لبعض اصحابه: «إن تصبر تغتبط، وإلا تصبر يقدر الله مقاديره، راضياً كنت أم كارهاً»[٢]. والأخبار في فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه واجره أكثر من أن تحصى. ولذلك كان الأتقياء والأكابر محبين طالبين له، حتى نقل: «أن واحداً منهم دخل على إبن مريض له، فقال: يا بنى! لئن تكن في ميزانى أحب إليّ من أن أكون في ميزانك. فقال: يا أبه! لئن يكن ماتحب أحب إليّ من أن يكون ما أحب». وقال بعضهم: «ذهبت عينى منذ ثلاثين سنة، ما علم به احد».

فصل

(الصبر على السراء)

كل ما يلقى العبد في الدنيا، وما يوافق هواه، أو لا يوافقه، بل يكرهه، وهو في كل منهما محتاج إلى الصبر. اذ ما يوافق هواه، كالصحة الجسمية، واتساع الأسباب

---

(١) المزمل، الآية: ١٠.

(٢) صححنا الاحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في باب الصبر، على الجزء الثانى من (أصول الكافى) باب الصبر، وعلى (الوافى): ٣ / ٣٢١ ـ ٣٢٣، كتاب الصبر.

الدنيوية، ونيل الجاه والمال، وكثرة الأولاد والاتباع، لو لم يصبر عليه، ولم يضبط نفسه عن الانهماك فيه والاغترار به، أدركه الطغيان والبطر. (فإن الانسان ليطغى أن رآه استغنى). وقال بعض الأكابر: «البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا الصدّيق». وقال بعض العرفاء: «الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء». ولذا لما توسعت الدنيا على الصحابة وزال عنهم ضيق المعاش، قالوا: «ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلا نقدر على الصبر عليها». ومن هنا قال الله سبحانه:
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]. وقال: **﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾**[2].

ومعنى الصبر على متاع الدنيا: ألا يركن اليه، ويعلم أنه مستودع عنده، وعن قريب يسترجع عنه، فلا ينهمك في التنعم والتلذذ، ولا يتفاخر به على فاقده من اخوانه المؤمنين، ويرعى حقوق الله في ماله بالانفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي منصبه باعانة المظلومين، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه.

والسر في كون الصبر عليها أشد من الصبر على البلاء: أنه ليس مجبوراً على ترك ملاذ الدنيا، بل له القدرة والتمكن على التمتع بها، بخلاف البلاء، فانه مجبور عليه، ولا يقدر على دفعه، فالصبر عليه أسهل. ولذا ترى أن الجائع إذا لم يقدر على الطعام أقدر على الصبر منه إذا قدر عليه.

وأما ما لا يوافق هواه وطبعه، فله ثلاثة اقسام:

الأول ـ ما يكون مقدوراً للعبد، كالطاعات والمعاصي. أما الطاعة، فالصبر عليها شديد، لأن النفس بطبعها تنفر عنها، وتشتهي التقهر والربوبية، كما يأتي وجهه. ومع ذلك يثقل عليها بعض العبادات باعتبار الكسل، وبعضها باعتبار البخل، وبعضها باعتبارهما، كالحج والجهاد، فلا تخلو طاعة من اعتبار يشق على النفس أن تصبر

---

(١) المنافقون، الآية: ٩.

(٢) التغابن، الآية: ١٤.

عليه، ومع ذلك يحتاج المطيع فيها إلى الصبر في حالات ثلاثة تتضاعف لأجلها الصعوبة، إذ يحتاج إليها قبل العمل في تصحيح النية والإخلاص، وتطهيرها عن شوائب الرياء، وفي حالة العمل لئلا يغفل عن الله في اثنائه، ولا يخل بشيء من وظائفه وآدابه، ويستمر على ذلك إلى الفراغ وبعد الفراغ عنه، لئلا يتطرق إليه العجب، ولا يظهر رياء وسمعة. والنهى عن إبطال العمل وعن إبطال الصدقات بالمن والاذى أمر بهذا القسم من الصبر. وأما المعاصى، فلكون جميعها مما تشتهيها النفس. فصبرها عليها شديد، وعلى المألوفة المعتادة اشد، إذ العادة كالطبيعة الخامسة، ولذا ترى أن كل معصية شاعت وتكررت ثقل استنكارها، فإن الاستبعاد في مثل لبس الحرير اكثرمن الاستبعاد في اطلاق اللسان طول النهار في اعراض الناس، مع أن الغيبة أشد من الزنا، كما نطقت به الأخبار. فإذا انضافت العادة إلى الشهوة، ظهر جندان من جنود الشيطان على جند الله، فيصعب تركها.

ثم المعصية إن كانت مما يسهل فعلها، كان الصبر عنها اشد، كمعاصى اللسان من الغيبة والكذب، ولو كان مع ذلك مشتملة على تمام ما تقتضيه جبلة النفس من الاستعلاء والربوبية، كالكلمات التي توجب نفى الغير، والقدح فيه، والثناء على ذاتها تصريحا أو تعريضا، كان الصبر عنها اشد. اذ مثل ذلك ـ مع كونها مما تيسر فعله وصار مألوفا معتاداً ـ انضافت إليه شهوتان للنفس فيه: احداهما نفى الكمال من غيرها، واخراهما اثباته لذاتها. وميل النفس إلى مثل تلك المعصية في غاية الكمال، إذ به يتم ما تقتضيه جبلتها من التفوّق والعلوّ، فصبرها عنها في غاية الصعوبة. وقد ظهر مما ذكر: أن أكثر ما شاع وذاع من المعاصى إنما يصدر من اللسان. فينبغى لكل أحد أن يجتهد في حفظ لسانه بتقديم التروى على كلام يريد أن يتكلم به، فان لم يكن معصية تكلم به وإلا تركه، ولو لم يقدر على ذلك، وكان لسانه خارجا عن اطاعته في المحاورات، وجبت عليه العزلة والانفراد، وتركه التكلم مع الناس، حتى تحصل له ملكة الاقتدار على حفظه. ثم صعوبة الصبر وسهولته لما كانت تختلف في آحاد

المعاصى باختلاف داعية تلك المعاصى قوة وضعفاً، فينبغى لكل طالب السعادة أن يعلم أن داعية نفسه إلى أى معصية اشد، فيكون سعيه في تركها اكثر. ثم حركة الخواطر باختلاج الوساوس أيسر بكثير من حركة اللسان بقبائح الكلمات، فلا يمكن الصبر عنها اصلا، إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه، كمن اصبح وهمومه هم واحد. وأكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدور. وكيف كان، فهو تصور باطل، وتضييع وقت. إذ آلة استكمال العبد قلبه، فإذا غفل القلب في لحظة من ذكر يستفيد به أنساً بالله، أو فكر يستفيد به معرفة بالله، ويستفيد بالمعرفة حب الله، فهو مغبون.

الثانى ـ ما ليس حصوله مقدوراً للعبد، ولكنه يقدر على دفعه بالتشفى، كما لو أوذى بفعل أو قول، أو جنى عليه في نفسه أو ماله، فإن حصول الأذية والجناية وإن لم يرتبط باختياره، إلا أنه يقدر على التشفى من المؤذى أو الجانى بالانتقام منه، والصبر على ذلك بترك المكافات. وهو قد يكون واجباً، وقد يكون فضيلة، وهو أعلى مراتب الصبر. ولأجل ذلك خاطب الله نبيه ﷺ بقوله:

﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ**﴾[١]. وبقوله: ﴿**وَ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ ٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**﴾[٢]. وبقوله: ﴿**وَ دَعْ أَذَيٰهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ**﴾[٣]. وقال: ﴿**وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا أَذًى كَثِيرًا وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ**﴾[٤]. وقال: ﴿**وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ**﴾[٥].

(١) الاحقاف، الآية: ٣٥.

(٢) المزمل، الآية: ١٠.

(٣) الأحزاب، الآية: ٤٨.

(٤) آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٥) النحل، الآية: ١٢٦.

وقال رسول الله ﷺ: «صل من قطعك، واعط من حرمك، واعف عمن ظلمك». وروى: «أنه ﷺ قسم مرة مالا، فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما اريد بها وجه الله! فاخبر به رسول الله، فاحمرت وجنتاه، ثم قال: رحم الله أخي موسى، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر».

الثالث ـ ما ليس مقدوراً للعبد مطلقاً، كالمصائب والنوائب. والصبر عليه شديد في غاية الصعوبة، ولا ينال إلا ببضاعة الصديقين، والوصول إليه يتوقف على اليقين التام. ولذا قال النبى ﷺ: «أسألك من اليقين ما يهون عليّ مصائب الدنيا». وقد تقدم بعض الأخبار الواردة في فضيلة هذا القسم من الصبر. وقال ﷺ: «قال الله: إذا ابتليت عبدى ببلائى فصبر، ولم يشكنى إلى عواده، أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، فإن ابرأته ابرأته ولا ذنب له، وإن توفيته فإلى رحمتى». وقال ﷺ: «من إجلال الله ومعرفة حقه: ألا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك». وقال ﷺ: «من ابتلى فصبر، وأعطى فشكر، وظُلم فغفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون». وقال ﷺ: «إن الله تعالى قال لجبرئيل: ما جزاء من سلبت كريمته؟ فقال: سبحانك! لا علم لنا إلا ما علمتنا. قال: جزاؤه الخلود في داري، والنظر إلى وجهى». وقال داود ﷺ: «يا رب! ما جزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن ألبسه لباس الأمان، لا انزعه عنه أبداً». وقال لابنه سليمان ﷺ: «يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيم لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر في ما قد فات». وروى: «أن من ابتلى بموت ثلاثة أولاد، لم يرد على النار أصلا».

تذنيب
(اختلاف مراتب الصبر في الثواب)

لما كان الصبر على العافية بمعنى ترك الشهوات المحرمة وعدم الانهماك فيها،

فهو راجع إلى الصبر عن المعصية. وعلى هذا، فاقسام الصبر ثلاثة: الصبر على المصائب والنوائب، والصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية. ثم ما تقدم من الخبر النبوى صريح في كون الأول أقل ثواباً، والآخر أكثر ثوابا، والوسط وسطاً بينهما.وربما ظهر من بعض الأخبار: كون الأول أكثر ثوابا. وأبو حامد الغزالى رجح الأول أولا، وبه صرح بعض المتأخرين من اصحابنا للخبر النبوى، ثم رجح الثانى ثانياً محتجاً بما روى عن ابن عباس أنه قال: «الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى وله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، فله تسعمائة درجة». وبأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم، وأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلا ببضاعة الصديقين، لكونه شديداً على النفس.

وعندى: أن القول بكون أحدهما أكثر ثواباً عل الاطلاق غير صحيح، إذ القول بأن الصبر على كلمة كذب أو لبس ثوب من الحرير لحظة، أكثر ثواباً من الصبر على موت كثير من أعز الأولاد بعيد، وكذا القول بأن الصبر على فقد درهم أكثر ثواباً من كف النفس عن كبائر المعاصى، وفطامها عن ألذّ اللذات والشهوات مع القدرة عليها أبعد، فالصواب: التفصيل بأن كل صبر من أى قسم كان من الثلاثة إذا كان على النفس أشد وأشق فثوابه أكثر مما كان أسهل وأيسر، كائناً ما كان، لما ثبت وتقرّر أن أفضل الأعمال أحمزها، وبه يحصل الجمع والتلاؤم بين الأخبار.

فصل
(طريق تحصيل الصبر)

الطريق إلى تحصيل الصبر: تقوية باعث الدين، وتضعيف باعث الهوى.

والأول: إنما يكون بأمور:

الأول ـ أن يكثر فكرته فيما ورد من فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا

والآخرة، وأن يعلم أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه الا مدة الحياة في الدنيا، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر، فيجازى على المدة القصيرة الفانية بالمدة الطويلة الخالدة، وعلى الغاية القريبة الزائلة بالغاية المديدة الباقية. ومن أسلم خسيساً في نفيس، فلا ينبغي أن يحزن بفوات الخسيس في الحال.

الثاني ـ أن يتذكر قلة قدر الشدة الدنيوية ووقتها، واستخلاصه عنهاعن قريب، مع بقاء الأجر على الصبر عليها.

الثالث ـ أن يعلم أن الجزع قبيح مضرّ بالدين والدنيا، ولا يفيد ثمرة إلا حبط الثواب وجلب العقاب، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وان جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور».

الرابع ـ أن يعوّد مصارعة هذا الباعث باعث الهوى تدريجاً، حتى يدرك لذة الظفر بها، فيتجرى عليها، ويقوى متنه في مصارعتها. فان الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة يؤكد القوى التي تصدر منهاتلك الأعمال. ولذا تزيد قوة الممارسين للأعمال الشاقة ـ كالحمالين والفلاحين ـ على قوة التاركين لها. فمن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما شاء وأراد.

وأما الثاني: أعني تضعيف الهوى، إنما يكون بالمجاهدة والرياضة من الصوم والجوع وقطع الأسباب المهيجة للشهوة من النظر إلى مظانها وتخيلها، وبالتسلية بالمباح من الجنس الذي يشتهيه بشرط ألا يخرج عن القدر المشروع.

تتميم

إن قيل: الصبر في المصائب إن كان المراد به ألا تكون في نفسه كراهة المعصية، فذلك غير داخل تحت الاختيار، إذ الانسان مضطر إلى الكراهة، فبماذا ينال درجة الصبر في المصائب؟

قلت: من كان عارفاً بالله وبأسرار حكمته وقضائه وقدره، بأن يعلم يقيناً بأن كل أمر صدر من الله وابتلى به عباده من ضيق أو سعة، وكل أمر مرهوب أو مرغوب على وفق الحكمة والمصلحة بالذات، وما عرض من ذلك مما يعدّ شراً، فأمر عرضى لا يمكن نزع الخير المقصود منه، وأن ذلك إذا كان متيقناً له، استعدت نفسه للصبر ومقاومة الهوى في الغم والحزن، وطابت بقضائه وقدره، وتوسع صدره بمواقع حكمه، وأيقن بأن قضاءه لم يجر إلا بالخيرة. وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين». ومن بلغ بهذه الدرجة، يتلذذ بكل ما يرد عليه. ومثله يتمتع بثروة لا تنفد، ويتأيد بعز لا يفقد، فيسرح في ملك الأبد، ويعرج إلى قضاء السرمد. هذا مع أن العبد إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع، وشق الجيوب، وضرب الخدود، والمبالغة في الشكوى واظهار الكآبة، وتغيير العادة في الملبس والمطعم ونحوها، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره، فينبغي أن يجتنب عنها، ويظهر الرضا بالقضاء، ويبقى مستمراً على عادته، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت، ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب وجريان الدمع، لأن ذلك مقتضى البشرية. ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبى صلى الله عليه وآله وسلم فاضت عيناه بالدمع، فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ قال: «هذه رحمة، إنما يرحم الله من عباده الرحماء». وقال أيضاً صلى الله عليه وآله وسلم: «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا يقول ما يسخط الرب». بل ذلك لا يخرج عن مقام الرضا أيضاً، فإن المقدم على الفصد والحجامة راض به، مع أنه متألم بسببه لا محالة. نعم، من كمال الصبر كتمان المصائب، لما ورد من أن كتمان المصائب والأوجاع والصدقة من كنوز البر. وقد ورد المدح في كثير من الأخبار على عدم الشكاية من الامراض والمصائب. وقال الباقر عليه السلام: «الصبر الجميل، صبر ليس فيه شكوى إلى الناس». وفي بعض الأخبار: «أن الشكاية أن تقول: ابتليت بما لم يبتل به أحد، واصابنى ما لم يصب أحداً، وليس الشكوى أن تقول سهرت البارحة، وحميت اليوم، ونحو ذلك». وقال الصادق عليه السلام: «من اشتكى ليلة، فقبلها

بقبولها، وأدى إلى الله شكرها، كانت كعبادة ستين سنة»، قيل له: ما قبولها؟ قال: «يصبر عليها ولا يخبر بما كان فيها، فإذا أصبح حمد الله على ما كان».

تتميم
(التلازم بين الصبر والشكر)

اعلم أنه اختلف في أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر، فرجح كلاً منهما على الآخر طائفة. والظاهر أنه لا ترجيح لأحدهما على الآخر، لأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر. إذ الصبر على الطاعة وعلى المعصية هو عين الشكر، لكون أداء الطاعة وترك المعصية شكراً، كما مر في باب الشكر. والصبر على الشدائد والمصائب يستلزم الشكر، لما مرّ من أن الشدائد والمصائب الدنيوية تتضمن نعماً، فالصبر على هذه الشدائد يستلزم الشكر على تلك النعم، ولأنّ الصبر على المصائب هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله سبحانه. وهذا هو الشكر بعينه، لأنه تعظيم لله يمنع عن العصيان، والشاكر يمنع نفسه عن الكفران مع ميل النفس اليه، وهذا هو عين الصبر عن المعصية. وأيضاً، توفيق الصبر والعصمة من الجزع نعمة يشكر عليها الصابر، فكل صبر يستلزم الشكر، وبالعكس.

وبالجملة: لا ريب في استلزام كل من الصبر والشكر للآخر، فإن اجتماعهما في الطاعة وترك المعصية، بل اتحادهما فيهما، أمر ظاهر، كما تقدم. وفي البلاء المقيد الدنيوى، إذا حصل فيه الصبر، فلا ريب في عدم انفكاكه عن تصور النعم اللازمة له، من الثواب الاخروى، وحصول الانزعاج عن الدنيا والرغبة إلى الآخرة، فيشكر على ذلك. فهو لا ينفك عن الشكر، لأنه يعرف هذه النعم من الله، كما يعرف البلاء أيضاً من الله، فيفرح بالنعم، ويعمل بمقتضى فرحه من التحميد وغيره. وفي النعمة المقيدة، مثل المال، إذا توسل به إلى تحصيل الدين، فلا ريب في أنه كما تحقق فيه الكره تحقق فيه الصبر أيضاً. إذ في انفاق المال وبذله في تحصيل الدين حبس النفس

عما تحبه وتميل اليه، وثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. وفي البلاء المطلق، كالكفر والجهل، لا معنى لتحقق الشكر أو الصبر فيه، وفي النعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم وحسن الأخلاق، كما يتحقق فيها الشكر يتحقّق فيها الصبر ايضاً. إذ تحصيل السعادة، والعلم، والأخلاق الفاضلة، والإبقاء عليها، لا ينفك عن مقاومته مع الهوى ومنع النفس عما تميل اليه. مع أن الشكر عليهما يستلزم منع النفس عن الكفران، وهو الصبر على المعصية. حتى أن شكر العينين بالنظر إلى عجائب صنع الله يستلزم الصبر عن الغفلة والنوم، والنظر إلى ما تميل إليه النفس من النظر إلى غير المحارم وأمثال ذلك.

فإن قيل: استلزام كل من الصبر والشكر للآخر مما لا ريب فيه، إلا أن الكلام في أنه إذا لم يتحقق الاتحاد بينهما في فعل، كما في فعل الطاعة وترك المعصية لكونهما متحدين فيهما، بل تحقق الاستلزام الموجب لتحقق جهتين، فأى الجهتين أفضل؟ مثل أن يبتلى أحد بمصيبة دنيوية، فصبر عليها، بمعنى أنه عرف أنها من الله وحبس نفسه عن الجزع والاضطراب، وشكر عليها أيضاً، بمعنى أنه عرف أن النعم اللازمة لها من الثواب الاخروى وغيرها من الله وفرح بها وعمل بمقتضى فرحه من التحميد أو طاعة اخرى، فهل الأفضل حينئذ جهة الصبر، أو جهة الشكر؟

قلنا: التأمل يعطى: أن كل صبر هو شكر بعينه، وبالعكس. فلا تتحقق بينهما جهتان مختلفتان حتى يتصور الترجيح بينهما. فإن الصبر على البلاء إنما هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله. وهذا هو عين الشكر، إذ كل طاعة لله سبحانه شكر، وفي الشكر على النعم المطلقة منع النفس عن الكفران، وهو عين الصبر عن المعصية.

فإن قلت: فعلى هذا، يجتمع الصبر والشكر في محل واحد بجهة واحدة، وقد تقدم أنهما متضادان، إذ الصبر يستدعى ألماً، والشكر يستدعى فرحاً، وقد ذكرت ان اجتماع الصبر والشكر في محل واحد إنما يكون من جهتين متغايرتين لا من جهة واحدة.

قلنا: امتناع الاتحاد فيهما إنما هو في الصبر والشكر على ما هو كان نعمة وبلاء بعينه، فإنه لا يمكن أن يكون الصبر على فوت ولد ـ اعنى حبس النفس عن الجزع ـ هو عين الشكر على النعمة. إذ موت الولد بعينه ليس نعمة، بل هو مستلزم للنعمة. فالشكر على اللازم، والصبر على الملزوم. فاختلفت جهتا الصبر والشكر، فلا اتحاد. وما ذكرناه من الاتحاد إنما هو الشكر والصبر على النعمة وترك المعصية، أو على البلاء والطاعة. وندعى أن من وصلت إليه نعمة، فشكر عليها بعرفانها من الله، ففرح بها وعمل بمقتضى الفرح، من التحميد أو طاعة اخرى، كان هذا الشكر عين الصبر عن معصية هي الكفران، أو على الطاعة التي هي التحميد وغيره. كذا من ابتلى ببلية، فصبر عليها بحبس نفسه عن الجزع، فهذا الصبر عين الشكر بأداء الطاعة التي هي تعظيم الله بكف النفس عن الجزع، أو عن المعصية التي هي الجزع والاضطراب. وهذا الاتحاد والعينية يطرد في كل صبر وشكر، ولا يتحقق شكر لا يكون عن الصبر من هذا الوجه، وبالعكس. وليس بينهما تضاد وتغاير اصلاً، والاستلزام واختلاف الجهة إنما هو في الصبر على البلاء والشكر على ما يستلزمه من النعم، ولا يمكن هنا اتحادهما لتضادهما. وفي هذه الصورة، يكون كل من الصبر والشكر المتميزين عن الآخر باختلاف الجهة عين الآخر، من حيث ملاحظة الاعتبار السابق، فلا يمكن الترجيح في هذه الصورة مع اختلاف الجهة أيضاً.

فإن قيل: عرفان النعم من الله داخل في حقيقة الشكر، وليس داخلا في الصبر، فينبغى أن يكون الشكر لذلك أفضل من الصبر.

قلنا: في الشق الأول من صورة العينية والاتحاد، يكون عرفان النعمة داخلا في الصبر، وفي الشق الثانى منهما، وفي صورة الاستلزام، يدخل عرفان البلاء من الله في الصبر. فكما أن الشاكر يرى نعمة العينين من الله، فكذا الصابر يرى العمى من الله، فهما في المعرفة متساويان. ثم جميع ما ذكر في الفرق بين الصبر والشكر إنما إذا

كانت حقيقة الصبر حبس النفس عن الشكوى في البلاء مع الكراهة والتألم[١]، وعلى هذا يكون الرضا فوقه، لو قطع النظر عن كون الصبر شكراً أيضاً، ويكون الشكر فوق الرضا، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب يفرح به، ولو لم يعتبر في مفهوم الصبر الكراهة والتألم، لصار الرضا والشكر في بعض درجاته، إذ يمكن أن يصل حال العبد في الحب مرتبة لا يتألم من البلاء أو يفرح به لأنه يراه من محبوبه. وحينئذ، فترك الشكوى في البلاء مع الكراهة صبر، وبدونها رضا، ومع الفرح به شكر.

تنبيه
(القانون الكلى في معرفة الفضائل)

إعلم أن المعيار والقانون الكلى في معرفة فضائل الأعمال والأحوال وترجيح بعضها على بعض عند أرباب القلوب: أن العمل كلما كان أكثر تاثيراً في اصلاح القلب وتصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا، وأشد إعداداً له لمعرفة الله وانكشاف جلاله في ذاته وصفاته وأفعاله، كان أفضل. وعلى هذا القانون، لولا الاتحاد والعينية والتلازم بينهما، لكان اللازم أن يوازن بين كل درجة ودرجة من درجات الصبر والشكر وترجيح أحدهما، إذ لكل منهما درجات مختلفة في تنوير القلب وتصفيته، وسبب الاختلاف اسباب:

منها ـ الاختلاف بين أقسام النعم وأقسام البلاء.

ومنها ـ اختلاف مراتب المعرفة والفرح المأخوذين في الشكر، واختلاف الطاعة التي تفعل في كل منهما صعوبة وسهولة. فربما كان بعض درجات الصبر أشد

(١) قال استاذ البشر المحقق (الطوسى) ﷺ في تعريف الصبر: «الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه، وهو يمنع الباطن على الاضطراب، واللسان عن الشكاية، والاعضاء عن الحركات غير المعتادة...».

تنويراً وأكثر اصلاحاً للقلب من بعض درجات الشكر، وربما كان الأمر بعكس ذلك في بعض آخر من درجاتهما. فإن الأعمال والأحوال المندرجة تحت كل منهما كثيرة، وباختلافها ـ كثرة وقلة ـ تختلف درجاتهما. فمن الأمور والاحوال التي تندرج تحت الشكر: حياء العبد من تتابع نعم الله عليه، ومعرفته بتقصيره عن الشكر، واعتذاره من قلة الشكر، واعترافه بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاقه لها، وعلمه بأن الشكر ايضاً نعمة من نعمه ومواهبه، وحسن تواضعه بالنعم، والتذلل، وقلة اعتراضه، وحسن ادبه بين يدى المنعم وتلقى النعم بحسن القبول، واستعظام صغيرها، وشكر الوسائط، لقوله ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله». وقال السجاد عليه السلام: «أشكركم لله أشكركم للناس». وقال عليه السلام: «يقول الله تعالى للعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا رب! فيقول: لم تشكرنى إذ لم تشكره». وقال الصادق عليه السلام: «اشكر من انعم عليك، وانعم على من شكرك». ولا ريب في أنه كلما ازدادت هذه الأحوال في الشكر، وطال زمانه، ازداد فضله. قد نقل: «أن رجلا (كان) يهوى ابنة عم له، وهي أيضاً تهواه، فاتفق مزاوجتهما، فقال الرجل ليلة الزفاف لها: تعالي حتى نحيي هذه الليلة شكراً لله على ما جمعنا، فقالت: نعم! فصليا تلك الليلة بأسرها، ولم يتفرغ أحدهما إلى صاحبه. فلما كانت الليلة الثانية، قالا مثل ذلك، فصليا طول الليل... فهكذا يفعلان في ثمانين سنة، وبقيا على تلك الحالة في ثمانين سنة في كل ليلة، من دون رجوع لأحدهما إلى الآخر، ومن دون اتفاق مضاجعة بينهما، فضلا عن شيء آخر». ولا يخفى أن هذا الشكر أفضل بمراتب من صبرهما على بلاء العزوبة، لو لم يحصل بينهما الجمع والوصل.

تتميم
(تفضيل الصبر على الشكر)

اعلم أن الظاهر من بعض الأخبار: أن الصبر أفضل وأكثر ثوابا من الشكر. كما

روى: «أنه يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض، فيجزيه الله جزاء الشاكرين. ويؤتى بأصبر أهل الأرض، فيقال له: أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر؟ فيقول: نعم يا رب! فيقول الله تعالى: كلا! أنعمت عليه فشكر، وابتليتك فصبرت، لأضعفن عليك الأجر عليه! فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين».وكقوله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر». وهذا يدل على أفضلية الصبر من الشكر، لأن المشبه به أعلى رتبة من المشبه. وكقول الباقر ﷺ: «مروّة الصبر في حال الحاجة والفاقة والتعفف والغنى، اكثر من مروّة الإعطاء». ويؤيد ذلك قوله تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب). وينبغي أن يرتكب في أمثال هذه الأخبار تقييدان:

احدهما ـ التقييد ببعض المراتب، بأن يقول: المراد أن بعض مراتب الصبر أفضل من بعض مراتب الشكر. وهذا مما لا ريب فيه، فان من سلب اعز أولاده وابتلى بالفقر والمرض، ومع ذلك صبر ولم يجزع، فهو أفضل البتة ممن اعطى مالا كثيراً فقال: شكراً لله، الحمد لله، من دون ابداء عمل آخر من الطاعات. وليس المراد أن كل ما يسمى صبراً افضل من كل درجة من درجات الشكر. إذ البديهة حاكمة بأن الشكر على نعمة بالاشتغال بالطاعة والعبادات، وترك المعاصي سنين كثيرة متتالية، من دون فتور، أفضل وأعلى رتبة من منع النفس عن الجزع لأجل عشرة دراهم سرقت منه.

وثانيهما ـ التقييد بخروجها على ما هو الظاهر عند جمهور الناس من الانفكاك بين الصبر والشكر. فإن الجمهور لا يفهمون من حبس النفس عن الجزع عند الابتلاء ببلية إلا الصبر، ولا يلتفتون إلى أن هذا الحبس نوع عبادة حصلت تعظيما لله، وهو عين الشكر. وكذا لا يفهمون من اظهار التحميد والاشتغال بالصلاة عند وصول نعمة إلا الشكر، ولا يلتفتون إلى أن هذا العمل عين منع النفس عن الكفران، وهو الشكر بعينه.

ومنها:

الفسق

وهو الخروج عن طاعة المبدأ الحقيقى وعبادته. وضده الطاعة، وهي تمجيد المبدأ والتخضع له باداء ضروب العبادات المقررة في الشريعة. وعمدة العبادات الموظفة في الشريعة هي: الطهارة، والصلاة، والذكر، والدعاء، وتلاوة القرآن والصوم، والحج، وزيارة النبى صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، والجهاد في سبيل الله، واداء المعروف، الشامل للزكاة، والخمس، والصدقة المندوبة وغيرها. والأخير ـ اعنى اداء المعروف باقسامه ـ قد تقدم. والجهاد في هذا الزمان ساقط. فنشير إلى بعض الأسرار والدقائق والآداب الباطنة المتعلقة بالبواقى، في مقاصد وخاتمة. وأما آدابها واحكامها وشرائطها الظاهرة، فهى مذكورة في الفقهيات.

المقصد الأوّل

(الطهارة)

الطهارة ـ حقيقة الطهارة ـ ما ينبغى للمؤمن في الطهارة ـ ازالة الأوساخ ـ آداب الحمام ـ السر في ازالة الاوساخ.

❊ ❊ ❊

اعلم أن الطهارة والنظافة أهم الأمور للعباد. إذ الطهارة الظاهرة وسيلة إلى حصول الطهارة الباطنة، وما لم تحصل الاولى لم تحصل الثانية. ولذا ورد في مدحها ما ورد، قال الله سبحانه:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ ٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾(١). وقال: **﴿مَا يُرِيدُ ٱللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾**(٢).

---

(١) التوبة، الآية: ١٠٨.

(٢) المائدة، الآية: ٦.

وقال رسول الله ﷺ: «بني الدين على النظافة». وقال ﷺ: «الطهور نصف الايمان». وقال ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور». وقال ﷺ: «بئس للعبد القاذورة». وقال ﷺ: «من اتخذ ثوبا فلينظفه». وقال أمير المومنين عليه السلام: «النظيف من الثياب يذهب الهمّ والحزن، هو طهور للصلاة».

ثم للطهارة أربع مراتب:

الأولى ـ تطهير الظاهر من الاحداث والاخباث والفضلات.

الثانية ـ تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات.

الثالثة ـ تطهير القلب من مساوىء الاخلاق ورذائلها.

الرابعة ـ تطهير السرّ عما سوى الله تعالى، وهي تطهير الأنبياء والصديقين. والطهارة في كل مرتبة نصف العمل الذي فيها، إذ الغاية القصوى في عمل السرّ أن ينكشف له جلال الله وعظمته، وتحصل له المعرفة التامة، والحب والأنس. ولا يمكن حصول ذلك ما لم يرتحل عنه ما سوى الله، ولذلك قال الله تعالى:

﴿**قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ**﴾[1]. فان الله وغيره لا يجتمعان في قلب واحد: ﴿**مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ**﴾[2].

فتطهير السر عما سوى الله نصف عمله، والنصف الآخر شروق نور الحق فيه. والغاية القصوى في عمل القلب عمارته بالأخلاق المحمودة، والعقائد الحقة المشروعة. ولا يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها، من الأخلاق المذمومة، والعقائد الفاسدة. فتطهيرها عنها أحد الشطرين، والشطر الآخر تحليته بالفضائل والعقائد الحقة.

وأما عمل الجوارح، فالمقصود منه عمارتها بالطاعات. ولا يمكن ذلك ما لم يطهر عن المعاصي والمناهي. فهذا التطهير نصف عملها، ونصفه الآخر عمارتها

(١) الأنعام، الآية: ٩١.

(٢) الأحزاب، الآية: ٤.

بـالطاعات. وقس على ذلك الحال في المرتبة الأولى. وإلى ذلك الاشارة بقول النبي ﷺ: «الطهور نصف الايمان». فإن المراد: أن تطهير الظاهر، والجوارح، والقلب، والسر، من النجاسات والمعاصي ورذائل الأخلاق وما سوى الله نصف الايمان، ونصفه الآخر عمارتها بالنظافة والطاعات ومعالي الاخلاق، والاستغراق في شهود جمال الحق وجلاله. ولا تظنن أن مراده ﷺ أن مجرد تطهير الظاهر عن النجاسات بافاضة الماء نصف الايمان، مع تلوّث الجوارح باخباث المعاصي، وتنجس القلب باقذار مساوىء الأخلاق، وتشوش السر وتكدره بما سوى الله. فالمراد التطهير في المراتب الأربع، التي هي من مقامات الدين، وهي مرتبة يتوقف بعضها على بعض ولا يمكن أن ينال العبد ما هو الفوق، ما لم يتجاوز ما دونه، فلا يصل إلى طهارة السر مما سوى الله، وعمارته بمعرفة الله، وانكشاف جلاله وعظمته، ما لم يفرغ عن طهارة القلب عن الأخلاق المذمومة، وتحليته بالملكات المحمودة. ولا يصل إلى ذلك ما لم يفرغ عن طهارة الجوارح من المعاصي وعمارتها بالطاعات. ولا يصل إلى ذلك ما لم يفرغ عن ازالة الخبث والحدث عن الظاهر، وعمارته بالنظافة والنزاهة.

فصل
(حقيقة الطهارة)

طهارة الظاهر، إما عن الخبث، أو عن الحدث، أو عن فضلات البدن، وما يتعلق بها من الأحكام الظاهرة الواجبة والمحرّمة والمندوبة والمكروهة، مستقصاة في كتب الفقه.

وأما الآداب الباطنة لطهارة الخبث وإزالته عند التخلي لقضاء الحاجة، أن يتذكر عنده نقصه وحاجته، وخبث باطنه وخسة حاله، وما يشتمل عليه من الأقذار، وكونه حامل النجاسات، ويتذكر باستراحة نفسه عند اخراجها، وسكون قلبه عن دنسها، وفراغه للعبادات والمناجات، وأن الأخلاق الذميمة التي في باطنها نجاسات باطنة،

واقذار كامنة، لتستريح نفسها عند اخراجها، ويطمئن قلبه من ازالة دنسها،وعند اخراجها يصلح للوقوف على بساط الخدمة، ويتأهل للقرب والوصول إلى حريم العزة. فكما يسعى في اخراج النجاسات الظاهرة لاستراحة البدن مدة قليلة في الدنيا، فينبغي أن يجتهد ايضاً في اخراج الأقذار الباطنة، والنجاسات الداخلة الغائضة[١] في الأعماق، المفسدة على الاطلاق، لتستريح الروح والبدن في الدنيا والآخرة أبد الآباد. قال الصادق عليه السلام: «إنما سمى المستراح مستراحاً لاستراحة النفس من أثقال النجاسات، واستفراغ الاقذار والكسافات فيها. والمؤمن يعتبر عندها إن الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته، فيستريح بالعدول عنها وتركها، ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها، ويستنكف عن جمعها واخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر، ويتفكر في نفسه المكرمة في حال كيف تصير ذليلة في حال، ويعلم أن التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين. فإن الراحة في هوان الدنيا، والفراغ من التمتع بها، وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة. فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها، ويفرّ من الذنوب، ويفتح باب التواضع والندم والحياء، ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه، طلباً لحسن المآب، وطيب الزلفى. ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات، إلى أن يتصل بامان الله تعالى في دار القرار، ويذوق طعم رضاه، فإن المعول على ذلك، وما عداه فلا شيء»[٢].

وينبغي أن يتأمل في أن ما دفع عنه من الغائط والقذر هو ما كان يشتهيه، ويحترص في طلبه من لذائذ الأطعمة وكلما كانت ألذ عفونتها أشد، فما كانت عاقبته ذلك، فليحذر من أن يأخذه من غير حله، فيعذب أبد الآباد لأجله.

---

(١) الغائضة: الغائرة. غيض الدمع: حبسه وأخفاه.

(٢) الحديث مذكور في (مصباح الشريعة): الباب التاسع، وفي (مستدرك الوسائل): ١ / ٣٧ ـ ٣٨، كتاب الطهارة. وفي الموضعين اختلاف كثير عما ذكر هنا، فصححناه كما كان في الموضعين.

فصل
(ما ينبغي للمؤمن في الطهارة)

ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عند اشتغاله بالطهارة عن الحدث: أن تكليفه بها الدخول في العبادات والمناجاة مع خالق البريات إنما هو لكون اعضائه التي أمر بغسلها مباشرة للأمور الدنيوية، منهمكة في الكدورات الطبيعية، فخرجت عن أهلية القيام بين يدى الله سبحانه، والاشتغال بعبادته. فالأمر بغسلها، لتتطهر عن هذه الكدورات، فيتأهل للمناجاة. ولا ريب في أن مجرد غسلها لا يطهرها عن الأدناس الدنيوية والكدورات الجسمانية، ما لم يطهر قلبه عن الأخلاق الذميمة، والعلائق الدنيوية، وما لم يعزم على الرجوع إلى الله، والانقطاع عن الدنيا وشهواتها. فينبغي أن يكون قلبه عند الطهارة مطهراً عن ذمائم الصفات وخبائث الشهوات، جازماً على فطام الأعضاء التي هي اتباعه وخدامه عن شهوات الدنيا، لتسرى نوريته وطهارته إلى تلك الأعضاء، ثم أمر في الوضوء أولاً: بغسل الوجه، الذي هو مجمع أكثر الحواس الظاهرة، التي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا، ليتوجه ويقبل بوجه القلب على الله، وهو خال من تلك الأدناس، وثانياً: بغسل اليدين، لمباشرتهما أكثر الأمور الدنيوية والمشتهيات الطبيعية المانعة من الإقبال على الآخرة، وثالثاً: بمسح الرجلين، للتوصل بهما إلى أكثر المطالب الدنيوية، والمقاصد الطبيعية. فأمر بتطهير جميعها ليسوغ له الدخول بها في العبادات والإقبال عليها.وأمر في الغسل بغسل جميع البشرة، لأن أدنى حالات الانسان وأشدها تعلقاً بالملكات الشهوية حالة الوقاع، ولجميع بدنه مدخل في تلك الحالة. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «تحت كل شعرة جنابة». فحيث كان جميع بدنه بعيداً عن المرتبة العلية، منغمساً في اللذات الدنية، كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية، ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة، والدخول في العبادة المنيفة. وأمر في التيمم بمسح الأعضاء بالتراب، عند تعذر غسلها بالماء، وضعاً لتلك الأعضاء الرئيسة، وهضماً لها بملاقاتها أثر التربة

الخسيسة.

ثم لما كان القلب هو الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والأعضاء، والمستخدم لها في تلك الأمور المبعدة عن جنابه تعالى، وهو الموضع لنظر الله سبحانه، كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»، فله من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكمل. فيكون الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير الأعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل. وإذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرذيلة، وتحليته بالأوصاف الجميلة، لرسوخه على حب الدنيا الدنية، فليقمه في مقام الهضم والازراء، ويسقه بسياط الذل والإغضاء. كما أنه عند تعذر غسل الأعضاء بالماء يهضمها ويذللها بالوضع على التراب، عسى أن يرحم ربه تواضعه وانكساره، فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع، فإنه عند المنكسرة قلوبهم، كما ورد في الأثر، فترق من هذه الاشارات ونحوها إلى ما يوجب لك الإقبال، ويتدارك سالف الإهمال.

ثم ما ذكر من السرّ في الطهارة، يمكن استنباطه ـ مع الزيادة ـ من كلام مولانا الصادق عليه السلام في (مصباح الشريعة) حيث قال: «إذا أردت الطهارة والوضوء، فتقدّم إلى الماء تقدّمك إلى رحمة الله، فإن الله تعالى قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته، ودليلا إلى بساط خدمته، وكما أن رحمة الله تطهر ذنوب العباد، كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لا غيره، قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[١].

وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

فكما أحيى به كل شيء من نعيم الدنيا، كذلك برحمته وفضله جعل حياة

---

(١) الفرقان، الآية: ٤٨.

(٢) الأنبياء، الآية: ٣٠.

القلوب بالطاعات. وتفكر في صفاء الماء ورقته، وطهره وبركته، ولطيف امتزاجه بكل شيء. واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله بتطهيرها، وتعبدك بآدابها في فرائضه وسننه. فان تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة، فإذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب. ثم عاشر خلق الله تعالى كإمتزاج الماء بالأشياء، يؤدى كل شيء حقه، ولا يتغير عن معناه، معتبراً لقول الرسول ﷺ: (مثل المؤمن الخالص كمثل الماء). ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعتك كصفوة الماء حين انزله من السماء وسماه طهورا، وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء»(١).

ومن الأسرار الواردة في الطهارة وتخصيص بعض الأعضاء بالتطهير في الوضوء، ما أشار إليه مولانا الرضا عليه السلام بقوله: «إنما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهراً إذا قام بين يدى الجبار عند مناجاته إياه، مطيعاً له فيما أمره، نقياً من الأدناس والنجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل، وطرد النعاس، وتزكية الفؤاد للقيام بين يدى الجبار. وإنما وجب ذلك على الوجه واليدين والرأس والرجلين، لأن العبد إذا قام بين يدى الجبار، فانما ينكشف من جوارحه ويظهر ما يجب فيه الوضوء، وذلك أنه بوجهه يسجد ويخضع، وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده، وبرجليه يقوم ويقعد. وامر بالغسل من الجنابة دون الخلاء، لأن الجنابة من نفس الانسان، وهو شيء يخرج من جميع جسده، والخلاء ليس هو من نفس الانسان، إنما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب»(٢).

---

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة)، الباب العاشر. وعلى (المستدرك): ١ / ٥١ ـ ٥٢، كتاب الطهارة.

(٢) هذه الرواية نقلها العلامة (المجلسی) رحمه الله في (البحار): ١٨ / ٥٦، باب علل الوضوء وثوابه وعقاب تركه، وعن (العيون والعلل) لشيخ المحدثين مولانا (الصدوق) ـ رضوان الله عليه ـ، (ولم أعثر عليها إلا في

فصل
(ازالة الاوساخ)

ينبغي لكل مؤمن أن يطهر بدنه من فضلاته ودرنه وأوساخه، كشعر الرأس بالحلق، وشعر الأنف والشارب وما طال من اللحية بالقبض، وشعر الإبط والعانة وسائر الأعضاء بالنورة، وكأظفار اليدين والرجلين بالقلم، وما يجتمع من الوسخ والقمل في شعر الرأس واللحية بالغسل والتسريح بالمشط، وما يجتمع من الوسخ في معاطف الاذنين بالمسح ومثله، وما يجتمع منه على الاسنان وأطراف اللسان بالسواك والمضمضة، وما يجتمع في الأنف من الرطوبات الملتصقة بالاستنشاق، وما يجتمع من الوسخ تحت الأظفار بالقلم والغسل، وما يجتمع منه في رؤس الأنامل وفي معاطف ظهورها عقيب أكل الطعام بالغسل، وما يجتمع من الدرن على جميع بدنه، وترشيح العرق وغبار الطريق بالدخول في الحمام.

تنبيه
(آداب الحمام)

ينبغي لمن يدخل الحمام، أن يتذكر بحرارته حرّ النار، ويقدر نفسه محبوساً في البيت ساعة، ويقيسه إلى جهنم، ويستعيذ بالله منها. قال الصادق عليه السلام: «فإذا دخلت البيت الثالث، فقل:نعوذ بالله من النار ونسأله الجنة. وترددها إلى وقت خروجك من البيت الحار». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «نعم البيت الحمام، يذهب بالدرن، وتذكر

الموضع المذكور من (بحار الانوار).

ولا يخفى أن ما نقله العلامة (المجلسى) ـ قدس الله روحه ـ في الموضع المذكور فيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) الخطية والمطبوعة، بحيث لا يمكن تصحيح الرواية إلا بنقلها من (البحار) وذكرها في هامش الكتاب. وذلك غير ممكن، لضيق المقام، فلأجله تركنا تصحيحها، لعل القارىء الكريم يقف على مصدر آخر لها. فمن أراد الاطلاع على الرواية، فعليه بمراجعة (البحار) في الموضع المذكور.

فيه النار». وفيه اشارة إلى أنه ينبغى للعاقل ألا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة، فإنها مقره ومستقره. فيكون له في كل ما يراه، من ماء أو نار أو غيرهما، عبرة وموعظة. فإن المرأ ينظر في كل شيء بحسب همته. فالبزاز إذا دخل داراً معمورة مفروشة ينظر إلى الفرش ويتأمل في قيمتها. والحائك إذا دخلها ينظر إلى الثياب ويتأمل في كيفية نسجها، والنجار إذا دخلها ينظر إلى أبوابها وشبابيكها ويتأمل في كيفية نجرها وتركيبها، والبناء إذا دخلها ينظر إلى الحيطان والسقف وكيفية بنائها وإحكامها واستقامتها. فكذلك سالك طريق الآخرة، لا ينظر إلى شيء إلا وتكون له موعظة وعبرة من الآخرة، فإن نظر إلى ظلمة تذكر ظلمة اللحد، وإن نظر إلى نار تذكر نار جهنم، وإن نظر إلى حية تذكر أفاعى جهنم، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور، وإن نظر إلى صورة قبيحة تذكر صورة النكيرين والزبانية، وإن رأى المحاسبة بين قوم تذكر محاسبة الآخرة، وإن سمع كلمة رد أو قبول تذكر ما ينكشف له في آخر أمره بعد الحساب من الردّ والقبول، وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة... إلى غير ذلك.

تتميم
(السر في إزالة الأوساخ)

السر في إزالة الفضلات المذكورة عن البدن ظاهر، فإنها توجب تنوير القلب، وانشراح الصدر، وطرد الشيطان. إذ هي كسافات مانعة عن النورية والتجرد، فتشمئز منها الملائكة، ويرغب إليها الشياطين. ومن تأمل في الأحكام والآداب التي جاء بها رسول الله ﷺ وكانت له بصيرة ناقدة، يعلم أن شيئاً منها لا يخلو عن حكمة، حتى أن ما صدر عنه في الآداب والحركات والأفعال والأقوال، من ترتيب خاص، أو تخصيص بعدد معين، أو ابتداء من موضع خاص، أو بواحد معين من الأشياء المتماثلة، يتضمن او حكمة البتة. مثال ذلك: أنه ﷺ كان يكتحل في عينه اليمنى

ثلاثاً وفي عينه اليسرى اثنين، والسر في هذا الترتيب وهذا التخصيص: أن اليمنى أشرف العينين فبدأ بها، وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وتراً، فإن للوتر فضلاً على الزوج، لأن الله وتر يحب الوتر، فلا ينبغي أن يخلو فعل العبد عن مناسبة لوصف من أوصاف الرب، وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر، لأن اليسرى حينئذ لا تخصها إلا واحدة، والغالب أن الواحدة لا تستوعب اصول الأجفان بالكحل، وإنما خصص اليمين بالزيادة لأن التفضيل لا بد منه للايثار، واليمين أفضل، فهو بالزيادة أحق، وإنما اقتصر على الاثنين لليسرى مع كونه زوجاً، إذ الزوجية في احداهما لازمة ضرورية، اذ لو جعل لكل واحدة وتراً لكان المجموع زوجاً، إذ الوتر مع الوتر زوج، ورعاية الإيثار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته في الآحاد.

مثال آخر: روى الجمهور في تقليم الأظفار: «أن رسول الله ﷺ كان يبدأ عند تقليم أظفاره الشريفة بمسبحة اليمنى، ويختم بابهام اليمنى، بأن يبتدىء من مسبحتها إلى خنصرها، ثم يبتدىء من خنصر اليسرى إلى ابهام اليمنى». وفي طريقنا روايتان: احداهما أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى، واخراهما بعكس ذلك، وهي أشهر. فالسر على رواية الجمهور ـ كما قيل ـ أن اليد اليمنى أشرف من اليسرى فيبتدىء بها، ثم على اليمنى خمسة اصابع والمسبحة أشرفها فيبتدأ بها، ثم ينبغي أن يبتدىء بماعلى يمينها لكون اليمنى أشرف، ولذا استحب في الشرع وضع الطهور وغيره على اليمنى. ولا ريب في أنه إذا وضعت الكف على الأرض فيمين مسبحة اليمنى هي الوسطى، ووضع ظهر اليد على الأرض وان اقتضى كون الابهام هو اليمين، إلا أن الاعتبار الأول أولى، إذ اليد إذا تركت بطبعها كانت الكف مائلة إلى جهة الأرض، لأن جهة حركة اليد اليمنى إلى جهة اليسار، واليسرى إلى جهة اليمين، واستتمام حركة كل منهما في جهة يجعل الكف على الأرض وظهرها عالياً، وإذا كانت الكف مائلة إلى جهة الأرض فاعتبار ما يقتضيه الطبع أولى، فتكون يمين المسبحة هي الوسطى. ثم إذا وضعت الكف على الكف، صارت الأصابع في حكم

حلقة دائرة، فيقتضي ترتيب الدور الذهاب من يمين المسبحة إلى أن يعود إلى المسبحة، فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بابهامها، ويبقى ابهام اليمنى، وانما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الاصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها، وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف، فإن ذلك لا يقتضيه الطبع.

هذا، وأما السرّ على الرواية الأولى من طريقنا، فكأنه اعتبار الاصابع العشرة في حكم صف واحد ثابت على الأرض، والابتداء باليمين، فاكتفى بما يرى بالنظر الجليل مع ترك اليد بطبعها. وأما الرواية الثانية، فلعل السر فيها تحصيل التيامن في كل اصبع بعد الاولى مع الترتيب فيها، ووضع اليدين على ما يقتضيه الطبع. هذا، وأما اصابع الرجل، فلم نعثر على خبر يدل على كيفية الابتداء والترتيب فيها. فينبغى اعتبار أحد الطريقين المرويين عندنا فيها، ولعل اعتبار الأولى لأظهرية سرها أولى، وينبغى أن يكون تقليم اظفارها بعد تقليم اظفار اليدين إن وقعا في وقت واحد، إذ اليد أشرف من الرجل. وقس على ما ذكر سائر ما ورد من الآداب والتخصيصات، فإنه لا يخلو شيء منها على سر حكمى، وإن كانت عقولنا قاصرة عن ادراك أكثرها.

المقصد الثاني
(الصلاة)

الصلاة ـ حقيقة الصلاة ـ حضور القلب ـ دفع اشكال ـ شرائط الصلاة ـ طريق تحصيل المعانى الباطنة ـ اسرار الصلاة ـ الوقت ـ آداب الصلاة ـ آداب المصلى ـ الاستقبال ـ القيام ـ التكبيرات ـ النية ـ تكبيرة الاحرام ـ دعاء الاستفتاح ـ الاستعاذة ـ الركوع ـ السجود ـ التشهد ـ التسليم ـ افاضة الأنوار على المصلى على قدر صفائه ـ ما ينبغى في إمام الجماعة ـ ما ينبغى في صلاة الجمعة والعيدين ـ ما ينبغى للمؤمن عند ظهور الآيات.

إعلم أن الصلاة معجون سماوى، وتركيب إلهى، ركبت من اجزاء كثيرة مختلفة، متفاوتة في الفضل والاهتمام بها. فبعضها بمنزلة الروح، وبعضها بمثابة الأعضاء الرئيسية، وبعضها بمنزلة سائر الأعضاء.

وتوضيح ذلك: أن الانسان ـ مثلا ـ لما كان حقيقة مركبة من اجزاء معينة، فهو لا يكون انسانا موجوداً كاملا إلا بمعنى باطن هو الروح، وأعضاء محسوسة بعضها في جوفه وبعضها في ظاهره. وهذه الأعضاء متفاوتة المراتب، إذ بعضها مما ينعدم الانسان بعدمه وتزول الحياة بزواله، كالقلب والدماغ والكبد والمعدة وأمثالها، وبعضها وإن لم ينعدم بعدمه أصل الحياة، إلا أنه ترتفع به تمامية الانسان ويصير ناقصاً، كاليد والرجل والعين وأمثالها، وبعضها يفوت بفواته الحسن، كالحاجبين واللحية والاهداب وأمثالها، وبعضها يفوت بفواته كمال الحسن لا اصله، كاستقواس الحاجبين، وتناسب الخلقة، وسواد شعر اللحية، وامتزاج البياض بالحمرة، وامثال ذلك. وكذلك الصلاة حقيقة مركبة، وصورة صورها الشرع من امور متفاوتة، وتعبدنا باكتسابها. فروحها: النية، والقربة، وحضور القلب، والاخلاص. واعمالها الاركانيه: من تكبيرة الاحرام، والركوع، والسجود، والقيام، بمنزلة الاعضاء الرئيسة، فتفوت بفواتها الصلاة على الاطلاق، ولا يمكن تحققها وصحتها بدونها. وسائر الأعمال الواجبة: من الفاتحة، والسورة، واذكار الركوع، والسجدتين، والطمأنينة فيهما، وفي رفع الرأس عنهما، والتشهد، والتسليم، وغير ذلك من الأعمال الواجبة التي تبطل الصلاة بتركها عمداً لا سهواً، بمنزلة اليدين والرجلين وآلات التناسل وغير ذلك، مما قد تفوت الحياة بزوالها وقد لا تفوت به، والأعمال المسنونة، والهيئات المندوبة، والآداب المستحبة: من القنوت، ودعاء الافتتاح، وغير تكبيرة الاحرام من التكبيرات، والتعوذ، والزائد عن قدر الواجب في التشهد والتسليم من الاذكار، وغير ذلك مما لا تبطل الصلاة بتركها عمداً أو سهواً، ولكن تخرج بها عن الحسن والكمال وزيادة الأجر والثواب، فهى بمنزلة الحاجبين واستقواسهما واللحية والأهداب وتناسب

الخلقة، وغير ذلك مما يفوت بفوات بعضها الحسن والجمال وبفوات بعض كمالها، ويصير الشخص بسببه مشوّه الخلقة مذموماً غير مرغوب فيه.

وإذا عرفت ذلك: فاعلم ـ يا حبيبي ـ أن صلاتك قربة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك، كوصيفة يهديها طالب القرب والجاه من السلاطين اليهم. وهذه التحفة تعرض على الله ثم ترد اليك في يوم العرض الأكبر، فاليك الخيرة في تحسين صورتها أو تقبيحها، فمن أدّاها على النحو المأمور به، باعمالها الواجبة والمندوبة، وشرائطها الظاهرة والباطنة، مع الاخلاص وحضور القلب، كان كمن أهدى عبداً صحيحاً سويّا شابا جميلا عاقلا كاملا إلى ملك من الملوك. ومن اقتصر على اعمالها الظاهرة، وغفل من الحضور والتوجه والقربة والاخلاص، كان كمن أهدى عبداً ميتاً بلا روح إلى ملك من الملوك. ومن ترك عمداً شيئاً من واجباته، كان كمن أهدى عبداً مقتولا إليه. ومن اقتصر على أقل ما يجزى كان كمن أهدى إليه عبد حى أعمى، أو أصم، أو أبكم، أو مقطوع الأطراف، أو هرماً، أو قبيح المنظر، أو مجروح الأعضاء، أو أمثال ذلك. فتنبه أيها الغافل، وتأمل في أنك إذا اهديت تحفة إلى ملك من ملوك الدنيا، بل إلى من دونه بمراتب كثيرة، من الأمراء والحكام، كيف تجتهد وتسعى في تجويدها وتحسينها ليقبلها، فما بالك أيها المغرور تغفل وتتساهل من تحسين هديتك وتحفتك إلى ملك الملوك الذي منه بدؤك وإليه عودك؟! وقد ورد: أن كل صلاة لا يتم الانسان ركوعها وسجودها فهى الخصم الأول على صاحبها يوم العرض الأكبر، وتقول: «ضيعك الله كما ضيعتني!».

فصل

(حقيقة الصلاة)

لا بحث لنا عما يتعلق بظاهرها من الأجزاء والشرائط والأحكام، إذ بيانها على عهدة الفقه. فلنشر إلى المعاني الباطنة التي بها تتم حياتها، وإلى الأسرار والآداب

الخفية الباطنة المتعلقة باجزائها وشرائطها الظاهرة، لتكون ملحوظة للعبد عند فعلها.

فنقول: المعانى الباطنة، التي هي روح الصلاة وحقيقتها، سبعة:

الأول ـ الاخلاص والقربة، وخلوّها عن شوائب الرياء. وقد تقدم تفصيل القول في ذلك.

الثاني ـ حضور القلب: وهو أن يفرّغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، حتى يكون العلم مقرونا بما يفعله وما يقوله، من غير جريان الفكر في غيرهما. فمهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه من غير غفلة عنه، فقد حصل حضور القلب. ثم حضور القلب قد يعبر عنه بالاقبال على الصلاة والتوجه، وقد يعبر عنه بالخشوع بالقلب، فإن الخشوع في الصلاة خشوعان: خشوع بالقلب: وهو أن يتفرغ لجمع الهمة لها، والإعراض عما سواها، بحيث لا يكون في قلبه غير المعبود. وخشوع بالجوارح: وهو أن يغض بصره، ولا يلتفت، ولا يعبث، ولا يتثاءب، ولا يتمطى، ولا يفرقع أصابعه، وبالجملة: لايتحرك لغير الصلاة، ولا يفعل شيئاً من المكروهات، وربما عبر ذلك بالخضوع.

الثالث ـ التفهم لمعنى الكلام: وهو أمر وراء حضور القلب. فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ، ولا يكون حاضراً مع معناه. فالمراد بالتفهم هو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ. وهذا مقام يتفاوت فيه الناس، إذ ليس يشترك الناس في تفهم معانى القرآن والتسبيحات، فكم من معان لطيفة يفهمها بعض المصلين في اثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك ولا يفهمها غيره. ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تفهم اموراً تمنع تلك الامور عن الفحشاء والمنكر لا محالة.

الرابع ـ التعظيم: وهو أمر وراء حضور القلب والتفهم. إذ الرجل ربما يخاطب غيره، وهو حاضر القلب فيه، ومتفهم لمعناه، ولا يكون معظما له.

الخامس ـ الهيبة: وهي زائدة على التعظيم، لانها عبارة عن خوف منشأه

التعظيم، لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً. ثم كل خوف لا يسمى مهابة، بل الهيبة خوف مصدره الإجلال.

السادس ـ الرجاء: ولا ريب في كونه زائداً عما ذكر. فكم من رجل يعظم ملكا من الملوك، ويهابه ويخاف سطوته ولا يرجو بره واحسانه. والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله، كما أنه خائف بتقصيره عقابه.

السابع ـ الحياء: ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب، وهو زائد على التعظيم والخوف والرجاء، لتصورها من غير حياء، حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب.

فصل

(حضور القلب)

إعلم أن كون الأمور المذكورة روح الصلاة وحقيقتها،والمقصود الاصلى منها، أمر ظاهر. إذ الغرض الأصلى من العبادات والطاعات هي تصفية النفس وتصقيلها، فكل عمل يكون اشد تأثيراً فيهما يكون أفضل. ولا ريب في أن المقتضى لصفاء النفس وتجردها وتصقيلها عن الكدورات من الصلاة ليس إلا الأمور المذكورة، وليس لنفس الحركات الظاهرة كثير مدخلية فيها، وكيف لا يكون حضور القلب والخشوع روح الصلاة ولا يتوقف كمال الصلاة عليه، مع أن المصلى في صلاته ودعائه مناج ربه؟ ولا شك أن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة، وأيضاً الكلام إعراب عما في الضمير، ولا يتأتى الإعراب عما في الضمير إلا بحضور القلب، فاى سؤال في قوله: «إهدنا الصراط المستقيم» إذاكان القلب غافلا؟ ولا شك أيضاً أن المقصود من القراءة والاذكار الثناء والحمد والتضرّع والدعاء، والمخاطب هو الله تعالى، فإذا كان قلب العبد محجوبا عنه بحجاب الغفلة، ولا يراه ولا يشاهده، بل كان غافلا عن المخاطب، ويحرك لسانه بحكم العادة، فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي

شرّعت لتصقيل القلب، وتجديد ذكر الله، ورسوخ عقد الايمان بها. هذا حكم القراءة والذكر. وأما الركوع والسجود، فالمقصود منهما التعظيم قطعاً، والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة، وإذا خرج عن كونه تعظيما، لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس، وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به، كما في أفعال الحج، واعطاء المال في الزكاة، وامساك النفس عن الشهوات في الصوم. فكيف يجعل مجرّد هذه الحركة مع خفتها وسهولتها عماد الدين، والفاصل بين الكفر والاسلام، وتقدم على سائر العبادات، ويجب القتل بسبب تركها على الخصوص، ولكون الحضور والخشوع والخشية عمدة ما يقصد به من الصلاة، تظاهرت الآيات والأخبار على الترغيب عليها وفضيلتها ومدح اهلها، وعلى ذم الغفلة والتفكر في امور الدنيا والوساوس الباطلة عند الاشتغال بالصلاة، وقد تظاهرت الأخبار أيضاً بأن الأنبياء والأوصياء واكابر الاولياء كانوا عند اشتغالهم في الصلاة في غاية الإقبال والخشوع والخوف. قال الله سبحانه:

﴿**ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ**﴾(١). وقال: ﴿**وَ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِى**﴾(٢). والغفلة تضاد الذكر، فمن كان غافلا في صلاته لا يكون مقيما للصلاة لذكره. وقال: ﴿**وَ لَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ**﴾(٣). وقال: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾(٤)، ذمهم على الغفلة عنها مع كونهم مصلين، لا لأنهم سهوا عنها وتركوها. وقال: ﴿**لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ أَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**﴾(٥).

قيل المراد: سكارى من كثرة الهم، وقيل: من حب الدنيا، ولو حمل على ظاهره

(١) المؤمنون، الآية: ٢.

(٢) طه، الآية: ١٤.

(٣) الأعراف، الآية: ٢٠٥.

(٤) الماعون، الآية: ٤ ـ ٥.

(٥) النساء، الآية: ٤٣.

ففيه تنبيه على سكر الدنيا، إذ بين فيه العلة. وقال: حتى تعلموا ما تقولون. وكم من مصل لم يشرب الخمر وهو لا يعلم ما يقول في صلاته. وقال رسول الله ﷺ: «من صلى ركعتين، لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا، غفر له ما تقدم من ذنبه». وقال ﷺ: «إذا صليت صلاة فريضة فصل لوقتها صلاة مودّع يخاف ألا يعود فيها». وقال ﷺ: «لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه». وقال ﷺ: «إنما فرضت الصلاة، وامر بالحج والطواف، واشعرت المناسك، لإقامة ذكر الله، فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة، فما قيمة ذكرك؟!».

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال الله تبارك وتعالى: انما أقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، ويكف نفسه عن الشهوات من أجلي، ويقطع نهاره بذكرى، ولا يتعاظم على خلقي، ويطعم الجائع، ويكسو العارى، ويرحم المصاب، ويؤوى الغريب، فذلك يشرق نوره مثل الشمس، أجعل له في الظلمات نوراً، وفي الجهالة علماً، أكلأه بعزتي، واستحفظه بملائكتي، يدعونى فألبيه، ويسألنى فأعطيه. فمثل ذلك عندى كمثل جنات الفردوس، لا تيبس ثمارها، ولا تتغير عن حالها»(١). وفي اخبار موسى: «يا موسى، إذا ذكرتنى فاذكرنى وأنت تبغض اعضاءك، وكن عند ذكرى خاشعاً مطمئناً. وإذا ذكرتنى فاجعل لسانك من وراء قلبك. وإذا قمت بين يدى فقم قيام العبد الذليل، وناجنى بقلب وجل، ولسان صادق». وأوحى اليه عليه السلام: «قل لعصاة أمتك: لا تذكرونى، فانى آليت على نفسى أن من ذكرنى ذكرته، وإذا ذكرونى ذكرتهم باللعنة». وفي بعض الأحاديث القدسيه: «ليس كل مصل أتقبل صلاته، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي، ولم يتكبر على عبادى، وأطعم الفقير الجائع

(١) الحديث مروى في (بحار الأنوار): ١٨ / ١٩٦، باب آداب الصلاة عن (المحاسن)، وفيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات)، فصححناه على الموضع المذكور من (بحار الأنوار).

لوجهي». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشتغل قلبه بما تراه عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع اذناه، ولم يحزن صدره بما اعطى غيره». وقال الصادق عليه السلام: «لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب إلا وجبت له الجنة، فإذا صليت، فاقبل بقلبك على الله عز وجل، فانه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله عز وجل في صلاته ودعائه، إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين، وأيده مع مودتهم إياه بالجنة». وقال الباقر عليه السلام: «إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها وثلثها وربعها وخمسها، فما يرفع له إلا ما أقبل عليه بقلبه، وإنما امروا بالنوافل ليتم لهم ما نقصوا من الفريضة». وروى: «أن ابراهيم الخليل كان يسمع تأوهه على حد ميل، وكان يسمع له في صلاته أزيز كأزيز المرجل»[1]. وكذلك كان يسمع من صدر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله مثل ذلك. وقال بعض أزواجه: «كان النبي صلى الله عليه وآله يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه». وكان أمير المؤمنين عليه السلام إذا أخذ في الوضوء، يتغير وجهه من خيفة الله. وكان عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون، فقيل له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: «جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الانسان». وروى: «أنه وقع نصل في رجله عليه السلام، فلم يمكن أحداً من اخراجه. فقالت فاطمة عليها السلام: أخرجوه في حال صلاته فإنه لا يحسّ حينئذ بما يجرى عليه. فاخرج وهو في صلاته، فلم يحس به أصلاً». وكانت الصديقة فاطمة عليها السلام تنهج[2] في الصلاة من خيفة الله. وكان الحسن بن علی علیهما السلام إذا فرغ من وضوئه، تغير لونه، فقيل له في ذلك، فقال: «حق على من أراد أن يدخل على ذى العرش أن يتغير لونه». وكان الإمام على بن الحسين علیهما السلام إذا توضأ اصفر لونه، فيقال له: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: «إني أريد الوقوف بين يدى ملك عظيم». وقال أبو حمزة الثمالى:

(١) الأزيز: صوت غليان القدر. والمرجل ـ وزان منبر ـ: القدر من الحجارة.

(٢) النهج ـ بالتحريك ـ: تتابع النفس واللهاث.

«رأيته يصلي، فسقط رداؤه عن منكبه، فتركه حتى فرغ من صلاته، فسألته عن ذلك، فقال: ويحك! أتدري بين يدي من كنت؟ شغلني والله ذلك عن هذا! أتعلم أنه لا يقبل من صلاة العبد الا ما أقبل عليه؟ فقلت له: يابن رسول الله، هلكنا اذاً. قال: كلا! ان الله يتم ذلك بالنوافل». وروى: «أنه عليه السلام إذا قام إلى الصلاة تغير لونه، وإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفضّ عرقاً». وروى: «أنه عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة كأنه ساق شجرة، لا يتحرك منه إلا ما حركت الريح منه». وسئل مولانا الصادق عليه السلام عن حالة لحقته في الصلاة حتى خرّ مغشياً عليه، فقال: «ما زلت أكرّر آيات القرآن، حتى بلغت إلى حال كأنني سمعتها مشافهة ممن أنزلها»[1]. قيل: وكان لسان الإمام عليه السلام في تلك الحال كشجرة طور حين قالت: «اني أنا الله». وسئل بعض الأكابر عن صلاته، فقال: «إذا جاءت الصلاة، أسبغت الوضوء، وأتيت الموضع الذي اريد الصلاة فيه، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى الصلاة، فأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي، وأظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر تكبيراً بتحنن، وأقرأ القرآن بترتيل، وأركع ركوعاً بتواضع، وأسجد سجوداً بتخشع، وأقعد على الورك اليسرى، وأفرش ظهر قدمها، وانصب القدم اليمنى على الابهام وأتبعها الاخلاص، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا!».

ثم، على ما عرفت من كيفية صلاة الأنبياء والأولياء، مع مشاهدة كيفية صلاتك وصلاة الناس، تعلم: أن الناس ينقسمون في صلاتهم: إلى غافل يتمّ صلاته ولا يحضر قلبه في لحظة. وإلى من يغفل في بعض صلاته ويحضر قلبه في بعض منها، وهذا تختلف حاله بحسب قلة كل من الحضور والغفلة وكثرتهما، وزيادة احدهما على الآخر، فله مراتب غير متناهية. وإلى من يتم صلاته ولا يغيب قلبه لحظة، بل يكون

(١) صححنا الأحاديث الواردة في الصلاة على (بحار الأنوار): ١٨ / ١٦٩ ـ ٢٠٢، باب آداب الصلاة.

حاضر القلب في جميع صلاته، وربما كان مستوعب الهم بها، بحيث لا يحس بما يجرى بين يديه، كما لم يحس مولانا أمير المؤمنين عليه السلام باخراج النصل من رجله الشريفة. وبعضهم حضر الجماعة مدة، ولم يعرف قط من على يمينه ويساره. وكان وجيب الخليل يسمع على ميلين. وكان جماعة تصفرّ وجوههم، وترتعد فرائصهم عند الصلاة. وكل ذلك غير مستبعد، فان اضعافه مشاهدة في همّ الدنيا وخوف ملوك الدنيا، مع ضعفهم وعجزهم، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم. حتى يدخل الرجل على ملك أو وزير، ويحدثه بمهم ويخرج، ولو سئل عمن كان على حواليه، وعن ثوب الملك، لكان غير قادر على الإخبار عنه، لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾[1].

فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه. فان موضع نظر الله القلوب، دون ظاهر الحركات. ولذا قال بعض الصحابة: «يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة، من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعم واللذة والبهجة بها»، فالملحوظ حال القلب لا حال الشخص. ولذا قيل: «من صفات القلوب تصاغ الصور في دار الآخرة، ولا ينجو:

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]».

تنبيه

(دفع اشكال)

إن قيل: المستفاد من الظواهر المذكورة، أن صلاة الغافل ليست مقبولة إلا بقدر

(١) الأنعام، الآية: ١٣٢. الأحقاف، الآية: ١٩.

(٢) الشعراء، الآية: ٨٩.

ما أقبل عليه منها، والفقهاء لم يشترطوا إلا حضور القلب عند النية والتكبير، فكيف التوفيق؟

قلنا: فرق بين القبول والإجزاء، فإن المقبول من العبادة ما يقرب العبد إلى الله، ويترتب عليه الثواب في الآخرة، والمجزى منها ما يسقط التكليف عن العبد، وإن لم يترتب عليه ثواب ولم يقربه إلى الله. والناس مختلفون في تحمل التكليف، فان التكليف إنما هو بقدر الوسع والطاقة، فلا يمكن أن يكلف الجميع باحضار القلب في جميع الصلاة، إذ لا يقدر على ذلك إلا الأقلون. وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة، فلا مردّ له إلا أن يشترط ما ينطلق عليه الاسم، ولو في اللحظة الواحدة، وأولى اللحظات به لحظة التكبير والتوجه، فاقتصر على التكليف بذلك. ونحن ـ مع ذلك ـ نرجوا ألاّ يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية، فانه على الجملة أقدم على الفعل ظاهراً، واحضر القلب لحظة، وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله، ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره؟ والحاصل: أن الاقبال والحضور هو روح الصلاة، وأن أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير، فالنقصان منه هلاك، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في اجزاء الصلاة، وكم من حى لا حراك فيه قريب من الميت، فصلاة الغافل في جميعها، إلا عند التكبير، حى لا حراك فيه.

فصل

(شرائط الصلاة)

اعلم أن للمعانى الباطنة المذكورة اسبابا لا تتحقق بدونها.

أما حضور القلب: فسببه الاهتمام.

فإن قلت: كل احد تابع لهمه، فلا يحضر إلا فيما يهمه، ومهما أهمه أمر حضر فيه قلبه، شاء أو لم يشأ، فهو مجبول عليه مسخر فيه، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة

لم يكن متعطلا، بل كان حاضراً فيما يهمه من امور الدنيا، فلا حيلة ولا علاج لاحضار القلب في الصلاة إلا بصرف الهمة إليها، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتيقن أن الآخرة خير وأبقى، وأن الصلاة وسيلة إليها. وإذا اضيف إلى هذا العلم بحقارة الدنيا ومهانتها، حصل من مجموع ذلك حضور القلب في الصلاة. ولكون الباعث والسبب لإحضار القلب في أمر إنما هو الاهتمام والاعتناء بشأنه، ترى قلبك يحضر إذا حضرت بين يدى ملك من ملوك الدنيا، بل بين يدى بعض الأكابر ممن لا يقدر على نفعك وضرك. فإذا كان لا يحضر قلبك عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت، والنفع والضر، فلا تظنن أن له سبباً سوى ضعف الايمان واليقين. فينبغي حينئذ السعي في تقوية اليقين والايمان.

وأما التفهم: فسببه ـ بعد حضور القلب ـ ادمان الفكر، وصرف الذهن إلى ادراك المعنى. وعلاجه ما هو علاج احضار القلب، مع الاقبال على الفكر، والتشمر لرفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها، أعنى النزوع عن الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها. وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر. فإن من أحب شيئاً أو أبغض شيئاً أو خاف من شيء، أكثر ذكره. فذكر المحبوب والمبغوض والمخوف يهجم على القلب بالضرورة. ولذا ترى أن من أحب غير الله أو كان قلبه مشغولا بعداوة أحد أو بالخوف عنه، لا تصفو له صلاة عن الخواطر.

وأما التعظيم: فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين: إحداهما: معرفة جلال الله وعظمته، فإن من لايعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه، وهذه المعرفة من اصول الايمان. الثانية: معرفة حقارة النفس وخستها وذلتها، وكونها عبداً مسخراً مربوبا لايقدر شيئاً من النفع والضر. وتتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله، فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه، يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة والجلال، ونعوت القدرة والكمال، ولا يكون خاشعاً معظما

له، لأن معرفة حاجة النفس وحقارتها لم تقترن اليه.

وأما الهيبة والخوف: فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله تعالى وسطوته ونفوذ مشيته فيه، مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة، مع تذكر ما جرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع. وكلما زاد العلم بالله وبصفاته وأفعاله زادت الخشية والهيبة.

وأما الرجاء: فسببه معرفة لطف الله تعالى وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة. فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه، انبعث منها الرجاء.

وأما الحياء: فسببه إستشعار التقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وآفاتها، وقلة اخلاصها وخبث باطنها، وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها، مع العلم بجميع ما يقتضيه جلال الله وعظمته، والعلم بأنه مطلع على السرائر وخطرات القلب، وإن دقت وخفيت. وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً، انبعث منها ـ بالضرورة ـ حالة تسمى بالحياء.

فصل

(طريق تحصيل المعاني الباطنة)

اعلم أن العلاج في تحصيل المعاني الباطنة المذكورة، اعني الحضور والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء، هو تحصيل أسباب هذه المعاني، وقد عرفت اسبابها.وطريق العلاج في تحصيل هذه الأسباب انما يتم بأمرين:

الأول ـ معرفة الله، ومعرفة جلاله وعظمته واستناد الكل اليه، ومعرفة كونه عالماً بذرات العالم وبسرائر العباد. ويلزم أن تكون هذه المعرفة يقينية، ليترتب عليها الأثر. اذ ما لم يحصل اليقين بأمر، لا يحصل التشمر في طلبه والهرب عنه. وهذه المعرفة هي المعبر عنها بالايمان. ولا ريب في كونها موجبة لحصول المعاني

المذكورة واسبابها. اذ المؤمن يكون البتة حاضر القلب مع ربه عند مناجاته، ومتفهماً لما يسأله عنه، معظماً له، وخائفاً منه، وراجياً منه، ومستحيياً من تقصيره.

الثاني ـ فراغ القلب، وخلوّه من مشاغل الدنيا. فإن انفكاك المؤمن العارف، المتقين بالله وبجلاله وعظمته، وباطلاعه عليه من المعانى المذكورة في صلاته، لا سبب له إلا تفرق الفكر، وتقسم الخاطر، وغيبة القلب عن المناجاة، والغفلة عن الصلاة، ولا تلهى عن الصلاة إلا الخواطر الردية الشاغلة. فالدواء في احضار القلب هو دفع كل تلك الخواطر، ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه.

وسبب توارد الخواطر، إما أن يكون أمراً خارجاً، أو أمراً في ذاته باطناً.

والأول: ما يظهر للبصر، اويقرع على السمع. فإن ذلك قد يختطف الهمّ حتى يتبعه، ويتصرف فيه ثم ينجر منه الفكر إلى غيره، ويتسلسل فيكون الإبصار اوالاستماع سبباً للافتكار، ثم يصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض. ومن قويت رتبته وعلت همته، لم يلهه ما يجرى على حواسه. ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق فيه فكره. فعلاجه: قطع هذه الأسباب، بأن يغض بصره، أو يصلى في بيت مظلم، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه، ويقرب من حائط عند صلاته، حتى لا تتسع مسافة بصره، ويتحرز من الصلاة على الشوارع، وفي المواضع المنقوشة المصبوغة، والعمارات العالية المرتفعة. ولذلك كان المتعبدون يصلون في بيت مظلم صغير، سعته بقدر السجود، ليكون أجمع للهم. والأقوياء كانوا يحضرون المساجد، ويغضون البصر، ولا يجاوزونه موضع السجود، وكما ورد الأمر به، ويرون كمال الصلاة في ألا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم.

وأما الثاني: اعنى الأسباب الباطنة، فهى أشد. فإن من تفرقت همومه، وتشعبت خواطره في أو دية الدنيا، لم ينحصر فكره في فنّ واحد، بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب. وغض البصر لا يغنيه، فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل. فهذا علاجه: أن يرد نفسه قهراً إلى فهم ما يقرؤه، ويشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك

أن يستعد له قبل التحريم، بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة، وخطر المقام بين يدى الله تعالى، وهول المطلع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه من أمر الدنيا، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره، فهذا طريق تسكين الأفكار. فإن لم تسكن أفكاره بهذا الدواء المسكن، فلا ينجيه إلا المسهل الذي يقمع مادة الداء من اعمال العروق، وهو أن ينظر في الأمور الشاغلة الصارفة له عن احضار القلب. ولا ريب في أنها تعود إلى مهماته، وهي إنما صارت مهمة لأجل شهواته، فليعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق. فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه، وجند ابليس عدوه، فإمساكه أضر عليه من اخراجه، فيتخلص عنه باخراجه. وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة، ولا يغنى غيره. فإن ما ذكر من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر، إنما ينفع في الشهوات الضعيفة، والهمّ الذي لا يشغل إلا حواشى القلب. وأما الشهوة القوية المرهقة، فلا ينفع معها التسكين، بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك، ثم تغلبك وتنقضى جميع صلاتك في شغل المجاذبة. ومثاله مثال رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره، وكانت أصوات العصافير تشوّش عليه، فلم يزل يطيرها بخشبة هي في يده ويعود إلى فكره، فتعود العصافير، فيعود إلى السفير بالخشبة، فقيل له: إن هذا سير الوانى ولا يتقطع، فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة. فكذلك شجرة الشهوة، إذا استعملت وتفرعت اغصانها، انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار، وانجذاب الذباب إلى الأقذار، والشغل يطول في دفعها. فإن الذباب كلما ذب آب، ولأجله سمى ذباباً، وكذلك الخواطر. وهذه الشهوات كثيرة قلما يخلو العبد منها، ويجمعها أصل واحد، وهو حب الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة، وأساس كل نقصان، ومنبع كل فساد. ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لايتزوّد منها ويستعين بها على الآخرة، فلا يطمعن في أن تصفو له لذّة المناجاة في الصلاة. فإن من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله وبمناجاته، وهمة الرجل مع قرة عينه، فإن كانت قرة عينه في الدنيا انصرف همه لا محالة إليها.

ولكن ـ مع هذا ـ لا ينبغي أن تترك المجاهدة، ورد القلب إلى الصلاة، وتقليل الأسباب الشاغلة، فهذا هو الدواء، ولمرارته استبشعته الطباع، وبقيت العلة مزمنة، وصار الداء عضالاً. حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثون أنفسهم فيهما بامور الدنيا، فعجزوا عنه. فاذاً لا مطمع فيه لأمثالنا، وياليت سلم لنا من الصلاة ثلثها أو ربعها من الوساوس، لنكون ممن خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً.

وعلى الجملة: فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح فيه خل، فبقدر ما يدخل فيه الماء يخرج منه الخل لا محالة، ولا يجتمعان. ثم جميع ما ذكر إنما هو في الخواطر المتعلقة بالأمور المهمة من الدنيا، حتى إذا خرجت هذه الامور من القلب، خرجت منه هذه الخواطر ايضاً. وقد تكون الخواطر من مجرد الوساوس الباطنة والخيالات الفاسدة، من دون تعلقها بشغل وعمل دنيوى يكون لها، ومن دون اختيار للعبد في خطورها وعدم خطورها. والأمر فيها أصعب، وإن كان لقلع حب الدنيا وشهواتها عن القلب مدخلية عظيمة في زوالها أيضاً، إذ مادة هذه الوساوس أيضاً، إما حب المال وحب الجاه، أوحب غيرهما من الأمور الشهوية الدنيوية. وقد تقدم تفصيل القول فيها وفي طريق علاجها في بحث الوساوس.

فصل
(أسرار الصلاة)

في تحصيل كل واحد من شروط الصلاة وأفعالها وأركانها أسرار وتنبيهات، فينبغي للمؤمن المريد للآخرة ألا يغفل عنها، فهاهى نذكرها:

أما الأذان: فإذا سمعت نداء المؤذن، فأخطر في قلبك هول النداء يوم القيامة، وتشمر بباطنك وظاهرك للاجابة والمسارعة، فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر، فأعرض قلبك على هذا النداء، فإن وجدته مملوأ بالفرح والاستبشار، مشحونا بالرغبة إلى الابتدار، فاعلم أنه يأتيك النداء

بالبشرى والفوز يوم القضاء، ولذلك قال سيد الأنبياء: «أرحنا يا بلال!»، أى أرحنا بها وبالنداء إليها، إذ كانت قرة عينه فيها. واعتبر بفصول الأذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله، واعتبر بذلك أن الله جل جلاله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، ووطن قلبك بتعظيمه عند سماع التكبير، واستحقر الدنياوما فيها لئلاتكون كاذبا في تكبيرك، وانف عن خاطرك كل معبود سواه بسماع التهليل. وأحضر النبى ﷺ، وتأدب بين يديه، واشهد له بالرسالة مخلصاً، وصلّ عليه وآله، وحرك نفسك، واسع بقلبك وقالبك عند الدعاء إلى الصلاة، وما يوجب الفلاح، وما هو خير الأعمال وأفضلها. وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه، واختمه بذلك كما افتتحت به. واجعل مبدءك منه، وعودك اليه، وقوامك به، واعتمادك على حوله وقوته. فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

فصل

(الوقت)

وإذا دخل الوقت، استحضر أنه ميقات جعله الله لك، لتقوم فيه بخدمته، وتتأمل للمثول في حضرته، والفوز بطاعته، وليظهر على قلبك السرور، وعلى وجهك البهجة عند دخوله، لكونه سبباً لقربك ووسيلة إلى فوزك. فاستعد له بالطهارة والنظافة، ولبس الثياب الصالحة للمناجاة، كما تتأهب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا، وتلقاه بالسكينة والوقار، والخوف والرجاء، واستحضر عظمة الله وجلاله، وعدم تناهى قدرته وكماله، ونقصان قدرك ومرتبتك، وعدم قابليتك للقيام بخدمته، وقصورك عن أداء وظائف طاعته.

فصل
(آداب الصلاة)

إذا اتيت بالطهارة في مكانك، وهو ظرفك الأبعد، ثم في ثيابك، وهو غلافك الأقرب، ثم في بشرتك وهي قشرك الأدنى، فلا تغفل عن لبك وذاتك، وهو قلبك، فطهره بالتوبة والندم على ما فرط، وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فطهر بها باطنك، فإنه موضع نظر ربك. ثم إذا سترت مقابح بدنك عن أبصار الخلق باللباس، فاخطر ببالك فضائح سرك التي لا يطلع عليها إلا ربك، وطالب نفسك بسترها، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله ساتر، وإنما يكفرها الخوف والندم والحياء، فتستفيد بإظهارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والندم والحياء من مكامنها، فتذل به نفسك، ويستكين تحت الخجلة قلبك، وتقوم بين يدى الله تعالى قيام العبد المجرم المسيء الآبق، الذي ندم فرجع إلى مولاه، ناكساً رأسه من الخوف والحياء. قال الصادق عليه السلام: «أزين اللباس للمؤمن لباس التقوى، وأنعمه الايمان، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[1].

وأما اللباس الظاهر، فنعمة من الله تعالى تستر بها عورات بنى آدم، وهي كرامة اكرم الله بها ذرية آدم ما لم يكرم بها غيرهم، وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم. وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله عز وجل، بل يقرّبك من ذكره وشكره وطاعته، ولا يحملك على العجب والرياء والتزيّن والتفاخر والخيلاء، فانها من آفات الدين، ومورثة للقسوة في القلب. فإذا لبست ثوبك، فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته، والبس باطنك بالصدق كما البست ظاهرك بثوبك، وليكن باطنك من الصدق في ستر الهيبة، وظاهرك في ستر الطاعة. واعتبر بفضل الله عز وجل، حيث خلق أسباب اللباس ليستر بها العورات الظاهرة، وفتح أبواب التوبة والانابة والاغاثة

(١) الأعراف، الآية: ٢٦.

ليستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء. ولا تفضح أحداً حيث ستر الله عليك ما اعظم منه. واشتغل بعيب نفسك واصفح عما لا يعنيك حاله وأمره. واحذر أن يفنى عمرك بعمل غيرك، ويتجر برأس مالك غيرك، وتهلك نفسك، فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله في العاجل، وأوفر أسباب العقوبة في الآجل. وما دام العبد مشتغلا بطاعة الله تعالى، ومعرفة عيوب نفسه، وترك ما يشين في دين الله عز وجل، فهو بمعزل عن الآفات، خائض في بحر رحمة الله عز وجل، يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان. وما دام ناسياً لذنوبه، جاهلا بعيوبه، راجعاً إلى حوله وقوته، لا يفلح إذاً أبداً»(١).

فصل

(آداب المصلى)

إذا أتيت مصلاك، فاستحضر فيه أنك كأن بين يدى ملك الملوك، تريد مناجاته، والتضرع اليه، والتماس رضاه، ونظره اليك بعين الرحمة. فاختر مكاناً يصلح، كالمساجد الشريفة، والمشاهد المطهرة، مع الإمكان. فانه تعالى جعل تلك المواضع محلاً لاجابته، وموضع نزول فيوضاته ورحمته، على مثال حضرة الملوك، الذين يجعلونها وسيلة لنيل المقاصد والمطالب. فادخلها بالسكينة والوقار، ومراقباً للخضوع والانكسار. قال الصادق عليه السلام: «إذا بلغت باب المسجد، فاعلم أنك قد قصدت باب ملك عظيم، لا يطأ بساطه إلا المطهرون، ولا يؤذن لمجالسته إلا الصديقون، فهب القدوم إلى بساط هيبة الملك، فانك على خطر عظيم إن غفلت، فاعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك. فان عطف عليك برحمته وفضله، قبل منك يسير الطاعة، وأجزل لك عليها ثواباً كثيراً. وإن طالبك باستحقاقه

---

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٧/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

الصدق والاخلاص عدلا بك، حجبك ورد طاعتك وإن كثرت. وهو فعال لما يريد. واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفقرك بين يديه، فإنك قد توجهت للعبادة له، والمؤانسة به. واعرض أسرارك عليه، ولتعلم أنه لا تخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين وعلانيتهم. وكن كأفقر عباده بين يديه. واخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك، فإنه لا يقبل إلا الأطهر والأخلص. وأنظر من أى ديوان يخرج اسمك، فإن ذقت حلاوة مناجاته، ولذيذ مخاطباته،وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن اقباله عليك واجابته، فقد صلحت لخدمته، فادخل فلك الإذن والامان، وإلا فقف وقوف من قد انقطع عنه الحيل، وقصر عنه الأمل، وقضى عليه الأجل. فان علم الله عز وجل من قلبك صدق الالتجاء إليه نظر اليك بعين الرأفة والرحمة والعطف، ووفقك لما تحب وترضى، فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين اليه، المقيمين على بابه لطلب مرضاته. قال الله تعالى:

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوءَ﴾(١).

فصل

(الاستقبال)

وأما الاستقبال، فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله. وهذا إشارة إلى أنه ينبغى أن يصرف وجه القلب عن سائر الأشياء إلى الله، فان الأعمال الظاهرة تحريكات للبواطن على ما يناسبها، فضبط الجوارح وتسكينها بالاثبات في جهة واحدة، لأجل ألا تبقى على القلب، لأنها إذا توجهت إلى جهات متعددة يتبعها القلب في التوجه إلى أشياء متعددة، فأمر الله بصرفها إلى شطر بيته، ليتذكر القلب صاحبه، ويتوجه اليه، ويثبت على ذلك كما تثبت الأعضاء على جهة

(١) النمل، الآية: ٦٢.

واحدة. قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى مقبل على المصلى ما لم يلتفت»، وهذا الإلتفات يشمل التفات القلب ايضاً، فكما يجب حراسة الرأس والعين عن الإلتفات إلى الجهات، فكذلك يجب حراسة السرّ عن الالتفات إلى غير الله وغير الصلاة، فان التفت إلى غير الله وغير الصلاة، فذكره باطلاع الله عليه، وقبح غفلة المناجى عمن يناجيه وعما يقول له حين المناجاة، لا سيما إذا كان من يناجيه ملك الملوك. والزم قلبك الخشوع، فان الخلاص عن الالتفات ظاهراً وباطناً ثمرة الخشوع، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر، ولذا قال رسول الله ﷺ ـ وقد رأى مصلياً يعبث بلحيته ـ: «أما هذا، لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، فان الرعية بحكم الراعى». وفي الدعاء: «اللهم اصلح الراعى والرعية»، وهو القلب والجوارح.

وبالجملة: ينبغى لكل مؤمن صرف وجهه إلى بيت الله للصلاة، أن يصرف وجه قلبه إلى صاحب البيت، وكما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالصرف عن غيرها، فكذلك لا ينصرف وجه القلب إلى الله إلا بالتفرغ عما سوى الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا قام العبد إلى صلاته، وكان هواه وقلبه إلى الله، انصرف كيوم ولدته أمه». وقال ﷺ: «أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار؟!». قيل: هذا نهى عن الالتفات عن الله، وملاحظة عظمته في حال الصلاة، فان الملتفت يميناً وشمالاً غافل عن الله وعن مطالعة أنوار كبريائه، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه، فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقله للأمور العلوية وعدم فهمه للمعارف. وقال الصادق عليه السلام: «إذا استقبلت القبلة، فآيس من الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله تعالى، وعاين بسرك عظمة الله عز وجل، واذكر وقوفك بين يديه، قال الله تعالى:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾[1].

---

(١) يونس، الآية: ٣٠.

وقف على قدم الخوف والرجاء»[١].

فصل
(القيام)

وأما القيام، فهو مثول بالشخص والقلب بين يدى الله سبحانه. فليكن رأسك الذي هو أرفع اعضائك مطرقاً ومتطأطأ متنكساً، تنبيهاً للقلب على لزوم التواضع والتذلل والانكسار، والتبرى عن التكبر والترؤس. وينبغي أن تتذكر ها هنا خطر المقام بين يدى الله في هول المطلع عند التعرض للسؤال، وتذكر في الحال أنك قائم بين يدى الله وهو مطلع عليك، فليكن قيامك بين يديه على ما يليق بعظمته وجلاله، وإن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، فلا تجعل مالك الملك والملكوت أنزل من بعض ملوك عصرك، فقم بين يديه قيامك بين يدى ملك زمانك، بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ بعين كالئة من رجل صالح من أهلك، أو ممن ترغب أن يعرفك بالصلاح، فانه تهد عند ذلك أطرافك، وتخشع جوارحك، ويسكن جميع أجزائك، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع. وبالجملة: الخضوع والخشوع والاستحياء والانفعال، يقتضيها الطبع بين يدى من يعظم من ابناء الدنيا، فكيف لا يقتضيها بين يدى ملك الملوك عند من يعرفه؟ فمن يكون بين يدى غير الله خاشعاً، ولا يكون بين يدى الله كذلك، فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطلاعه على سره وضميره، وعدم تدبره في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾[٢].

فتباً لمن يدعى معرفة الله والعلم بعظمته وجلاله وحبه والخشية منه، ومع ذلك

---

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٣ / ١٤١.

(٢) الشعراء، الآية: ٢١٨ ـ ٢١٩.

يستحيي من أحد عبيده المساكين الذي لا يقدر على نفع ولا ضر، ولا يستحيي من الله، ويخشى الناس، ولا يخشاه!

فصل
(التكبيرات)

وأما التوجه بالتكبيرات، فينبغي أن تستحضر عندك عظمة الله وجلاله، وصغر نفسك وذلتها في جنب عظمته، وقصورك عن القيام بوظائف خدمته. وإذا قلت: (اللهم إنك أنت الملك الحق)، فتذكر عظيم ملكه، وعموم قدرته، واستيلاءه على جميع العوالم، ثم ارجع على نفسك بالذل والانكسار. وإذا قلت: (لبيك وسعديك! والخير في يديك، والشر ليس اليك)، مثل نفسك بين يديه، وتيقن أنه اقرب منك من نفسك، ويسمع نداءك، ويجيب دعاءك، وأن خير الدنيا والآخرة بيده لا بيد غيره، وأنه خير محض منزه عن الشر. وإذا قلت: (عبدك وابن عبديك، منك وبك ولك واليك)، فقد اعترفت له بالعبودية، وبأنه ربك وخالقك ومالكك، وموجدك ومخترعك، وانت اثره وفعله، ومنه وجودك، وبه قوامك، وله ملكك، وإليه معادك، فانت منه، فلا يتركك ويرحمك، فألق نفسك الضعيفة العاجزة بين يديه، وكل امورك في الدنيا والآخرة اليه، ولا تعتمد في مقاصدك إلا عليه، فاحضر في ذهنك في هذه الفقرات وغيرها من الكلمات التي ينطق بها لسانك أمثال هذه الحقائق، وترق منها إلى ما يفتح عليك من الأسرار والدقائق، واحفظ نفسك عن الوقوع في أودية الوساوس والهوى، فتلق الفيض من العالم الأعلى.

فصل
(النية)

وأما النية فحقيقتها القصد إلى الفعل، امتثالاً لأمر الله، وطلباً لتقربه، ورجاء لثوابه، وخوفاً من عقابه. فينبغي أن تجتهد في خلوصها ألا يشوبها غرض دنيوى فتفسد، وحقيقة الاخلاص وما يتعلق بها قد تقدمت مفصلة في محلها. وينبغي أن تتذكر ها هنا عظيم لطفه ومنته عليك. حيث اذنك في المناجاة مع سوء أدبك، وكثرة جنايتك، وعظم في نفسك قدر مناجاته. وانظر من تناجي، وكيف تناجي، وبماذا تناجي، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجلة، وترتعد فرائصك من الهيبة، ويصفرّ وجهك من الخوف والخشية.

فصل
(تكبيرة الاحرام)

واذا كبرت تكبيرة الاحرام، تذكر أن معناها: أنه تعالى اكبر من أن يوصف، أو أكبر من كل شيء، أو أكبر من أن يدرك بالحواس، أو يقاس بالناس. فانتقل منه إلى غاية عظمته وجلاله، واستناد ما سواه اليه، بالايجاد والاختراع والاخراج من كتم العدم. وينبغي أن تكون على يقين بذلك، حتى لا يكذب لسانك قلبك، فان كان في قلبك شيء هو اكبر من الله تعالى عندك، فالله يشهد أنك كاذب، وان كان الكلام صدقا، كما شهد على المنافقين في قولهم: إن النبى رسول الله. وإن كان هواك اغلب عليك من امر الله تعالى، وانت اطوع له منك لله ولأمره، فقد اتخذته إلهك وكبرته، فيوشك أن يكون قولك (الله اكبر) كلاماً باللسان المجرد، وقد تخلف القلب عن مساعدته، وما اعظم الخطر في ذلك، لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه تعالى وعفوه. قال الصادق عليه السلام: «فإذا كبرت، فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه، فان الله تعالى إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبّر، وفي قلبه

عارض عن حقيقة تكبيره، قال: يا كذاب أتخدعني؟! وعزتي وجلالي! لأحرمنك حلاوة ذكري، ولأحجبنك عن قربي والمسرة بمناجاتي!»[١]. فاعتبر انت قلبك حين صلاتك، فان كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها، وقلبك مسرور بمناجاته، وملتذ بمخاطباته، فاعلم أنه تعالى قد صدقك في تكبيرك، وإن سلبت لذة المناجاة، وحرمت حلاوة العبادة، فاعلم أنه تعالى كذبك في تكبيرك، وطردك عن بابه وابعدك عن جنابه، فابك على نفسك بكاء الثكلى، وبادر إلى العلاج قبل ان تدركك الحسرة العظمى.

فصل

(دعاء الاستفتاح)

وأما دعاء الاستفتاح، فأول كلماته: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض)، ومعلوم أن المراد بالوجه هنا هو وجه القلب دون الوجه الظاهر، لأن الله سبحانه منزه عن الأمكنة والجهات حتى توجه إليه الوجه الظاهر. فانت تدعى في هذا الكلام أن قلبك متوجه إلى فاطر السماوات والأرض، فاياك أن يكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق، إذ لو كان قلبك متوجهاً إلى أمانيه، وهمه في البيت والسوق، أو واقعاً في أودية الوساوس، أو كان غافلا، ولم يكن مقبلا على الله متوجهاً اليه، وكنت كاذبا في أول مخاطبتك مع ربك. فاجتهد أن ينصرف قلبك عما سواه، وتقبل عليه في هذا الوقت، وإن عجزت عنه على الدوام، لئلا تكون كاذبا في أول كلامك. وإذا قلت: (حنيفاً مسلماً)، فاخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من يده ولسانه، فإن لم تكن موصوفا بهذا الوصف، كنت كاذبا، فاجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال، وأن تندم على ما سبق من الأحوال. وإذا قلت: (وما أنا من المشركين)، فاخطر ببالك الشرك الخفي، وكونه داخلا في الشرك، لاطلاق الشرك

---

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٣ / ١٤١.

على القليل والكثير. فلو قصدت بجزء من عبادتك غير الله، من مدح الناس وطلب المنزلة في قلوبهم، كنت مشركا كاذبا في هذا الكلام. فانف هذا الشرك عن نفسك، وآستشعر الخجلة في قلبك، بأن وصفت نفسك بوصف ليست متصفة به في الواقع. وإذا قلت: (محياى ومماتى لله رب العالمين)، فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه، موجود لسيده، فان عن ذاته، باق بربه، بحيث لا يرى لذاته من حيث هي قدرة وقوة، بل يعلم حياته وبقاءه من الله تعالى، ولا تكون حركاته وسكناته إلا لله تعالى. فالقائل بهذا الكلام، إذا رأى لنفسه من حيث هي قدرة وأثراً، أو صدر عنه فعل: من الرضا، أو الغضب، أو القيام، أو القعود، أو الرغبة في الحياة، أو الرهبة من الموت لامور الدنيا، كان كاذبا.

فصل
(الاستعاذة)

فإذا قلت: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، ينبغى أن تعلم أن الشيطان اعدى عدوك، مترصد لصرف قلبك عن الله، حسداً لك على مناجاتك مع الله وسجودك له، مع أنه لعن وطرد عن مقام القرب بترك السجدة. وينبغى ألا تكون استعاذتك بالله منه بمجرد القول، لتكون مثل من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله، فقال: اعوذ منك بهذا الحصن الحصين، وهو ثابت على مكانه، فإن ذلك لا يفيده ولا ينفعه ما لم يتحرك ويدخل الحصن. فكذلك مجرد الاستعاذة لا ينفعه ما لم يترك ما يحب الشيطان، وما لم يأت بما يحبه الله. فمن اتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن، لا يغنيه مجرد القول، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عن شر الشيطان، وحصنه (لا إله إلا الله)، إذ قال: «لا إله إلا الله حصنى، ومن دخل حصنى أمن من عذابى». والدخول في حصن (لا إله إلا الله) ليس ايضاً بمجرد التكلم به، بل الاذعان القلبى واليقين القطعى بأن كل معبود سواه باطل، وكل شيء منه وله

وبه واليه، ولا مؤثر في الوجود إلا هو. فالمحصن بالتوحيد من لا معبود له سوى الله، وأما من اتخذ إله هواه، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله. ومن مكائد اللعين أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة، وتدبير فعل الخيرات، لتمنع من الحضور وفهم ما تقرأ، فاعلم أن كل ما يشغلك عن الاقبال إلى الله وعن فهم معانى القرآن والاذكار، فهو وسواس، إذ حركة اللسان غير مقصودة، بل المقصود المعانى. وإذا قلت: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فانو به التبرك لا بتدائك بقراءة كلام الله، والمراد بالاسم هنا المسمى، فمعناه: أن كل الأشياء والأمور بالله، فيترتب عليه انحصار (الحمد لله)، إذ المراد بالحمد الشكر، والشكر إنما يكون على النعم، فإذا كانت النعم بأسرها من الله فيكون منحصراً به، فمن يرى نعمة من غير الله، أو يقصد غيره سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله، ففى تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله سبحانه. وإذا قلت: (الرحمن الرحيم)، فاحضر في قلبك أنواع لطفه، وضروب احسانه، لتتضح لك رحمته، فينبعث بها رجاؤك. وإذا قلت: (مالك يوم الدين)، فاستشعر من قلبك التعظيم والخوف، أما العظمة فلأنه لا ملك إلا هو، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه. ثم جدد الاخلاص بقولك: (إياك نعبد). وجدد العجز والافتقار والتبرى من الحول والقوة بقولك: (وإياك نستعين)، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا باعانته، وأن له المنة، إذ وفقك لطاعته، واستخدمك لعبادته، وجعلك أهلا لمناجاته، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان الرجيم، واستحضر أن الاعانة لا تكون إلا منه، ولا يقدر غيره أن يعين أحداً، فاخرج عن قلبك الوسائل والاسباب إلا من حيث إنها مسخرة منه تعالى. وإذا قلت: (إهدنا الصراط المستقيم)، فاعلم أنه طلب لأهم حاجاتك، وهي الهداية إلى النهج الحق الذي يسوقك إلى جوار الله، ويفضى بك إلى مرضاته، ويوصلك إلى مجاورة من أنعم الله عليهم نعمة الهداية من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، دون الذين غضب الله عليهم من الكفار والزائفين من اليهود والنصارى والصابئين. وإذا تلوت

(الفاتحة) كذلك، فيشبه أن تكون ممن قال الله فيهم بما اخبر عنه النبى ﷺ: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، نصفها لى، ونصفها لعبدى. يقول العبد: الحمدلله رب العالمين، فيقول الله عز وجل: حمدنى عبدى وأثنى على. وهو معنى قوله: سمع الله لمن حمده...» إلى آخر الحديث. فان لم يكن لك من صلاتك حظ سوى التذاذك بذكر الله في جلاله وعظمته، فناهيك به غنيمة، فكيف ما ترجوه من ثوابه وفضله. وكذلك ينبغى أن تفهم وتخرج الحقائق مما تقرأه من السورة، فلا تغفل عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومواعظه وأخبار أنبيائه، وذكر مننه واحسانه، فلكل واحد حق: فحق الأمر والنهى العزم، وحق الوعد الرجاء، وحق الوعيد الخوف، وحق الموعظة الاتعاظ، وحق أخبار الأنبياء الاعتبار، وحق ذكر المنة الشكر، وتكون هذه المعانى بحسب درجات الفهم، ويكون الفهم على حسب العلم وصفاء القلب، ودرجات ذلك لا تنحصر. والصلاة مفتاح القلوب، فيها تنكشف أسرار الكلمات. فهذا حق القراءة، وهو أيضاً حق الأذكار والتسبيحات. واعلم أن الناس في القرائة ثلاثة: بعضهم يتحرك لسانه وقلبه غافل. وبعضهم يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان، فيسمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره، وهو درجة اصحاب اليمين. وبعضهم يسبق قلبه إلى المعانى أولا، ثم يخدم اللسان قلبه فيترجمه، وفرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب، والمقربون ألسنتهم ترجمان تتبع القلب. ثم ينبغى أن تراعى الهيئة في القراءة، فترتل، ولا تسرد ولا تعجل، فإن ذلك أيسر للتأمل، وتفرق بين نغمائه في آية الرحمة والعذاب، والوعد والوعيد، والتمجيد والتعظيم، كان بعضهم إذا مر بمثل قوله:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ﴾[1].

يغضّ صوته، كالمستحيى عن أن يذكره بكل شيء. وروى: «أنه يقال يوم

(١) المؤمنون، الآية: ٩١.

القيامة لصاحب القرآن: اقرأ وارق، فكلما قرأ آية صعد درجة».

فصل

(الركوع)

وأما الركوع، فينبغى أن تجدد عنده ذكر كبرياء الله، وترفع بذلك معظما منبهاً على غاية عظمته وارتفاعه، وكونه أرفع من أن تصل إليه أيدى العقول والأوهام، ومستجيراً بعفوه من عقابه، وتستأنف بهويّك للركوع ذلا وتواضعاً، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتستشعر ذلّك وعزه، وضعفك وقوته، وعجزك وقدرته، واتضاعك وعلوه، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك، فتسبحه وتشهد له بالعظمة، وأنه أعظم من كل عظيم، وتكرر ذلك على قلبك لتترسخ فيه عظمته وجلاله، ثم ترفع عن ركوعك راجياً أنه راحم ذلك، وتؤكد الرجاء في نفسك بقولك: (سمع الله لمن حمده): أى اجاب الله لمن شكره، وتتبع ذلك بالشكر المتقاضى للمزيد، فتقول: (الحمد لله رب العالمين)، ثم تزيد في التذلل والخشوع وتعظيم ربك واجلاله، فتقول: (أهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت). روى (الصدوق) - رضوان الله عليه - عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنه سئل عن معنى مد العنق في الركوع، فقال عليه السلام: تأويله: آمنت بك ولوضربت عنقى». وقال الصادق عليه السلام: «لا يركع عبد لله ركوعا على الحقيقة، إلا زينه الله بنور بهائه، وأظله في ظل كبريائه، وكساه كسوة أصفيائه. والركوع أول، والسجود ثان. فمن أتى بمعنى الأول صلح للثانى. وفي الركوع أدب، وفي السجود قرب، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب. فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه، متذلل وجل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين»[1]. وحكى: «أن ربيع بن خثيم، كان

---

(١) صححنا الحديث على الباب ١٥ من (مصباح الشريعة). وعلى (بحار الأنوار): ١٨ / ٣٥٦، باب الركوع ↲

يسهر بالليل إلى الفجر في ركعة واحدة، فإذا اصبح، تزفر وقال: آه! سبق المخلصون وقطع بنا». واستوف ركوعك باستواء ظهرك، وانحط عن همتك في القيام بخدمته إلا بتأييده وعونه، وفر بقلبك من وساوس الشيطان وخدائعه ومكائده، فإن الله يرفع عباده بقدر تواضعهم له، ويهديهم إلى اصول التواضع والخضوع والخشوع بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم.

فصل
(السجود)

وإذا هويت إلى السجود، جدد على قلبك غاية الذل والعجز والإنكسار، إذ السجود أعلى درجات الاستكانة، فمكن أعز أعضائك، وهو الوجه، لأذل الأشياء، وهو التراب، ولا تجعل بينهما حاجزاً، بل اسجد على الأرض، لأنه أجلب للخضوع، وأدل على الذل. فإذا وضعت نفسك موضع الذل، والقيتها على التراب، فاعلم أنك وضعتها موضعها، ورددت الفرع إلى أصله، فانك من التراب خلقت، وإليه رددت. فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله، وقل: (سبحان ربي الأعلى وبحمده)، وأكده بالتكرار، إذ المرة الواحدة ضعيفة الآثار، فإن رق قلبك، وطهر لبك، فليصدق رجاؤك في رحمة ربك، فإن رحمته تتسارع إلى موضع الذل والضعف، لا إلى محل التكبر والبطر. فارفع رأسك مكبراً ومستغفراً من ذنوبك، وسائلا حاجتك، ثم أكد التواضع بالتكرار، وعد إلى السجود ثانياً كذلك. وسئل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام عن معنى السجدة الأولى، قال: «تأويلها: اللهم إنك منها خلقتنا»: يعنى من الأرض. وتأويل رفع رأسك: «ومنها أخرجتنا»، والسجدة الثانية: «وإليها تعيدنا»، ورفع رأسك: «ومنها تخرجنا تارة اخرى». وقال مولانا الصادق عليه السلام: «ما خسر والله تعالى قط من أتى

↩ وآدابه من كتاب الصلاة. وعلى (المستدرك): ١ / ٣٢٥، باب نوادر ما يتعلق بالركوع من كتاب الصلاة أيضاً.

بحقيقة السجود، ولو كان في العمر مرّة واحدة، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيهاً بمخادع نفسه، غافل لاه عما أعد الله تعالى للساجدين من انس العاجل وراحة الآجل، ولا بعد عن الله تعالى أبداً من أحسن تقربه في السجود، ولا قرب إليه أبداً من أساء أدبه، وضيع حرمته بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده. فاسجد سجود متواضع لله ذليل، علم أنه خلق من تراب يطأه الخلق، وأنه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد، وكوّن ولم يكن، وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسر والروح، فمن قرب منه بعد من غيره، ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوى حال السجود إلا بالتوارى عن جميع الأشياء، والاحتجاب عن كل ما تراه العيون؟ كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن. فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيء دون الله تعالى، فهو قريب من ذلك الشيء، بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته. قال الله تعالى: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه». وقال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: ما اطلع على قلب عبد فاعلم فيه حب الاخلاص لطاعتى لوجهى وابتغاء مرضاتى، إلا توليت تقويمه وسياسته، ومن اشتغل في صلاته بغيرى فهو من المستهزئين بنفسه، واسمه مكتوب في ديوان الخاسرين»(١).

فصل

(التشهد)

إذا جلست للتشهد ـ بعد هذه الأفعال الدقيقة والأسرار العميقة، المشتملة على الأخطار الجسيمة ـ فاستشعر الخوف التام والرهبة والوجل والحياء، أن يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه، ولا محصلاً بوظائفه وشرائطه، ولا مكتوباً في

---

(١) صححنا الحديث على: الباب ١٦ من (مصباح الشريعة). وعلى (بحار الأنوار): ١٨ / ٢٦٣، باب السجود وآدابه.

ديوان القبول. فاجعل يدك صفراً من فوائدها، وارجع إلى مبدأ الأمر، وأصل الدين، أعني كلمة التوحيد، وحصن الله الذي من دخله كان آمناً، فاستمسك به إن لم تكن لك وسيلة غيره، فاشهد لربك بالوحدانية، واحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم ببالك، واشهد له بالعبودية والرسالة، وصل عليه وعلى آله، مجدداً عهد الله باعادة كلمتي الشهادة، متعرضاً بهما لتأسيس مراتب العبادة، فإنهما أول الوسائل وأساس الفواضل، ومتوسلاً إلى رسول الله بالصلاة عليه، مترقباً بذلك عشراً من صلاته ﷺ عليك ـ كما ورد في الخبر ـ، ولو وصل اليك منها واحدة افلحت أبداً. قال الصادق عليه السلام: «التشهد ثناء على الله. فكن عبداً له في السرّ، خاضعاً له في الفعل، كما أنك عبد له في القول والدعوى. وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرّك، فإنه خلقك عبداً، وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك، وأن تحقق عبوديتك له وربوبيته لك، وتعلم أن نواصي الخلق بيده، فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيته، وهم عاجزون عن اتيان أقل شيء في مملكته إلا باذنه وارادته. قال الله عز وجل:

﴿وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللهِ وَ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١).

فكن لله عبداً شاكراً بالقول والدعوى، وصل صدق لسانك بصفاء سرّك، فإنه خلقك فعز وجل أن تكون إرادة ومشية لأحد إلا بسابق ارادته ومشيته، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته، وبالعبادة في اداء أوامره، وقد أمرك بالصلاة على حبيبه محمد ﷺ، فاوصل صلاته بصلاته، وطاعته بطاعته، وشهادته بشهادته، وانظر ألا تفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم عن فائدة صلاته، وأمره بالاستغفار لك، والشفاعة فيك، إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب، وتعلم جليل

(١) القصص، الآية: ٦٨.

مرتبته عند الله عز وجل»[١].

فصل

(التسليم)

وإذا فرغت عن التشهد، فاحضر بحضرة سيد المرسلين، والملائكة المقربين، وبقية أنبياء الله وأئمته عليهم السلام والحفظة لك من الملائكة المحصين لأعمالك، وأحضرهم جميعاً في بالك. فسلم أولاً على نبيك الذي هو أفضل الكل، وواسطة هدايتك وايمانك، بقولك: (السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته). ثم توجه إلى الجميع، وسلم عليهم بقولك: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته). ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهنك، فتكون من العابثين واللاعبين. وكيف تسمع الخطاب لمن لا يقصد، لولا فضل الله في اجتزائه بذلك عن أصل الواجب، وإن كان بعيداً عن درجات القبول، منحطاً عن اوج القرب والوصول. وإن كنت إماماً لقوم، فاقصدهم بالسلام من تقدم من المقصودين، وليقصدوا هم الرد عليك ايضاً، وإذا فعلتم ذلك فقد أديتم وظيفة السلام، واستحققتم من الله مزيد الاكرام. قال الصادق عليه السلام: «معنى التسليم في دبر كل صلاة: الأمان، أى من أتى أمر الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم خاضعاً له خاشعاً منه، فله الأمان من بلاء الدنيا، والبراة من عذاب الآخرة. والسلام اسم من اسماء الله تعالى أودعه خلقه، ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والإنصافات، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم، وصحة معاشرتهم. فإن أردت أن تضع السلام موضعه، وتؤدى معناه، فاتق الله تعالى ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك، ألا تدنسها بظلمة المعاصى، ولتسلم منك حفظتك ألا

---

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٧. وعلى (بحار الأنوار): ١٨ / ٤٠٣، باب التشهد وأحكامه.

تبرمهم وتملهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم، ثم مع صديقك، ثم مع عدوك. فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا إسلام ولا تسليم، وكان كاذباً في سلامه وإن أفشاه في الخلق»(١).

فصل
(افاضة الأنوار على المصلي على قدر صفائه)

اعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات، واخلاصها لوجه الله، واداءها بالشروط الباطنة المذكورة، من الحضور، والخشوع، والتعظيم، والهيبة، والحياء: سبب لحصول أنوار في القلب، تكون تلك الأنوار مفاتيح للعلوم الباطنة، وإنما يفيض منها على كل مصل على قدر صفائه من كدورات الدنيا، ويختلف ذلك بالقلة والكثرة، والقوة والضعف. والجلاء والخفاء، ويختلف ذلك بالقلة والكثرة، والقوة والضعف، والجلاء والخفاء،ويختلف ايضاً بما ينكشف من العلوم، فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله، ولبعضهم من عجائب أفعاله، ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة، ولبعضهم غير ذلك، وأولى بالظهور والافاضة لكل شخص ما يهمه ويكون في طلبه وإلى ما ذكرنا من ترتب الافاضة العلوية على الصلاة الخالصة لوجه الله المؤداة بالشروط المذكورة، أشار النبي ﷺ بقوله: «إن العبد إذا قام في الصلاة، رفع الله الحجاب بينه وبين عبده، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء، يصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه، وان المصلي لينشر عليه البر من أعنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو علم المصلي من يناجي ما التفت. وأن أبواب السماء تفتح للمصلين،وان الله يباهي ملائكته بصدق المصلي». فإنّ رفع

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٨ / ١٤٤.

الحجاب وفتح أبواب السماء كناية عن افاضة العلوم الباطنة عليه. وورد في التوراة: «يا ابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يديّ مصلياً باكياً، فأنا الله الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري». وورد: «أن العبد إذا صلى ركعتين، عجبت منه عشرة صفوف من الملائكة، كل صف منهم عشرة آلاف، وباهى الله به مائة الف». وذلك لأن العبد جمع في الصلاة بين القيام والقعود، والركوع والسجود، والذكر باللسان، وغير ذلك. وليس لملك من الملائكة هذا القسم من العبادة الجامعة بين الكل، بل هذه الأفعال موزعة عليهم، فبعضهم قائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، وبعضهم ساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، هكذا الراكعون والقاعدون، فإن ما اعطى الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم، مستمر على حالة واحدة، لا تزيد ولا تنقص، وليس لهم مرتبة الترقى من درجة إلى اخرى، وباب المزيد مسدود عليهم، ولذلك قالوا: «وما منا إلا له مقام معلوم»، بخلاف الانسان، فإن له الترقى في الدرجات، والتقلب في أطوار الكمالات، ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلاة، قال الله سبحانه: **﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾**، فمدحهم بعد الايمان بصلاة مخصوصة، وهي المقرونة بالخشوع، ثم ختم اوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً، فقال في آخرها: **﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾**، ثم قال في ثمرة تلك الصفات: **﴿أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾**[1].

فوصفهم بالفلاح أولاً، وبوراثة الفردوس آخراً. فالمصلون هم ورثة الفردوس، وورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه ودنوه بالقلب. وكل عاقل يعلم أن مجرد حركة اللسان والجوارح، مع غفلة القلب، لا تنتهى درجته إلى هذا الحد.

(١) المؤمنون، الآية: ٩ ـ ١١.

فصل

(ما ينبغي في إمام الجماعة)

ينبغي لإمام الجماعة: أن يختص من بين القوم بمزيد صفاء القلب، واقباله إلى الله، والخشوع والتعظيم، وغير ذلك من الشرائط الباطنة، لأنه القدوة والجاذب لنفوس الجماعة إلى الله، فما أقبح به أن يكون قلبه غافلا عن الله، أو واقعاً في أودية الوساوس الباطلة في الصلاة، ويكون بعض من اقتدى به من القوم خاشعاً حاضر القلب معظما لله سبحانه، وما أشنع به أن يكون التفات قلبه إلى من وراءه من الناس الذين لا يقدرون على شيء من النفع والضر أكثر من التفات قلبه إلى مالك الملك المحيط بالكل، الذي حدث بمجرد ارادته العوالم العلوية والسفلية والملك والملكوت، أولا يستحيي من علام الغيوب أن ينصب نفسه قدوة لأمة سيد الرسل ﷺ، ويحل محل رسول الله ﷺ وأوصيائه الراشدين عليهم السلام، وينوب عنهم، ويكون تغير قلبه وتأثر نفسه عن ضعفاء العوام الذين اقتدوا به أشد من انفعاله وتأثره من عظمة الله وجلاله؟! أو لا يخجل عند الله من تفاوت حاله بكثرة المأمومين وقلتهم؟ فينبغي لكل إمام قوم أن يمتحن نفسه، فان لم تكن له هذه الصفات الخبيثة، فليؤم، وإلا فليترك ولا يهلك نفسه، ويعرف ذلك بأن يكون فرحه بإمامة نفسه كفرحه بإمامة غيره من أمثاله وأقرانه، بل إن كان قصده وفرحه بمجرد اقامة السنة، واحياء رسوم الملة، فينبغي أن يكون فرحه بإمامة غيره ممن هو مرضي، والاهتمام به، اكثر من إمامة نفسه، لحصول المقصود مع السلامة عن الغوائل المحتملة، وينبغي ـ ايضاً ـ ألا يكون باعثه ومحركه إلى المسجد لإمامة القوم إلا القربة ورجاء الثواب، فلو كان في بعض زوايا قلبه باعث خفي من حب الشهرة والمنزلة في القلوب، أو الوصول إلى ما ينتظم به معاشه، فله الويل والثبور، ويكون ممن ضل وأضل وهلك وأهلك!

فصل

(ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين)

ينبغي للحاظر إلى صلاة الجمعة والعيدين: أن يستحضر أن هذه الأيام أيام شريفة عظيمة، وأعياد مباركة كريمة، قد خص الله بها هذه الأمة، وجعلها أوقاتاً شريفة لعباده، ليقربهم فيها من جواره، ويبعدهم من عذابه وناره، وحثهم فيها على الاقبال بصالح الأعمال، وتلافى ما فرط منهم في بقية الأيام والشهور من الاهمال. فلا جرم وجب الاهتمام بصلاتها زيادة على سائر الصلوات، من التهيؤ والاستعداد للقاء الله، والوقوف بين يديه، والمثول في حضرته، والفوز بمخاطبته. فليجتهد بعد الاتيان بالوظائف الظاهرة، من التنظيف والتطييب، والتعمم، وحلق الرأس، وقص الشارب والأظفار، وغير ذلك من السنن في تخليص النية، واحضار القلب، واكثار الخشوع، والابتهال إلى الله تعالى في صلاته. وينبغي أن يحضر قلبه في العيدين من قسمة الجوائز. وتفرقة الرحمة، وافاضة المواهب فيهما على من قبل صومه وقربانه وقام بوظائفهما، فليكبر في صلاتهما وقبلها وبعدها في قبول اعماله والعفو عن تقصيراته، وليستشعر الخجلة والحياء من خسران الرد، وخذلان الطرد، فتخسر صفقته، وتظهر بعد ذلك حسرته، فيفوز الفائزون، ويسبق السابقون، وينجو المخلصون، وهو يكون من الخائبين الخاسرين.

فصل

(ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات)

إذا ظهرت الآيات، من الكسوف والخسوف والزلازل وغيرها، ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عندها أهوال الآخرة وزلازلها، وتكور الشمس والقمر، وظلمة القيامة، ووجل الخلائق، وخوفهم من الأخذ والنكال والعقوبة والاستيصال، فيكثر في صلاتها من الدعاء والابتهال بمزيد الخضوع والخشوع والهيبة والخوف، في

النجاة من تلك الشدائد ورد النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة، وينبغي أن يكون منكسر النفس، مطرق الرأس، مستحيياً من التقصير، مستشعراً بقلبه عظمة الله وجلاله. وبالجملة: حصول الخوف والخشية، والمبادرة إلى التضرع والابتهال، واداء الصلاة بالاقبال والخشوع عند ظهور الآيات، من شعار أهل الايمان. قال سيد الساجدين عليه السلام: «لا يفزع للآيتين ولا يرهب، إلا من كان من شيعتنا، فان كان ذلك منهما، فافزعوا إلى الله وراجعوه». وقال الرضا عليه السلام: «إنما جعلت للكسوف صلاة، لأنه من آيات الله تعالى، لا يدرى ألرحمة ظهرت أم لعذاب، فاحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يفزع امته إلى خالقه وراحمه عند ذلك، ليصرف عنهم شرها، ويقيهم مكروهها، كما صرف عن قوم يونس عليه السلام حين تضرعوا إلى الله تعالى».

المقصد الثالث

(الذكر ـ فضيلة الاذكار ـ الدعاء)

اعلم أنه ينبغي لكل مؤمن أن يكثر من الذكر والدعاء، لا سيما عقيب الصلاة المفروضة. وقد ورد في فضائلهما من الآيات والأخبار ما لا يمكن احصاءه، ولاشتهارها لا حاجة إلى ذكرها هنا.

فصل

(الذكر)

أما الذكر، فالنافع منه هو الذكر على الدوام، أو في اكثر الأوقات، مع حضور القلب، وفراغ البال، والتوجه الكلي إلى الخالق المتعال، حتى يتمكن المذكور في القلب، وتتجلى عظمته الباهرة عليه، وينشرح الصدر بشروق نوره عليه، وهو غاية ثمرة العبادات. وللذكر أول وآخر، فاوله يوجب الأنس والحب، وآخره يوجبه الأنس والحب، والمطلوب منه ذلك الحب والأنس. فان العبد في بداءة الأمر يكون متكلفاً

بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس والفضول إلى ذكر الله، فان وفق للمداومة أنس بـه وانغرس في قلبه حب المذكور. ومن أحب شيئاً أكثر ذكره، ومن اكثر ذكر شيء، وإن كان تكلفاً، أحبه. ومن هنا قال بعضهم: «كاءدت القرآن عشرين سنة، ثـم تـنعمت بـه عشرين سنة». ولا تصدر النعم إلا من الأنس والحب، ولا يصدر الأنس والحب إلا من المداومة على المكاءدة والتكلف مـدة طـويلة، حـتى يـصير التكـلف طـبعاً. وكـيف يستبعد هذا وقد يتكلف الانسان تناول طعام يستبشعه أولا، ويكائد اكـله، ويـواظب عليه، فيصير موافقاً لطبعه حتى لا يـصبر عـنه؟ فـالنفس تـصير مـعتادة مـتحملة لمـا تكلفت: «هي النفس ما عوّدتها تتعود».

ثم إذا حصل الأنس بذكر الله انـقطع عـن غـير الله، ومـا سـوى الله يـفارقه عـند الموت، ولا يبقى إلا ذكر الله، فإن كان قد انس بـه تـمتع بـه وتـلذذ بـانقطاع العـوائـق الصارفة عنه، إذ ضرورات الحاجات فـي الحـياة تـصد عـن ذكـر الله، ولا يـبقى بـعد الموت عائق، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه، فعظمت غبطته، وتـخلص مـن السـجن الذي كان ممنوعا فيه عما به انسه، وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد مـوته إلى أن يـنزل في جوار الله، ويترقى من الذكر إلى اللقاء، قال الصادق عليه السلام: «مـن كـان ذاكـراً لله عـلى الحقيقة فهو مطيع، ومن كان غافلا عنه فهو عاص، والطاعة علامة الهداية، والمعصية علامة الضلالة، واصلهما من الذكر والغفلة، فاجعل قلبك قبلة للسانك، ولا تحركه إلا باشارة القلب، وموافقة العقل، ورضا الايمان، فـإن الله تـعالى عـالم بسـرك وجـهرك، وكن كالنازع روحه، أو كالواقف في العرض الأكبر، غير شاغل نفسك عما عناك مـما كلفك به ربك في أمره ونهيه ووعده ووعيده، ولا تشغلها بـدون مـا كـلفك بـه ربك، واغسل قلبك بماء الحزن، واجعل ذكر الله تعالى مـن أجـل ذكـره تـعالى إيـاك، فـإنه ذكرك وهو غني عنك، فذكره لك أجل واشـهى واثـنى واتـم مـن ذكـرك له واسـبق، ومعرفتك بذكره لك تورثك الخشوع والاستحياء والانكسار، ويتولد من ذلك رؤيـة كرمه وفضله السابق، وتصغر عند ذلك طاعتك وإن كثرت في جنب منته، وتـخلص

لوجهه، ورؤيتك ذكرك له، يورثك الرياء والعجب والسفه والغلظة في خلقه، واستكثار الطاعة ونسيان فضله وكرمه، ولا تزداد بذلك من الله تعالى إلا بعداً، ولا تستجلب به على مضى الأيام إلا وحشة. والذكر ذكران: ذكر خالص بموافقة القلب، وذكر صارف لك ينفى ذكر غيره، كما قال رسول الله ﷺ: (انا لا احصى ثناء عليك، انت كما أثنيت على نفسك). فرسول الله ﷺ لم يجعل لذكره الله عز وجل مقداراً عند علمه بحقيقة سابقة ذكر الله عز وجل من قبل ذكره، ومن دونه أولى، فمن أراد أن يذكر الله تعالى، فليعلم أنه ما لم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره، لا يقدر العبد على ذكره»[١].

تتميم
(فضيلة الأذكار)

الأذكار كثيرة، كالتهليل، والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والحوقلة، والتسبيحات الأربع، وأسماء الله الحسنى، وغير ذلك. وقد وردت في فضيلة كل منها أخبار كثيرة، والمواظبة على كل منها توجب صفاء النفس وانشراح الصدر، وكلما كانت أدل على غاية العظمة والجلال والعزة والكمال، فهي أفضل. ولذا صرحوا بأن افضل الأذكار التهليل، لدلالته على توحده في الالوهية، واستناد الكل اليه. وربما كان بعض اسماء الله تعالى في مرتبته أدل، والعارف السالك إلى الله يعلم: أنه قد ينبعث في القلب من عظمة الله وجلاله وشدة كبريائه وكماله ما لا يمكن التعبير عنه باسم.

---

(١) الحديث مذكور في (مصباح الشريعة): الباب ٥ / ١٣٦. وفي (المستدرك): ١ / ٤٠١، كتاب الصلاة، أبواب الذكر. وفي الموضعين اختلاف يسير، فصححناه على (مصباح الشريعة)، الموضع المذكور.

فصل

(الدعاء)

وأما الدعاء، فهو مخ العبادة، ولذا ورد في فضله ما ورد من الآيات والأخبار، ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها. والأدعية المأثورة كثيرة مذكورة في كتب الدعوات، ولا يتصور مطلب من مطالب الدنيا والآخرة إلا وقد وردت به أدعية، فمن أراد شيئاً منها فليأخذ من مواضعها.

ومما ينبغى لكل داع، أن يراعى شرائط وآدابا في الدعاء، حتى يستجاب له، ويصل إلى فائدته، وتحصل لنفسه نورانية، وهي أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة، والأحوال الشريفة، والأماكن المتبركة المشرفة، وأن يدعو متطهراً، مستقبل القبلة، رافعاً يديه بحيث يرى باطن ابطيه، وأن يخفض صوته بين الجهر والإخفات، ولا يتكلف السجع في الدعاء، ويكون في غاية التضرع والخشوع والرهبة، وأن يجزم ويتيقن اجابة دعائه، ويصدق رجاءه فيه، وأن يلح في الدعاء، ويكرره ثلاثاً، ويفتح الدعاء بذكر الله وتمجيده، ولا يبتدىء بالسؤال، وأن يتوب، ويرد مظالم العباد، ويقبل على الله بكنه الهمة، وهو السبب القريب للاجابة، وأن يكون مطعمه وملبسه من الحلال، وهو أيضاً من عمدة الشرائط، وأن يسمى حاجته، ويعم في الدعاء، ويبكى عنده، وهو أيضاً سيد الآداب، وأن يتقدم في الدعاء قبل الحاجة اليه، وألا يعتمد في حوائجه على غير الله تعالى، قال الصادق عليه السلام: «احفظ ادب الدعاء، وانظر من تدعو، وكيف تدعو، ولماذا تدعو، وحقق عظمة الله وكبرياءه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك، واطلاعه على سرك وما تكنّ فيه من الحق والباطل، واعرف طرق نجاتك وهلاكك، كيلا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه نجاتك، قال الله تعالى:

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِالْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾[1].

(١) الإسراء، الآية: ١١.

وتفكر ماذا تسأل، ولماذا تسأل. والدعاء استجابة الكل منك للحق، وتذويب المهجة في مشاهدة الرب، وترك الاختيار جميعاً، وتسليم الأمور كلها ـ ظاهرها وباطنها ـ إلى الله تعالى، فإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الاجابة، فانه يعلم السر واخفى، فلعلك تدعوه بشيء قد علم من سرك خلاف ذلك. واعلم أنه لو لم يكن الله أمرنا بالدعاء، لكنا إذا اخلصنا الدعاء، تفضل علينا بالاجابة، فكيف وقد ضمن ذلك لمن اتى بشرائط الدعاء، وسئل رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم، فقال: (كل اسم من اسماء الله اعظم). ففرغ قلبك عن كل ما سواه، وادعه باى اسم شئت، فليس في الحقيقة لله اسم دون، بل هو الله الواحد القهار. وقال النبى ﷺ: (إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب لاه). فإذا اتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء، واخلصت سرك لوجهه، فابشر باحدى ثلاث: إما أن يعجل لك بما سألت، وإما أن يدخرلك بما هو أفضل منه، وإما أن يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله عليك لهلكت»[1]. وسئل من الصادق عليه السلام: ما لنا ندعوا ولا يستجيب لنا؟ فقال: «لأنكم تدعون من لا تعرفونه، وتسألون من لا تفهمونه، فالاضطرار عين الدين، وكثرة الدعاء مع العمى عن الله من علامة الخذلان، لأن من لم يعرف ذلة نفسه وقلبه وسره تحت قدرة الله، حكم على الله بالسؤال، وظن أن سؤاله دعاء، والحكم على الله من الجرأة على الله تعالى».

المقصد الرابع
(تلاوة القرآن)

اعلم أنه لاحد لثواب تلاوة القرآن، والأخبار الواردة في عظم أجره ووفور ثوابه لاتحصى كثرة، وكيف لا يعظم أجره وهو كلام الله، حامله روح الأمين إلى سيد

---

(١) الحديث مذكور في (مصباح الشريعة): الباب ١٩ / ١٤٥ ـ ١٤٦. وفيه اختلاف كثير عما هنا، فصححناه على (المصباح)، الموضع المذكور.

المرسلين، فتأمل أن الكلام الصادر من الله بلا واسطة، إذا كان من حيث اللفظ معجزة لغاية فصاحته، ومن حيث المعنى متضمناً لاصول حقائق المعارف والمواعظ والاحكام، ومخبراً عن دقائق صنع الله، وعن مغيبات الأحوال والقصص الواقعة في سوالف القرون والأعوام، كيف يكون تأثيره للقلوب وتصفيته للنفوس؟. وبالجملة: العقل والنقل والتجربة شواهد متظاهرة على عظم ثواب تلاوة القران، والأخبار الواردة فيه مشهورة، فلا حاجة إلى ذكرها، فلنشر إلى بعض ما يتعلق بالتلاوة من الآداب الظاهرة والباطنة.

أما الآداب الظاهرة، فالوضوء، والوقوف على هيئة الأدب، والطمأنينة، إما قائماً أو جالساً، مستقبل القبلة، مطرقاً رأسه، غير متربع ولا متكيء، والترتيل والبكاء، والجهر المتوسط لو أمن من الرياء وإلا فالسر أفضل، وتحسين القراءة وتنزيهها، ومراعاة حق الآيات، فإذا مر بآية السجود سجد، وإذا مر بآية العذاب استعاذ منه بالله، وإذا مر بآية الرحمة ونعيم الجنة سأل الله تعالى أن يرزقه، وإذا مر بآية تسبيح أو تكبير سبح وكبر، وإذا مر بآية دعاء أو استغفار دعا واستغفر، وافتتاح القراءة بقوله: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم)، وأن يقول عند الفراغ من كل سورة: (صدق الله العلى العظيم وبلغ رسوله الكريم، اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه، والحمد لله رب العالمين).

وأما الآداب والأعمال الباطنة:

فمنها ـ فهم عظمة الكلام وعلوه، وفضل الله تعالى ولطفه بخلقه، في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة افهام خلقه: فلينظر كيف لطف بخلقه في ايصال معاني كلامه الذي هو صفة قائمة بذاتها إلى افهام خلقه، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طى حروف وأصوات هي صفات البشر، إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله إلا بوسيلة صفات نفسه، ولولا استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف، لما ثبت لسماع كلاعه عرش ولا ثرى، ولا شيء ما بينهما، من عظمة سلطانه وسبحات نوره،

ولولا تثبيت الله موسى ﷺ لما أطاق سماع كلامه، كما لم يطق الجبل مبادى تجليه حيث صار دكاً، ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق، ولهذا عبر عنه بعض العارفين، فقال: «إن كل حرف من كلام الله في اللوح أعظم من جبل قاف، وإن الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن ينقلوه ما اطاقوه، حتى يأتي اسرافيل، وهو ملك اللوح، فيرفعه. فنقله باذن الله ورحمته، لا بقوته وطاقته». وايصال معانى الكلام مع علوّ درجته إلى فهم الانسان مع قصور رتبته، تشابه من درجة تصويت الانسان البهائم والطيور. فإن الانسان لما أراد تفهيم بعض الدواب والطيور ما يريد من اقبالها وادبارها وتقديمها وتأخيرها، وكان تمييزها قاصراً عن فهم كلامه الصادر عن عقله مع حسنه وترتيبه وبديع نظمه، فينزل إلى درجة تمييز البهائم، ويوصل مقاصده إليها بأصوات لائقة بها، من النفير والصفير والأصوات القريبة من أصواتها، يطيقون حملها. وكذلك الناس، لما كانوا عاجزين عن حمل كلام الله بكنهه وكمال صفاته، فتنزل من عرش العظمة والجلال إلى درجة أفهامهم، فتجلى في مظاهر الأصوات والحروف ،وقد يشرف الصوت لأجل الحكمة المحبوة فيه. فكما أن بدن البشر يكرم ويعزز لمكان الروح، فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها. والكلام عالى المنزلة، رفيع الدرجة، قاهر السلطان، نافذ الحكم في الحق والباطل، وهو القاضى العادل، يأمر وينهى، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة، كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس، ولا طاقة للناس أن ينفذوا غور الحكمة، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون منها ما تقدربه ابصارهم ويستدلون به على حوائجهم. فالكلام كالملك المحجوب، الغائب وجهه، المشاهد أمره، فهو مفتاح الخزائن النفيسة، وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت، ودواء الأسقام الذي من سقى منه لم يسقم.

ومنها ـ تعظيم المتكلم: فينبغى للقارىء عند الابتداء بالتلاوة، أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام خالق الشمس

والقمر، وفي تلاوة كلامه غاية الخطر، إذ كما لا ينبغي أن تمسّ جلده وورقه وحرفه البشرة المستقذرة بخبث أو حدث، فكذلك لا ينبغي أن تقرؤه الألسنة المستخبثة بقبائح الكلمات، وألا تحوم حول معناه القلوب المكدرة برذائل الأخلاق والصفات، فكما أنه لا يصلح لمس ظاهر خطه كل يد، بل هو محروس عن ظاهر بشرة اللامس، إلا إذا كان متطهراً، فكذلك لا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان، ولا لنيل معانيه كل قلب، بل باطن معناه لعلوه وجلاله محجوب عن باطن القلوب، إلا إذا كانت منقطعة عن كل رجس، مستنيرة بنور التعظيم والتوقير. وبالجملة: ينبغي ألا يترك عند التلاوة تعظيم المتكلم له، ليتحقق تعظيم الكلام ايضاً، اذ تعظيم الكلام بتعظيم المتكلم، ولو لم تحضره عظمة المتكلم لغفلة قلبه، فليرجع إلى التفكر في صفاته وافعاله، ويستحضر أن المتكلم هو الذي أوجد وأظهر بمجرد ارادته كل ما يشاهده ويسمعه، من العرش والكرسي والسماوات والأرضين، وما فيها وما تحتها وما فوقها، وأنه الخالق والرازق للجميع، والكل في قبضة قدرته مسخر أسير، ومردد بين فضله ورحمته، وبين نقمته وسطوته، وجميع ذلك لا نسبة له إلى عوام المجردات، فالتفكر في أمثال ذلك يوجب استشعار القلب لعظمة المتكلم والكلام. ولمثل هذا التعظيم كان بعضهم إذا نشر المصحف للتلاوة غشي عليه، ويقول: (هو كلام ربي، هو كلام ربي!).

ومنها ـ الخضوع والرقة: قال الصادق عليه السلام: «من قرأ القرآن: ولم يخضع ولم يرق قلبه، ولا ينشيء حزناً ووجلاً في سرّه، فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى، وخسر خسراناً مبيناً، فقاريء القرآن محتاج إلى ثلاثة اشياء: قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خال. فإذا خشع لله قلبه فرّ منه الشيطان الرجيم، قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(١).

(١) النحل، الآية: ٩٨.

فإذا تفرغ نفسه من الأسباب، تجرد قلبه للقراءة، فلا يعرضه عارض فيحرمه بركة نور القرآن وفوائده. فإذا اتخذ مجلساً خالياً، واعتزل عن الخلق بعد أن أتى بالخصلتين: خضوع القلب وفراغ البدن، استأنس روحه وسرّه بالله عز وجل، ووجد حلاوة مخاطبات الله عز وجل عباده الصالحين، وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم، بفنون كراماته، وبدائع اشاراته، فإن شرب كأساً من هذا المشرب حينئذ، لا يختار على ذلك الحال حالاً، ولا على ذلك الوقت وقتاً، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة، لأنّ فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة. فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك، وكيف تجيب أوامره ونواهيه، وكيف تمتثل حدوده:

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(١).

فرتله ترتيلا، وقف عند وعده ووعيده، وتفكر في أمثاله ومواعظه، واحذر أن تقع من إقامتك حروفه في إضاعة حدوده»(٢).

ومنها ـ حضور القلب، وترك حديث النفس، وهو يترتب على التعظيم، فإن من يعظم شيئاً، كلاماً كان أو غيره، يستبشر ويستأنس به، ولا يغفل عنه. ولا ريب في أن القرآن يشتمل على ما يستأنس به القلب، وتفرح به النفس، ان كان التالى أهلاً له.

ومنها ـ التدبر: وهو زائد على حضور القلب، اذ التالى ربما لم يتفكر في غير القرآن، ولكنه اقتصر على سماعه من نفسه، من دون تدبر فيه. والمقصود من تلاوة القرآن التدبر فيه في الباطن، قال الله سبحانه:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٣).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبر

(١) فصلت، الآية: ٤١ـ٤٢.

(٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٤ / ١٤٢.

(٣) محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الآية: ٢٤.

فيها». وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بالترديد، فليردد. ولذلك كان الأكابر كثيراً ما يكررون بعض الآيات مرات كثيرة للتدبر فيها، وربما يقفون عند آية مدة مديدة، وقال بعضهم: «لى في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولى ختمة منذ ثلاثين ما فرغت منها بعدا!»، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه.

ومنها ـ التفهم: وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفاته تعالى، وذكر أفعاله، وذكر الجنة والنار، وأحوال النشأة الآخرة، وذكر أحوال انبيائه، وأحوال المكذبين، وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أحكامه وأوامره ونواهيه وغير ذلك. فإن مرّ بآيات صفاته تعالى، كقوله:

﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾[1]. وكقوله تعالى: ﴿**ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ...**﴾ إلى آخر الآية[2]، وغير ذلك.

فليتأمل في معانى هذه الأسماء والصفات، لتنكشف له أسرارها المكنونة تحتها، ولا تنكشف هذه الأسرار إلا للمؤيدين في فهم كتاب الله. قال أمير المؤمنين: عليه السلام «ما أسرّ الي رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً كتمه عن الناس، إلا أن يؤتى الله عز وجل عبداً فهماً في كتابه». وإن مر بآيات الأفعال، أى الآيات الحاكية عن خلقه السماوات والأرض، وما فيهما من الملائكة والكواكب والجبال والحيوان والنبات، وما بينهما من السحب والغيوم والرياح والأمطار وغير ذلك، فليفهم التالى منها عظمة الله وجلاله. إذ الفعل يدل على الفاعل، فعظمته تدل على عظمته. وينبغى أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل، إذ من عرف الحق رآه في كل شيء، إذ كل شيء منه وبه وإليه وله، فهو الكل في وحده، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، وإن اعتبر

---

(١) الشورى، الآية: ١١.

(٢) الحشر، الآية: ٢٣.

من حيث هو، إذ مع قطع النظر عن الواجب وايجاده، لا ذات ولا وجـود، بـل مـحض العدم وعدم المحض. فذات كل شيء ووجوده وثباته وبقاؤه بالله العلي العظيم. فـإذا قرأ التالي آية تدل على شيء من عـجائب صـنعه وغـرائب فـعله، فـليتأمل فـي تـلك العجائب، ثم يترقى منها إلى أعجب العجائب، وهي الصفة التـي صـدرت مـنها هـذه الأعاجيب. وإذا سمع وصف الجنة والنار وسائر أحوال الآخـرة، فـليتذكر أن مـا فـي هذا العالم من النعم والنقم لا نسبة له إلى ما في عـالم الآخـرة، فـلينتقل مـن ذلك إلى عظمة الله تعالى، وينقطع إليه باطناً، ليخلصه من عـقوبات تـلك النشأة، ويـوصله إلى نعيمها ولذاتها. وإذا سمع أحوال الأنبياء عليهم السلام، من تكذيبهم وضربهم وقتلهم، فليفهم منه صفة الإستغناء لله تعالى مـن الرسـل والمـرسل اليـهم، وأنـه لو أهـلك جـميعهم لا يؤثر في ملكه، وإذا سمع نصرتهم في الأمر، فليفهم قدرة الله وارادته لنصرة الحـق. وأما أحوال المكذبين، وما جرى عليهم من العقوبات وضـروب النكـال، فـليستشعر الخوف من سطوته ونقمته، ويعتبر في نفسه ويعلم أنه غفل وأساء الأدب، واغتر بـما امـهل، فـربما تـدركه النـقمة، وكـذلك إذا سـمع الوعـد والوعـيد والأمـر والتـهديد، فلا يمكن استقصاء ما يفهم من القرآن، لأنه لا نهاية له، إذ (لا رطب ولا يـابس إلا فـي كتاب مبين).

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾[(١)].

ولكل عبد منه بقدر استعداده ومقدار فهمه وصفاء نفسه.

ومنها ـ التخلي عن موانع الفهم: وهـي التـقليد والتـعصب لمـذهب، فـإن ذلك بمنزلة حجاب لمرآة النفس يمنعها عن انعكاس غير مـعتقدها فـيها، والجـمود عـلى تفسير ظاهر، ظاناً أن غيره تفسير بالرأى لا يجوز ارتكابه، وصرف الهـمة والفـهم إلى تحقيق الحروف وما يتعلق بها من الأمور المتداولة بين القراء، فإن قصر التأمـل عـلى ذلك مانع من انكشاف المعاني، والاصرار على الذنـوب الظـاهرة والبـاطنة، ومـتابعة

(١) الكهف، الآية: ١٠٩.

الشهوات المظلمة للقلب الموجبة للحرمان عن انكشاف الاسرار والحقائق فيه، وإشراق المعارف الحقة عليه. قال رسول الله ﷺ: «إذا عظمت امتى الدينار والدرهم، تنزع منها هيبة الاسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف، حرموا بركة الوحى». وقد شرط الله تعالى الإنابة في الفهم والتذكر، قال الله تعالى:

﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(٣).

ومنها ـ التخصيص: وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، من الأمر والنهى والوعد والوعيد، حتى أنه لو سمع قصص الأولين، يجزم بأن المقصود الاعتبار دون مجرد الحكاية والتشمر. فما من قصة في القرآن إلا وسياقها الفائدة في حق النبى وامته، ولذلك قال سبحانه:

﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾(٤).

فإن القرآن جميعه هدى وشفاء ورحمة، ونور وموعظة وبصائر للعالمين. فكل احد إذا قرأه ينبغى أن تكون قراءته كقراءة العبد كتاب مولاه الذي كتب إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه. قال بعض الأكابر: «هذا القرآن رسائل اتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، فتتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات بالسنن المتبعات».

ومنها ـ التأثر: وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال: من الخوف، والحزن، والوجل، والوجد، والفرح، والارتياح، والرجاء، والقبض، والانبساط. فإذا سمع الوعيد، فليضطرب قلبه، ويتضاءل من

---

(١) ق، الآية: ٨.

(٢) المؤمن، الآية: ١٣.

(٣) الرعد، الآية: ١٩. الزمر، الآية: ٩.

(٤) هود، الآية: ١٢٠.

الخوف كأنه يموت، وإن سمع وسعة الرحمة ووعد المغفرة، فليفرح ويستبشر كأنه يطير من الابتهاج، وإذا سمع وصف الجنة، فلينبعث باطنه شوقا إليها، وإذا سمع وصف النار، فلترتعد فرائصه خوفا منها، وإذا سمع صفات الله واسماءه ونعوت جلاله، فليتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعاراً لعظمته وكبريائه، وإذا سمع ذكر الكفار ما يستحيل على الله من اتخاذ الولد وامثاله، فليغض صوته وينكسر في باطنه حياء من قبح مقالتهم... وقس على ذلك غيره من الآيات المختلفة. ومهما تمت المعرفة، كانت الخشية اغلب الأحوال على القلب، اذ التضيق غالب على آيات القرآن، إذ لاترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر الاكثرون عن نيلها، ولذلك كان في الخائفين من يصير مغشياً عليه عند استماع آيات الوعيد، ومنهم من مات بمجرد استماعها. وبالجملة: المقصود الأصلى من القرآن، استجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به، وإلا فالمؤنة بتحريك اللسان بحروفه خفيفة. وحق تلاوة القرآن أن يشترك فيها اللسان والعقل والقلب. فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل إدراك المعانى، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالحالات المذكورة. فاللسان واعظ القلب، والعقل مترجم، والقلب متعظ.

ومنها ـ الترقى: وهو أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله تعالى، لا من نفسه. فدرجات القراءة ثلاث: الأولى: وهي ادناها، أن يقدر العبد أنه يقرؤه على الله تعالى واقفاً بين يديه، وهو ناظر إليه ومستمع منه، فتكون حاله ـ على هذا التقدير ـ التملق والسؤال والتضرع والابتهال. الثانية: أن يشهد بقلبه، كأن ربه يخاطبه بألطافه، ويناجيه باحسانه وإنعامه، فمقامه الهيبة والحياء والتعظيم والإصغاء. الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه وإلى تلاوته، ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه، بل يكون مقصور الهم على التكلم، موقوف الفكر عليه. كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره. وهذه درجة المقربين والصديقين، وما قبله من درجات اصحاب اليمين، وما خرج عن ذلك فهو درجات

الغافلين. وقد اخبر عن الدرجة العليا سيد الشهداء ـ أرواحنا فداه ـ حيث قال عليه السلام: «الذي تجلى لعباده في كتابه، بل في كل شيء، وأراهم نفسه في خطابه، بل في كل نور». وأشار إليها الإمام أبو عبدالله الصادق عليه السلام حيث قال: «والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه! ولكن لا يبصرون». وروى: «أنه لحقته حالة في الصلاة، حتى خر مغشياً عليه، فلما سرى عنه، قيل له في ذلك، فقال عليه السلام: ما زلت أردد الآية على قلبى، حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته». وفي مثل هذه الدرجة تشتد البهجة، وتعظم الحلاوة واللذة. ولذلك قال بعض الحكماء: «كنت اقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأنى أسمعه عن رسول الله صلى الله عليه وآله يتلوه على اصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، فكنت اتلوه كأنى اسمعه من جبرئيل يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وآله، فعندها وجدت لذة ونعيما لا اصبر عنه». وقال حذيفة: «لو طهرت القلوب، لم تشبع من قراءة القرآن». وذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام، بل التوحيد الخالص للعبد، ألا يرى في كل شيء إلا الله، إذ لو رأى غيره، لا من حيث إنه منه وله وبه واليه، كان مشركا بالشرك الخفى.

ومنها ـ التبرى: وهو أن يتبرى من حوله وقوته، ولا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية. فإذا قرأ آيات الوعد ومدح الأخيار، فلا يشهد نفسه ولا يدخلها في زمرتهم، بل يشهد أهل الصدق واليقين، ويتشوق إلى أن يلحقه الله بهم. وإذا قرأ آيات المقت والوعيد، وذم العصاة والمقصرين، شهد نفسه هناك، وقدر أنه المخاطب خوفا واشفاقا. وإلى هذا أشار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال في وصف المتقين: «وإذا مروا بآية فيها تخويف، أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم في آذانهم». فإذا رأى القارىء نفسه بصورة التقصير في القراءة، كانت رؤيته سبب قربه. فإن من شهد البعد في القرب، لطف له بالخوف، حتى يسوقه إلى درجة اخرى في القرب وراءها، ومن شهد القرب في البعد، مكر به بالأمن الذي يفضيه إلى درجة اخرى في البعد أسفل مما هو فيه. ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا، صار

محجوبا بنفسه. فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه، ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته، كشف له سر الملكوت بحسب احواله، فحيث يتلو آيات الرحمة والرجاء، ويغلب على حاله الاستبشار، وتنكشف له صورة الجنة، فيشاهدها كأنه يراها عيانا، وإن غلب عليه الخوف، كوشف بالنار، حتى يرى أنواع عذابها، وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف، والشديد العسوف والمرجو والمخوف، وذلك بحسب أوصافه، إذ منها الرحمة واللطف.

ومنها ـ القهر والبطش والانتقام: فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات ينقلب القلب في اختلاف الحالات، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة، إذ يمتنع أن يكون حال المستمع واحداً والمسموع مختلفاً، إذ فيه كلام راض، وكلام غضبان، وكلام منعم، وكلام منتقم، وكلام جبار متكبر لا يبالي، وكلام منان متعطف لا يهمل.

المقصد الخامس

(الصوم)

اعلم أن الصوم اجره عظيم، وثوابه جسيم، وما يدل على فضله من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى، وهي معروفة مشهورة، فلا حاجة إلى ذكرها، فلنشر إلى ما يتعلق به من الأمور الباطنة:

فصل

(ما ينبغي للصائم)

ينبغي للصائم أن يغض بصره عن كل ما يحرم النظر اليه، أو يكره، أو يشغل القلب ويلهيه عن ذكر الله تعالى، ويحفظ اللسان عن جميع آفاته المتقدمة، ويكف السمع عن كل ما يحرم أو يكره استماعه، ويكف بطنه عن الحرام والشبهات، ويكف

سائر جوارحه عن المكاره. وقد ورد في اشتراط جميع ذلك في الصوم في ترتب كمال الثواب عليه اخبار كثيرة. وينبغي أيضاً ألا يستكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلىء، إذ ما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن مليء من حلال، كيف والسر في شرع الصوم قهر عدوالله، وكسر الشهوة والهوى، لتتقوى النفس على التقوى، وترتقى من حضيض حظوظ النفس البهيمية إلى ذروة التشبيه بالملائكة الروحانية، وكيف يحصل ذلك إذا تدارك الصائم عند الإفطار ما فاته ضحوة نهاره، لا سيما إذا زيد عليه في ألوان الطعام، كما استمرت العادات في هذه الأعصار، وربما يؤكل من الأطعمة في شهر رمضان ما لا يؤكل في عدة شهور. ولا ريب في أن المعدة إذا خليت من ضحوة النهار إلى العشاء، حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها، ثم أطعمت من اللذات، وأشبعت من ألوان المطاعم، وجمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما يأكل ليلا، واكل الجميع في الليل مرة أو مرتين أو أكثر، زادت لذتها، وتضاعفت قوتها، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها، فلا يحصل ما هو المقصود من الصوم، أعنى تضعيف القوى الشهوية التي هي وسائل الشيطان، فلابد من التقليل، وهو ان يأكل في مجموع الليلة أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم، من دون ضم مما يأكل في النهار اليه، حتى ينتفع بصومه. والحاصل: أن روح الصوم وسره، والغرض الأصلى منه: التخلق بخلق من اخلاق الله تعالى، أعنى الصمدية، والإقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بقدر الامكان، وهذا إنما يحصل بتقليل الأكل عما يأكله في غير وقت الصوم، فلا جدوى لمجرد تأخير أكله وجمع أكلتين عند العشاء، ثم لو جعل سر الصوم ما يظهر من بعض الظواهر، من ادراك الأغنياء ألم الجوع والانتقال منه إلى شدة حال الفقراء، فيبعثهم ذلك على مواساتهم بالأموال والأقوات، فهو أيضاً لا يتم بدون التقليل في الأكل.

فصل

(ما ينبغي للصائم عند الافطار)

ينبغي لكل صائم أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطربا، معلقاً بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين، وليكن الحال كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها. روى: «ان الامام أبا محمد الحسن المجتبى عليه السلام مر بقوم يوم العيد، وهم يضحكون، فقال عليه السلام: إن الله تعالى جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه، يستبقون فيه لطاعته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المسارعون، وخاب فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن باحسانه، والمسيء عن إساءته!»، أى كان سرور المقبول يشغله عن اللعب، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك.

فصل

(درجات الصوم)

للصوم ثلاث درجات:

الأولى ـ صوم العموم: وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وهذا لا يفيد أزيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب.

الثانية ـ صوم الخصوص: وهو الكف المذكور، مع كف البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصى، وعلى هذا الصوم تترتب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع.

الثالثة ـ صوم خصوص الخصوص: وهو الكفان المذكوران، مع صوم القلب عن الهمم الدنية، والأخلاق الردية، والأفكار الدنيوية، وكفه عما سواه بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في ما سوى الله واليوم الآخر، وحاصل هذا الصوم إقبال

بكنه الهمة على الله، وانصراف عن غير الله، وتلبس بمعنى قوله تعالى: «قل الله ثم ذرهم»، وهذا درجة الأنبياء والصديقين والمقربين، ويترتب عليه الوصول إلى المشاهدة واللقاء، والفوز بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب احد. والى هذا الصوم أشار مولانا الصادق عليه السلام حيث قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله: الصوم جنة. أي ستر من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة، فإذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات، وقطع الهمة عن خطرات الشياطين، وأنزل نفسك منزلة المرضى، ولا تشتهى طعاماً ولا شرابا وتوقع في كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تعالى: الصوم لى وأنا اجزى به. والصوم يميت مراد النفس وشهوة الطبع، وفيه صفاء القلب، وطهارة الجوارح، وعمارة الظاهر والباطن، والشكر على النعم والاحسان إلى الفقراء، وزيادة التضرع والخشوع والبكاء، وحبل الإلتجاء إلى الله، وسبب انكسار الهمة، وتخفيف الحساب، وتضعيف الحسنات، وفيه من الفوائد، ما لا يحصى ولا يعد، وكفى بما ذكرناه لمن عقله ووفق لاستعماله»[(١)].

تتميم

من صام شهر رمضان إخلاصاً لله وتقربا اليه، وطهر باطنه من ذمائم الأخلاق، وكف ظاهره عن المعاصى والآثام، واجتنب عن الحرام، ولم يأكل إلا الحلال، ولم يفرط في الأكل، وواظب على جملة من النوافل والأدعية وسائر الآداب المسنونة فيه، استحق للمغفرة والخلاص عن عذاب الآخرة، بمقتضى الأخبار المتواترة. ثم إن كان من العوام، حصل له من صفاء النفس ما يوجب استجابة دعوته، وإن كان من أهل

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب: ٢٠، وعلى (المستدرك): ١ / ٥٨٩ ـ ٥٩٠، كتاب الصوم.

المعرفة، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه، فينكشف له شيء من الملكوت، لا سيما في ليلة القدر، إذ هي الليلة التي تنكشف فيها الأسرار، وتفيض على القلوب الطاهرة الأنوار، والمناط والعمدة في نيل ذلك تقليل الأكل بحيث يحس ألم الجوع، إذ من جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام، فهو محجوب عن عوالم الأنوار. ويستحيل أن ينكشف له شيء من الأسرار.

المقصد السادس

(الحج)

اعلم أن الحج أعظم اركان الدين، وعمدة ما يقرب العبد إلى رب العالمين، وهو أهم التكاليف الإلهية واثقلها، وأصعب العبادات البدنية وافضلها، وأعظم بعبادة ينعدم بفقدها الدين، ويساوى تاركها اليهود والنصارى في الخسران المبين. والأخبار التي وردت في فضيلته وفي ذم تاركه كثيرة مذكورة في كتب الأخبار، والأحكام والشرائط الظاهرة له على عهدة الفقهاء، فلنشر إلى الأسرار الخفية، والأعمال الدقيقة، والآداب الباطنة، التي يبحث عنها أرباب القلوب:

فصل

(الغرض من ايجاد الانسان)

إعلم أن الغرض الأصلي من ايجاد الانسان معرفة الله والوصول إلى حبه والانس به، والوصول إليه بالحب والانس يتوقف على صفاء النفس وتجردها. فكلما صارت النفس أصفى وأشد تجرداً، كان انسها وحبها بالله أشد وأكثر. وصفاء النفس وتجردها موقوف على التنزه عن الشهوات، والكف عن اللذات، والإنقطاع عن الحطام الدنيوية، وتحريك الجوارح وإيقاعها لأجله في الأعمال الشاقة، والتجرد لذكره وتوجيه القلب اليه. ولذلك شرعت العبادات المشتملة على هذه الأمور، إذ

بعضها إنفاق المال وبذله، الموجب للانقطاع عن الحطام الدنيه، كالزكاة والخمس والصدقات، وبعضها الكف عن الشهوات واللذات، كالصوم، وبعضها التجرد لذكر الله وتوجيه القلب اليه، وارتكاب تحريك الأعضاء وتعبها، كاالصلاة، والحج من بينها مشتمل على جميع هذه الأمور مع الزيادة، إذ فيه هجران أوطان، وإتعاب ابدان، وانفاق اموال، وانقطاع آمال، وتحمل مشاق، وتجديد ميثاق، وحضور مشاعر، وشهود شعائر، ويتحقق في أعماله التجرد لذكر الله، والاقبال عليه بضروب الطاعات والعبادات، مع كون أعماله اموراً لا تأنس بها النفوس، ولا تهتدى إلى معانيها العقول، كرمى الجمار بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار، إذ بمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية، فإن سائر العبادات اعمال وأفعال يظهر وجهها للعقل، فللنفس إليها ميل، وللطبع بها انس.

وأما بعض أعمال الحج، كرمى الجمار وترددات السعى، فلاحظ للنفس ولا انس للطبع فيها، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون الإقدام عليها إلا لمجرد الأمر وقصد الامتثال له من حيث إنه امر واجب الاتباع، ففيها عزل العقل عن تصرفه، وصرف النفس والطبع عن محل انسه، فإن كل ما ادرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلاً ما، فيكون ذلك الميل معيناً للامتثال فلا يظهر به كمال الرق والانقياد ولذلك قال النبى ﷺ في الحج على الخصوص: «لبيك بحجة حقاً وتعبداً ورقاً!»، ولم يقل ذلك في غيره من العبادات. فمثل هذه العباداة ـ أى ما لم يهتد العقل إلى معناه ووجهه ـ أبلغ انواع العبادات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطبع والبغى إلى الاسترقاق، فتعجب بعض الناس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الجهل باسرار التعبدات، وهذا هو السر في وضع الحج، مع دلالة كل عمل من اعماله على بعض أحوال الآخرة، أو في بعض أسرار أخر ـ كما يأتى ـ ما فيه من اجتماع أهل العالم في موضع تكرر فيه نزول الوحى، وهبوط جبرئيل وغيره من الملائكة المقربين على رسوله المكرم، ومن قبله على خليله المعظم ـ عليهما أفضل الصلاة ـ، بل لا يزال

مرجعاً ومنزلا لجميع الأنبياء، من آدم إلى خاتم، ومهبطاً للوحى، ومحلا لنزول طوائف الملائكة. وقد تولد فيه سيد الرسل ﷺ وتوطأت أكثر مواضعه قدمه الشريفة وأقدام سائر الأنبياء، ولذلك سمى بـ(البيت العتيق)، وقد شرفه الله تعالى بالاضافة إلى نفسه، ونصبه مقصداً لعباده، وجعل ما حواليه حرما لبيته، وتفخيما لأمره، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وقطع شجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك، فقصده الزوار من كل فج عميق، ومن كل أوب سحيق، شعثاء غبراء، متواضعين لرب البيت، ومستكنين له، خضوعا لجلاله، واستكانة لعزته وعظمته، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يحومه بيت أو يكتنفه بلد.

ولا ريب في أن الاجتماع في مثل هذا الموضع، مع ما فيه من حصول المؤالفة والمصاحبة، ومجاورة الأبدال والاوتاد والأخيار المجتمعين من أقطار البلاد، وتظاهر الهمم، وتعاون النفوس على التضرع والابتهال والدعاء الموجب لسرعة الاجابة، بذكر النبى ﷺ واجلاله، ونزول الوحى عليه، وغاية سعيه واهتمامه في إعلاء كلمة الله ونشر احكام دينه، فتحصل الرقة للقلب، والصفاء للنفس. ثم لكون الحج أعظم التكليفات لهذه الأمة، جعل بمنزلة الرهبانية في الملل السالفة، فان الامم الماضية إذا أرادوا العمل لأصعب التكاليف واشقها على النفس، انفردوا عن الخلق، وانحازوا إلى قلل الجبال، وآثروا التوحش عن الخلق بطلب الانس بالله، والتجرد له في جميع الحركات والسكنات، فتركوا اللذات الحاضرة، وألزموا انفسهم الرياضات الشاقة، طمعاً في الآخرة، وقد اثنى الله عليهم في كتابه، وقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1]. وقال تعالى: **﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾**[2].

---

(١) المائدة، الآية: ٨٢.

(٢) الحديد، الآية: ٢٧.

ولما اندرس ذلك، واقبل الخلق على اتباع الشهوات، وهجروا التجرد لعبادة الله تعالى وفروا عنها، بعث الله تعالى من سرة البطحا محمداً ﷺ، لإحياء طريق الآخرة، وتجديد سنة المرسلين في سلوكها، فسأله أهل الملل من الرهبانية والسياحة في دينه، فقال ﷺ: «ابدلنا بالرهبانية الجهاد، والتكبير على كل شرف ـ يعنى الحج ـ، وابدلنا بالسياحة الصوم». فانعم الله على هذه الأمة، بأن جعل الحج رهبانية لهم، فهو بازاء اعظم التكاليف والطاعات في الملل السابقة.

فصل
(ما ينبغي في الحاج)

ينبغي للحاج، عند توجهه إلى الحج، مراعات امور:

الأول ـ أن يجرّد نيته لله، بحيث لا يشوبها شيء من الأغراض الدنيوية، ولا يكون باعثه على التوجه إلى الحج إلّا امتثال أمر الله، ونيل ثوابه، والإستخلاص من عذابه، فليحذر كل الحذر أن يكون له باعث آخر، مكنون في بعض زوايا قلبه، كالرياء والحذر عن ذم الناس وتفسيقهم لولا يحج، أو الخوف من الفقر وتلف أمواله لو ترك الحج، لما اشتهر من أن (تارك الحج يبتلى بالفقر والإدبار)، أو قصد التجارة أو شغل آخر، فإن كل ذلك يخرج العمل من الإخلاص، ويحجبه عن الفائدة وترتب الثواب الموعود، وما أجهل من تحمل الأعمال الشاقة التي يمكن أن تحصل بها سعادة الأبد، لأجل خيالات فاسدة لا يترتب عليها سوى الخسران فائدة، فيجتهد كل الجهد أن يجعل عزمه خالصاً لوجه الله، بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة، ويتيقن أنه لا يقبل من قصده وعمله إلاّ الخالص، وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمه والمقصود غيره، فليصحح في نفسه العزم، وتصحيحه بإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة.

الثاني ـ أن يتوب إلى الله تعالى توبة خالصة، ويردّ المظالم، ويقطع علاقة قلبه

عن الإلتفات إلى ما وراءه، ليكون متوجهاً إلى الله بوجه قلبه، ويقدر أنه لا يعود، وليكتب وصيته لأهله وأولاده، ويتهيأ لسفر الآخرة فإن ذلك بين يديه على قرب، وما تقدمه من هذا السفر تهيئة لأسباب ذلك السفر، فهو المستقر وإليه المصير. فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك عند الاستعداد لهذا، فليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة.

الثالث ـ أن يعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت، ويعلم أنه ترك الأهل والأوطان، وفارق الأحبة والبلدان، للعزم على أمر رفيع شأنه، خطير أمره: اعني زيارة بيت الله الذي جعل مثابة للناس، فسفره هذا لا يضاهى أسفار الدنيا. فليحضر في قلبه ماذا يريد، وأين يتوجه، وزيارة من يقصد، وأنه متوجه إلى زيارة ملك الملوك في زمرة الزائرين اليه، الذين نودوا فأجابوا، وشوقوا فاشتاقوا، ودعوا فقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق، وأقبلوا على بيت الله الرفيع قدره والعظيم شأنه تسلياً بلقاء البيت عن لقاء صاحبه، إلى أن يرزقوا منتهى مناهم، ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم، فليحضر في قلبه عظم السفر، وعظمة البيت، وجلالة رب البيت، ويخرج معظماً لهما، ناوياً إن لم يصل وادركته المنية في الطريق لقى الله وافداً إليه بمقتضى وعده.

الرابع ـ أن يخلى نفسه عن كل ما يشغل القلب، ويفرق الهم في الطريق، أو المقصود، من معاملة أو مثلها، حتى يكون الهم مجرداً لله، والقلب مطمئناً منصرفاً إلى ذكر الله وتعظيم شعائره، متذكراً عند كل حركة وسكون أمراً اخروياً يناسبه.

الخامس ـ أن يكون زاده حلالاً، ويوسع فيه ويطيبه، ولا يغتم ببذله وإنفاقه، بل كان طيب النفس به، إذ انفاق المال في طريق الحج نفقة في سبيل الله، والدرهم منه بسبعمائة درهم، قال رسول الله ﷺ: «من شرف الرجل أن يطيب زاده إذا خرج في سفر». وكان السجاد عليه السلام إذا سافر إلى الحج، يتزود من أطيب الزاد، من اللوز والسكر والسويق المحمض والمحلى. وقال الصادق عليه السلام: «إذا سافرتم، فاتخذوا سفرة وتنوقوا فيها». وفي رواية: «أنه يكره ذلك في زيارة الحسين عليه السلام». نعم ينبغي أن يكون الإنفاق

على الأقتصاد من دون تقتير ولا إسراف، والمراد بالإسراف التنعم بـاطائب الأطـعمة، والترفه بصرف أنواعها على ما هو عادة المترفين، وأما كثرة البذل عـلى المسـتحقين، فلا إسراف فيه، إذ لا خير في السرف، ولا سرف في الخير. وينبغي ـ ايـضاً ـ أن يكـون له طيب النفس فيما أصابه من خسران ومصيبة فـي مـال وبـدن، لأن ذلك مـن دلائـل قبول حجه، فإن ذهاب المال في طريق الحج يعد الدرهم منه سبعمائة في سـبيل الله، فالمصيبة في طريق الحج بمثابة الشدائد في طـريق الجـهاد، فـله بكـل أذى احـتمله وخسران أصابه ثواب، فلا يضيع منه شيء عند الله.

السادس ـ أن يحسن خلقه، ويطيب كلامه، ويكثر تواضعه ويجتنب سوء الخلق والغلظة في الكلام، والرفث والفسوق والجدال، والرفث اسم جامع لكل فحش ولغو وخنى، والفسوق اسم جامع لكل خروج عـن طـاعة الله، والجـدال هـو المـبالغة فـي الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن، ويفرق الهـم ويـناقض حسـن الخـلق. قـال رسول الله ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»، فـقيل يـا رسـول الله، مـا بـر الحج؟ قال: «طيب الكلام وإطعام الطعام». فلا ينبغي أن يكون كـثير الإعـتراض عـلى رفيقه وجـماله، وعـلى غـيرهما مـن اصـحابه، بـل يـلين جـانبه، ويـخفض جـناحه للسائرين إلى بيت الله، ويلزم حسن الخلق، وليس حسن الخلق مجرد كف الأذى، بل احتمال الأذى، وقيل: سمي السفر سفراً، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

السـابع ـ أن يكـون أشـعث أغـبر، غـير مـتزين ولا مـائل إلى اسـباب التـفاخر والتكاثر، فيكتب في المتكبرين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين، ويمشى إن قدر، خصوصاً بين المشاعر. وفـي الخـبر: «مـا عـبد الله بشـيء أفـضل مـن المشـى». وينبغي ألا يكون الباعث للمشى تقليل النفقة، بل التعب والرياضة في سـبيل الله، ولو كان القصد تقليل النفقة مع اليسار، فالركوب أفضل. وكذا الركوب أفضل لمن ضعف بالمشى، وساء خلقه، وقصر في العـمل، فـفى الخـبر: «تـركبون أحب إلي، فـإن ذلك أقوى على الدعاء والعبادة». وكان الحسن بن على عليه السلام يمشى وتساق مـعه المـحامل

والرحال. وإذا حضرت الراحلة ليركبها، فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخيره له الدواب، لتتحمل عنه الأذى، وتخفف عنه المشقة. وينبغي أن يرفق بها، فلا يحملها ما لا تطيق.

فصل
(الميقات)

إذا خرج عن وطنه، ودخل إلى البادية، متوجهاً إلى الميقات، وشاهد العقبات، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة، وما بينهما من الاهوال والمطالبات، وليتذكر من هول قطاع الطريق هول منكر ونكير، ومن سباع البوادى وحياتها وعقاربها حيات القبر وأفاعيها وعقاربها وديدانها، ومن إنفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر ووحدته وكربته، وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوداً لمخاوف القبر.

فصل
(ما ينبغي في الميقات)

إذا دخل الميقات، ولبس ثوبى الإحرام، فليتذكر عند لبسهما لبس الكفن ولفه فيه، وأنه سيلقى الله ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة، فكما لا يلقى بيت الله إلا بهيئة وزى يخالف عادته، فكذلك لا يلقى الله بعد الموت إلا في زى يخالف زى الدنيا، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب، إذ ليس مخيطاً، كما أن الكفن أيضاً ليس مخيطاً. وإذا أحرم وتلبى، فليعلم أن الإحرام والتلبية اجابة نداء الله، فليرج أن يكون مقبولاً، وليخش أن يكون مردوداً، فيقال: لا لبيك ولا سعديك! فليكن بين الخوف والرجاء متردداً، وعن حوله وقوته متبرأ، وعلى فضل الله وكرمه متكلاً. فان وقت التلبية هو بداية الأمر، وهو محل الخطر. وقد روى: «أن على بن الحسين عليه السلام لما أحرم،

واستوت به راحلته، اصفر لونه وانتفض، ووقعت عليه الرعدة، ولم يستطع أن يلبي. فقيل له: لم لا تلبي؟ فقال: أخشى ان يقول ربي: لا لبيك ولا سعديك! فلما لبى غشي عليه وسقط من راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه». فليتذكر الملبي عند رفع الأصوات في الميقات خائفاً راجياً، أنه إجابة لنداء الله تعالى، إذ قال تعالى:

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾[١].

ويتذكر من هذا النداء نداء الخلق بنفخ الصور، وحشرهم من القبور، وازدحامهم في عرصات القيامة لنداء الله، ومنقسمين إلى مقربين ومبعدين، ومقبولين ومردودين، ومرددين في اول الأمر بين الخوف والرجاء، مثل تردد الحاج في الميقات، حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا.

فصل
(ما ينبغي عند دخول مكة)

ينبغي أن يتذكر عند دخول مكة: أنه قد انتهى إلى حرم من دخله كان آمناً، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله، وليضطرب قلبه من ألا يكون أهلاً للقرب والقبول، فيكون بدخول الحرم خائباً مستحقاً للمقت، وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالباً، إذ شرف البيت عظيم، ورب البيت كريم، والرحمة واسعة، والفيوضات نازلة، وحق الزائر منظور، واللائذ المستجير غير مردود. وإذا وقع البصر على البيت، فليحضر في قلبه عظمته، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه، وليرج أن يرزقه لقاءه كما رزقه لقاء بيته، وليشكر الله على تبليغه اياه إلى بيته، والحاقه إياه بزمرة الوافدين اليه، ويتذكر عند ذلك ايصاب الخلائق إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة، ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين عنها، إنقسام الحاج

(١) الحج الآية: ٢٧.

إلى مقبولين ومردودين.

فصل
(ما ينبغي عند الطواف)

وينبغي عند الطواف أن يمتلىء قلبه من التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، ويعلم إنه في الطواف متشبه بالملائكة المقربين الطائفين حول العرش، وليعلم إن المقصود طواف قلبه بذكر رب البيت، دون مجرد طواف جسمه بالبيت، فليبتدىء الذكر به ويختم به، كما يبتدأ الطواف من البيت ويختم بالبيت. فروح الطواف وحقيقته هو طواف القلب بحضرة الربوبية، والبيت مثال ظاهر في عالم الشهادة لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر، وهو عالم الغيب وعالم الملك والشهادة، مدرجة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب. وما ورد من ان البيت المعمور في السماوات بازاء الكعبة، وان طواف الملائكة بها كطواف الإنس بهذا البيت، ربما كان اشارة إلى ما ذكرناه من المماثلة، ولما قصرت رتبة الأكثرين عن مثل ذلك الطواف، أمروا بالتشبه بهم بقدر الامكان، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم.

فصل
(ما ينبغي عند إستلام الحجر)

ينبغي أن يتذكر عند استلام الحجر الأسود، أنه بمنزلة يمين الله في أرضه، وفيه مواثيق العباد. قال رسول الله ﷺ: «استلموا الركن، فإنه يمين الله في خلقه، يصافح بها خلقه مصافحة العبد أو الدخيل، ويشهد لمن استلمه بالموافاة»، ومراده ﷺ بالركن: الحجر الأسود، لأنه موضوع فيه، وإنما شبه باليمين، لأنه واسطة بين الله وبين عباده في النيل والوصول والتحبب والرضا، كاليمين حين التصافح. وقال الصادق عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى لما أخذ مواثيق العباد، أمر الحجر فالقمها، فلذلك

يقال: أمانتى اديتها، وميثاقى عاهدته، لتشهد لى بالموافاة». وقال عليه السلام: «الركن اليمانى باب من أبواب الجنة، لم يغلقه الله منذ فتحه». وقال عليه السلام: «الركن اليمانى بابنا الذي يدخل منه الجنة، وفيه نهر من الجنة تلقى فيه أعمال العباد»، قيل: إنما شبه بباب الجنة، لأن إستلامه وسيلة إلى وصولها، وبالنهر، لأنه تغسل به الذنوب. ثم لتكن النية في الاستلام والإلتصاق بالمستجار، بل المماسة لكل جزء من البيت، طلب القرب حباً وشوقاً للبيت ولرب البيت، وتمسكا وتبركاً بالمماسة، ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء لا في البيت، ولتكن نيته في التعلق بأستار البيت الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان، كالمقصر المتعلق بثياب من قصر في حقه، المتضرع إليه في عفوه عنه، المظهر له أنه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا مفزع إلا عفوه وكرمه، وأنه لا يفارق ذيله حتى يعفو عنه، ويعطيه الأمان في المستقبل.

فصل

(السعى)

السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت، يضاهى تردد العبد بفناء دار الملك، جائياً وذاهباً مرة بعد اخرى، إظهاراً للخلوص في الخدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك وخرج، وهو لا يدرى ما الذي يقضى به الملك في حقه من قبول أو رد، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد اخرى، يرجو أن يرحمه في الثانية إن لم يرحمه في الأولى، وليتذكر عند التردد بين الكفتين، ناظراً إلى الرجحان والنقصان، مردداً بين العذاب والغفران.

فصل

(ما ينبغى عند الوقوف بعرفات)

وأما الوقوف بعرفات، فليتذكر بما يرى من إزدحام الخلق، وارتفاع الأصوات،

واختلاف اللغات، واتباع الفرق ائمتهم في التردد على المشاعر: عرصات يوم القيامة وأهوالها، وانتشار الخلائق فيها حيارى، واجتماع الامم مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كل امة نبيهم، وطمعهم في شفاعته لهم، وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول. وإذا تذكر ذلك، فليتضرع إلى الله تعالى ويبتهل اليه، ليقبل حجه ويحشره في زمرة الفائزين المرحومين. وينبغي أن يحقق رجاءه، إذ اليوم شريف والموقف عظيم، والنفوس من أقطار الأرض فيه مجتمعة، والقلوب إلى الله سبحانه منقطعة، والهمم على الدعاء والسؤال متظاهرة، وبواطن العباد على التضرع والابتهال متعاونة، وايديهم إلى حضرة الربوبية مرتفعة، وابصارهم إلى باب فيضه شاخصة، وأعناقهم إلى عظيم لطفه وبره ممتدة، ولا يمكن أن يخلو الموقف عن الأخيار والصالحين، وأرباب القلوب والمتقين، بل الظاهر حضور طبقات الأبدال وأوتاد الأرض فيه، فلا تستبعدون أن تصل الرحمة من ذى الجلال بواسطة القلوب العزيزة، والنفوس القادسة الشريفة، إلى كافة الخليقة، ولا تظنن أنه يخيب آمال الجميع، ويضيع سعيهم، ولا يرحم غربتهم وانقطاعهم عن الأهل والأوطان، فإن بحر الرحمة أوسع من أن يضن به في مثل هذه الحالة، ولذا ورد: أنه من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله لم يغفر له.

فصل
(المشعر)

وإذا فاض من عرفات ودخل المشعر، فليتذكر عند دخوله فيه: أن الله سبحانه قد أذن له في دخول حرمه بعد أن كان خارجا عنه، إذ المشعر من جملة الحرم، وعرفات خارجة عنه، فليتفاءل من دخول الحرم بعد خروجه عنه، بأن الله سبحانه قربه إليه وكساه خلع القبول، وأجاره وآمنه من العذاب والبعد، وجعله من أهل الجنة والقرب.

فصل

(ما ينبغي عند الرمي والذبح)

وإذا ورد منى، وتوجه إلى رمي الجمار، فليقصد به الانقياد والامتثال، اظهاراً للرق والعبودية، وتشبيهاً بالخليل الجليل عليه السلام، حيث عرض له ابليس اللعين في هذا الموضع ليفسد حجه، فامره الله تعالى أن يرمه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأصله. وينبغي أن يقصد أنه يرمي الحصا إلى وجه الشيطان، ويقصم به ظهره، ويرغم به أنفه، إذ امتثال أمر الله تعالى تعظيما له يقصم ظهر اللعين ويرغم أنفه. وإذا ذبح الهدي، فليستحضر أن الذبح اشارة إلى أنه بسبب الحج قد غلب على الشيطان والنفس الأمارة وقتلهما، وبذلك استحق الرحمة والغفران، ولذا ورد: أنه يعتق بكل جزء من الهدي جزء منه النار. فليجتهد في التوبة والرجوع عما كان عليه قبل ذلك من الاعمال القبيحة، حتى يصير حاله أحسن من سابقه، ليصدق عليه إذلاله الشيطان والنفس الأمارة في الجملة، ولا يكون في عمله من الكاذبين. ولذلك ورد: أن علامة قبول الحج: أن يصير حاله بعد الحج أحسن مما كان عليه قبله. وفي الخبر: أن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصي، وأن يستبدل باخوانه البطالين اخوانا صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة.

تتميم

(أسرار الحج)

قد ورد عن مولانا الصادق عليه السلام خبر يتضمن عمدة أسرار الحج ودقائقه، فلنذكره تيمناً بكلماته الشريفة:

قال عليه السلام: «إذا أردت الحج، فجرد قلبك لله عز وجل، من قبل عزمك، من كل شغل شاغل وحجب كل حاجب، وفوض امورك كلها إلى خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلم لقضائه وحكمه وقدره، وودع الدنيا

والراحة والخلق، واخرج من حقوق يلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك واصحابك وقوتك وشبابك ومالك، مخافة أن يصير ذلك عدواً ووبالاً، فإن من ادعى رضا الله، واعتمد على شيء ما سواه، صيره عليه عدواً ووبالاً، ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة ولا لأحد إلا بعصمة الله تعالى وتوفيقه، واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع، وأحسن الصحبة، وراع أوقات فرائض الله تعالى وسنن نبيه ﷺ، وما يجب عليك من الأدب، والاحتمال، والصبر، والشكر، والشفقة، والسخاوة، وإيثار الزاد على دوام الأوقات، ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع، واحرم من كل شيء يمنعك عن ذكر الله عز وجل ويحجبك عن طاعته، ولب بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية لله عز وجل في دعوتك له، متمسكا بالعروة الوثقى، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت. وهرول هرولة فراً من هواك، وتبرأ من جميع حولك وقوتك، واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك إلى منى، ولا تتضمن ما لا يحل لك ولا تستحقه، واعترف بالخطأ بالعرفات، وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته، وتقرب اليه، واتقه بمزدلفة، واصعد بروحك إلى الملأ الأعلى بصعودك على الجبل، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمى الجمرات، وأحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك، وأدخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخول الحرم، وزر البيت متحققاً لتعظيم صاحبه ومعرفته وجلاله، واستلم الحجر رضى بقسمته وخضوعا لعظمته، وودع ما سواه بطواف الوداع، وصفّ روحك وسرك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفا، وكن ذا مرة من الله بفناء أوصافك عند المروة، واستقم على شروط حجتك، ووفاء عهدك الذي عاهدت ربك، واوجبت له إلى يوم القيامة، واعلم بان الله لم يفترض الحج، ولم يخصه من جميع الطاعات بالأضافة إلى نفسه بقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[(١)].

ولا شرع نبيه ﷺ سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه، إلا للاستعداد والاشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة، وفضل بيان السبق من دخول الجنة أهلها ودخول النار أهلها، بمشاهدة مناسك الحج من أولها إلى آخرها، لاولى الألباب واولى النهى»[(٢)].

خاتمة

(زيارة المشاهد)

في الاشارة إلى بعض الامور الباطنة المتعلقة بزيارة المشاهد.

اعلم ان النفوس القوية القدسية، لا سيما نفوس الأنبياء والأئمة عليهم السلام، إذا نفضوا أبدانهم الشريفة، وتجردوا عنها، وصعدوا إلى عالم التجرد، وكانوا في غاية الإحاطة والاستيلاء على هذا العالم، فامور هذا العالم عندهم ظاهرة منكشفة، ولهم القوة والتمكن على التأثير والتصرف في مواد هذا العالم، فكل من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه، لا سيما ومقابرهم مشاهد أرواحهم المقدسة العلية، ومحال حضور اشباحهم البرزخية النورية، فإنهم هناك يشهدون:

﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[(٣)].

وبما آتاهم الله من فضله فرحون، فلهم تمام العلم والاطلاع بزائرى قبورهم، وحاضرى مراقدهم، وما يصدر عنهم من السؤال والتوسل والاستشفاع والتضرع، فتهب عليهم نسمات ألطافهم، وتفيض عليهم من رشحات أنوارهم، ويشفعون إلى الله في قضاء حوائجهم، وإنجاح مقاصدهم، وغفران ذنوبهم، وكشف كروبهم. فهذا

---

(١) آل عمران، الآية: ٩٧.

(٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٢١.

(٣) آل عمران، الآية: ١٦٩.

هو السر في تأكد استحباب زيارة النبى والأئمة عليهم السلام، مع ما فيه من صلتهم وبرهم واجابتهم، وإدخال السرور عليهم، وتجدد عهد ولايتهم، وإحياء امرهم، وإعلاء كلمتهم، وتنكيت أعدائهم. وكل واحد من هذه الأمور مما لا يخفى عظيم أجره وجزيل ثوابه. وكيف لا تكون زيارتهم أقرب القربات، وأشرف الطاعات، مع أن زيارة المؤمن ـ من جهة كونه مؤمناً فحسب ـ عظيم الأجر جزيل الثواب، وقد ورد به الحث والتوكيد والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة، ولذلك كثر تردد الأحياء إلى قبور أمواتهم للزيارة، وتعارف ذلك بينهم، حتى صارت لهم سنة طبيعية، وأيضاً قد ثبت وتقرر جلالة قدر المؤمن عند الله، وثواب صلته وبره وادخال السرور عليه. وإذا كان الحال في المؤمن من حيث إنه مؤمن، فما ظنك بمن عصمه الله من الخطأ، وطهره من الرجس، وبعثه الله إلى الخلائق أجمعين، وجعله حجة على العالمين، وارتضاه إماماً للمؤمنين، وقدوة للمسلمين، ولأجله خلق السماوات والأرضين، وجعله صراطه وسبيله، وعينه ودليله، وبابه الذي يؤتى منه، ونوره الذي يستضاء به، وأمينه على بلاده، وحبله المتصل بينه وبين عباده، من رسل وأنبياء وأئمة واولياء.

ثم، الأخبار الواردة في فضيلة زيارة النبى والأئمة عليهم السلام مما لا تحصى كثرة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من زار قبرى بعد موتى، كان كمن هاجر إلي في حياتى، فإن لم تستطيعوا فابعثوا إلي بالسلام، فإنه يبلغنى». وقال صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا أبا الحسن، إن الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعا من بقاع الجنة، وعرصة من عرصاتها، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه، وصفوة من عباده، تحن اليكم، وتحتمل المذلة والأذى فيكم، فيعمرون قبوركم، ويكثرون زيارتها، تقربا منهم إلى الله، ومودة منهم لرسوله، أولئك يا على المخصوصون بشفاعتى، والواردون حوضى، وهم زوارى وجيرانى غداً في الجنة. يا على، من عمر قبورهم وتعاهدها، فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس، ومن زار قبوركم عدل ذلك سبعين حجة بعد حجة الاسلام، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم

ولدته امه. فابشر، وبشر أولياءك ومحبيك من النعيم وقرة العين، بما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم، كما تعير الزانية بزناها، اولئك شرار امتى، لا تنالهم شفاعتى، ولا يردون حوضى»[١]. وقال الصادق عليه السلام: «لو أن احدكم حج دهره، ثم لم يزر الحسين بن على عليهما السلام، لكان تاركا حقاً من حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله، لأن حق الحسين عليه السلام فريضة من الله واجبة على كل مسلم». وقال الرضا عليه السلام: «إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الاداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم، وتصديقاً بما رغبوا فيه، كان ائمته شفعاءه يوم القيامة». والأخبار في فضل زيارة النبى والأئمة المعصومين، لا سيما زيارة سيد الشهداء وأبي الحسن الرضا ـ عليهم أفضل التحية والثناء ـ، وفضل زيارتهما على الحج والعمرة والجهاد، اكثر من أن تحصى، وهي مذكورة في كتب المزار لاصحابنا، فلا حاجة إلى ايرادها هنا.

فصل

(ما ينبغى للزائر عند دخول المدينة المنورة)

وإذا عرفت فضل زيارتهم وسرها، وعظم قدرهم وجلالة شأنهم، فينبغى أن تكثر التواضع والتخضع والانكسار عند الدخول في بلادهم، ومراقدهم المنورة، ومشاهدهم المكرمة، وتستحضر في قلبك عظمتهم وجلالهم، وتعرف عظيم حقهم، وغاية جدهم وسعيهم في ارشاد الناس وإعلاء كلمة الله.

فإذا قربت المدينة المنورة، ووقع بصرك على حيطانها، تذكر أنها البلدة التي إختارها الله لنبيه صلى الله عليه وآله، وجعل إليها هجرته، وأنها البلدة التي فيها شرع فرائض ربه

---

(١) صححنا الحديث على (مستدرك الوسائل): ٢ / ١٩٥ ـ ١٩٦، كتاب الحج، ١٠، أبواب المزار وما يناسبه.

وسننه، وجاهد عدوه، وأظهر بها دينه، ولم يزل قاطناً بها إلى أن توفاه الله، وجعل تربته فيها.

ثم مثل في نفسك أقدام رسول الله ﷺ عند ترداداتك فيها، وتذكر أنه ما من موضع قدم تطأه إلا وهو موضع قدمه العزيز، فلا تضع قدمك عليه إلا على سكينة ووجل، وكن متذكراً لمشيه وتخطيه في سككها، وتصور سكينته ووقاره، وخشوعه وتواضعه لعظمة ربه، وما استودع الله في قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره، حتى قرنه بذكر نفسه، وأنزل عليه كلامه العزيز، وأهبط عليه روح الأمين وسائر ملائكته المقربين، وأحبط عمل من هتك حرمته، ولو برفع صوته فوق صوته. ثم تذكر ما منّ الله به على الذين ادركوا صحبته، وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه، وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته، وتضرع إلى الله ألا تفوتك صحبته في الآخرة، ولتعظم رجاءك في ذلك، بعد أن رزقك الله الايمان، وأشخصك من أرضك لأجل زيارته، محبة له، وتشوقا اليه.

ثم إذا دخلت مسجده، فتذكر أن أول موضع اقيمت فيه فرائض الله تلك العرصة، وأنها تضمنت أفضل خلق الله حياً وميتاً، فارج الله غاية الرجاء أن يرحمك بدخولك اياه خاشعاً معظماً، وما أجدر ذلك المكان بأن يستدعى الخصوع من قلب كل مؤمن.

ثم إذا أتيته للزيارة فينبغى ان تقف بين يديه خاضعاً خاشعاً خائفاً، وتزوره ميتاً كما تزوره حياً، ولا تقرب من قبره إلا كما تقرب من شخصه الكريم لو كان حياً، إذ لا فرق بين ميته وحيه، ولو وجدت التفرقة في قلبك لما كنت مؤمناً، ولتعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك، وأنه يبلغه سلامك وصلواتك. فمثل صورته الكريمة في خيالك، جالساً على سرير العظمة بحذائك، وأحضر عظيم رتبته في قلبك، وقد ورد: أن الله تعالى وكل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من امته. وهذا في حق من لم يحضر قبره، فكيف بمن فارق الأهل والوطن، وقطع البوادى شوقا إلى لقائة،

واكتفى وقنع بمشاهدة مشهده المنور، إذ فاتته مشاهدة طلعته البهية، وغرته الكريمة. وقد قال ﷺ: «من صلى عليَّ مرة، صليت عليه عشراً». فهذا جزاؤه عليه في الصلاة عليه بلسانه، فكيف بالحضور لزيارته ببدنه؟

وإذا فرغت من زيارته، فأت المنبر وامسحه بيدك، وخذ برمانتيه، وامسح بهما وجهك وعينيك، وتضرع إلى الله، وابتهل اليه، واسأل حاجتك. وتوهم صعود النبي ﷺ المنبر، ومثل في قلبك طلعته البهية، قائماً على المنبر، وقد أحدق به المسلمون من المهاجرين والأنصار، وهو يحمد الله بافصح الكلمات واللغات، ويحث الناس على طاعة الله. واسأل الله ألا يفرق في القيامة بينه وبينك، ويجعلك في جواره، ويعطيك منزلا في قرب داره.

فصل

(ما ينبغى للزائر عند دخول النجف وكربلاء)

وإذا دخلت أرض النجف لزيارة أمير المؤمنين وسيد الوصيين عليه السلام، تذكر أنها وادى السلام، ومجمع أرواح المؤمنين، وقد شرفها الله وجعلها أشرف البقاع، وجنة المؤمنين. فما من مؤمن خالص إلا وبعد الموت يأتى روحه إليها، ويتنعم فيها مع سائر المؤمنين، إلى أن يدخلوا دار كرامته العظمى في القيامة الكبرى. وقد أكد شرافتها وعظم قدرها، بأن جعلها مدفن وصى رسوله، بعد أن كانت مدفن آدم أبي البشر، ونوح شيخ المرسلين عليهما السلام. فاسأل الله أن يأتى بروحك إليها، ويدخلك في زمرة المؤمنين، ويجعلها محل دفنك، لتنال شفاعة مولاك عليه السلام، ولا يحشرك مع الكفار والعصاة في وادى برهوت.

وإذا أتيت لزيارته، تذكر عظيم مرتبته عند الله وعند رسوله، وراع الآداب التي ذكرناها في زيارة رسول الله ﷺ.

وإذا أردت أرض كربلاء، لزيارة سيد الشهداء عليه السلام، فتذكر أن هذه الأرض هي

التي قتل فيها سبط الرسول وأولاده وأقاربه واجناده، وأسرت فيها أهاليه وأهل بيته، فجدد الحزن على قلبك، وادخلها أشعث اغبر، منكسر الحال، محزون القلب، كئيباً حزيناً باكياً، وأحضر في قلبك حرمة هذه الأرض وشرافتها، فإنها الأرض التي في تربتها الشفاء، ولا يرد فيها الدعاء، وقد يجعلها الله يوم القيامة أرفع بقاع الجنة، فتردد فيها على سكينة ووجل.

ثم إذا دخلت الحائر للزيارة، ووقع بصرك على ضريحه المنور، ثم على ضريح اصحابه المستشهدين معه، المجتمعين في موضع واحد في جواره، فمثل في قلبك اشخاصهم، وتذكر وقائعهم وما جرى عليهم من البلايا والمحن، واحضر في نفسك أبا عبدالله الحسين عليه السلام واقعاً في عرصة كربلاء. ويأتي أصحابه واحداً واحداً يستأذن منه للجهاد، قائلا: السلام عليك يا أبا عبدالله! وهو يأذن له، ويلقى نفسه في الميدان على الجم الغفير، فيقتل في سبيله، وإذا أيس من حياته، ينادى بأعلى صوته: ادركني يا أبا عبدالله! وهو عليه السلام يسرع إليه كالصقر المنقض، ويأخذ جثته من الميدان، ويلحقه بسائر اخوانه الشهداء. فمثل في نفسك أمثال ذلك، وجدد عليهم الحزن والبكاء، وتمن كونك معهم في تلك العرصة، وقل: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما!

ثم راع الآداب الباطنة لزيارته عليه السلام، وقس على ذلك زيارة كل واحد من الأئمة عليهم السلام، فإنه ينبغي لك أن تستحضر، عند حضورك كل واحد منهم، جلالة شأنه، وعظمة قدره، وعظيم حقه، وتتذكر ما يناسب حاله، وما جرى عليه، ثم تستشعر في قلبك ما يترتب عليه، من التعظيم، والإجلال، والخوف، والحزن، والفرح، وامثال ذلك.

* * *

هذا آخر كتاب (جامع السعادات)، والحمدلله على إتمامه، واسأل الله ان يجعلنا من العاملين به، وينفع به جميع عباده السالكين اليه. وقد وقع الفراغ من جمعه وتأليفه، في سلخ شهر ذى القعدة الحرام سنة ست وتسعين ومائة بعد الألف

من الهجرة النبوية، على مهاجرها الف الف سلام وتحية.

* * *

هذا آخر ماكتبه المصنف (قدس سره)

فهرس الجزء الثانى من (جامع السعادات)

المقام الرابع